

تأريخ المغرب والأندلس

دكتور
عصام الدين عبد الرحمن الفقيه
أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية التربية - جامعة القاهرة

الناشر
مكتبة تهضيـة الشـرق
جامعة القاهرة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

تقديم المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على محمد أفضله المرسلين

وبعد :

يتضمن هذا الكتاب مجموعة محاضرات ألقيتها على طلابي في عدة جامعات في مصر وخارج مصر عن تاريخ المغرب والأندلس .

ودراسة تاريخ المغرب والأندلس له أهمية خاصة بالنسبة لنا كعرب ، ذلك أن إسبانيا حكمها العرب عدة قرون ، وازدهرت فيها الحضارة الإسلامية ، وشهدت نهضة ثقافية إسلامية كان لها أثراً في أوروبا ، وأقيمت فيها المساجد الضخمة ، التي كانت منارة للإسلام والعلم والحضارة في القارة الأوروبية عدة قرون .

ولكن العرب — كما هو حالهم اليوم — أضاعوا هذه البلاد ، وفقدوها كما فقدوا غيرها فيما بعد ، بسبب ما يسود بينهم من اقسام وخلافات ومنازعات ، متباين الصالح العام ، ومتطلعين فقط إلى تحقيق مآرب شخصية زائلة .

لذلك فدراسة تاريخ الأندلس ، يوضح لنا ، كيف وصل العرب إلى قمة المجد ، بفتحهم لاسبانيا أو لقطعة من أوروبا ، وكيف اقتربت جيوشهم الظافرة المنصورة من باريس واستوطنوها هذه البلاد ، ونشروا الإسلام واللغة العربية والثقافة الإسلامية ويسعد الانسان حينما يدرس هذا الازدهار ، وهذا التقدم الحضاري . ولكن الدارس يعبر مع دراسته القرون ، شأنه شأن دارس التاريخ ، فيصاب بالحزن والأسف ، حينما

يرى أن مجد العرب والاسلام في هذا البلد إلى زوال ، حتى ينتهي حكم العرب في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي .

وقدت بحثى إلى عدة موضوعات ، بدأت بدراسة الفتح العربي للمغرب ثم أسبانيا قبل الفتح العربي ، وانتقلت إلى بحث الفتح العربي لأسبانيا ، والنتائج التي ترتب على هذا الفتح ، ثم درست عصر الولاة في الأندلس ، وفيه حاول المسلمون فتح فرنسا ولكنهم هزموا في بلاط الشهداء . وفي عصر الولاة اشتد الصراع بين القيسية واليمانية .

وظلت بلاد الأندلس في اضطراب حتى دخلها عبد الرحمن بن معاوية ابن حشام بن عبد الله ، وأقام في أسبانيا إمارة مستقلة تماماً عن الدولة الإسلامية ، وخلفه أبناؤه في حكم الأندلس حتى ولى عبد الرحمن الناصر ، فحصل الامراء إلى خلافة ، وظلت الدولة الأموية تحكم في الأندلس حتى سقوطها سنة ٤٢٢ هـ .

اضطربت الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية ، وتتنافس أمراء الأقاليم في حكم الأندلس . هنا انتهزت الممالك النصرانية في شمال أسبانيا الفرصة ، وأنقضوا على مدن الأندلس ، متفيزين فرصة النزاع بين ملوك الطوائف ، وحاولوا الرابطون ثم الموحدون من بعدهم أن ينذروا المسلمين في الأندلس ، ولكن حماولاتهم كانت مسكنات وقتلة . وظل أمر الأندلس في ضعف ونصارى في قوة حتى لم يعد للعرب سوى غرناطة ، آخر معاقل المسلمين في الأندلس ، وسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ م ويستوطها زال الحكم العربي عن الأندلس .

هذا وبالله التوفيق

المؤلف

دكتور عصام الدين عبد الرؤوف الفقي

مصر الجديدة

١٩٨٤/٣/٢



الفصل الأول

التعريف ببلاد المغرب والأندلس

- ١ — أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس**
- ٢ — التعريف ببلاد المغرب**
- ٣ — التعريف ببلاد الأندلس**
- ٤ — الفتح العربي للمغرب**
- ٥ — الفتح العربي للأندلس**

أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس

لتاريخ المغرب والأندلس أهمية كبيرة في دراسة التاريخ الإسلامي العام والخاص . وبخصوص المغرب والأندلس دراستهما متصلة ووئقة الصلة ، لأن ما كان يجرى في المغرب له صدأه في الأندلس وما يحدث في الأندلس له رد فعل في المغرب .

وانضمام المغرب والأندلس إلى الدولة الإسلامية الكبرى ، أعطاها طابعاً مميزاً وقسم الدولة الإسلامية إلى قسمين كبيرين ، قسم شرقى له نظمه وحضارته وتقاليده ، وقسم غربى له مقوماته وثقافته ، ولعب القسم الغربى دوراً كبيراً في تاريخ الإسلام ، فقامت الدولة الفاطمية في المغرب ، وانتقلت إلى الشرق فسيطرت على مصر والشام والجaz واليمين .

ومن ناحية التاريخ العام يتضح لنا أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس ، ذلك أن الحضارة الإسلامية التي ازدهرت في الشرق ، انتقلت إلى المغرب والأندلس ، وانتشرت العلوم والفنون العربية المتقدمة في الأندلس وصقلية وانتقلت إلى أوروبا . وبذلك لعبت المغرب والأندلس دوراً كبيراً في ازدهار الحضارة الإنسانية .

نظرة عامة حول بلاد المغرب

عرفت بلاد المغرب منذ أقدم العصور بأسماء مختلفة ، فكان الأغريق يسمون القسم الشمالي منها الذي كان يسكنه العنصر الأبيض باسم ليبو أو ليبيا ، بينما كانوا يطلقون على الصحراء اسم بلاد الاحباش السود . أما لفظ إفريقية ، فقد أطلقه الرومان على الأقاليم الذي يقابل اليوم الجزء الشمالي الشرقي من الجمهورية التونسية ، ويشتمل على قرطاجنة وما حولها حتى نوميديا غرباً ، وكان يعرف باسم ولاية إفريقية القنصلية ، وأطلقه العرب على كل ما يلى : طرابلس غرباً . ثم تحدد مدلول

أفريقية ، فأصبح في معظم المصادر العربية ، يعني الأقليم الذي تتواصمه
القيروان ، ويمتد من طرابلس حتى بجاية .

أما المغرب فيشمل كل ما يلى مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي
وتوسطه أفريقية . وقد أصلح على تقسيم المغرب إلى ثلاثة أقسام
كبيرة ، بحسب قربها أو بعدها عن مركز الخلافة في المشرق وهي :

١ - المغرب الأدنى ويسمى أيضاً أفريقية ويشمل تونس وبعض الأجزاء
الشرقية من الجزائر وعاصمتها القيروان أيام الأغالبة ، والمهدية
 أيام الفاطميين ، ثم مدينة تونس فيما بعد وحتى اليوم .

٢ - المغرب الأوسط ويشمل بلاد الجزائر ، ويمتد من تاهرت حتى وادي
ملوية وجبال تازة غرباً ، وقاعدته تلمسان .

٣ - المغرب الأقصى : وعاصمة المغرب الأقصى ترددت بين مدينة فاس
ومراكش ، فالأدراسة الحلويون أسسوا مدينة فاس سنة ١٩١ م ،
واتخذوها عاصمة لهم ثم جاء المرابطون وبنوا مدينة مراكش
سنة ٤٦٣ م واتخذوها عاصمة ، والمغرب الأقصى يشمل المملكة
المغربية اليوم التي عاصمتها الرباط .

ولفظ أفريقية مشتق من الكلمة أفريالتى أطلقها الفينيقيون على سكان
أوتيكا وقرطاجنة ، ثم عممه اليونانيون بعد ذلك ، فأطلقوه على سكان المغرب
من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي .

أما لفظ المغرب فالمراد به ، هو كل ما يقابل المشرق من البلاد وقد
اختلف الجغرافيون والمؤرخون المسلمين في تحديد مدلوله فجعله البعض
يشتمل بلاد شمال أفريقيا بالإضافة إلى الأندلس وجميع الممتلكات
الإسلامية في حوض البحر المتوسط مثل صقلية وجنوب إيطاليا وجزيرتي
سردينيا وكورسيكا وجزر البليار أو الجزر الشرقية ، وقد اعتبر بعض
المؤرخين مصر من بلاد المغرب ، باعتبارها القاعدة السياسية والعسكرية
والثقافية لهذه المنطقة الغربية في الفترة الإسلامية الأولى . لأن الخليفة

هشام بن عبد الملك مثلاً ، قند عبد الله بن الحبّاب ولاية مصر والمغرب والأندلس ٠

وفي العصر العباسي زاد مدلول كلمة المغرب ، فانضمت الشام إلى هذا القسم ذلك أن العباسيين قسموا مملكتهم قسمين ، وهما المغرب ويشمل الشام ومصر وأفريقيا وما يليها غرباً ، والشرق ويشمل بلاد فارس وما يليها شرقاً ٠ ولكن على الرغم من كل هذه التقسيمات العائنة فإن جميرة المؤرخين والجغرافيين العرب اتفقوا على تحديد كلمة المغرب بالأراضي الإسلامية المتدة غربي مصر إلى المحيط الأطلسي ٠ فهناك المغرب الأفريقي والمغرب الأندلسي ٠ وعلى هذا الأساس كانت مدينة الأسكندرية هي الحد الفاصل بين المغرب والشرق ، وإلهذا عرفت باسم باب المغرب ، لأنها كانت معبراً لجميع المغاربة القادمين من المغرب أو العائدین إليها سواء بالبر أو البحر بقصد التجارة أو طلب العلم أو تأدية فريضة الحج ٠

تبعد أفريقية الغربية من حدود برقة الغربية شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وتحدها من الشمال البحر المتوسط ثم منطقة ساحلية ضيقة تشمل أقليم التل ، ويحدها من الجنوب صحراء مترامية الأطراف هي الصحراء الكبرى ويفصلها عن مصر برقة ، التي كانت امتداداً لنفس الصحراء الغربية وتخترق هذه المنطقة سلاسل من الجبال العالية تمتد من مراسك إلى تونس ، مخترقاً المنطقة كلها من الغرب إلى الشرق فاصللة السهل الساحلي الضيق عن بقية البلاد حيث تكثر الأغوار ، بينما تحصر السلاسل بينها سهولاً طولية ضيقة ٠ لهذا فطبيعة البلاد الجغرافية وعرة والدفاع عنها ميسور ، بينما يتطلب الهجوم مشقات كبيرة ٠

أما سكان المغرب فيمكن تقسيمهم إلى ما يأتي :

- ١ - الروم وهم البيزنطيون ٠
- ٢ - الأفارقة ، وهم بقايا شعب قرطاجنة وأخلاقاً من المستعمررين اللاتين ، والوطنيين الذين تأثروا بالحضارة الرومانية والبيزنطية وكانوا يدينون بالطاعة والولاء لسادتهم البيزنطيين ٠

٣ — البربر وهم سواد سكان المغرب •

أطلق الرومان اسم البربر على سكان بلاد المغرب لأنهم كانوا يعتبرونهم أعاجم على حضارتهم ، وينقسم البربر إلى مجموعتين مختلفتين : البربر الحضر ، ويسكنون السهول الخصبة والمدن أو الهضاب المزروعة ، ويشتغلون بالزراعة والصناعة ، والحضارة البيزنطية تأثير عليهم والبربر الرحل ويعيشون على الرعى ، ويميلون لللاغارة وعلى ما يجاورهم من عمران ، وينقسم البربر عموماً إلى قسمين كبيرين ، برانس وبتر ، وينسب البرانس إلى برانس بن بر كما يزعمون ، لذلك سموا برانسا ، ويسكنون المدن ، ويتأثرون بالحضارة البيزنطية . وأما البتر ، فهم بدؤ ، يسكنون الباادية .

وينقسم بربير البرانس إلى سبع قبائل كبيرة هي :

أوربه وأصنهاجه وكتمة ومصمودة وأوريغة وأزدواجة وتعتبر قبائل صنهاجة أكبر قبائل البربر ، وقد غلب على صنهاجة التبدى ، وتفرقوا في بلاد المغرب .

ومن القبائل البرانسية الكبيرة ، كتمة التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ المغرب فعلى أكتافها قامت الدولة الفاطمية وتنشر قبائل البرانس في كل بلاد المغرب . ولكن بعض قبائلهم ، توغل في قلب قارة أفريقيا حتى تصل إلى مOUTH نهر النيل ، ومصب السنغال ، معظمها ينزل في مواضع زراعية متحضره .

أما بربير البتر ، فينقسمون إلى أربع قبائل هما : —

ضريسه ونقوسه ، وأداسه ولواته ، وتنزل هذه القبائل في السهول المرتفعة أو المنخفضة ، وعلى الهضاب التي تمتد من طرابلس إلى تازه ، وينتشرون في أقليم النخيل الذي يمتد من غدامس إلى السوس الأقصى ، ويؤلفون أغلبية سكان القرى الصحراوية ، وللبقاء في داخل أفريقيا وفي أقليم التي قرب طرابلس وعلى سفوح جبال أوراس .

والعداء بين البتر والبرانس قديم ، ويتمثل بصفة خاصة بين زناته أكبر قبائل البتر وصنهاجه أكبر قبائل البرانس ، ويرجع سببه الرئيسي إلى العداء بين البدو والحضر ، فالبتر يشنون الغارات بين البادية على المدن العاشرة للبرانس ، والبرانس يتاثرون بالحصارية البيزنطية ، أما البتر فيتميزون بالبداوة . لذلك تقارب البتر من العرب بسرعة على حين حمل البرانس عبء المقاومة مع العرب . ولما آلت البلاد إلى العرب أنضم البرانس إلى الحركات المعارضة للدولة الإسلامية .

الفتح العربي للمغرب

كان من الطبيعي أن يتطلع عمرو بن العاص إلى فتح أفريقيا ، بعد أن أتم فتح مصر سنة ٢٠ هـ ، وهو نفس السبب الذي ألح فيه عمرو بن العاص على عمر بن الخطاب بفتح مصر بعد فتح الشام .

ذلك أن الشام ومصر وبلاد المغرب كانت تتبع الدولة البيزنطية ، فلما تم فتح بلاد الشام كان ضرورياً فتح مصر لتأمين حدود الشام ، من الخطر البيزنطي في مصر . ولما تم فتح مصر كان لابد من تأمين حدود مصر غرباً ، أي فتح أفريقيا لحماية مصر من خطر بيزنطي في غربها .

بعد أن أتم عمرو بن العاص فتح مصر سنة ٢٠ هـ ، قاد حملة لغزو برقة سنة ٢٢ هـ وفتحها وصالح أهلها على الجزية ، وواصل زحفه حتى فتح طرابلس بعد حصار دام شهراً لكنه انسحب بقواته منها عائداً إلى مصر .

ولما ولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح ولاية مصر خلفاً لعمرو بن العاص ، سار على سياسة سلفه في غزو أفريقيا فسار إلى برقة ، وكان يليها عقبة بن نافع الفهري من قبل إلى مصر ، وضم إلى جيشة حامية برقة ، وسار إلى طرابلس ولكن الروم تصدوا للحامية العربية بقيادة جريجوريوس – حاكم أفريقيا الرومانى – أو جرجير – كما يسميه العرب .

رفع العرب حصارهم عن طرابلس ليتفرغوا لمقاومة الحاكم الروماني ، ونشبت بين الفريقين معارك ضارية في ظاهر ٤٠٠ سبيطله بالقرب من أطلال قرطاجنة القديمة – وهي عاصمة أفريقيا حينئذ . وهزم في هذه المعركة القائد الروماني وقتل سنة ٢٨ هـ / ٦٤٨ م ، واستولى عبد الله بن سعد على سبيطله ودمرها تدميراً ، وبث جيوشه في تلك الانحاء وصالح أهل هذه البلاد على الجزية . ولكنه لم يتخذ قاعدة إسلامية في هذه البلاد ولم يعهد لأحد القادة المسلمين بحكم هذا

الإقليم ، إنما انسحب عائداً إلى مصر بعد خمسة عشر شهراً ، تاركاً حامية في برقة وأخرى في زويلة .

ولكن الدولة الإسلامية توقفت عدة سنوات عن الفتح ، بسبب الفتنة الكبرى في عهد بن أبي طالب ، وثورة معاوية والخوارج عليه ، والتي انتهت بمقتله في رمضان سنة ٤٠ هـ .

حملة عقبة بن نافع الأولى على بلاد المغرب

يجمع المؤرخون على أن معاوية بن أبي سفيان ولد عقبة بن نافع الفهري أفريقيّة سنة ٥٠ هـ ، وأمره بفتح هذه البلاد ويبداً الفتح الحقيقي لل المغرب بحملة عقبة هذه والجدير بالذكر أن القواد الذين تولوا فتح المغرب ، بعضهم امتاز باللين والحنكة السياسية ، وبعض الآخر امتاز بقوة الشكيمة ، والمقاومة العسكرية دون السياسية ، وكان للجانب السياسي أهميته ، في تثبيت أقدام المسلمين في المغرب ، واندماج البربر في الحياة الإسلامية .

وعقبة بن نافع الفهري من الشخصيات الكبيرة في التاريخ الإسلامي فهو أحد رجال عمرو بن العاص الذين حاربوا معه في فتوحه الأولى في أفريقيا ، وهو ابن خالة عمرو بن العاص ، ومن أوائل المجاهدين في المغرب ، دخل برقة سنة ٢٣ هـ ، دون العشرين وشارك في الغزوات التي شنتها العرب في أفريقيا بمقدمة عسكرية فائقة ، وشجاعة منقطعة الغظير .

وقاد الحملة التي أخضعت قبيلة لواته في طرابلس ، وانضم إلى جيش عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وتولى حماية برقة منذ فتحها ، وظل مجاهداً مرابطاً في سبيل الله ما يقرب من ربع قرن .

اتخذ عقبة بن نافع الفهري طريقه في داخل البلاد ^{مبعاداً الساحل ،} ولقد لزم هذه الخطة في كل أعماله ، لأن السواحل مليئة بالمحصون

والمحارس ، أما انداخل فليس فيه تحصينات قوية ، ومقاومة البربر في الداخل ، أقل من مقاومة البيزنطيين على الساحل . وجاز وهاد برقه على رأس عشرة آلاف مقاتل وسار في أقاليم الواحات متقدلا دون أن يلقى مقاومة تذكر ، اذا لم يتوقعوا قدوم العرب في هذا الوقت ، فدهمهم عقبة ، وأصاب منهم كثيرا ، وتوغل غربا حتى المغرب الأقصى ، وافتتح جميع التغور والعواصم الأفريقية تباعاً وهزم جيوش البربر والروم التي اعترضته حتى استحق لقب « قاهر الروم والبربر » وتوغل في مقاوز المغرب الأقصى .

رأى عقبة ضرورة اقامة مدينة اسلامية جديدة في افريقيا لتكون عسكراً للمسلمين وعزلاً للاسلام حتى آخر الدهر ، فشرع في اخطاط هذه المدينة ، لتكون قاعدة لنشر الاسلام في هذه البلاد ، يلجمأ اليها البربر لاعتقاد الاسلام ، ودراسة تعاليمه على أيدي الفقهاء والوعاظ وانعلماء في مسجد القиروان الجامع وموضع القิروان يناسب المزاج العربي ، فهى بعيدة عن البحر وعن الخطر البيزنطي الكائن في الساحل ، ومن حيث قربها من الصحراء لصعب محاصرتها . وموضع القيروان متوسط بين الساحل والهضبة القريب من السفوح الصالحة للرعي . ولهمدا الموضع أهمية عسكرية ، فيتمكن منه مراقبة تحركات العدو من بعيد ، ومباغنته اذا تطلب الأمر ، واتخذ منها — بالإضافة الى نشر الاسلام — قاعدة عسكرية يجمع فيها عدته وعتاده ، ويرسل منها التجريدات العسكرية لشن الحملات الحربية ، والعودة الى القиروان بالغذائم ، واعداد الحملات من جديد وهكذا ظل عقبة بن نافع واليا على افريقيا خمس سنوات (٥٥ - ٦٧٥ م) حيث عمله والى مصر مسلمة ابن مخلد ، الذي جمع له معاوية بين حكم مصر وأفريقيا ، وعهد الى أبي المهاجر دينار بحكم افريقيا ، ويختلف هذا الانصارى عن عقبة ، اذ يعتمد على السياسة في تعامله مع البربر أكثر من القوة العسكرية ، وأثبتت هذه السياسة نجاحها ، وأثمرت ، فهادن البربر واستمالهم ، ليضرب بهم العدو المشترك وهو الروم ، وبذلك استطاع أن يوجه قوة البربر وشدة

بأنهم في خرب العدو القوى المتمثل في البيزنطيين ، وتجنب مواجهة عدوين في وقت واحد . ولجأ إلى الحيلة والدهاء في جذب البربر إليه فأقنعهم بأنهم — أي البربر — أقرب إلى العرب من الروم ، والعرب دخلوا المغرب ليحاربوا الروم ، وليس البربر ، وأنضم إليه كسيله — زعيم البربر البرانس — هو وقومه ، واعتنقوا الإسلام ، واعتقلته قبيلة أوربه . وهذا مكسب كبير للإسلام والعرب ، وزحف أبو المهاجر دينار وكسينه إلى تلمسان ، وفتحها . وبذلك اجتاز المغرب الأوسط (الجزائر) واحتل مدنه الساحلية حتى بلغ تلمسان .

ولم يلق المؤرخون الأضواء على ولاية أبي المهاجر دينار التي استمرت سبع سفین (٥٥ - ٦٦) ربما لأنها تقع بين ولايتي عقبة الأولى والثانية ، ودور أبي المهاجر دينار في المغرب لا يقل عن دور عقبة .

ولما ولى يزيد بن معاوية الخلافة رأى ضرورة اتمام فتح المغرب فعزل أبي المهاجر دينار ، وأعاد عقبة بن نافع إلى حكم أفريقيا لما عرف عنه من الشجاعة وقوة البأس وحسن الblade .

اتخذ عقبة سياسة مخالفة تماماً عن سياسة سلفه ، فنظر إلى كسيله وقومه نظرة شك وريبة ، بل قبض على كسيله وعلى سلفه أبي المهاجر دينار . وبذلك اشترى عليه البربر البرانس وقبيلة أوربه بالذات ، وما لا شك فيه أن عقبة أخطأ في سياسته هذه ، فقد جلب على نفسه عداوة البربر البرانس بعد أن كانوا في عهد سلفه أنصاراً للعرب والمسلمين وسفرى الآثار السيئة التي ستقرتب على هذه السياسة .

ومهما يكن من أمر فقد قاد عقبة جيشه في حملة مشهورة في تاريخ المغرب ، وجاء خلاله من أدناه إلى أقصاه حتى بلغ المحيط الأطلسي ، وخاض في حملته هذه معارك ضارية وحرباً مديدة مع قبائل البربر ، فقد فيها طائفة من خيرة رجاله .

ولما بلغ عقبة ساحل المحيط ، وانتهى إلى ساحل المحيط دفع فرسنه

إلى الماء حتى بلغ نهره ، هنا أخذته نشوة النصر كل مأخذ ، وتطلع إلى تحقيق آمال عريضة للاسلام وأهله وقال : « اللهم انى اشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجازاً لجزت ٠٠٠٠٠ النهم أشهد أنى قد بلغت المجهود ولو لا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يبعد أحد سواك » ٠

عاد عقبة بجيشه إلى القيروان ، ويبدو أن عودته المفاجئة سببها ما نمى إلى علمه من حدوث قلقل واضطرابات في أفريقيا ، وفي أثناء عودته ، مر بالجزائر ، واتخذ بها قاعدة اسلامية على غرار القيروان ، وهذه القاعدة هي تاهوده بالقرب من مدينة يسكيه بالقرب من قسطنطينية ، وفرق عقبة قواته في أنحاء المغرب ، وبينما ينسحب من الجزائر في قلة من الجند ، فر من أسره كسيله ، وقوى أمره وعظم بأسه بمن انضم إليه من البربر والروم ، وباغت عقبة — الذي كان في قلة من الجند — ودارت رحى معركة حامية الوطيس بين كسيله وعقبة ، وحارب أبو المهاجر دينار إلى جوار عقبة ، واستشهد في هذه المعركة — التي دارت قرب تاهودة ، عقبة وأبو المهاجر سنة ٦٤ هـ / ٦٨٢ م ٠

ولا يزال موضع تاهوده يعرف بسيدي عقبة ، وهو عبارة عن واحة جميلة من التخيل ، وبها مقام هذا الفاتح العربي الكبير ، وزحف كسيله إلى القيروان ، واستولى عليها ، كما استولى على البلاد والواقع التي آلت إلى العرب ، وزال الحكم العربي من المغرب وذالت دولتهم ولكن إلى حين ٠

لَا تولى الخلافة عبد الملك بن مروان ، رأى ضرورة استعادة بلاد المغرب والقضاء على مقاومة البربر في هذه البلاد ، فعهد إلى زهير بن قيس البلوي بحكم أفريقيا وأمده بجيش ضخم كيما ينفذ الاستراتيجية الاسلامية في هذه البلاد سنة (٦٩ هـ / ٦٨٨ م) والتلى زهير بن قيس بجيش كسيله في معركة انتصر فيها العرب على اعدائهم ، وقتل كسيله وجمع من البربر ، ومزق البربر في هذه المعركة كل ممزق ، وأرسل فرقا من جنده في أنحاء أفريقيا لاخضاع البربر ، وأنهاء الفتنة ، واسترد القيروان ، وترك فيها حامية للدفاع عنها ٠

ولم يكُن العرب ينتهيون من اخضاع ثورات البربر حتى داهمهم خطر جديد أشد هولا وأقوى بأسا ، ذلك هو الخطر البيزنطي .

فالبيزنطيون لا يستطيعون الوقوف مكتوفي الأيدي ازاء الاحتلال العربي لبلاد المغرب التي يخضع جزءاً كبيراً منها لسيادتهم . ذلك أن البيزنطيين انتهزوا فرصة توغل المسلمين غرباً ، وأمدتهم قيصر قسطنطينية بأسطول من صقلية ، ونزلوا في قرطاجنة ، ثم زحفوا على برقة في حشد كبير ، وهزم الروم العرب شر هزيمة ، وقتل زهير وكثير من جنده ولم ينج من المعركة الا من لاذ بالفرار . ومرة أخرى يفقد المسلمون بلاد المغرب ، ويتوقف الفتح العربي لهذه البلاد بضم سنتين . ونستدل من ذلك أن مقاومة البربر البرانس للعرب من ناحية والروم من ناحية أخرى قد صرفت المسلمين عن فتح هذه البلاد بعض الوقت ، يضاف الى ذلك أن الدولة الإسلامية في أوائل عهد عبد الملك بن مروان شغلت بالقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير وثورات الخوارج .

لم يكُن عبد الملك بن مروان ينتهي من اخضاع الثورات في دولته ، ويعيد اليها الأمان والطمأنينة ، والاستقرار والهدوء حتى تطلع إلى استعادة فتح المغرب ، فولى عليها حسان بن انعمان النصabi وسيره إلى أفريقيا على رأس جيش كبير ، تذكر الرواية العربية أنه أقوى جيش سار إلى أفريقيا منذ بداية الفتح ، واخترق حسان بجيشه برقة ، واتبع سياسة أبي المهاجر دينار في استعماله البربر ، وضمهم إلى جانبه ، وضرب العدو المشترك بهم بدلاً من مواجهة عدوين في وقت واحد . ويعتبر حسان الفاتح الحقيقي لبلاد المغرب ، تولى حكم هذه البلاد بين عامي ٧٨ - ٨٦ .

انضم البربر البرانس إلى العرب في محاربة الروم ، وزحف الفريقان إلى قرطاجنة فخر بها حسان ، وهزم الروم ، ولم تتم بذلك قاعدة البيزنطيين يشنون منها الهجمات على العرب ، ولم يستطع المسلمون غزوها من قبل لمناعتها ومحاصنتها واتصالها بالبحر وقربها من صقلية ، حيث كانت ترسل إليها الإمدادات بسرعة .

لم يقف امبراطور الروم مكتوف الأيدي ازاء تدمير قرطاجنة لأنّ انتصارها هو اف الحقائق انهيار الحكم البيزنطي ، فهى — كما قلت — قاعدة للعمليات الحربية البيزنطية والنفوذ البيزنطى في بلاد المغرب ، فسيطر الامبراطور إليها جيّسا بقيادة يوحنا ، يعاونه أسطول من صقلية ، وقوة أرسلها ملك القوط ، الذي أزعجه اقتراب العرب من بلاده ولم يستطع العرب التصدى لهذه القوة المتحالفه ، فانسحبوا إلى القيروان ، واستقروا فيها حتى أرسلت دمشق إليهم الإمدادات ، فعاودوا الهجوم على قرطاجنة وهزموا الروم والبربر في عدة مواقع ، واستولى حسان بعد قرطاجنة على المدن الساحلية ، وطرد الروم فيها ودمر تحصينات الروم القوية ، وخرّب قرطاجنة ، وفر الروم والقطط وبذلك أخرج من الميدان عنصرا هاماً من عناصر المقاومة في المغرب ، وهو العنصر البيزنطى . وبهزيمة الروم تمكن حسان من سحق كل مقاومة ببربرية ، واستعاد الإسلام سلطانه فيما بين برقة والمحيط .

عاد حسان بعد هذه الانتصارات الرائعة إلى القيروان ليريح أصحابه مما أصابهم في حملة قرطاجنة ، وعرف بظهور خطر جديد وهو خطر امرأة من البربر تعرف بـ الكاهنة ويختلف المؤرخون في شأن الكاهنة اختلافاً كبيراً ، بل يميل بعضهم إلى انكارها أصلاً معتمداً على ما يشوب أخبارها من أساطير ولكن تجمع الآراء على وجود الكاهنة وعلى ذكر الدور العظيم الذي قامت به أثناء فتوح أفريقيا ، ولكن شخصيتها وحقيقة أمرها لازالت غامضة في حاجة إلى كثير من التوضيح .

يعدو أن الكاهنة كانت زوجة لرجل من رؤساء القبائل ، وتوفي تاركاً لها ولدين صغيرين استبدت بهما ، وحكمت القبيلة باسمهما ، وملكت البربر خمساً وثلاثين سنة وهذه القبيلة هي قبيلة جراوه أحدى قبائل البتر المقيمين في الوراش ، وكانت هذه القبيلة على صلة بالروم ، ويبدو أن الكاهنة كانت مسمومة الكلمة في قومها ، مهيبة الجانب بين ذويها ، فاستطاعت أن تحتفظ بالأمر لابنها القاصرين .

ثورة كسيله على العرب هي مقاومة البرانس المستقررين يعززهم

الروم وينصرونهم لأنهم نصارى أو آخذون بأسباب الحضارة البيزنطية ، ودفعهم كان عن النواحي العاسمة الفسيحة التي كان هؤلاء انبرانس يعمرونها ويفلحون ويرسلون سوائدهم في مراعيها وسفوحها .

أما ثورة الكاهنة فثورة قبيلة يهودية احتفظت ببقايا من الحضارة القديمة ، وطال عهدها بالاستقلال لضعف احكام البيزنطيين ، وعجزهم عن اخضاع البتر في الصحراء والهضاب واتراجح أن هذه المرأة لم ترفع راية العصيان الا حين تسامعت بمسير حسان اليها ، وأنها كانت مطمئنة في نواحيها ترقب مصير كسيله ثم مصير الروم على يد حسان فلما رأت حسان ينوي السير نحوها ، أخذت تستعد لقتاله ورده عن بلادها .

ويغلب على الظن أن الكاهنة كانت تتوقع مسير العرب إليها لأنها لم تك تتسامع بمسير حسان إليها حتى رحلت من الجبل في عدد لا يحصى ولا يدرك ، وحطت رحالها عند باغية ، وهي مدينة حصينة على سفح الأوراش تقوم بين الجبال مقام الباب من الدار وقد أرادت الكاهنة من ذلك أن تكون على مقربة من مواطن جراوة الأصلين على الأوراش ، لكي تستمد منها العون ، أو تطلب النجاة عند الضرورة ، وأمرت بهدم باغية حتى لا تسقط في يد العرب ، وهذا يدل على أنها كانت تحارب العرب منفردة دون عن من الروم . لذلك فحركة الكاهنة حركة بربورية صرفه لا تعرف حرب الحصون ولا المناجزة خلف الأسوار وإنما اسلوبها هو اللقاء في الأرض انقضاء بالحراب والسيوف .

والتقى حسان بالكافنة على نهر ثيني ، وكان لا يفكر أيضاً في الاحتماء بالحصون .

كانت معركة ثيني شديدة حامية اضطر حسان وجنه إلى خوض غمارها ، وكانوا مجهدين من آثار حملة قرطاجنة وما تلاها ، ولهذا ضعفت عزائمهم ، ووهنت قواهم عن خوض هذه المعركة ، وإذا أضفنا إلى ذلك أن العرب كانوا يقاتلون قوماً منهم واستشارت الكاهنة حماسهم بما لها من مكانة في نفوسهم وهيبة في قلوبهم وبذلك نبت البربر للعرب ، وهاجموا

العرب هجموا الم يكونوا يتوقعونه ، فدارت الدائرة على العرب ، وأضطروا إلى التقهقر بعد قتال شديد ، وقتل من العرب كثيرون . ولم تكتف الكاهنة بهزيمة العرب في قلب الوراش ، وإنما تتبع حسان حتى اخرجته من حدود Africique ، واطمأنت على سلطانها منه ، ثم عادت أدراجها . ولم تدخل الكاهنة القيروان ، وإنما عم أهلها الفزع والهلع ، واستعدوا للرحيل من تهديد مرتب وعادت الكاهنة إلى الوراش ، وهذا يدل على أن حركة الكاهنة كانت ثورة مخطية في ناحية من نواحي البلاد لا حركة انتفاض عام ، وأنقام حسان في طرابلس ينتظر المدد ، وينظم أموره هناك ، فشيد لنفسه منازل على مقربة من برقة سميت قصور حسان .

ولكن حركة الكاهنة لم تؤد إلى هدوء البلاد ، وإنما عمها الأضطراب ذلك أن الكاهنة ملكت Africique ، وأساحت السيرة في أهلها ، فعارضها بعض البربر ، بل راسلوا العرب ولاحظت الكاهنة أن العرب ما يكادون ينزلون البلاد حتى تتوجه همهم إلى المداين والنواحي العامرة يبذلون وسعهم في الاستيلاء عليها ، فإذا تم لهم ذلك ، انقضوا على التخيرات — والنفائس والأموال فانتبهوا ، ولم يخلفوا وراءهم منها شيئاً ، ثم ينصرفون بعد ذلك عن Africique ، كأنما كانوا يأتون لهذا وحده ، فاعتقدت أن العرب لا يريدون من فتح هذه البلاد إلا أمراً واحداً ، الأموال والغنائم والأسلاب والسبى ، فلابد من قطع رجاء العرب في البلاد والقضاء على معالم العمارة فيها فتجعلها قاعاً صفصفاً ، كأن لم تكن بالامس . وقد اخطأـت الكاهنة في سياستها هذه ، وغاب عنها أن العرب أمة زاحفة إلى الإمام ، وأن حركة الفتوح الإسلامية تسير قدماً دون توقف ، وأن العرب يهدون إلى فتح بلاد المغرب ونشر الإسلام في هذه البلاد ، مهما كانت التضحيات ، ووجهت الكاهنة أهلها يقطعون الشجر ، ويهدمون الحصون ، وخرج يومئذ من النصارى والبربر خلق كثير مستغيثين بما نزل بهم من الكاهنة فتفرقوا في البلاد المجاورة .

أثر هذا العمل بقضية الكاهنة ضرراً كبيراً ، فقد عارضها فريق كبير من أهل البلاد حينما رأوا الخراب والدمار قد عم حقولهم ومنازلهم ،

وتعقدت سبل معيشتهم ، وبلغ من استياء الناس من الكاهنة ، أن استجاد بعضهم بحسان ، وعارضوا الكاهنة ، وقاوموها فاضطرب الامر من يدها وعم الانضطراب البلاد ، ونظر البربر الى العرب كمحظيين ومنقذين من سياسة الكاهنة الغاشمة ، الامر الذي سيكون له أبعد الأثر في اتمام فتح البلاد .

انتهز حسان فرصة معارضة البربر لkahنة ، واستجاد بعضهم به ، وقاد جيشا ضخما سنة ٨٠ هـ ضم فريقا من البربر لحاربة الكاهنة ، والتقوى حسان بجيوش الكاهنة عند مدينة قابس ، وهزمها شر هزيمة ، ونكل بقواتها ، وقتلها سنة ٨٣ هـ في موضع يعرف ببئر الكاهنة في جبل أوراس .

وجد الروم في خروج حسان من أفريقيا فرصة سانحة لاستعادتها ، وبسط سلطانهم عليها من جديد ، وكان الامبراطور البيزنطي الجديد ليونتيوس ، قد أفلت سقوط قرطاجنة في يد العرب وتدميرها ، واسترد البيزنطيون مدينة قرطاجنة وقتلوا الحامية العربية التي فيها ، فاغار عليها حسان واستعادها وخربها حتى لا يعود الروم اليها .

اتخذ حسان سياسة رشيدة في جذب البربر الى جانب العرب فولى على النواحي عملا وولاة من البربر بل عهد بحكم الأقاليم لبناء الكاهنة ، ولكن يضمن حماية سواحل المغرب من الخطر البيزنطي شسيد ميناء تونس ، لتحول محل قرطاجنة ولبيني فيها أسطولا يغير على ساحل الروم ، فيشغليهم بأنفسهم عن الاغارة على أفريقيا ، ولا يفصلها عن البحر غير بربخ صغير ، وبهذا يستطيع العرب سكتاها ، لأنها ليست على البحر مباشرة ثم ان موقعها يجعلها بامان من غارات الروم المفاجئة ، وأعجب هذا الميناء اليوناني القديم حسان ، وأعاد تخطيطه ، وزودها بدار صناعة لبناء الأساطيل ، واستعان في ذلك بألف أسرة من أقباط مصر الذين كانوا على علم وخبرة بالشئون الملحوظة وبناء السفن . وهكذا أصبحت أفريقيا بعد أن فتحها العرب مثل الشام ومصر ، مركزاً تجارياً تخرج منه أساطيل المغرب تحمل راية الإسلام في غرب البحر المتوسط .

بعد أن أتم حسان فتح أفريقيا ، نظم الشئون العسكرية والادارية والمالية في البلاد ، وأنشأ الدواوين ، ورتب الخراج والجزية ووطد سلطان الحكم الجديد في التغور والنواحي ، ثم جدد مدينة القيوان ، وأنشأ بها المسجد الجامع ، ولبث في منصبه حتى توفي عبد الملك بن مروان ، ولما ولى الوليد بن عبد الملك ، أبقى حسان في منصبه ولما كانت أفريقيا تابعة لمصر ، فقد عزل عبد الله بن مروان – ولـى مصر – اندى خلف عبد العزيز بن مروان ، عزل حسان بن النعمان سنة ٨٦ هـ ، وعهد إلى موسى بن نصير بحكم بلاد المغرب .

يعتبر حسان بن النعمان – كما قلت – الفاتح الحقيقي لبلاد المغرب ، فلما ولـى موسى بن نصير هذه البلاد ، وجد نظاماً ثابتاً وقائماً واقتفى أثر حسان في معاملة البربر وساوى بينهم وبين العرب في المعاملة ، وجذبهم إليه ، واحسن إليهم واتخذ منهم جنداً لجيشه ، وكان البربر هو العنصر الرئيسي في جيش طارق بن زياد في فتح الأندلس كما سـرى .

يجب أن نشير إشارة سريعة إلى نشأة موسى بن نصير ، فائزـواية العربية تشير إلى أنه من التابعين ، وولد سنة ١٩ هـ في خلافة عمر بن الخطاب في قرية من قرى الجزيرة أو بوادي القرى من شمال الحجاز ، وينسب إلى بكر بن وائل ، وأن آباء نصيرـا كان من سباهـم خالد بن الوليد في معركة عين التمر سنة ١٢ هـ ، وقيل أنه ينسب بطريق الولاء إلى بنـى لـخـم ، وتشير الرواية العربية أن نـصـيراـ كان على حرـس معاويةـ بنـ أبي سـفـيان ، ثم كان وصـيفـاً لـعبدـ العـزيـزـ بنـ مـروـانـ وأـعـتـقهـ .

تدرج موسى في بعض الوظائف قبل ولـايـتهـ على أفريقياـ سواءـ الحـربـيةـ أوـ الـادـارـيةـ وقادـ بعضـ الـحملـاتـ الـبـحرـيةـ فيـ عـهـدـ مـعاـوـيـةـ ، وـغـزاـ قـبرـصـ وـغـيرـهاـ منـ الـجـزـرـ الـقـرـيـةـ ، وـدـخـلـ فيـ خـدـمـةـ عـبدـ العـزـيزـ بنـ مـروـانـ .ـ أمـيرـ مصرـ – وـتـولـىـ مـكـانـةـ رـفـيـعـةـ فيـ بـلاـطـهـ حتـىـ ولـىـ أـفـرـيـقـيـةـ فيـ سـنةـ ٨٦ـ أوـ ٨٩ـ .ـ وـهـمـاـ يـكـنـ منـ أـمـرـ تـقـدـ اـضـطـرـبـتـ بـلـادـ المـغـرـبـ بـعـدـ عـزـلـ حـسـانـ .

وتولية موسى ، فاضطراب البربر من جديد ، وعادوا الى الثورة فسحق موسى الثورة في كل ناحية ، وأخضعم هواره وزناته وصنهاجه وكتامه وغيرها من القبائل البربرية القوية ، ثم سار الى طنجة وفتحها ، وكان انعرب لم يصلوا اليها بعد ، وولى عليها قائداً عظيماً هو طارق بن زياد الليبي ، وظهر معاور المغرب الأقصى من العصاة والمتمردين ، وأحرز في هذه الغزوات من الغنائم والسبى ما لا يحصى ، ولما هدأت البلاد ، وانتهت الثورات استتمال اليه البربر وحشد في جيشه آلاقاً من البربر ، ونشر الاسلام بينهم وأقبلوا على الدين الجديد بحماس منقطع النظير . وانتشر الامن في البلاد ، وحلت الطمأنينة محل الفتنة والاضطرابات .

واهتم موسى بانشاء اسطول قوى ، قاوم هجمات البيزنطيين على طول سواحل المغرب بل هاجم جزر البليار وجزر ميورقه ومنورقه – وكانت من أملاك ملك أسبانيا القوطى – وسارت حملات أخرى الى صقلية وسردانيا ، وعادت محملة بالغنائم والاسلاب .

وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمال أفريقيا كله البر والبحر ، ولم يبق في يد النصارى من شمال أفريقيا كله سوى ثغر سبعة الواقع في نهاية البحر المتوسط شرقى طنجة وكانت يومئذ من أملاك أسبانيا .

نتائج الفتح العربي لبلاد المغرب

كان من نتائج الفتح العربي لبلاد المغرب تطور المجتمع ، وتغير عاداته وتقاليده بعد أن اندمج العرب والبربر . وكان لابد لهذا المجتمع الجديد أن يتخذ صوراً وأشكالاً متعددة قبل أن يتخذ صورته النهائية نتيجة لاختلاط عناصر ذات لغات وأديان وتقاليد مختلفة .

انشرت اللغة العربية في بلاد المغرب ، نتيجة لهجرات القبائل العربية الى هذه البلاد ، ومما ساعد على انتشارها أنها لغة الدين الجديد ، كما أن العرب سمعوا في جعل اللغة العربية لغة دين وأدب وثقافة ، والناس كما يقول ابن خلدون تبع السلطان وعلى دينه ، فسار

استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة ومن عوامل انتشار اللغة العربية تعریب الدواوین الذي بدأ في عهد عبد الملك بن مروان ذلك أن عبد الملك شرع في صياغة الدولة بصيغة عربية بعد أن استقرت فيها الأمور ، واتسعت خبرة العرب وساعد تعریب الدواوین على ذيوع اللغة العربية وانتشارها فقد اقبل الموظفون من البربر على تعلم اللغة العربية حتى يستمروا في عملهم ، فأصبحت اللغة العربية لغة التدوين والادارة والسياسة ، فضلا عن كونها لغة الدين والأدب والثقافة .

انتشر الاسلام بين البربر بعد أن توطدت العلاقات بينهم وبين العرب وأرسلت الخليفة فقهاء وعلماء ساهموا مساهمة كبيرة في نشر الاسلام ، وكانت الديانات الرئيسية في بلاد المغرب ثلاثة . المسيحية على الساحل والمسيحية بين البربر البتر ، والوثنية والمسيحية بين البربر البرانس .

ورأى المسيحيون الوثنيون من البربر في الاسلام عقيدة بعيدة عن تعقيدات الكتبية وفيها البساطة والوضوح تدعوا إلى فعل الخير ونبذ الرذائل والمؤاخاة ، وأدراكاً للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية ، وأدى انتشار الاسلام بين البربر إلى تحمسهم للدين الجديد ، فانضموا إلى صفوف المقاتلين ينشرون الاسلام في غير بلاد الاسلام .

استغرق الفتح العربي للمغرب ثمانين عاماً منذ سنة ٢٣ هـ حتى نهاية القرن الأول الهجري ، وهي مدة طويلة اذا ما قورنت بفتح الشام والعراق ومصر ، الذي لم يستغرق أكثر من عشر سنوات ، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى عناد البربر وقوتهم بأسمائهم ، وشدة مراسمهم ، وشدة مقاومتهم للفتح يضاف إلى ذلك تصدى البيزنطيين للفتح العربي ، وتوقف الفتوحات العربية لبعض سنين ، نتيجة لفتنة الكبرى وفي عهد عبد الملك بن مروان فترة من الوقت لقمع ثورة عبد الله بن الزبير .

والخلاصة أن الفتح العربي للمغرب أوجد تغييرا شاملا في المجتمع

المغربي ، فدخل المغاربة في دين الاسلام الامر الذي أوجد تقارباً بين الشعبين العربي والبربرى اللذان يتشابهان في بعض الصفات والسمات ، وصارت للبربر نفس العقلية العربية ، وظهر منهم فقهاء وشعراء وخطباء ، وازدهرت المذاهب الدينية والسياسية المعروفة في الدولة الاسلامية في بلاد المغرب وصارت معاملاتهم قائمة على أساس الشريعة الاسلامية .

وهكذا نرى أن الفتح العربي للمغرب قد غير الحياة المغاربية تماماً ، بعكس الغزو الفينيقي أو الروماني أو البيزنطي الذي لم يمس الحياة المغاربية ، وكانت جيوش هذه الدول مجرد جيوش احتلال لا أثر ولا تأثير لها على البربر . أما العرب فقد نقلوا الحياة المغاربية إلى وضع جديد وعصر جديد . الفتح العربي للمغرب ثورة في تاريخ البربر . فيها تحولت البلاد إلى عهد مختلف تماماً عن العهد السابق ، تغير اجتماعي وثقافي وسياسي وديني وأصبحت بلاد المغرب جزءاً من الدولة الاسلامية .

وكان لتغيير وضع البربر أثره في فتح الأندلس وساهم البربر مساهمة كبيرة في هذا الفتح ، وكان معظم القادة منهم ، ورأوا في ذلك فرصة للجهاد وال الحرب ، وأشبع قيئهم موسى بن نصير رغبتهم في الحرب والجهاد والحصول على الغنائم .

أسبانيا قبل الفتح العربي

كانت أسبانيا جزءاً لا يتجزأ من الامبراطورية الرومانية ، ولما سقطت روما في يد الجerman ، استولى الجerman على أملاك الرومان في إيطاليا وفرنسا وأسبانيا ، وكانت أسبانيا من نصيب القوط .

والقوط أحدى القبائل الجرمانية التي نزحت من شمال أوربا ويقال من السكناء بالذات وبين القوط والوندال تشابه عظيم في العادات والتقاليد ، مما يؤكّد الرأي القائل بانتتمائتها إلى شعب واحد ، ونشط القوط في عهد الامبراطور اسكندر سيفروس (٤٢٢ - ٤٣٥) وزحفوا صوب البلقان تدريجياً ، وزحفوا إلى اليونان ، وأحقوا بها الخراب والدمار . وظلوا يوامضون العبر والرعب في البلقان ، حتى دهرهم الامبراطور الروماني قسطنطين الكبير ، وأجبرهم على الانسحاب إلى أقصى داسيا سنة ٤٣٦ هـ ، وألقى في قلوبهم الرعب ، وتبعهم الإباطرة وأضعفوه ، وأجبرهم المون على الفرار إلى ضفاف الدانوب . وتعرضوا بعد ذلك للاحقة القادة الرومان .

لكن القوط لم يستكينوا طويلاً لما لحق بهم من ويلات وبطش وتكيل ، فقوى أمرهم واشتد باسمهم في عهد قائهم آلاريك ، وثاروا في اليونان وتراقيا ، وخربوا البلاد ودمروها ، وواصلوا زحفهم في أوربا حتى دخلوا روما سنة ٤١٠ م ونبهوها . ولكن الامبراطور الروماني هونوريوس عقد معهم صلحًا ، بهمقتضاه تعهدوا بالهدوء والسكينة ، بل وافق على دخولهم في الجيش الامبراطوري ، وساهموا في قمع الثورات التي اجتاحت أوربا ضد الامبراطورية الرومانية ، ثم استقروا في أوامسط فرنسا وجنوبها ، فيما بين نهر اللوار والجارون ، واتخذوا قولوز عاصمة لهم بموافقة الامبراطور وأقاموا في هذا الأقليم مملكة قوطية خاصة لروما . ومن أبرز ملوك القوط — تيودوريك الأول ولد آلاريك — الذي أشرنا إليه — وقوى أمر

هذه المملكة في عهد تيودوريك الثاني الذي دخل أسبانيا ، وضمها إلى مملكته الناشئة ، وطرد منها الوندال والسويف ، واعترفت الامبراطوريه بالملكة القوطية التي واصطت اتساعها حتى شملت شبه الجريدة الإيبيرية في نهاية القرن الخامس الميلادي . لكن الفرج طردوا القوط من فرنسا ، وشملت مملكة القوط أسبانيا فقط متخذة طليطلة عاصمة لها ، وطبق القوط الأنظمة والقوانين الرومانية في أسبانيا ، واعتنقوا المسيحية ، وظلوا يحكمون أسبانيا قرنيين من الزمان حتى الفتح العربي .

لم يتمترج القوط بالشعب الإسباني ، إنما شكلوا أرستقراطية حاكمة تستثثر بثروات البلاد ، وتحالف القوط مع رجال الدين الذين أمثلوكوا الضياع الشاسعة والإرقاء ، وأراضيهم معفاة من الضرائب ، ووجه الأشراف ورجال الدين القوانين والنظم حسب مصالحهم الخاصة ، ووفق حياتهم الاقطاعية ، أما سائر الشعب فاما طبقة متوسطة تجسأر وموظفين يتناضرون الأجر الزهيد ، واما أرقاء يعيشون لخدمة سادة الأرض ، وأدوات انتاج لخدمة السادة رجال الاقطاع .

قاسي الشعب الإسباني في ظل حكم القوط ويلات المؤس والحرمان والشقاء ، وكان عبء الضرائب يقع على عاتقهم ، بل ان القوط بعد أن حكموا أسبانيا تخلوا عن الروح الحربية والمقدرة القتالية التي تحلو بها قبل مقدمهم إلى أسبانيا ، وحينما حاربوا ضد الرومان والى جانب الرومان . واعتمد القوط على الشعب الإسباني المكادح في الحرب واستكانوا إلى الراحة والسكنة ، وأصبح قوام الجيش الإسباني من الإسبان واليهود أنتظموا في سلك الجيش غير راضين عن حكومتهم التي سلبتهم حقوقهم الشروعة في الحياة الحرة الكريمة وكان من الطبيعي الا تخلى هذه العناصر المضطهدة في الحرب لصالح القوط ، بل تمنوا الخلاص من حكومتهم الظالمه الغاشمة وهذا يفسر أسباب هزائم جيش أسبانيا القوطي .

اشتد اضطهاد اليهود في أسبانيا ، وكانوا يشكلون الطبقة العاملة والتجار والمرأين ، وقايسوا صنوف الاضطهاد من القوط

وأجبروهم على التنصر أو النفي أو المصادره فاعتنق النصارى
كثير منهم كرها . ولما اشتد اضطهاد القوط لهم راسلوا يهو
المغرب ودبروا معهم انقلابا ضد القوط ، ولكن أمرهم انكشف ، فز
القوط في اضطهادهم في عهد الملك اجيكا سنة ٦٩٤م ، وأصد
موسوما بالتكليل بهم ، وصادر أملاكهم على اعتبار انهم خوا
أعداء الوطن ، وفرض عليهم العبودية ، وحرر الارقاء النصارى
من السادة اليهود ووهبهم بعض أملاكهم ، ونزع الابناء اليهود دو
السابعة لتربيتهم على النصرانية ، وألا يتزوج رجل يهودي .
نصرانية ولا تتزوج يهودية بنصرانى . وهكذا عاش اليهود في ظا
واضطهاد ، وتمنوا الخلاص من بطش القوط ، وناصروا العرو
حينما قدموا الى أسبانيا ، واعتبروهم منقذين مخلصين .

الناس . وقد لجأ الثوار والمعارضون إلى يولييان - حاكم
سبته والمضيق .

تختلف الروايات حول أصل يولييان فيري البعض أنه يحكم
سبته نيابة عن الامبراطور البيزنطي ، ويعتقد البعض الآخر انه
قططى يحكم سبته نيابة عن ملك القوط ، وينكر البعض وجود يولييان
على الأطلاق ، لأن الخبراء لم ترد إلا في القرن الثاني عشر ، ولكن
الحقيقة أن يولييان شريراً نهائياً ، حكم سبته نيابة عن ملك
القوط ، وأنه كان واسع النفوذ ، - يعتمد بالبحر لجأ إليه الأشراك
والمعارضون لحكم رودريك ، وكان من أنصار العهد القديم يعارضون
حكمهم رودريك ، ويروى ضرورة عمدة العرش التي بيت ويترا ،
فتحالف يولييان مع موسى بن نمير لعزل رودريك عن العرش .
وتضيف الرواية العربية سبباً آخر لتحالف يولييان مع موسى بن
نصير ، فقد أرسل يولييان ابنته الحسناء فلورندا إلى بيلات القوط في
طلبها لتنقلي ما يليق بها من التربية والتعليم بين أبناء الأسر
الارستقراطية ولكن رودريك أفتتن بجمالها ، واحتدى على عقابها
فغضب يولييان ، ورأى ضرورة الانتقام من رودريك . وبعض
الروايات تتذكر هذه الرواية من أساساتها ، وتحتبرها من فسح خيال
الرواية . ولكن الرواية الأساسية لا تتذكرها . وترجع إلى القرن الثامن ،
ويؤيد بعض الكتاب الأوروبيين هذه القصة ، وينكرونها البعض الآخر .

وهما يكن من أمر يمكن أن يكون سبب موقف يولييان من الفتح
العربي لاسبانيا راجعاً إلى هناءة يولييان للعهد القديم وانصاره ،
ومعارضته للعهد الجديد ، فضلاً عن قصة فلورندا . وكان تدخل
يولييان أكبر عامل في تذليل فتح المسلمين لاسبانيا .

الأندلس :

المراد بلفظ الاندلس أسبانيا الإسلامية بصفة عامة ، أطلق هذا
اللفظ في بلاده الإمبراطور على شبه جزيرة إيبيريا كلها ، على اعتبار
أنها كانت جميعاً في يد المسلمين ، ثم أخذ لفظ أندلس يقل دلوله

الجغرافي - شيئاً يشيئاً تبعاً للوضوح، بينما يليبي، الذي كانت عليه الدولة الإسلامية في شبه الجزيرة ، حتى صار لفظ الأندلس آخر الأمر قاصراً على مملكة غنّاطة الصغيرة ، وهي آخر معقل للمسلمين في الأندلس ؟ في الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة الأيبيرية .

وكلمة أندلس استقها الغرب من الكلمة ولندلوشن وهي لغتهم قبائل الوندال герمانية التي اجتاحت أوروبا في القرن السادس الميلادي، واستقرت في السهول الجنوبية الإسبانية وأعطيت اسمها، ولما انتفع الغرب أسبانيا، عربوا هذا الاسم، وسموه أندلس.

وبالاحظ أن حكم المسلمين للأندلس دام أكثر من ثمانية قرون في
ولهذا تركوا فيها آثارا هادية وروحية وخلقية واضحة المعالم ،
ولا سيما في الولايات الجنوبية التي استقر فيها العرب إلى آخر
أيامهم ، فالسمات والعادات واللغة والموسيقى والاغانى والصفات ،
العربية يلاحظها بوضوح كل من اتصل بالاسبان ، وعاش بينهم ،
واللغة الإسبانية تحتوى على أكثر من أربعة آلاف كلمة عربية عدا
التعابير والصيغ العربية الموجودة في تلك اللغة . ولاتزال توجد
عثبات مسيحية إسبانية تحمل اسماء عربية مثل جنى حسن
وبنى فتحية . أما أسماء الأماكن العربية والمغربية فلا تزال في كل قرية ،
وفي كل ناحية من الأرض الإسبانية .

وتقع شبه جزيرة أيبيريا في جنوب غرب أوروبا ويحدها من الشرق البحر المتوسط ، ومن الغرب المحيط الأطلسي ويفصلها عن فرنسا شمالاً جبال البرانس ، التي تخللها ممرات ومضائق تصل بين البلدين . وهذه الجبال جعلت أسبانيا في شبه عزلة عن أوروبا ، وتحيط بأسبانيا مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسي من الشرق والغرب يوم والجنوب حتى أطلق عليها العرب جزيرة أسبانيا .

وقد امتنع المسلمون طبيعة أسبانيا الجبلية في تكوين شبكة دفاعية قوية، فجعلوا من سلاسل الجبال وديان الانهصار التي

تقعها في خطوط مستعرضة من الشرق إلى الغرب أو العكس خطوط دفاعية ضد أي هجوم يقع عليها من المسيحيين في الشمال فقامت على هذه الوديان مدن هامة ، كللت بمثابة قواعد عسكرية لهذه الخطوط مثل سرقتسيه وطليطله . وفي أقصى الجنوب تجد نهر الوادي الكبير الذي تقع عليه عواصم الأندلس مثل قرطبة وأشبيلية وقادس .

ويعتبر جبل طارق حلقة الوصل بين المغرب والأندلس ويقع هذا الجبل في أقصى جنوب إسبانيا ، وكان يسمى الجبل المجوف Mons calpe ثم أطلق عليه المسلمين اسم الصخرة وجبل الفتح وجبل طارق وفيما يليه المجاز . واسم جبل طارق هو الأسم المعروف حتى الآن في جميع اللغات Gibrattar نسبة إلى فاتح الأندلس العظيم طارق بن زياد .

أما المضيق نفسه فيعرف قديماً بأعمدة هرقل نسبة إلى الجبال المحيطة به ، وأطلق عليه العرب مضيق جبل طارق وطوله ٨٠ كم ، وعرضه حوالي ١٥ كم .

وكما يقول الدكتور أحمد مختار العبادى أن مسافة المضيق التي تفصل المغرب عن الأندلس ضيقة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري أو الثقافى أو الاقتصادى بينهما فكل من القطرين يعتبر منطقة آمان للأخر وامتدادا له في التعم والجوار والأخذ والعطاء وفي الصلالات التاريخية والتكتونيات الجغرافية والجيولوجية والموقع الاستراتيجي رغم وجود هذا المضيق بينهما . ولهذا نشب صراع تقليدى مستمر بين الشاطئين الأفريقي والأوربى حول السيطرة على هذه المنطقة المحيطة بالمضيق ، والمعروفة باسم البندوتين ، عدوة المغرب وعلوه الأندلس ، وبالعدوة معندها الجانب أو الشاطئ .

الفتح العربي لاسبانيا

الاسلام في نهضته الشاملة ، وبروحه الفياضة الشجاعة التي
بتها في نفوس أهل يكتب المسلمين ولدولة الاسلام أرضاً جديداً
في كل سنة بل وفي كل يوم ولما افتح المسلمون للشام لم يكتفوا بجفلك ،
بل اتجهوا إلى مصر ، ومن مصر فتحوا المغرب ولما تم فتح المغرب
رأى موسى بن نصير أن يوامن انتصارات المسلمين وجهادهم فيما
وراء المضيق ، في عالم جديد غريب على المسلمين كل المغراة ،
وشجعه على ذلك اللقاء الذي تم بينه وبين يولييان حملهم سبته ،
والتحالف بين الرجلين كان تحالفاً فريداً من نوعه ، يولييان يتطلع إلى
القضاء على عرش ملك القوط ، مستعيناً بقوة المسلمين المقدمة
والصاربة ، وموسى يريد أن يستغل تحالف يولييان معه في تحقيق
حلم الاسلام الكبير ، وهو الانتشار في شتى البلاد والبقاء ،
والزحف إلى الامام دون أن يعوقه عائق ، ويحول دونه حائل

بعد أن أتم موسى بن نصير فتح طنجة ، تطلع إلى فتح سبتة
ولكته لم يستطع لذاعتها وبينما هو يستعد لإعادة الكرة جاءته رسالة
من يولييان يعرض عليه مشاركته في فتح أسبانيا ويرغبه في الغنائم
التي قد يحصل عليها من وراء هذا الفتح . والراجح أن يولييان لم
يكن يقصد أن يساعد موسى على فتح أسبانيا ، وإنما يدخلها في حوزة
العرب ، ولكن يولييان كان يقصد أن يساعد موسى في التخلص من
رودريك ، والانسحاب بعد ذلك من أسبانيا وكان يعتقد أن العرب
يشنون الغارات لأجله ، الحصول على الغنائم ، ثم ينسحبون إلى
موقعهم أما موسى فحينما وصلته رسالة يولييان ، وجد الفرصة
سانحة لتوسيع ملك الاسلام فيما وراء البحر .

ومهما يكن من أمر فقد قابل موسى يولييان ، وتختلف الروايات
حول مكان المقابلة ، فالبعض يرى أنها تم تخفيف عرض البحر ، ويرى
آخرون أنها كانت في سبته ، ويرى البعض أنها قمت خارج سبته ،

ولا نعرف بالضبط ما الذي دار في هذه المقابلة . ولكن يغتم من سير الاحداث انهم اتفقا على غزو اسبانيا ، وتعهد يوليان بتقديم السفن والادلاء وكل مساعدة ممكنة . وأغلب الظن أن يوليان حرض موسى على التخلص من رود ريك والانسحاب فورا ، وانهاء مهمته عقب ذلك . لكن موسى كان يضمر استغلال صاحبه في تحقيق مشروع كبير ، وهو التوسيع فيما وراء البحر . وأطاع يوليان موسى على ضعف اسبانيا ، ومعارضة الأهلين للحكم القوطى ودله على نقاط الصيف في هذا البلد الفسيح .

لما اقتسم موسى بهذا المشروع الكبير ، كتب الى الوليد بن عبد الملك يستأذنه في فتح اسبانيا ، فكتب اليه الوليد أن يختبره بالرسایله ، والا يزج بالمسسلمين الى أهواك البحر ، ونزل موسى على نصوح الخليفة في اختبار الفتح الجديد بالرسایلا .

عهد موسى الى احد جنده ، وهو طريف بن مالك أو ملوك ويكتفى بباب زرعة ، وأمره بشن الغارة على ساحل اسبانيا الجنوبي ، فعبر طريق المضيق في مائة فارس وأربعينه رجل في رمضان سنة ٩١ هـ ٧١٠ م وتمكن في المكان المعروف بلسممه حتى اليوم نزل طريف وجذوه وأغاروا على المناطق التي تليها الى جهة العزيزة الخضراء . وأصحاب سبيا وما لا كثيرا ، وعاد سالما .

أشبّقت هذه الحملة الاستطلاعية اخلاص يوليان اذ قدم لطريف السفن والارشادات اللازمة ، كما أن هذه الحملة لاحظت ضعف المقاومة في اسبانيا ، وتدهور البلاد وامكان غزوها .

شجعت هذه الحملة الاستطلاعية موسى بن خمير على اعداد جيش كييف لمفتح اسبانيا فجهز جيشا من الغرب والبربر يصلع عدد رجاله سبعة آلاف مقاتل ، وأسند قيادته الى طارق بن زياد الثني - حاكم طنجه - ويختلف المؤرخون حول نسب طارق بن زياد غيري البعض أنه فالزبي من معдан ، وأنه مولى موسى بن خمير ، وبحسب رواية أخرى وهي الأرجح ان طارقا من البربر ، ومن هبطة نقرة

بالذات ، وأئنه تلقى الاسلام عن أبيه زياد ، وهذا عن أبيه عبد الله
وبعد عبد الله تدخل في أسماء برمبرية محضره حتى تصل إلى بنفذه
ومن القبيلة التي ينتسب إليها .

كان طارق بن زياد جنديا شجاعا ، وقادا بارعا ، وقد خطط
موسى للإمارة وولاه طرجه ، وهى أمنع حصن المغرب ، وتقى
في بقعة استراتيجية تحتاج إلى مقدرة دفاعية كبيرة ، ثم أُسند
إليه مهمة فتح الاندلس ، وقاد جيشا كبيرا وعبر جديه المضيق في سفر
يوليان ، ونزل بالبقعة الصخرية التي لا تزال تحمل اسمه إلى اليوم .
وهي جبل طارق سنة ٩٢ هـ - ٧١١ م ، واختنق طارق - المنطقة المجاورة
بمعونة يولييان وارشاده وتمكن من اختراق ملاج البحرية ، و واستولوا
على قلاعها ، وهزم قادها القوطى تدمير ولما أدركوا ليلة القصود
في هذه المناطق خطر لزحف المسلمين ، وما قد يؤدي ذلك المو
زوال ملك القوط ، أرسلوا إلى تيودوريك - ملك القوط الذى كان فى
بعض الولايات الشمالية ، لقمع الفتنة فيها يخربوه بخطورة موقف ،
فعاد الملك من شرعة إلى طليطلة وأعاد تنظيم قواته .

تغلب طارق بن زياد على كل مقاومه اعترضته ، وواصل زحفه إلى عاصمة
القوط ، وأبعد ملك القوط جيشا قويا يقارب مائة ألف مقاتل
أو تسعون ألفا ، وبنارع الجيش لوقف الزحف الإسلامي . ولما علم
بضخامة جيش القوط ، استتجد بموسى فائدته بخمسة آلاف جندي ،
فحضار جيش الإسلام : اثنى عشرة ألفا ، وانضم إليهم يولييان في قوة
صغريرة من أضماره وجندة .

دار اللقاء بين جيش القوط الكبير وقوة المسلمين الأقل عددا
على خلاف نهر وادي لكنه أو وادي بكه . وفي هذا الموقع دار اللقاء
التاريخي الحاسم بين الشرق والغرب ، وبين الإسلام والنصرانية في
رمضان سنة ٩٣ هـ - ٧١١ م ، وفرق النهر بين الجيدين .

دارت مناورات بين الجيدين استمرت عدة أيام ، ثم نشبت
المعركة الخامسة التي انتهت في اليوم السابع . من بدأ القتال ، توكلن

جيش القوط تمزقه الخيانة والخلافات والكراهيّة للملك ، وعدم الأخلاص في الحرب ، وتمنّى كثير من جند الملك القوطي هزيمته ، واستطاع يولييان في المعركة أن يستميل بعض الجنود ، وأدى انقسام الجيش إلى هزيمته ، ومزق المسلمين أعداءهم كل ممزق ، ولم ينج إلا الشريد ، أما الملك فتختلف الروايات في مصيره ، ففيقول البعض جابه عرق الفهر ، والبعض يقول أنه قتل ، ويذهب البعض إلى أنه هرب إلى البرتغال ، وتوهّب في بعض الأديرة متخفيا حتى وفاته . وتسمى هذه الموقعة وإدّي لها أو زادي يكـه أو موقعية بيدوفـه ، وكلـ من أهـم نتائجـها زوالـ مـلكـ القـوطـ وـ سـقوـطـ المـدنـ الإـسـبـانـيـةـ فـيـ يـدـيـ الـمـسـلـمـينـ الـواـحـدـةـ تـلـوـ الـأـخـرـىـ تـسـاقـطـ أـوـزـاقـ الـخـوـيـفـيـ .

ألقت هذه الموقعة الرعب في قلوب القوط ، فامتنعوا بالبحصون والجبال ، وقصدوا إلى المصايب والسهول ، وذاقت أنباء النصر في بلاد المغرب ، فزحف إلى الأندلس عدد غير من العزيز والمغرب ، وأنضموا إلى الجيش المنتصر ، واستتبّك المسلمين مع القوط في موقعة استشقة ، محاولة من القوط لدرء المسلمين عن بلادهم ، ولكن الدائرة ذارت على القوط مرة أخرى ، الأمر الذي يسر للمسلمين أمر ثنيع المدن الاستانية المدينة تلو الأخرى .

زحف طارق بن زياد إلى ظليطلة ، على حين أرسل منيشه الرومي - مولى المؤيد بن عبد الملك - إلى قرطبة ، فهدم أسوارها ، واقتصرها دون شفة ، وأرسل حملات أخرى إلى البيز ، وغزت لطة ومالقة ، وتم فتح هذه البلاد ، وغاون، اليهود المستسلمين في لجهة الحروب لأنهم - كما قلنا - يرجون زوال ملك القوط ، وكان المسلمين يضعون في كل مدينة يفتحونها حامية صغيرة تحفظها ومنع أي مضايقة قوطية ، لاستردادها ، ثم زحف المسلمون شرقا إلى مرمسه وكأنه تسمى تدمير نسبة إلى حاكمها ، ولكن لهذا الحنائم قلوب المسلمين بعثة وضالة ، ولم يُستقطع المسلمين فتح البلادة ، بل اجتازوا عليها بطرط عدم ملائمة أعداء المسلمين .

وكان مقاومة القوط قد اعترافها الوهن والضعف ، وهذا يفسر لنا دخول طارق بن زياد طليطلة ، والاستيلاء عليها دون مقاومة تذكر ، وقد فرت حاميتها وهرب سكنتها إلى القرى والجبال المجاورة ، ووجد المسلمون المدينة خالية من سكانها ، وغنم المسلمون مغارات وغيرة من القصور والكنائس تسهيلاً للمراجع العربية الخديثة عنها .

خشى طارق أن يقطع عليه العدو الطريق في هذه البلاد الجبلية الوعرة لا سيما وأن فصل الشتاء كان قد اقترب ، وتحبه المسلمين من الجهد الذي يبذلوه وأثقلتهم الغنائم التي جمعوها ، ويرى البعض أن طارق استدرج بموسى بن نصیر غير أن بعض المصادر تشیر إلى أن موسى بن نصیر هو الذي أمر طارق بوقف الفتح ، أمام حوسنا على عدم التوغل بالمسلمين في مجاهل تؤدي إلى تدميرهم أو حقداً على أن ينال طارق شرف فتح الأندلس .

ونحن نرجح أن موسى بن نصیر الذي عرف عنه الحذر ، طلب من طارق التوقف حتى يلحق به لدراسة الموقف على الطبيعة ولتحديد امكانية مواصلة الفتح أو التوقف عند هذا الحد . وممّا يكن من أمر فقد غير موسى مضيق جبل طارق على رأس عشرة آلاف مقاتل من العرب وثمانية آلاف من البربر في سفن صنعوا خصيصاً لهذا العمل ، يحفزه شرف الاشتراك في الفتح على الرغم من أنه بلغ من العمر أرذله ، وتزل بولاية الجزريرة حيث استقبله الكونت يوليان ٩٣٧ - ١٢٥٠ مـ ، وبذل موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شدونه ، ثم قرمونه - وهي حصن منيع - فاستولى عليها ، وفتح أشبيلية بعد حصار دام شهراً ، وفتح ماردده بعد لاي وعشاء سنة ٩٤ هـ والتقي موسى بطارق على مقربة من طليطلة ، وتشير الرواية العربية إلى أن موسى أثبت طارقاً بل بعضهم يقول أن موسى زج طارقاً في السجن ، ولكن ما لبث أن عفا عنه ، ثم اشترك القائدان الكبيران سوياً في مواصلة فتح ما تبقى من بلاد الأندلس ، وزحفاً نحو الشمال الشرقي ، واخترقاً ولاية أراجون واستوليا على سرقسطة ووشقة ولا رده حتى بلغت شاطئ البحر الشمالي عند حدود فرنسا الجنوبية .

وهكذا انتهى كل عن موسى وطارق من فتوحاتهم ، وكلنت أوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك قد قضت برجوعهما إلى دمشق ، فرجع موسى وممه طارق ، بعد أن خلف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصیر في أواخر سنة ٥٩٤ - ٧١٤ م .

وكان موسى طموحا يططلع إلى عبور جبال البرانس والأندفاف في غزو أوروبا ، ولكن الخليقة عارض هذا الرأي خوفا من العاقبة الوخيمة . أمّا ابنه عبد العزيز بن موسى ففتح الجزء الشرقي من الجزيرة . وبذلك تم فتح شبه جزيرة إسبانيا كلها إلا الجزء الشمالي الغربي الذي يسمى جليقية . فكانت هذه النبضة التي تركها العرب لبردهما ووعرتها ، نواة لدولة المسيحية الإسبانية التي ما زالت تتموّن وتترعرع حتى طردت العرب من الأندلس بعد ثمانية قرون .

وبينما سادروا أن حملة طارق بن زياد جاءت ممددة للأسرة الملكة القديمة ، وعوناً لها على اعتدتها إلى الملك . ولما زحف موسى إلى الأندلس اتخذت الحملة صفة الفتح . ولذا ثار الإسبان في المدن الكبرى مثل أشبيلية وطليطلة وغيرها مما اضطر العرب إلى فتحها من جديد ، ومن حذا . أصبعوا فاتحين لا معددين كما كانوا من قبل . وكلاًّاوا أسرة بوليلان والأسرة الملكة القديمة . العلاقات والضياع والانقطالات على مسامعهم في الفتح . ولكننا نرد على كلام سلقدوا بأن العرب جعلوا فاتحين لا معددين ، وأن فتح الأندلس جزء من سياسة المسلمين الكبرى . التي بدأت منذ فجو الإسلام وهي مواصلته الفتوح ، ونشر الإسلام في غير بلاد الإسلام .

وهكذا فتحت الأندلس في أربع سنوات من ٩١ - ٥٩٥ .

تختلف الروايات حول البواعث والأسباب التي دفعت الوليد ابن عبد الملك إلى استدعاء موسى . وطلاقه إلى دمشق ، فيشير بعضها إلى الخلاف بين طارق وموسى . وخوف الخليقة من أثر هذا الخلاف على موقف المسلمين في الأندلس . وتشير رواية أخرى إلى أن الخليقة خشى من توغل موسى بالمسلمين في أراضي بعيدة قاصية . عن بعض

دمشق وتشير رواية أخرى — وهي الأرجح من أن الخليفة خشي من أن يستقل موسى بهذه البلاد النائية البعيدة، وقد عرفت عنده الطموح .

امتنى موسى لأمر الخليفة ، وكانت عنده — رعم شيخوخته آمال عراض ، ففكر في اختراق جبال البرانس ، وأن يقتحم أمم النصرانية في فرنسا وأيطاليا واليونان وغيرها ويصل إلى الشام عن طريق القسطنطينية ، وتحويل البحر المتوسط إلى بحيرة عربية ولم تكن هذه الخطة مستحيلاً تحقيقها في ذلك الوقت . ذلك أن دولة الفرتوجة في فرنسا وألمانيا — وأنلومبارد في إيطاليا ، وممالك النصرانية الأخرى كانت كلها ضعيفة ، — ولا تستطيع التصدى لقوة المسلمين المتفوقة في ذلك العصر .

وتخالف الروايات حول مصير موسى بن نصیر ، فتذكر بعض هذه الروايات أنه قُبِّل في دمشق بالترخاب ، وتذكر روايات أخرى أنه غُول بقسطنة في دمشق لا تتناسب إطلاقاً مع الدور الكبير الذي أداه في خدمة الإسلام وأهله .

فقد وصَّلَ موسى إلى الفسطاط ثم إلى دمشق في موكب جن ريفنائيم لم يشهد التاريخ له مثيلاً يتمثل في الأسرى من أبناء وبنات وملوك القوط والذهب والفضة وغير ذلك مما لا يمكن حطمنته ، وتشبيه الروايات إلى أن موسى اقترب من دمشق ، وكان الولييد ألق بمرضه الموت « فطلب منه ولی عهده سليمان بن عبد الملك أن يتحمل لحين وفاة الوليـد حتى يحصل له » . أى سليمان ، على جمجمة الغائم . ولكن موسى رفض تلبية طلب سليمان ، ودخل دمشق والوليـد على فرائس الموت ، فلما توفى الوليـد وولى سليمان خارـجـهـ على موسى وأماءـهـ حـامـلـهـ ، وزوجهـ في السـجـنـ وـظـالـبـهـ بـالـاسـلـالـ الـكـثـيرـ ، وـانـسـطـاغـ مـوسـىـ تـسـبـيهـ بـغـضـنـ ماـ عـلـيـهـ تـولـجـنـاـ ، الـهـيـ بـغـضـنـ الـقـبـشـاتـ الـثـلـلـبـهـ بـفـعـاـونـشـهـ عـلـىـ تـهـمـيـدـ ، بـنـاقـيـ هـاـ عـلـيـهـ ، هـمـ عـقـلـنـاـ عـهـ وـقـوـيـ الشـيـخـ بـعـدـ أـنـ تـجـنـاؤـاـ هـنـ الـعـمـلـاـ ثـمـانـيـنـ بـعـاـنـاـ بـعـدـ أـنـ أـدـىـ ذـوـنـاـ بـطـولـيـاـ يـذـكـرـهـ الـقـارـيـعـ بـفـخـرـ ، وـأـعـزـاـ الـخـاتـمـةـ مـوـطـهـ .

كان موسى بن نصیر من أعظم رجالة الجبوب والاداره للمصلحين في القرن الأول — العجرى ، ظهرت خلوته الفائقة في معرفة نفعية الشعوب وتراعيـة في سياسـتها وقادـتها وكان عالـماً في الحديث والفقـه والشعر والأدب والفلـك ،

أما مصير طارق بن زيـاد فالرواياتـان العربية والـاسبانية لا تـشير كلـ منها اليـه بشـيء وبيـدو أنـ أمرـه أهـملـهـ فيـ دمشق وأـنه قـضـى بـقيـة حـيـاتهـ فيـ زـواياـ النـسيـانـ، وـأـسـيـئـتـ معـاملـتـهـ رـغمـ مـقـدرـيـتـهـ الـعـسـكـرـيـةـ الـكـبـيرـةـ وـرـغمـ جـهـودـهـ الـجـبارـةـ فـفـتحـ بـسـلـادـ الـمـغـربـ وـالـأـنـدـلـسـ، أما مـصـيرـ الكـوـنـتـ يـولـيانـ، فـيـخـلـصـ الروـاـيـاتـ عـادـ إـلـىـ نـسـبـتـهـ بـعـدـ الفـتحـ، وـأـقـطـعـ ماـ حـوـلـهـ مـنـ الـأـرـاضـيـ، وـقـلـهـ مـاـ مـلـوتـهـ بـجزـءـ لـخـدـمـاتـهـ، وـبـقـىـ عـلـىـ دـيـنـهـ، غـيـرـ أـنـ عـقـبـهـ دـخـلـوـاـ فـيـ إـلـاسـلـامـ، وـيـقـولـ الـرـوـاـيـةـ أـنـ قـتـلـ فـيـ صـرـاجـ مـعـ مـوـاطـنـيـنـ أوـ قـتـلـ، بـعـدـ ذـلـكـ يـأـعـوـلـمـ فـيـ وـلـاـيـةـ الـحـرـثـ الـقـفـيـ بـيـدـ الـعـربـ الـخـيـنـ أـرـتـاـبـوـاـ فـيـ وـلـاـيـةـ،

كان عبد العزـيزـ بنـ مـوسـىـ بنـ نـصـيرـ أـولـ وـلـاـيـةـ الـأـنـدـلـسـ، فـتـقـىـ الـمـسـلـمـيـنـ، وـأـسـتـخـلـفـ مـوـسـىـ أـبـنـهـ عـبـدـ اللهـ عـلـىـ أـفـرـيـقـيـاـ، وـأـقـرـ شـكـلـيـمـكـنـ أـبـنـ عـبـدـ الـمـلـكـ هـذـاـ الـأـخـتـيـارـ، وـكـاثـتـ مـهـمـةـ عـبـدـ الـعـزـيزـ ضـنـعـةـ، فـقـوـىـ الـخـضـونـ، وـجـهـزـ الـحـامـيـاتـ الـقـسـكـرـيـةـ بـمـاـ يـخـتـانـهـ، فـنـ مـؤـنـ ومـعـدـاتـ، وـقـمـعـ الـثـورـاتـ، وـأـعـادـ الـهـدـوـةـ وـالـقـطـمـانـيـةـ الـقـيـادـةـ، وـأـنـشـأـ دـيـوـانـاـ لـتـطـيـيقـ الـإـحـكـامـ الـشـرـعـيـةـ، وـشـيـرـجـ الزـواـجـ بـيـنـ الـعـربـ وـالـإـسـپـانـ، وـيـقـرـبـوـاـ بـالـكـبـةـ، اـيـجـلـوـنـاـ بـأـرـمـلـةـ، وـرـوـدـ، وـبـيـكـ الـقـرـوـطـ وـالـخـيـارـ الـشـيـنـيـلـيـةـ، أـولـ عـاصـمـةـ الـأـنـدـلـسـ، وـأـقـيـرـ الـمـهاـجـرـونـ عـلـىـ الـأـنـدـلـسـ، مـنـ الـعـربـ وـالـبرـيرـ، وـأـسـتـقـرـوـاـ بـالـوـطـنـ الـجـدـيدـ، وـأـشـتـغلـوـاـ بـالـزـوـرـاءـ، وـالـصـنـاعـةـ، وـالـتـجـارـةـ،

ولـكـنـ الـنـرـبـ فـيـ آـسـيـانـ عـارـضـوـاـ حـكـمـ عـبـدـ الـعـزـيزـ بنـ مـوسـىـ، وـأـتـهـمـ بـعـضـهـمـ بـالـانـقـيـادـ لـزـوـجـتـهـ، بلـ زـرـدـ الـبـعـضـ أـنـهـ تـنـصـرـ وـلـكـنـ الـأـقـرـبـنـ، الـأـلـىـ، الـهـنـوـنـ، أـنـ الـلـطـبـنـهـاـ مـخـالـفـتـهـ حـولـ نـوـيـاـهـ فـيـ الـاشـتـقـالـ بـالـأـنـدـلـسـ، فـوـيـغـزـرـهـاـ خـصـيـلـهـ الـشـيـنـيـلـيـهـ مـعـ الـخـلـافـهـ الـقـفـيـهـ اـنـشـهـدـتـ تـأـفـاهـ

موسى . فمهما يكن من أمر فقد هاجمه الثوار في مسجد أسبانيا
وقتلوا سنة ٩٩٧هـ . وأرسلوا برأسه إلى سليمان بن عبد الملك بدمشق
 مما يدل على أن أصابع سليمان لم تكن بعيدة عن هذه المؤامرة
خصوصا وأن سليمان عزل عبد الله بن موسى في هذه الأونة .

نتائج الفتح العربي للأندلس

من الناحية السياسية سقطت مملكة القوط ، وتحولت أسبانيا
إلى ولاية تابعة للدولة الإسلامية الكبرى ، يحكمها ولاة يعينهم وإلى
أفريقيا أو وإلى مصر ، لأن أسبانيا كانت أحيسانا تتبع وإلى إفريقيا
وأحيانا تتبع وإلى مصر .

أدى الفتح العربي للأندلس إلى تغير شامل في المجتمع الأسباني
فلم يعد ينقسم المجتمع إلى طبقة أرستقراطية تمثل في القوط ورجال الكنيسة
وطبقة متوسطة تعمل لحساب الأرستقراطية وتتقاضى الأجر
القليل ، وطبقة حنيا من الأقنان والأرقاء ويهود ناقمين على الحكومة
لأخذها لهم ، وإنما ذابت الفوارق بين الطبقات في المجتمع الجديد
وأنقسم المجتمع إلى العرب وهم الذين ساهموا في الفتوح أو هاجروا
إلى أسبانيا واستقروا فيها بعد الفتوح ، والبرير هم أهل المغرب
الذين ساهموا في الفتوح .

والاسبان سكان البلاد الأصلين وقد تعلموا اللغة العربية لغة
الغاتحين وسمموا بالمستربين وبقوا على دينهم ، لا يتعرض لهم
العرب بسوء ولا يحملونهم على اعتناق الإسلام ، لأنه لا إكراه في
الدين ، وإنما يكتفى من أراد على دينه بشرط تحفظ العزيمة وثمة طبقة
أخرى وهي طبقة المولدين ، ونشأت هذه الطبقة الجديدة من تزاوج
العرب بالاسبان ، فحملوا مزايا الجنسين ، وكانوا نتيجة لاختلاط
الدماء العربية بالأوروبية .

ومن نتائج الفتوح الإسلامية للأندلس تحسن الأوضاع
الاقتصادية في الأندلس ، فأعيد توزيع الأراضي الزراعية بين العرب

والبربر والاسبان ، ولم يعد الاسباني يزرع لصالح الاستقرار اطيافه التي لم تكن تترك له سوى النذر اليسير مما لا يكاد يكفي احتياجاته أما العرب فقد تركوا الأرض في يد الاسبان يزرونها ويؤدون خراجها الذي حدد بنسبة المحصول وجودة الأرض ويعده أو قربه من مصادر المياه ٠

وأدى الفتح العربي إلى انتشار اللغة العربية والإسلام ، وظهور الحضارة الإسلامية في الأندلس تدريجيا ، وكانت أسبانيا قبل الفتح تعيش في ظلام الجهل ٠ ولكن الإسلام أضاء بنوره هذه البلاد وأدى إلى ظهور العلم والثقافة وانتشار الحضارة الإسلامية ٠

عصر الولاة في الأندلس

تعرف الفترة الأولى للحكم الإسلامي في الأندلس بعصر الولاة وهي فترة مضطربة كل الأضطرابات ، سادت فيها القلائل والفتنة بلاد الأندلس ، وأشتد هذه الفتنة ضراوة ما حديث بين المغرب وأنبريز ، وكان أمير القريوان هو الذي يعين ولادة الأندلس في أغلب الأحيان ، على أن أهم ما يميز هذه الفترة هو عزوات المسلمين في فرشتبأ أو فتما وراء انبرالنس ،

ما قتل عبد العزيز بن موسى ، ولد الأندلس ابن عمته أيوب ، ابن حبيب اللخمي سنة ٩٧ هـ ، وحكم البلاد ستة أشهر فقط ، واليه ينسب بناء قلعة أيوب في جنوب سرقسطه شمال إسبانيا ، وهي الآن مدينة كبيرة لا تزال تحمل اسمه ، ثم خلفه الحربي بن عبد الرحمن الثقفي حتى سنة ١٠٠ هـ ٧١٩ م ، وخلفه السمح بن مالك الخولاني نسبة إلى قبيلة خولان اليمانية بعهد من الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وقام هذا أنوالى الجديد بعدة اصلاحات عمرانية وأدارية ، منها إعادة بناء سور قرطبة وقطرتها التي تربط المدينة بأراضيها الجنوبية عبر نهر الوادي الكبير .

بدء المحاولات الجديدة لفتح فرنسا

كانت الفتوح العربية تتدافع كامواح البحر موجة تلو موجة فالعرب قد فتحوا الشام ثم وثبوا منه إلى مصر ، وجاءت بعد مصر أفريقيا ، ثم كان بعد مصر فتح أفريقيا ، ففتح الأندلس وتمشيا مع هذه الطريقة كان لابد أن يتبع فتح الأندلس قفزة أخرى إلى ما وراءها وفعلاً فكر في هذا — كما قلت — موسى بن نصیر عندما أتم فتح إسبانيا ، ثم فكر في أن يعبر جبال البرتات إلى أرض غاليا ، ومنه يسير شرقاً في مشروع كبير يرمي إلى فتح روما أو القسطنطينية ، والقسطنطينية كانت أملأ عظيماً ، تحطمـت على أسوارها كثير من المحاولات العربية في المشرق ، فقد حاول العرب غزوها عدة مرات ، ولكنـهم أخفقوا ، ولكن الخليفة

استدعي موسى بن نصير — كما رأينا — وربما توغل المسلمين في أراضي، ومجاهل غير آمنه ، ولكن فكرة غزو ما وراء أسبانيا ظلت تتربّد في النفوس حتى ولّ الإندلس . السبّاح بن مالك الخولاني ، وهو من خيرة الولاة الذين تولوا أمر الإندلس . وبتوليته عادت إلى الجندي جماساتهم وتحرّكت فيهم روح العبر والتى كانت قد فترت بعد استدعاء موسى وطيارق إلى المشرق ، وما أصاهمما في دار الخلافة .

ويجدر أن نلقى نظرة عامة على فرنسيّا مُبَشِّل محاولات المسلمين فتحها ، ففي رنسيا في التاريخ الروماني تسمى غاليا ، أو غاليس أو غاله ، وكما يُطلق جغرافي لم تكن قد وجدت بعد ككتلة واحدة أو كوحدة سياسية ، كذلك لم تكن قد تكونت بعد اللغة الفرنسية في ذلك الوقت ، وبعد زوال الدولة الرومانية توزعت فرنسيّا بين قوى مختلفة ، فسبتمانيا كانت تابعة للقوط الغربيين — وهي المدن السبع — والجزء الذي يُعْد نهر اللوار شمالا إلى جبال البرنات جنوبا كان دوقية مستقلة تسمى أكيتانيا « أكوتين » فإذا سرنا من أقاليم سبتمانيا شرقا ، فهناك أقاليم بروفانس ، بينما نجد شرقى نهر الرون « بريجنديا » وكانت هذه الأقاليم مسؤولة تبعاً لما تخلّف عن الغارات الجرمانية . أما شمال نهر اللوار حتى المانيا الحالية ، فكانت مملكة تسمى مملكة الفرنجة أو الميروفنجية .

ضيّفت الدولة الميروفنجية بمور بالزمن ، ولم يعد في استطاعتها القبض على زمام الأمور في الدولة ، انهارت السلطة المركبة ، واسترد الأشراف والزعماء المحليون استقلالهم وامتيازاتهم ، وأزاد داد سلطان مخالفات القصر ، وأصبح في القرن السابع منذ صعود الملك أتوى أناصب الإدارية والسياسية في الدولة ، وأصبح مخافظ القصر صاحب السلطة الفعلية في الدولة ، بينما لم يكن للملك من السلطة سوى اسمها فقط .

وأخذت الأسرة الكارلية بهذا المنصب الكبير ، وأخذت تهدّد بنفوذها وقوتها مصير الأسرة الميروفنجية ، وبول شارل ماريـل منصب محافظ القصر سنة ٧٣٠ م بعد أن تغلب على منافسيه .
، هكذا كانت مملكة الفرنج حينما يغز المسلمين إلى غاليا أو غاليس .

لثالث مرّة بقيادة السعّيْد بن مالك ، وغزوًا ولاية سبتة التي أطلقوا عليها القوطية ، واستولوا على قواته ، ورثفوا على مدينة تولوز — عاصمة أكتوبيين — وكان آودو — دوق أكتوبيين — أحد أعضاء الأسرة الميروقنجية ، أقوى أمراء آفرنخ في غاليا ، وشدهم بأسا وأستقتل بأكتوبيين متبرزاً فرصة الأضطرابات التي سادتها ، وسيطر على جنوب فرنسي ، من الملوّار إلى البرانس ، والقف حوله القوط والبرتغاليين والأندلسيون) وتنهض إلى التخلص من شلبيه أو كلار ملوّار ، وانتقامه يلقي باسمه للمرنجية .

أقليم سبتة بن مالك في سبتانيا تحت حكم السعّيْد ، وبعد تزويج الإرثى بين الأكلبي وقرن من البربرية والخرابج على الصغارى ، وكيل لهم الحريقة الدجية بـ(العنكبوت) طبقاً لغيرهم ورثف نحو الغرب المتصور أكتوبي ، وهرم الأعداء الذين تصدوا له شر هزيمة ، واتجهت إلى تولوز ، فاستطاع يد يوغو ، وأعد جيشاً قوياً لانتقاد هلاكه من العرب والنقي السعّيْد بيودو بظاهر تولوز في معركة حامية هوطيس ، وبذل كل من الفريقين أروانا من الشجاعة الفادرة ، وسائلت الدماء أنهاراً ، وفجأة سقط السعّيْد فوق جواده صريطاً ، فاختل نظام الجيش الإسلامي ، وخانته الفوضى والأضطراب ، وأنسحب المسلمون إلى سبتانيا بعد أن فقدوا القائد الشجاع سنة ١٥٢ هـ ٧٣١ م .

انتهى المسلمون على آخر هذه الهزيمة من مدينة أربوته قاعدة معقلياتهم الحربية فيما وراء البرانس .

نهاية الجيش الإسلامي بعد الريحن الفلفلي ، خائداً عاماً ووقيعاً اختار طجامة له ولها حلها الاندلسي حتى تهدى للدولة إلى أحد دول الولاية ، وقضى بقوته في نهضة الأندلس في البلاد حتى ولد عبيسه بن سليم الكلبي حكم الاندلس سنة ١٥٣ هـ ، وكان لابد لعنجه من إعادة تنظيم جيشه وأعاداته لتوسيعة الجihad فيما وراء البرانس ، وأصلح أحوال البلاد الداخلية ، وقضى على الأضطرابات التي حدثت في الاندلس ثم عبر جبال البرانس ، وأتم فتح أقليم سبتانيا بعدها السبع ، ثم صعد مع التمر ثمانية عشر مدينة ليهون والحتلوا عاصمتهم تولوز على ما يقظيم المعروفة

برجانديا حتى بلغ مدينة أوبون في أعلى الرون ، ولكن أهالي البلاد قطعوا عليه خط رجعته ، وأنتهى الأمر باستشهاده هو الآخر سنة ١٠٧ هـ ، فارتدى الجيش إلى الداخل ، وعادت الأضرابات إلى الجزيرة مرة أخرى .

وتسود الاندلس بعد ذلك فترة من الأضرابات ، توقف فيها حركة الفتح الخارجي مدة أربع سنوات ، ويتوالى على الاندلس في هذه الفترة التي تلى وفاة عقبسه ستة ولاه . وفي سنة ١١٢ هـ ٦٣٠ يتوالى أمير شجاع متخصص للجهاد ، هو عبد الرحمن الغافقي نسبة إلى قبيلة غافق اليمنية ، كان جندياً عظيماً ظهرت مواهبه الحربية في غزو فرنسا ، عرف عنه العدل وحب الأصلاح والورع والثقوب ، وكان فوق العصبيات وعاد الوفاق بين اليمنية والمصرية في عصره ، الامر الذي قوى من شأن البلاد والجيش ، وكان حكمة في الواقع فاتحة عهد جديد في تاريخ الاندلس .

نظم عبد الرحمن إدارة البلاد ، وأعاد إلى النصارى أملاكهم المقتسبة ، وساوى بين الناس في الشرائب ، وأوجد نظاماً إدارياً قوياً ، وأعاد تنظيم صفوف الجيش ، وزوده بأقوى الأسلحة ، وحسن القواعد والشعور الشمالية ، واختار لجيشه فرساناً من البربر ، يقودهم نخبة من العرب .

أخضع عبد الرحمن الغافقي الثورات في الشمال . وفي أوائل سنة ٦٣٣ هـ ١١٤ م سار عبد الرحمن إلى الشمال مخترقاً ولاية أنجoron « التغير الأعلى » وناهار « بلاد البشكتس » ، وعبر البرانس من طريق سنبلونه ، ودخل فرنسا في ربيع سنة ٦٣٢ هـ ١١٤ م وزحف مباشرة على مدينة آرل الواقعة على نهر الروم ، التي عارضت الحكم الإسلامي ، وقهرها بعد لائى وعتاب ، ثم زحف غرباً ، وعبر نهر الجارون ، وقاتل عبد الرحمن بودو قتلاً شنيعاً هرم فيه الدوق شزر هزيمة ، وقتل من جنده كثيرون ، ودخل عبد الرحمن عاصمة بردال ، وسقطت أوكتين كلها في يد المسلمين ، ولاذ الدوق بيونو بالقرار وأخذ يضرب في الأرض ، ثم ارتدى عبد الرحمن ملحوذة أخرى وأخترق الجيش الإسلامي بترجمونية وأسوان على ليون وواصل زحفه حتى رصانعن . التي تبعد مائة ميل فقط عن باريس وارتد

عبد الرحمن بعد ذلك عربا إلى ضفاف اللوار ، ليتم فتح هذه المنطقة . تم بقصد عاصمة الفرنج ، وبذلك سيطر على نصف فرنسا الجبوبى من التصرف إلى الغرب في بضعة أشهر فقط .

لأنه يعود إلى سارل ماربل يستجد به صد الحظر الداهم الذي أودى بملكته . والدولة المبروفنجية تعتبر في نظر الفرسين ، المرحلة الأولى من تاريخهم الحديث . ولكنها في الحقيقة لم تكن فرنسيه بحال من الأحوال ، فلا اللغة ولا الحدود ولا القوميه كانت فرنسيه حتى ذلك الوقت . وإنما كانت الدولة المبروفنجية ألمانيه ، فسارل ألماني وكذلك حينسه ، فالقتال الذي وقع أنها كان بين سكان الصحاري الممندة من بلاد العرب التي شمال إفريقيه وبين سكان العابات الشمالية في أوروبا حيث موطن القبائل الجermanية . وهذه أول مرة في التاريخ تلتقي فيها هاتان القوتان . لذا كان الجنستان مختلفين في كل شيء في السلاح وفي الياسوس وفي التكتيك العسكري وأساليب القتال .

فالعرب وأنيرير آنون من بلاد حسراويه حاره . ملائمه واسعة مضاضه : وأسنهتهم خفيه أهملوا الفوس والسبف ، وطريقتهم في الحرب الكروانق . ولهم هرقة من الحاله هي الركن الأساسي في الجبس . وهي التي يهتمون بها ، ويولونها عنايتهم . أما الحرمان . عنهم أمراً ، مناطق باردة أبددهم حديديه ، ويحاربون شبه عراه . أسلحتهم مما يمددهم من بيئتهم حتى العابات الثقيلة والمسنوف العريصه وأكثرهم متساه بسبعون في صفوف متراصه .

ومهما يكن من أمر فقد سقط عدد الرحمن بجيشه الكبير إلى فرنسا سنة ١١٤ م ٧٣٢ هـ وأقتحم وادي الرون وولابه أكونين ونست فوى أودو ، وأشرف على ضفاف اللوار . وقد أغلق هذه الانصارات سارل ماربل — محاط القصر في مملكة الفرجة في عهد بيودوريل الرابع ولجاً أودو وزعماء الفرنج إلى محافظ القصر مسننجدون به . ويحذرون من سقوط بلادهم في أيدي المسلمين . بالمفرى مساح ت كتاب يفتح الطيب أكبر واسعه في تاريخ الأدب . بجعل عن مؤرخ أقدم منه اسمه الحجاجي

نسبة الى وادى انحصاره بالاندلس ، عولا معناه ان عارل (سارل مارتل) قال لقومه حين نسقوا اليه وقوف العرب على ابواب بلادهم ، انتظروا لا تواجهوهم في أقبال أمرهم فان لهم اراده عويه ، وبيه صادفة وحصانه انظروا حتى تهدأ أمرهم ، وبأحدوا في التنافس في الرباسة وملك المال ، وعند ذلك تفرق كلمتهم ، وبضعف امرهم ، فتتمكنون منهم بآيسير مجده .

ويعقب المغرى عن ذلك بقوله : عكان والله ذلك .

يassis سارل مارتل ويبدو الحالات بينهما وتنافسا لمواجهه العدو المسترث . وكان لابد من خوض غمار معركه فاجعله لدرء خطر المسلمين عن بلاده ، وفي نفس الوقت للسيطره على جوب فرنسا ، وانتزاع ملك بودو ، وهذا حلم فديم كان يراوده ، وقاد سارل جيشه الذي يتألف من العرنج والعسائر الجرمانيه المنوحسه والصابات المرتفقه فيما وراء البرتات وسار زعيم الفرنجه على رأس هذا الجيشه نحو الجنوب للقاء العرب .

ودار اللقاء الحاسم بين السرف والعرب والاسلام والنصرانيه ومن الصعب تحديد مكان هذا اللقاء ، ولكن يمكن القول بأنه السهل ، الواقع بين مدبيتي تور وبوابته على مقربه من مدبيه تور ، وبعد أن استولى المسلمون على مدينة بوابته وخربوا كنيستها ، وما أراد عبد الرحمن أن يعبر الموار فاجه الجيش الكبير بقيادة سارل . ودارت رحى معركه رهيبة وأرند الجيش المسلم انى السهل — الذي أئسنا اليه — وكان الجيش المسلم منفلتا بالغناائم وكانت قتيل بين جنوده القلال ، وتنتمل هذه الغناائم في كلوز ترواب جوب فرنسا ودار انتقال بسده وصراوه بن الفريمي ، ولاخ النصر في جانب المسلمين ، ولكن فطن الفرنجه الى حرصن المسلمين على عيائهم فأحدثوا نغرة في داخل الجيش المسلم ، وانقضوا على الغناائم فترك المسلمون الحرب ، واتجهوا الى انفاثهم يمنعون الفرنجة عنهم ، فدب الخيل الى صفوف المسلمين ، وعثا حاول عبد الرحمن أن بعد الهدوء الى جيشه ، فأصابه سهم فقتله ، وخر صريعا من فوق جواده ، وعم الدعر

والجزع والهلع بين صفوف الجيش المسلم ، هنا وانت الفرصة الفرنجة للليل من المسلمين ، فقتلوا منهم ما لا يحصى ولا ي تعد ، وأقبل الليل أكتوبر ١١٤ م ٧٣٢ هـ فقرر المسلمين الانسحاب من المعركة التي لم يعد لهم أمل في الانتصار بعد أن فقدوا قائدتهم والكثير من جندهم ، وارتد المسلمين في جوف الليل وجنح الظلام جنوباً صوب قواعدهم في سبتمانيا ، تاركين أثقالهم ومعاناتهم وفي الصباح أقبل شارل على المعسكر فوجده خالياً إلا من الجرحى ، فأمر بذبحهم وأنسحب إلى الشمال ، وخشي أن يتبع الجيش المسلم خوفاً من كمين ربما قد أعدوه .

والرواية العربية تتحدث بايجاز شديد عن موقعة بلاط الشهداء ربما لما أحدهته من صدمة للمسلمين ، بينما تنسحب الرواية النصرانية في الحديث عن هذه الموقعة .

ولموقعة بلاط الشهداء أهمية كبيرة جداً في التاريخ الإسلامي فهي من المعارك الفاصلة في التاريخ ، اد أوّقت رحف العرب في أوربا ، والمعروف أنه لو أنتصر العرب ، لاستطاعوا احتياج أمم النصرانية في أوربا ، والموصول إلى القسطنطينية عن طريق أوربا وأوقفت هذه المعركة زحف المسلمين عند حد معين ، وتعتبر انتصاراً للغرب على الشرق وللنصرانية على الإسلام . ولدولة الفرنجة على دولة الإسلام .

وتعرض الكثير من المؤرخين لهذه الموقعة ، ويقول جيبيون لو أنتصر العرب في تور وبواتيه ، لكان القسوآن بتلي وبفسر في أكسفورد وكمبردج .

ويقول آخر : إن فاتحة الفرن الثامن من أهم عصور التاريخ ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغالياً ولما وثبت المسلمون إلى فرض الدين ، فنهض أزاء ذلك الخطر فتى من عصيرة جرمانية هو كارل مارتل ، وأيد هبة النظم النصرانية المشرفة على الفتنة ، بكل ما تقتضيه غويبة البقاء من عزم ودفعها إلى بلاد جديدة . وبغول زيلر كان هذا الانتصار بالأخص انتحار الفرنجة والنصرانية . وقد عاون هذا النصر زعيم الفرنجة

على توطيد سلطانه ، لا في غاليا وحدها ولكن في جermania التي أشركتها في نصره .

ويرى محمد عبد الله عنان أن معركة بلاط الشهداء كانت أعظم لقاء بين الاسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب ، وقد العرب في هذه المعركة سيادة العالم بأسره وتغيرت مصائر العالم القديم كلها ، وأرتد تيار الفتح الاسلامي أمام الامم الانسحالية كما أرتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار القدسية وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب ، وأخضاع النصرانية لدولة الاسلام ولم تفتح للإسلام المتحد فرصة أخرى ، لينفذ الى قلب أوروبا في مثل كثرته وعزمها واعتراضها ، يوم مسيره الى بلاط الشهداء ولكنه أصبح بقفرق الكلمة ، بينما تسفلت أسبانيا المسلمة بمنازعاتها الداخلية اذ قامت فيما وراء البرتات امبراطورية عظيمة موحدة الكلمة ، تهدد الاسلام في الغرب .

وفريق من المؤرخين المحدثين لا يعلق أهميه كبيرة على هذه الموقعة ، ويررون أن الامتداد الطبيعي للغزو العربي في أسبانيا هو جبال البرتات . أما العمليات العسكرية التي قاموا بها وراء هذه الجبال ، فهي مجرد غارات فدائية بداع الحماس الديني دون أن يعملا حسابا للتقدير . فهزيمة الغافقي في رأيهم – كانت نهاية طبيعية لامتداد غير طبيعي محفوف بالمخاطر وبهذا لم يكن لها تأثير ايجابي على مجريات الاحداث السياسية الاسلامية ، لأنها كانت بعيدة جدا عن قلب العالم الاسلامي وعن المجال الحيوي للدولة الاسلامية ، فالهزائم التي مني بها المسلمون أمام القدسية مثلا ، كان لها تأثير كبير وصدى قوى في السياسة الاسلامية ، لأنها كانت قريبة من دمشق حاضرة الدولة الاسلامية . ولعل هذا هو السبب الذي جعل الرواية الاسلامية لا تتعلق كثيرا ، ولا تسهب كثيرا في الحديث عن بلاط الشهداء .

ولكننا مع الرأى الأول القائل بأن هذه المعركة حددت مصير العالم أجمع شرقه وغربه ومسلمه ونصرانيه ، وسميت هذه المعركة – كما قلت – بلاط الشهداء ، نسبة الى طريق روماني قديم ، دارت عنده هذه المعركة ،

وَهُذَا الطَّرِيقُ مَرْصُوفٌ بِلَاطِ وَتَسْمِيهَا الْمَاصِدَرُ الْأَوْرَبِيَّةُ ، مَوْقِعَةُ ثُورٍ
أَمَّا الْقَائِدُ شَارِلُ مَارْتَلُ ، فَلَقِبَ بَعْدَ الْمُرْكَةِ « مَارْتَلُ » أَيِّ الْمَطْرَقَةِ ٠

تَوَقَّفَتْ فَتْحُ الْمُسْلِمِينَ فِي فَرْنَسَا بَعْدَ بِلَاطِ الشَّهِداءِ ، بِعِكْسِ مَا كَانَ
يَحْدُثُ لِلْمُسْلِمِينَ فِي فَتْحِهِاتِهِمْ ، فَكَثِيرًا مَا هَزَمُوا ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْكَرَةِ
وَانْتَصَرُوا ٠ وَلَكِنْ مَوْقِعَةُ بِلَاطِ الشَّهِداءِ — أَوْقَفَتْ فَتْحَ الْمُسْلِمِينَ فِي فَرْنَسَا ،
ذَلِكَ أَنَّ الدُّولَةَ الْأَدُوَيَّةَ قَدْ هَرَتْ بِالْكَثِيرِ مِنَ الْمَتَاعِبِ ، فَالْمُسْلِمُونَ هَزَمُوا فِي
آسِيَا الصَّغِيرِ ، وَنَسَنَ الْبِيْزَنْطِيُّونَ الْفَارَاتَ عَلَى بَلَادِ الشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ
وَظَهَرَتْ الدُّعَوَةُ الْعَبَاسِيَّةُ فِي الْمَشْرُقِ ، لِذَلِكَ شَغَلَتِ الدُّولَةُ الْأَمُوَيَّةُ عَنِ هَذَا
الْقَطْرِ الْبَعِيدِ ، وَأَثْرَتْ هَزَائِمُ الْمُسْلِمِينَ فِي فَرْنَسَا عَلَى الرُّوحِ الْمَعْنَوِيَّةِ لِلْعَربِ
الْإِنْدَلِسِ ٠ وَنَبَهَ اِنْعَالَمُ الْأَوْرَبِيُّ إِلَى خَطَرِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَسْبَانِيَا ، وَلِهُذَا
طَارَدَ شَارِلُ مَارْتَلُ الْعَربَ إِلَى حَدُودِ سَبِيْتَمَانِيَا ، وَانْتَرَعَ مِنْهُمْ أَفْلِيمُ
بِرْوَقَانِسُ ، وَلَمْ يَلْبِسْ أَنَّ اسْتِرْدَ الْفَرَنْجِيَّ سَبِيْتَمَانِيَا بِلَ أَنْشَأَ تَارِمَانَ نَفْرَا
فِي أَسْفَلِ جِبَالِ اِنْبِرَاتَاتِ عَلَى نَسَاطِيَّ الْبَحْرِ الْمُتَوَهِّمِ ، وَبِذَلِكَ لَمْ يَعْدْ لِلْعَربِ
أَمْلَاكُهُمْ فِيمَا وَرَاءِ الْبَرِّاتِ ، وَلَقَدْ حَاوَلُ الْعَربُ الْعَزُوَّ مِنْ نَوَاحِي أُخْرَى
فَهَاجَمُوا السَّوَاحِلَ الْجَنُوبِيَّةَ لِفَرْنَسَا وَدَخَلُوا سَوِيْسَرَا غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالِ
لَمْ تَتَخَذْ صَفَّةَ الْفَتْحِ الْمُسْتَقْرِ ٠ بَلْ كَانَتْ عَمَلِيَّاتٍ تَتَسَسَّمُ بِطَابِيعِ الْغَارَاتِ
الْسَّرِيعَةِ ٠

الفتن والخروب الداخلي في المغرب والأندلس

أنتشرت في بلاد المغرب أفكار «الخوارج»، وعارضوا الحكم الاموي، ورأوا أن الخلافة يجب أن تكون بالانتخاب الحر المباشر لأى مسلم حر فلما ولى عبد الله بن الحبّاب — أفريقيّة كانت القبائل البربرية تضطرّم بعوامل الثورة ولا سيما في المغرب الأقصى، فسرّ عبد الله إلى مواطن الثورة في بلاد المغرب جيشاً بقيادة حبيب بن أبي عبيدة الفهري، وأعاد البلاد إلى «الهدوء والسكينة»، وعيّن ابن الحبّاب ابنه اسماعيل وانيا على المغرب الأقصى، ولكن البربر عارضوا حكمه، وناروا عليه، واتفقوا حول داعية من «الخوارج الصفرية»، يسمى ميسرة المغاربة، وانقضوا على طنجة وهزمو حاميتها، ودعوا ليسرة بالخلافة على مبادئ «الخوارج»، ثم زحفوا إلى السويس، وقتلوا الوالي اسماعيل بن عبيدة الله، وعلى أثر انتصارات «الخوارج» داعت دعوتهم بين البربر، ولاقت نجاحاً كبيراً، وضعف سلطان العرب في بلاد المغرب، وأضطر ابن الحبّاب إلى اخضاع أنبرير، فسرّ إليهم جيشاً كبيراً، الحق به البربر عدة هزائم قرب طنجة، وسميت هذه المعركة بموقعة الاشراف لكثره من قتلى فيها من قادة العرب

سنة ١٢٣ هـ

ذعر هشام بن عبد الملك من هزيمة العرب أمام البربر، ومن ثورة البربر على الحكم الاموي، فأرسل جيشاً إلى بلاد المغرب بقيادة كلثوم ابن عياض القنسيري على رأس جيش ضخم من عرب الشام سنة ١٢٣ هـ، واجتمعت إليه اثناء مسيره قوات أخرى من مصر وطرابلس وكان يساعد كلثوم ابن أخيه بلج وتوجس عرب أفريقيا خيفة من جند الشام بقيادة كلثوم غير أنهم انضموا بعد عدة منازعات إلى جيش كلثوم ودخل العرب في معارك ضارية أواخر سنة ١٢٣ هـ مع البربر قرب طنجة، هزمو فيها شر هزيمة، ومزقوها شر همزق، وقتل كلثوم وكثير من ضباط الجيش وجنوده.

لمن نتيجة هذه المعركة خروج المغرب الأقصى من قبضة بني أمية
وانتصار دعوه الخوارج في المغرب الأوسط ٠

وتراجعيت فلول الجيش الشامي بقيادة بلج بن بشر القسيري وتحصتوا بشعر سبته ، وكان عددهم حوالي تسعة آلاف فارس معظمهم من الشام مع قلة من جند مصر . وهناك فرض عليهم البربر حصارا شديدا حتى كاد يهلكهم جوعا ، وينكل بهم . لكن ظروف الأندلس أنقذت بلج وجنوده ، ذلك أن أخبار نورات البربر في المغرب ، انتقلت إلى الأندلس فثار في الأندلس ضد واليهم عبد الملك بن قطن الفهري ، فلم ير من منفذ له من هذه الثورة العارمة ، سوى بشر بن بلج المحاصر في سبته ، وتناسى الخلافات بين المصري ، وعرب الشام اليمانية ، وتحالف معه ، وأشارط أن يفك الحصار ويسمح له بالذهاب هو وقواته إلى الأندلس لإنقاذه من ثورات البربر التي استطار تسرها ، وزاد خطرها ، على أن ينسحب من الأندلس فور القضاء على الثورة ٠

وكان نوار البربر في ذلك الوقت قد وحدوا صفوفهم في الأندلس وقسموا أنفسهم إلى ثلاثة جيوش ٠

جيش يهاجم طليطلة ، وجيش ثان يهاجم قرطبة ، والجيش الثالث يتجه جنوباً للقضاء على قوة الشاميين في سبته ، والاتصال بأخوانهم البربر في المغرب ٠

غير بلج بن بشر إلى الأندلس بعد أن رفع عبد الملك بن قطن الحصار عنه ، وبعد أن كان محبوسا هو ورجاله في مقص ، فقد تقسموا نسبياً الحسورية في الأندلس ، وبعد أن استراحو بعض الوقت من ويلات ما أصابهم في المغرب ، اشتباك بلج مع البربر عند بلدة شدونه ، وشنست شمل البربر ، وانتصر على فريق البربر في قرطبة ، ثم زحف مع قواته وقوات حليفه وإلى الأندلس إلى طليطلة ، وانتسبوا مع جموع البربر الرئيسية في عدة وقائع مزقوا فيها شملهم ، وبذلك انتهت نوراة البربر ، وعادت الأندلس إلى الهدوء والسكينة ٠

وأخذ بلجع وأصحابه بعد ذلك ينعمون بحلوة النصر ، ويتمتعون بالحياة الامنية المديدة بعد الحيرمان والتوس في مسكنه . ولكن عبد الملك بن قطن الفهرى والى الاندلس - طالب الشاميين بالرجوع الى افريقيا تنفيذا للشروط . لكن الشاميين رفضوا أن يعودوا الى افريقيا بعد أن بترتهم خيرات الاندلس ورفض الشاميون الانسحاب ، ودار قتال بين عرب الاندلس والشاميين ، قتل فيه الوالي عبد الملك بن قطن ، وولى بلجع أم راندلس ، وقد أثار هذا العمل غضب الحجاجيين المصريين ، فقتلوا بلجع بن بشر ، وقامت بين الطرفين حروب عنيفة استمرت اكثر من عام حتى سنة ١٢٣ هـ - ٧٤٣ م ولا رأت الخلافة سوء الحال في الاندلس ، ولت عليها رجاله مكانة وله قوة ، ذلك هو الشاعر أبو الخطار بن ضرار الكلبي ، وهو يعني :

بدأ أبو الخطار ، ولأيته بداية طيبة ، فأراد أولاً أن يحل مشكله الشاميين ، فأنزلهم مقسمين على كور الاندلس بحيث تكون متابهة الى حد كبير بالاماكن التي جاؤها من المشرق ، فأنزل أهل جند دمشق كورة البيرة ، وسمها دمشق ، وأنزل أهل جند حمص كورة أنسبيليه وسمها حمص ، وأنزل أهل جند قنرين كورة جيان في جنوب الاندلس ، وسمها قنرين ، وأنزل أهل جند الاردن كورة ريه ، وسمها الاردن وأنزل أهل فلسطين شذونه في أقصى الجنوب وسمها فلسطين . أما أهل مصر ، فأنزلهم الجنوب الشرقي من الاندلس في كورة تدمير وسمها مصر . وهذا عمل أدارى حكيم ، كان من الممكن أن يقضى على الفوضى في الاندلس .

وامستطاع أبو الخطار أن يعالج الامر بسياسة من الحزم والاعتدال ، وسوى بين جميع القبائل .

استقرت الامور في الاندلس فترة قصيرة بسبب سياسة أبي الخطار ، ولكن عادت الاضطرابات من جديد . والجدير بالذكر أن الولايات الاسلامية في آواخر العهد الاموى قد اضطربت اضطرابا شديدا ، وقامت فيها حروب أهلية متعددة بين القيسية المصرية وبين اليمانية القحطانية ، وحدثت هذه الحروب الاهلية في الاندلس كذلك . وكان الوالي

— كما قلنا — يمنيا ، وهو أبو الخطسار الكلبي ، أما زعيم المضرة
أو القيسية ، فهو الصمیل بن حاتم حفید شمر بن ذى الجوشن قاتل الحسين
في كربلاء .

وسبب هذه الفتن بسيط في حد ذاته ، لذ وقع خلاف بين شخصين
أحدهما — مضرى والآخر يمنى ، فلجأ الاثنان إلى الوالى أبي الخطسار ،
الذى حكم لليعنى ، فظن المضرى أن هذا الحكم تعصى من الوالى لكونه يمنيا ،
فذهب الصمیل — زعيم المضرة — إلى أبي الخطسار زعيم اليمنية ووالى
الأندلس — ليكلمه ، فوقع نزاع بين الرجلين ، فخرج من المجلس ، وقد
حطت عمامته ، فقال له أحد الحراس على الباب : أصلح عمامتك
أبا الجوشن . رد قائلاً : « إن كان لى قوم فسيقيموها . وهذا تهديد
بالحرب . وقامت الحرب بين الجانبين القيسية واليمنية على ضفاف
الوادى الكبير ، واستمرت سجالاً بينهما إلى أن تمكنت المضرة من هريمة
اليمنية في موقعة كبيرة عند بلدة سقونه في جنوب قرطبة . وامتناع
الصمیل بهذا النصر أن يعزل أبي الخطسار من ولاية الأندلس ، وأن يعين
مكانه رجلاً محايدها بين عرب الشمال وعرب الجنوب اسمه يوسف الفهري .
واختار الصمیل هذا الرجل لحنكته ومهاراته ، وبعدة عن التعصب . وكانت
شخصيته مرغوبة من الطرفين المتنازعين ، مقبولة بينهم ، وحكم الفهري
بمشورة الصمیل .

ضعف الدولة الاموية وتدهورها

اضطربت الامور في الدولة الاموية بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٣٥ هـ، وتولية الوليد بن يزيد الخلافة الذي قضى معظم أيام حكمه في الbadia، وبقي في الخلافة سنة وشهرين، ثم قتل لسوء مسيرته سنة ١٣٦ هـ خليفة وخليفه يزيد بن الوليد الذي توفي بعد خمسة أشهر، وبهيجان أخيه ابراهيم، وفي عهده ازدادت الدولة الاموية اضطراباً بسبب الصراعات المستمرة بين القيسية واليمنية، وثورات الخوارج، وانتشار اندعوة العباسية في أقليم خراسان، والانقسام بين أفراد البيت الحاكم، وتجلى واضطراب في البيت الاموي، فلم يكن هناك اجماع على توليه ابراهيم مكان ناس يسلمون عليه بالخلافة، وناس بالamarah، وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما، وانتهى الامر بعزله وقتله على يد مروان ابن محمد.

ولما آلت الخلافة إلى مروان بن محمد تعصب القيسية، وطالب اليمنية بعدم الوليد، فثار عليه يزيد بن حald القسرى بدمشق، وانضم إليه اليمنية، فأرسل مروان إلى دمشق جيشاً أهداه التوره، وخلصت له دمشق، كما قضى على ثورات أخرى، قام بها اليمنية في بلاد الشام.

ولم يك足 يستقر الامر لمروان بن محمد في بلاد الشام حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك، ودعا أهله إلى خلمه وأنضم إليه اليمنية، فسار إليه مروان، وأوقع به الفزيمة وظل مروان يخضع للثورات، منتقلًا من بلد إلى بلد، حتى فوجئ بقيام الدولة العباسية في الكوفة سنة ١٣٣ هـ، وهزم في موقعة الزاب، وقتل.

اقترن قيام الدولة العباسية بمذابح مروعة، ذهب ضحيتها أفراد البيت الاموي، بل نبشت قبور الخلفاء الامويين ومثل بجثتهم. ولم ينج من بطش بنى أميه الا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، الذي كتب له النجاة من بطش بنى العباس، كما كتب له، اقامة الدولة الاموية في الاندلس، أعاد فيها مجد آبائه وأجداده.

الأماراة الأموية في الأندلس

عبد الرحمن الداخل (١٣٨ هـ - ٧٥٦ م)

انتشرت الفوضى في الأندلس في أواخر عصر الولاة ، وعاقتبت البلاد في فتن وحروب ، وعم القحط وعظم البلاء ، وأشتد البوس والتقطاء ، وازداد الأمر حرجا في الوقت الذي تدهورت فيه الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية ، وكانت دولة انجلانية منصرفة تماماً مما يحدث في الأندلس ، وإذا أجمع الاندلسيون على أمير يحكمهم ، يفشل في حكم البلاد التي مزقتها العصبيات ، وفرقتها ، وشجعت هذه الفوضى الفرنج ونصارى الشمال على اقتحام الاطراف الغائية ، وشن الغارات المقاتلة ، وظل الأمر كذلك ، حتى ولى أمير الأندلس رجل قوى حازم ، هو يوسف ابن عبد الرحمن الفهري ، وتولى برأى الجماعة ، دون مصادقة من دولة الخلافة التي كانت مشغولة بما جرى في الأندلس ، واستطاع الفهري أن يظهر منافسيه ، ووطر أقدامه في البلاد محاولاً الاستقلال بها نهائياً عن دولة الخلافة .

نعود إلى عبد الرحمن بن معاويه بن هشام بن عبد الملك فقد نشأ في قرية تعرف بدير خنان من أعمال قنسرين ، ونما وترعرع في بيت جده ، وسقطت الدولة الأموية وهو في ريعان شبابه الغض في حوالي العشرين من عمره ، وفر هو وأهله ناحية الفرات فراراً من ملاحقة بنى العباس ، ولكن اكتشف أمره ، ففر إلى فلسطين ثم مصر ، ولحق به مولاه بدر وسلام ، وفي برقة التجأ إلى أخيه من بنى نفذه أخيه ، وأقام وقتاً طويلاً ، ولكن أمره عرف ، ففر هو وصاحبيه إلى المغرب الأقصى ، وأقام بهما مخفياً عند شيخ من شيوخ البربر ، ولقي في هذه البلاد الكثير من المحن والشدائد . وفي هذه البلاد علم بأخبار الأندلس وما آل إليه أمر البلاد من اضطراب .

وفي أواخر سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م تطلع إلى استغلال الملاقل في الأندلس ، والعمل على استرداد تلك بنى أمية العطيب ، وانتهز فرصة

الخلاف التسديد بين القيسيه واليمنيه وأرسل مولاه بدر ، لنشر الدعوه
لبني امية بين أهل الشام وأنصار هذا البيت . وكانت رياسه الأمويين
لزعيمين من موالي بنى امية ، هما أبو عثمان عبد الله بن عثمان وصهره
عبد الله بن خالد ، واتفق بدر معهما على بث الدعوه بين اليمنيه ، الدين
كانوا يتمنون الخلاص من الفهري ، ونشط أبو عثمان وحليقه في نشر
الدعوه في البيرة خصوصاً بين اليمنيه ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م ، ولا يقين بكثره
أنصار بنى امية ، أرسيل الى عبد الرحمن الاموي يطلب منه الغدوم
إلى الاندلس ، فقدم عبد الرحمن إلى طرش ، وهي قرية تقع غربى المتكب
على مقربة من البحر ، واستقر بها ينظم دعوته ، ويدير خططه .

كان والى الاندلس ، يوسف بن عبد الرحمن بعيداً عن قرطبه ،
معسراً بالقرب من سرقسطه لشهر الثورة هناك ، ولكنه أضطر إلى
الاسراع إلى قرطبه مع نائبه المصميل ، لاحباط دعوه عبد الرحمن ،
والقضاء عليها في مهدها ، وأراد يوسف معالجة الأزمة سلماً ، فأرسل
إلى عبد الرحمن بطلب منه ، الكف عن دعوته في مقابل ما كتب
أو مصاهره ، أو منحه ولائيه من الولايات ، ولكن عبد الرحمن الذي دانت
له جنوب الاندلس بالطاعة والولاء رفض كل العروض . وأبي الا أن
يستحوذ على ملك الاندلس برمهه .

ولما قوى أمر عبد الرحمن الاموي سار من طرس في صحبة أنصاره
إلى رية ، فبایعه أهلها ، ثم إلى نسدوه ، خدخلت في طاعته ، نم المو
أشبيليه ، فبایعة رعيمها وأهلها اليمنيه وانضم اليه أبناء تجواله كثير من
الجند والأنصار ، وذاعت دعوته في غرب الاندلس كله ، وأقبلت إليه
المقطوعة من كل صوب وحدب ، من المcriه واليمنيه وأهل الشام . وواصلت
زحفه حتى أقترب من قرطبه في أوائل ذى الحجه سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م .

سار يوسف والمصميل إلى قرطبه ، وتفرق معظم جنودهما بعد أن
أفانها كثرة الحروب ، وأغارها دعوه عبد الرحمن بن معاوية ، ومما يكن
من أمر فقد عسكر يوسف بجنده القليل في المساراة في ظاهر قرطبه
من الغرب ، على حين يعسكر عبد الرحمن على ضفة النهر الجقوبيه ، وفي قمة

النهر بين الجيدين المتحاربين عدة أيام • ففي يوم الجمعة ، وهو يوم عيد الأضحى ، نشببت معركة حامية ، ودار قتال مرير بين الفريقيين ، وهز جيش يوسف الفهري شر هزيمة ، وقتل في هذه الواقعة الكثير من وجده القيسيية وال فهوئية ، وفر يوسف الفهري والصميم من المعركة ، ودخل على أثرها عبد الرحمن بن معاوية قرطبة ، وصل إلى الجمعة في مسجد ، الجامع ، وبايده الناس بالأماراة ١٣٨ھ / ٧٥٦م • ومن مصادفات التاريخ أنه في يوم الأضحى سنة ٦٤ھ الجمعة ، انتصر هروان بن الحكم — جد عبد الرحمن الأموي — على الضحاك بن قيس الفهري في موقف مرج راهط •

وليلوم المسارة نتائج بعيدة المدى في تطور الحياة السياسية الأندلس ، ذلك أن انتصار عبد الرحمن الأموي أنهى عصر الولاة وما اتصف به من قلاقل وأوضاع مترابات ، وبدأ عهد حديد في تاريخ الأندلس ، أصطلاح المؤرخون على تسميته عصر الأماراة •

السياسة الداخلية لعبد الرحمن الأموي

لم تكن موقعة المسارة إلا خطوه على الطريق ، يحاول عبد الرحمن الأموي أو الداخل بعدها بذل الجهود للسيطرة على الأندلس ، التي كانت تتضضم بالثورات ، ويغتصب على كل ناحية أمير أو حاكم مستقل من ذوى العصبيات والنفوذ ، فسيطرت البيمنية على بعض البلاد ، وكذلك المضدية والبربر وأنقذ نصارى الشمال — الدين كانوا مستضعفين بالأمس — انتزع بعض الأراضي من الأندلس ، وقوية نفوذهم في معاقفهم ، كم أن الفرج فتح فيما وراء البرانس ، انتزعوا من المسلمين ما تبقى لهم من أرض ، وتحالفوا مع نصارى الشمال الإسبان على انتهاز الفرص لتنمية نفوذهم على حساب نفوذ المسلمين •

قضى عبد الرحمن طوال حكمه الذي امتد فترة تزيد على ٣٢ سنة كلها في صراعات مع العناصر الطامعة والمغتصبة والثائرة ضد حكمه ، فكان يتضخم توره ، وينتقل بعدها إلى معركة أخرى فلم يهناً بهذا الحكم

العریض طوال سنی حکمه ، بل قصایحا کلها فی توطید سلطانه ، وقهر
الثوار ، وقمع الفتن .

من الطبيعي أن يكون أقوى خصوم عبد الرحمن الداخل ، يوسف الفهري ، الذي استطاع منه عبد الرحمن الأندلس ، ففر يوسف عقب هزيمته إلى طليطلة ، وجمع الانتصار حوله ، حتى عظم جمعه ، وسار مع حلیفه الصمیل إلى البيرة (غرناطة) واجتمع أهل هذه الانحاء حول يوسف ، وأعد العدة لمحاربة عبد الرحمن ، واسترداد ملكه الأسطیب ، لكن عبد الرحمن ، ترك حاميه في قرطبة ، وسار إلى خصمه في البيرة ، وهزمه شر هزيمة ، وأستسلم عبد الرحمن والصمیل وعقد الداخل معهما صلحًا ، تعهدًا فيه بالطاعة والولاء ، والكف عن الحرب وانقتال ، على أن يؤمنهما في النفس والولد والأهل والأنصار ، وأن يسمح لهما بالاقامة في قرطبة تحت رعايته ورقابته ، فوافق عبد الرحمن ، وقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمد رهينه حتى تستقر الأمور ، وتم عقد الصلح بين الفريقين سنة ١٣٩ هـ وعاش الرجلان يوسف والصمیل في قرطبة ، وشدد عليهما عبد الرحمن الرقابة والحراسة ، ولكن يوسف الفهري لم يقبل أن يعيش في ظل هذا الاعتقال ، ويفقد جاهه وسلطانه ، ففر سنة ١٤١ هـ إلى مارده وكاتب أنصاره في طليطلة ، حتى عظم جمعه ، وأشتغل مع عبد الرحمن الداخل في عدة وفائع ، هزم فيها يوسف شر هزيمة ، وقتل الكثير من أنصاره ، وفر يوسف إلى طليطلة ، وعاش بين أنصاره في حرية ، ولكن بعض أنصاره اغتالوه وأرسلاوا وأمسأله إلى عبد الرحمن سنة ١٤٢ هـ

ويبدو أن أصابع عبد الرحمن لم تكن بعيدة عن هذه المؤامرة وأنتهت بذلك حياة يوسف الحافلة بالأحداث الجسام ، وansk الداخل في نوايا ابن الأول ليوسف فقتله أيضا . ولم يعد لديه من أبناء يوسف سوى محمد ، فأنتهز محمد فرصة ضعف الرقابة عليه ، ففر من معتقله بقرطبة إلى معقل الثورة الفهربية في طليطلة ، ويعود عبد الرحمن في أثره جيشا ، هزم . وهزم أنصاره ، وسيقه محمد إلى قرطبه ممنقلًا ، ولكنه أدعى

العمى ، فضعفـت الرقابة عليه ، فعاد تانية الى طبيطلة ، وحرك الثورة ضد الداخل ، ولكنه فشل أيضاً . وعلى الرغم من المـعـارـفـ الـمـتـسـالـيـةـ الفـهـرـيـةـ ، في مـعـقـيـمـهـ فـيـ طـبـيـطـلـةـ ، أـلـاـ أنـ الشـوـرـةـ عـادـتـ مـنـ جـدـيدـ بـزـعـامـةـ هـشـامـ اـبـنـ عـرـوـةـ الفـهـرـيـ ، أـعـلـنـ الشـوـرـةـ ، وـاعـتـصـمـ بـالـمـدـنـةـ ، فـسـارـ اليـهـ عـبـدـ الرـحـمـنـ . وـماـزـالـ يـشـدـدـ عـلـيـهـ الحـصـارـ حـتـىـ طـلـبـ الـصلـحـ ، وـمـاـكـادـ عـدـ الرـحـمـنـ يـعـودـ إـلـيـ قـرـطـبـةـ ، حـتـىـ عـادـ الفـهـرـيـ أـلـىـ الشـوـرـةـ مـنـ جـدـيدـ فـ طـبـيـطـلـةـ . وـلـكـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ قـمـعـ الشـوـرـةـ . وـبـذـلـكـ سـاحـقـ عـبـدـ الرـحـمـنـ الدـاخـلـ الشـوـرـةـ الفـهـرـيـةـ وـكـانـتـ الفـهـرـيـةـ أـخـطـرـ قـوـةـ تـهـدـدـ طـالـعـ عـبـدـ الرـحـمـنـ الأـمـوـيـ وـسـلـطـانـهـ ، وـأـكـبـرـ عـقـبـةـ فـيـ سـعـيـلـ اـسـتـقـرـارـ مـلـكـهـ .

ثورة الفاطمي

مورة حطيرة سغلت عبد الرحمن عدة أعوام ، نسبت في شمال شرق الأندلس بين البربر ، وزعيمها من بربور مكتاسه ، وكان فقيها بعلم الصبيان ، وامتلاك نفسه بأفكار البربر التي تدعوه إلى التخلص من العرب ، ولتكن يكتسب أهميته بين رعاياه ، زعم أنه سليل الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذاعت دعوته بين البربر في تلك المنطقة ، وكانوا أكثرية بها ، وأتخذ من شنت بريمة مركزاً لدورته ؛ وكثير جمعه ، وقوى أمره ، بين أنضم إليه من البربر الناقمين على حكم عبد الرحمن ، وأنضم إليه أيضاً بعض العرب ، وأرسل عبد الرحمن عدة حملات إلى شنت بريمة لقمع الثورة ، ولكن التأثير رد كل هذه الحملات على أعقابها خاسرة ، ونكل بجند عبد الرحمن ، فعاد عبد الرحمن بجيشه جديد إلى شنت بريمة . ولما فشل عبد الرحمن في القضاء على التأثير الفاطمي . لجأ إلى الحيلة والخداع . فقسم إليه زعيمها من زعماء البربر بدعى هلال ، وتعهد به بخدمهبلاد التي أستولى عليها التأثير الفاطمي ، اذن نجح عبد الرحمن في بث مذور الانتقام بين البربر ، وأنفختم إلى هلال الكثير من أتباع الفاطميين ، صعيب ، أدر الفاطمي ، وانفقن الكثير من الرجال من حوله . وانقضت الفاطمية في الجبال ؛ وطارده عبد الرحمن ، ومازال عبد الرحمن يضغط على الفاطميين دون جدوى . حتى نزل الفاطمي بقرية من أعمال شنت بريمة

تسمى قرة العيون ، وهناك تآمر عليه اثنان من البربر ، وقتلاه وأرسلوا رأسه إلى عبد الرحمن في قرطبة ، ويبدو أن هذه المؤامرة كانت من تدبير عبد الرحمن ، الذي فشل في قمع الثورة بحملاته المتعاقبة ، ولكن أشرت المؤامرة فيما فشلت فيه الجيوش ، وأنتهت بذلك ثورة البربر التي ألقى وهددت دولة عبد الرحمن أكثر من عشر سنوات ، وأشارت الرعب والفزع في شرق الأندلس وغيرها ، وهددت أمن الدولة وسلامتها ، وضاعفت من الفرقة والانقسام بين العرب والبربر .

ثورة عبد الغافر اليماني

رأينا ثورة القيسية الفهرية ، ودرستنا عوامل قيامها وأسباب فشلها ، كما تحدثنا عن ثورة البربر بزعامة الفاطمي ، ونتحدث الآن عن ثورة اليمانية بزعامة عبد الغافر ، أستولى على ما جاور قرطبة من بلاد ، وكثُرت جموعه ولا سيما من البربر ، وأصبح يهدد قرطبة ، فخرج عبد الرحمن لقتاله والتقي الفريقان اليمانية وجند الداخل بوادي قيس على مقربة من قرطبة ، فاستمال عبد الرحمن أعواز عبد الغافر من البربر ، وظل يسائل جند عبد الرحمن حتى هزم ، وقتل هو والكثير من أعوازه

سنة ١٤٤ هـ

ولم تكن أشبيلية أقل خطراً من طليطلة على دولة عبد الرحمن فقامت فيها عدة أضطرابات من بينها ثورة يمانية تزعمها أبو الصباح بن يحيى البصبي ، صديق عبد الرحمن وحليفه ، وكان أبو الصباح زعم اليمانية في أشبيلية يوم قدوم عبد الرحمن إلى الأندلس ، وأيد عبد الرحمن ونصره ، وقاتل معه يوم المساره ، ولكن عبد الرحمن شُك في نواياه نحوه ، وعزله عن أشبيلية ، فغضب البصبي وأعلن العصيان ، وأنضم إليه اليمانية ، ولما رأى عبد الرحمن أن قمع الثورة من الأمور المستعصية ، لجأ إلى الحيلة والخدعة في القضاء على الثورة ، فأرسل عبد الرحمن إلى البصبي يدعوه إلى المصالحة ، ويستدعيه إلى قرطبة للتفاهم ، ولما قدم البصبي إلى قرطبة ، قتله عبد الرحمن . وبذلك تفرق حملة . وهدأت أشبيلية سنة ١٥٠ هـ

ثورات بعض الأمراء الأمويين

ولم يتعرض عبد الرحمن فقط لثورات محلية من الأندلس ، بل ثار بعض أمراء بني أمية ضده ، وظموها في الملك ، فدبّر ابن أخيه المغيرة ابن الوليد بن معاوية الثورة ضدّه . ذلك أن عبد الرحمن سعى إلى استدعاء أمراء البيت الأموي المشتتين في الأرض إلى الأندلس ، وتواجد على الأندلس كثيرون ، وكانوا موضع غنابة عبد الرحمن وتنقذيه ، وأغلق عليهم ،

وأمسند إليهم الناصب «المكبوة» ، ولكن بعضهم أنضم إلى معارضي عبد الرحمن فنكل بهم ، وقتل المفيرة ابن أخيه الوليد ، حيثما اكتشف مؤامرته ، ونفي أخاه أنور الدين وأسرته إلى المغرب .

سياسة عبد الرحمن الداخل الخارجية

وبينما عبد الرحمن يوطد لنفسه في الأندلس ، خارجا على أيدي خصومه فيها ، إذ واجه عداء خارجيا قويا يتمثل في العباسين في المشرق ودولة شارلمان في أوروبا ، ويجرى الأمر على هيئة مؤامرة دولية واسعة ضد عبد الرحمن ، ويشترك في هذه المؤامرة الدولية الواسعة النطاق ، أكبر ملkin في ذلك الوقت ، وهو أبو جعفر المنصور ، ماله من قوة وفكر ، وشأنه ملك الفرنجة ، ونه ما له من سياسة وبطش ، ويتأمر المكان على التخلص من عبد الرحمن .

مفهوم المسلمين في ذلك الوقت أن عالم الإسلام يضم دولة واحدة ، وأن المسلمين يخضعون لل الخليفة انتزاعاً في سوريا في دمشق أو ببغداد . فلما أسسوا عبد الرحمن على الأندلس ، على الرغم من أنه أموي ومن بيت الخلافة السابق ، إلا أنه لا يستطيع أن يعلن نفسه خليفة ، لأن الخليفة في الحقيقة في بغداد ، وهو صاحب الحق الشرعي في كل ولايات العالم الإسلامي ، لذلك بايعه الناس أميراً على الأندلس ، وكانت الدعوة على المنابر تقام له باسم ابن الخليفة ، وفي بعض الولايات الأندلس كانت الدعوة تقام باسم الخليفة العباسى دون أن يعترض عبد الرحمن ، لأن هذا وضعاً شرعياً كما قلنا .

بدأ الصراع بين أبي جعفر المنصور وعبد الرحمن الداخل ، مثلاً في حملة العلاء بن مغيث سنة ١٤٦ / ٧٦٣ م ، وكان العلاء والبا عاماً أفريقيـة من قبل المنصور ، فأراد أن يقضي على عبد الرحمن ، وأن يجعل الأندلس ولاية عباسية ، كما كانت من قبل تخضع أولاً للأمويين في القبور .

وأستغل العلاء فرصة معارضة القيسية واليمنية لحكم عبد الرحمن الداخل ، ووجد أن الوقت مناسب للتخلص من الأمويين في المغرب ، تخلص العباسيون من الأمويين في الشرق ، وانتهز فرصة ثورة فهريبة طليطلة ، تسلل عبد الرحمن عن الثورة العباسية الراحفة إلى الأندلس ومهما يكن من أمر ، فقد عبر العلاء إلى الأندلس في سبعة آلاف مقاتل ونزل بأقليم باجة ورفع العلم الأسود — شعار العباسيين — داعياً لأبي المنصور ، ورحب بمقدمه العرب الناقمين على عبد الرحمن ولكن عبد الرحمن هزمه وقتله وأرسى رأسه إلى المنصور . رأى المنصور رئيس العلاء ، انزعج وقال « الحمد لله الذي جعل بيتنا هذا الشيطان بحراً وسماء صقر قريش » .

وبذلك استطاع عبد الرحمن أن يتخلص من محاولة خم الأندلس إلى الدولة العباسية ، واحتفظ بملكه بعيد عن هذه الدولة ، وأثبت للده العباسية أن في مقدوره الاستقلال بالأندلس ، والتعمد لمؤامر العباسيين التي تستهدف القضاء على دولته الفتية الناشئة . كما توفرت منذ ذلك التاريخ محاولات العباسيين العسكريه للنيل من الامارة الأموي في الأندلس .

على أن العباسيين لم يكفووا عن تحقيق غرضهم الرامي إلى التخلص من الامارة الأموية ، فلجأوا إلى سياسة جديدة غير العنف وشن الحروب هي سياسة اثارة بعض الناقمين على عبد الرحمن ، والاستعانة بدو الفرنجة التي تتغزل الخلاص من الامارة الأموية ، وحاول ملك الفرنجة وأمبراطور الغرب شارلمان أو شارل العظيم أن يؤمن حدود بلاده الجنوبي في أسبانيا ، وتحقيق مشروعه الذي كان يسعى إلى تفيذه ، وهو أحبي الامبراطورية الغربية . ويلاحظ أن تقارب الدولة العباسية من الدواليكارلونجية الأفرنجية ، واشتراكهما في هذه المؤامرة معاً ، يرجع إلى عدائهما المشترك ضد الامارة الأموية في إسبانيا من جهة ، وضد الدوا

البيزنطية المتأخمة للعباسيين من جهة أخرى .

٢ - موقف الفرنجة من عبد الرحمن الداخل

وقد وقعت حوادث هامة في شمال الأندلس سنه ١٥٧ھ / ٧٧٤م عقد ثار سليمان بن يقطان الكلبي (الأعرابي) والى برشلونة وجironه ، والحسين بن يحيى الأنصارى - والى سرقسطه - وهو من ولد سعد بن عبادة ، وتحالفا على قتال عبد الرحمن وخلعه ، وقوى أمر هذه الثورة ، طبيعة الشمال الجبلية وعلى الرغم من أن عبد الرحمن الداخل ، لم يستطع قمع هذه التورة ، الا أن التائرين ، اعتمدا الاستعانة بالفرنجة ، لتأكيد حركتيهما الاستقلالية ، وللوقوف الى جانبهما ضد عبد الرحمن وهكذا فقد خان هذان الزعيمان وطنهما بالاتجاه الى تارملان ، الذي هو عدو للإسلام والمسلمين في الأندلس ، ويطمع في التخلص من الدولة الإسلامية في هذا الفطر النائي البعيد .

ومهما يكن من أمره ، فقد سار سليمان ، وتسميه الروايه اللاتينية ابن الأعرابي ، مع نفر من أنصاره لنقاء نارملان سنه (٧٧٧م / ١٦٠ھ) في مدينة بادربيون - من أعمال مستقليا بألمانيا - واستقبل نارملان سليمان وصحابه ، وعرضوا عليه المحالفه ، وطلبو منه أن يساندهم في التخلص من عبد الرحمن الأموي ، وطلبو منه غزو الولايات الشمالية الأندلسية ، وعرضوا عليه تسليمه المدن التي يحكمها ابن الأعرابي نيابة عن أمير قرطبة ، ولا سيما سرقسطة .

وكان من الطبيعي أن يوافق شارملان على طلب ابن الأعرابي الذي يتمنى مع سياساته الرامية الى التخلص من أمير قرطبة ، وتأمين حدود بلاده من خطر المسلمين في الأندلس . وبذلك وضع المسلمون ميداً جديداً في الأندلس ، وهو مبدأ الاستعانة بالفرنجة كنما عارضوا بلاط قرطبة ، الأمر الذي فتح الباب أمام الفرنجة للتدخل في أمور الأندلس ، وتنمية أمر نصارى الشمال ، وكل هذا أدى في النهاية الى انهيار دولة الإسلام في الأندلس .

· وسار نصارى لان الى الأندلس متظاهراً بدافع ديني ، وهو اعما
الأندلس الى النصرانية ، وحماية النصارى في الشمال والمستعربين
داخل الأندلس وكان هدف هذه الحملة سياسياً ، وهـ تحقيق أطمـا
شار لـان في السيطرة على أسبانيا .

هذا الخطأ الجسيم الذي وقع فيه . وخلال شارمان-عيّا ، الاستيلاء على بيرقسطه ، وعجز ابن الأعرابي أن يتحقق شيئاً من وعوده في تسلیٰ . لم المدن والهصون الواقعة في تلك المنطقة . وخشى ملك الفرنج مغبة الخوض في تلك المجاهل ، وأرتاب في نية سليمان (ابن الأعرابي) وموقفه ، فارتدى بجيشه نحو الشمال الشرقي في طريق العودة (١٦١ / ٧٧٨ م) .

أرتد شارلaman وفي ركبته سليمان بن يقطان أسيرا ، ومعه عدد من
الرهائن ؛ وبصار شمالة نحو يlad البشكتش وكان الناقاريون في تلك الأثناء
قد جمعوا ثلوthem واعتبرموا الدفاع عن حاضرتهم ببنبلونه ، وعن حياتهم
المسلوبة ، وأنضم إليهم كثيرا من المسلمين من البلاد المجاورة ولكن هذه
المجموعة تعرضت لهجمات شارلaman العنيفة ، وهزمها وشتت شملها ؛
وأسترد شارلaman ببنبلونه ، وهدم حصونها وأسوارها حتى لا تعود إلى
عرقلة أبناء أنسحابه إلى فرنسا .

غادر شارل مان بنيلونه متوجهًا إلى جبال البرات عن طريق هضاب رونسفال المؤدية إلى باب الشزرى وهو أحد ممرات عدة كانت تستعمل لاختراق البرات وما كاد الجيش الفرنجى يعبر الجبال حتى هاجمه المسلمون بقيادة عيشون ومطروح ولدى سليمان بن يقظان — ، وخلصا أياهمًا من الأسر ، وعادوا إلى سرقسطه ، بعد أن شددا الهجوم على مؤخرة

يُبيِّشُ شارلَانْ ، وفُحْصَلَ مُؤْخِرَةً . الجيشُ عنْ مَقْعِدِهِ . هُنَا مَا تذَكِّرُهُ . الروايةُ العربيَّةُ — أَمَا: الروايةُ الْأَفْتَنِيَّةُ فَتَقُولُ: إِنَّ الْبَشْكَسْتَسْ تَرِبَصُوا . بِجَيْشِ شَارِلَانْ، عَنْ هَذِهِ الْمَوْرَاتِ ، وَهَاجَمُوهُ بِشَدَّةٍ وَضَرَّوْهُ . وَلَكِنَّ الْإِسْتَاذَ بِيدَال يُؤْكِدُ أَنَّ الْبَشْكَسْتَسْ وَهُدُومُهُ لَا يُسْتَطِعُونَ تَدْمِيرَ جَيْشِ شَارِلَانْ وَإِنَّوْاقِعَ أَنْ تَحْسَالُهَا قَدْ أَنْعَدَ بَيْنَ الْمُعْرِبِ الْذِينَ أَرَادُوا تَخلِّصَ أَسْيَرِهِمْ وَبَيْنَ الْبَشْكَسْتَسِ الَّذِينَ اعْتَزَمُوا الانتِقامَ مِنْ شَارِلَانْ إِنَّذِي الْحَرَابِ وَالْدَّمَارِ بِمَدِينَتِهِمْ وَالروَايَةُ الْفَرَنْجِيَّةُ تَحْدِدُ تَارِيخَ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ (١٦١ م / ٧٧٨ هـ) وَيُؤْكِدُ مَؤْرِخُ شَارِلَانْ اجْنَاهَرَتُ الَّذِي شَاهَدَ الْمُعْرِبَةَ أَنَّهُ هَلَكَ فِيهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالسَّادَةِ وَالرَّؤُسَاءِ وَرِجَالِ الْقَصْرِ وَالْحَاشِيَّةِ ، وَرُولَانْ . بَطَلَ الْأَنْشُودَةُ الشَّهِيرَةُ . الَّتِي نَظَمَتْ فِيهَا، بَعْدَ عَنْ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ ، وَأَسْتَمدَتْ مِنْ أَنْشِيَدَ مُعاصرَةِ لَهَا ، وَأَنْتَى لَازَالتَ أَثْرَاهَا خَالِدًا لِشَهِيدِ الْفَرَنْجِيَّةِ فِي الْعَصُورِ الْوَسْطَى .

وَتَذَكَّرُ الْمَصَادِرُ الْفَرَنْجِيَّةُ أَنَّ هَذِهِ الْغَارَةَ ، قَدْ أَبَادَتْ مُؤْخِرَةً جَيْشَ شَارِلَانْ وَقَتَلَتْ قَائِدَهَا الْفَرَنْجِيَّ رُولَانَ الَّذِي كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ لِشَارِلَانْ ، وَقَدْ ظَهَرَتْ بَعْدَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ بِمَدَةِ طَوِيلَةٍ تَقْرَبُ مِنْ ثَلَاثَةِ قَرُونِ ، مُلْحَمَّةُ فَرَنْجِيَّةٍ تَشِيدُ بِبَطْوَلِيَّةِ هَذَا الْفَارِسِ الْفَرَنْجِيِّ ، وَتَفَانِيَّةً فِي الدِّفاعِ عَنْ وَطَنِهِ وَجَيْشِهِ وَقَائِدِهِ ، وَكَيْفَ أَنْ رَفَضَنَّ أَنْ يَنْفَعُونَ فِي الْبُوقِ حَتَّى لَا يَمُوْهُ شَارِلَانْ لِاِنْتَظَادِهِ ، يَنْبَغِي فِي الْكَمِينِ ، وَكَيْفَ أَنْ عَشِيقَتِهِ الَّتِي كَلِّتَ تَنْتَظِرُ عُودَتِهِ إِلَيْهِ فَرَنْجِيَا بِشَغْفٍ شَدِيدٍ ، مَاتَتْ كَمَدًا وَحَزَنَتْ عَلَى مَقْتُلِهِ . وَيَعْتَبِرُ الْفَرَنْجِيُّونَ أَنْشُودَةَ رُولَانْ بِدَائِيَّةِ الْأَدِيبِ الْفَرَنْجِيِّ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا تَقْسِمُ بِالْمَطَابِعِ الْأَسْطُورِيِّ .

عَادَ شَارِلَانْ إِلَى بِلَادِهِ يَجْرِي أَذِيَالُ الْفَشْلِ وَالْخَيْرَيَّةِ بَعْدَ أَنْ لَقَدْ رَهَرَهُ جَيْشُ الْفَرَنْجِيِّ ، وَأَسْتَرَدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلِيَّ سُرْقَسْطَهُ سَنَةَ ١٦٤ هـ ، وَوَطَدَ أَقْدَامَهُ فِي هَذِهِ الْأَنْوَاحِ وَأَثْبَتَتْ هَذِهِ الْمُغْرِبَةُ أَنَّ الْإِمَارَةَ الْأَمْوَيَّةَ بِقِيَادَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلِيَّ قَوِيَّةٌ ، تَسْتَطِيعُ التَّصْدِيَّ لِلْمُؤَامِرَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالْخَارِجِيَّةِ ، فَفَشَلَتِ الْخَلَافَةُ الْعَبَاسِيَّةُ فِي أَسْتَرَدَادِ الْأَنْدَلُسِ ، وَفَشَلَ شَارِلَانْ فِي الْإِسْتِيَلاءِ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ وَفَشَلَ الْمُتوَاطِئُونَ الْخُوفَنَهُ الَّذِينَ

لم ينورعوا عن الاستعانت بالغدو لتخليصهم من حكم عبد الرحمن الداخل .
وفي عهد عبد الرحمن لم نعد نسمع عن محاولات خارجية أخرى للامتنال
على الأندلس .

وكان عبد الرحمن رجلاً يعرف قدر الرجال ، فلما التقى بشارمان ،
ووجده — كما يقول ابن حيان — ثابم الرجلة صلب المكسر ، أوحى إليه
دهاؤه أن يتودد إليه ، مع ما كان له عليه من الفوز والانتصار ، فدعاه إلى
عقد معاهدة يأمن بها كل منهما جانب صاحبه ، وزاد في تودده ، فعرض
أن يصاهر شارمان تدعيمًا للرابطة بينهما ، فلم يسع شارمان إلا أن يبعد عن
نفسه ذلك الحلم الامبراطوري فيما يحتضن بالأندلس فأجابه إلى السلم ،
وأن لم يتم المصاورة .

حضارة الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل

بعد الفتح العربي اختلط العرب والبربر المسلمين بسكان البلاد
الأصليين من القوط والاسبان واليهود ، وامتهنوا فيما بينهم ، ونشأت
طبقة جديدة — المولدين — من تزاوج العرب والبربر بالاسبان . أما أهل
اسبانيا الذين تعلموا اللغة العربية ، فسموا بالمستعربين ، وكانت الثقافة
الاسلامية في الوطن الأم — الوطن الاسلامي — تتواجد على الأندلس مع
المهاجرين الجدد ، وحدث انتزاع بين طبقات أهل الأندلس ، وذيوع الثقافة
الاسلامية بين هذه الطبقات الأمر الذي كان له أثره في حضارة أوروبا
عموماً . ويلاحظ أن التأثير الشامي في الأندلس كان واضحاً في عصر
الولاء ، لأنّه وقد عليها مع الجندي والمهاجرين من الشام حتى أن الحياة
الأدبية كانت صدى لحياة الشام الأدبية ، فالشعر الاندلسي في هذه الفترة
كان شعراً كلاسيكياً يحاكي شعر الفرزدق والأخطل وجرير وكان الأمير
عبد الرحمن شاعراً ، مثل أمراء بنى أمية السابقين ، ولله شعر فيه حنين إلى
وطنه الأول الشام .

أيضاً الراكب الميم أرضي أقر من بعضى السلام لبعضى

ان جسمى تکما . علقت بارض وفی قادری و مالکیبیة بارض
قد قضى الله بالفرقان علينا نعنى باجتماعنا سوف يقضى .

عن الداخل بقرطبة - حاضرة المسلمين في الأندلس - وحسنها وزينها بالمنشآت الفخمة والرياض البانعة ، وأول انشاعاته منية الرصافة ، وقصرها المنيف وكان قصر الامارة قد تقادم به الزهـن وولـت أيامـه ، فأنشأ عبد الرحمن ضاحية ملوکية في شمال غربى قرطبة ، بها قصر متيف ، جلب له مختلف البدور والغروس من الشـام وأفريقيـة ، وسـنةـها الرصـافـة ، كما فعل جده هشـامـ بنـ عـبدـ المـلـكـ منـ قـبـلـ ، الذـيـ نـقـلـ مـقـرـ أـمـارـتـهـ إلىـ ضـاحـيـةـ جـديـدةـ سـماـهاـ الرـصـافـةـ فـيـ القـسـمـ الشـرـقـيـ فـيـ الشـامـ ، وجـرـ المـاءـ إـلـىـ هـذـهـ الجـنـةـ الغـنـاءـ وـغـرسـ بـهـاـ نـخلـةـ أـتـىـ بـهـاـ مـنـ الشـامـ ، وقد جـذـبتـ هـذـهـ النـخلـةـ مـسـاجـرـ عبدـ الرـحـمـنـ فـقـالـ فـيـهاـ .

تبـدـتـ نـاـ وـبـسـطـ الرـصـافـةـ نـخلـهـ فـمـثـلـكـ فـيـ الـاقـصـاءـ وـالـمـنـتـائـ مـثـلـىـ

وـالـرـصـافـةـ مـنـ الرـصـفـ أـيـ المـدـيـنـةـ الجـانـبـيـةـ مـثـلـ رـصـافـةـ بـغـدـادـ ، وـهـىـ بـغـدـادـ الشـرـقـيـةـ . عـلـىـ كـلـ حـالـ وـرـثـ عبدـ الرـحـمـنـ عنـ أـجـدـادـهـ فـيـ المـشـرقـ اـتـخـاذـ قـصـورـ فـيـ الضـواـحـىـ وـالـصـحـارـىـ بـعـيـداـ عـنـ صـفـيـبـ المـدنـ وـالـاـهـتـمـامـ بـالـمـنـشـآـتـ الـعـمـارـيـةـ وـسـارـ خـلـفـاؤـهـ عـلـىـ هـذـاـ اـسـلـوبـ .

كـذـلـكـ اـعـادـ عبدـ الرـحـمـنـ اـنـدـاخـلـ بـنـاءـ جـامـعـ قـرـطـبـةـ سـيـنـةـ ١٦٩ـھـ / ٧٨٥ـمـ ، وـتـأـثـرـ فـيـ بـنـائـهـ بـمـسـجـدـ دـمـشـقـ . كـمـاـ أـنـشـأـ مـسـاجـدـ فـيـ مـدـنـ أـخـرىـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ . وـقـدـ أـنـفـقـ عبدـ الرـحـمـنـ أـمـوـالـ كـثـيرـ فـيـ تـشـيـيدـ هـذـهـ مـسـاجـدـ ، لـكـهـ تـوـفـىـ قـبـلـ اـتـتـمـ بـنـاءـ جـامـعـ قـرـطـبـةـ ، فـأـتـمـهـ خـلـفـاؤـهـ مـنـ بـعـدـ وـوـسـعـوـهـ وـجـدـدـوـهـ ، وـزـادـوـاـ فـيـ زـخـرـفـتـهـ حـتـىـ أـصـبـحـ قـبـلـةـ الـسـلـمـيـةـ فـيـ الـغـرـبـ ، وـقـالـ بـعـضـ الـمـؤـرـخـيـنـ : لـيـسـ فـيـ بـلـادـ الـاسـلـامـ أـعـظـمـ مـنـهـ ، وـلـأـعـجـبـ بـنـاءـ ، وـلـأـتـقـنـ صـنـعـةـ .

وعلى عبد الرحمن بأعداد جيش قوى من الموالي والبربر والرقيق
وأتخذ قواعد بحرية لبناء السفن في عدة موانئ بالأندلس ، وحصن مدينة
قرطبة ، وأتخذ لها سور قرطبة الكبير .

ونختتم هنا عهد عبد الرحمن ، ونقول أنه قضى أكثر من ثلاثين سنة ،
في حروب مستمرة مع أعدائه في الداخل والخارج ، يقهر خصماً ، ليصارع
خصماً آخر ، وتغلب على كل هذه العقبات التي اعترضت حكمه . وبذلك
أسس الدولة الأموية في الأندلس ، ووضع القواعد وأسس التي أسست
ثلاثة قرون .

هشام بن عبد الرحمن
(١٧٢ - ٧٩٦ م / ١٨٠ هـ)

ترك عبد الرحمن أكثر من عشرة أبناء تخص بالذكر منهم ، سليمان وهشام وعبد الله ، أما سليمان فقد ولد في الشام ، وكان يحكم طليطلة في ولاية أبيه ، ويحظى بمحبة أهل الشام وعبد الله ، وكان يحكم بلنسية وكان سليمان أكبر أبناء عبد الرحمن ، إلا أن عبد الرحمن كان يفضل ابنه هشام — حاكم ماردة — وأمه أم ولد تسمى حلل و حلل وعرف عن هشام الورع والتقوى والتواضع وحب التخير لم يعرف عنه كما يقول ابن حيان : هفوة في حدامته ولا زلة في أيام صباه .

سار عبد الرحمن سيرة آبائه الأمويين بتوريث الحكم أبنائهم ، وترك قبل وفاته وصية غامضة لابنه الثالث عبد الله ، يوصيه فيها بتسليم الحكم لن يدخل العاصمة قرطبة أولاً من الأخوين ، سليمان وهشام ، فقال . فان سبق أخيك هشام فارم اليه الخاتم ، فله فضل دينه ، واجتماع الكلمة عليه ، وإن سبق إليك سليمان فله فضل سنّه ونجدته وحب الشاميين له .

ووصل هشام إلى العاصمة قرطبة قبل أخيه سليمان ، وولي الخلافة ، ولكن سليمان لم يعترض عليه ، ودعاه لنفسه في طليطلة وما جاورها ، وانضم إليه أخوه عبد الله ، ولحق به في طليطلة ، وأعلن الأخوان الثورة ، وأنضم إليهما الكثير من أهل الشام ، وهاجم سليمان قرطبة ، ولكن الجند ، ردوا على أعقابه ، فذهب إلى ما رده ، ومنها إلى بلنسية ، وعادت في البلاد نهباً وفساداً ، ولكن كل محاولاته باعت بالفشل ، فلجاً عبد الله إلى قرطبة وطلب من أخيه هشام العفو والصفح ، فعفا عن أخيه سليمان وعبد الله على أن يعبر كل منهما بأهله وولده إلى المغرب وأقاما بعدها المغرب ، وأنتهت بذلك ثورة الأخوين (١٧٤ هـ / ٧٩٠ م) .

استطاع هشام بن عبد الرحمن التصدى لكل المحاولات التي

استهدفت التلـيلـ من ملكه ، ودخلـ في حروب عديدة معـ معارضـية ، فبعد أن قضـى علىـ ثورةـ أخـويـهـ كـماـ قـدـمنـاـ أخـضمـ ثورـتنـ يـمـنـيـتـنـ قـامـتـ فيـ نـواـحـيـ سـرـقـسـطـهـ وـبـرـشـلوـنـهـ ، الأولىـ كانـتـ بـقـيـادـةـ سـعـيدـ بنـ الحـسـينـ بنـ يـحيـىـ الـأـنـصـارـيـ والـثـانـيـةـ بـقـيـادـةـ مـطـروحـ بنـ سـلـيـمانـ بنـ يـقـظـانـ (ابـنـ الـأـجـراـبـيـ)ـ وـبـيـقـوـلـ أـنـهـ هـاجـمـ مـؤـخرـةـ جـيـشـ شـارـلـانـ أـنـثـاءـ اـنـسـحـابـهـ إـلـىـ فـرـنـسـاـ .ـ الأولىـ قضـىـ عـلـيـهاـ الـمـصـرـيـةـ ، وـدـعـواـ لـهـشـامـ ، وـالـثـانـيـةـ قضـىـ عـلـيـهاـ عـبـيدـ اللهـ اـبـنـ عـشـامـ .ـ قـائـدـ الـأـمـيرـ هـشـامـ .ـ بـعـدـ اـنـ استـولـىـ عـلـىـ طـرـطـوشـهـ ، وـخـاصـرـ سـرـقـسـطـهـ ، وـفـيـهاـ مـطـروحـ وـصـحـبـهـ ، وـظـلـ يـوـاـصـلـ الـحـصـارـ حـتـىـ اـسـتـسـطـعـتـ سـرـقـسـطـهـ ، وـقـتـلـ مـطـروحـ سـنـةـ ١٧٥ـ هـ .ـ وـبـذـلـكـ فـتـسـلـتـ الـثـورـةـ فـيـ تـلـكـ الـأـنـحـاءـ .ـ كـماـ جـرـدـ هـشـامـ عـدـةـ حـمـلاتـ عـلـىـ جـمـوعـ الـبـرـبرـ الـثـائـرـةـ فـيـ رـنـدـهـ أوـ تـاـكـرـنـاـ سـنـةـ ١٧٨ـ هـ ، وـشـتـتـ جـمـوعـهـ ، وـأـرـغـمـهـ عـلـىـ الطـاعـةـ وـالـولـاءـ .ـ

الموقف من نصارى الشمال

بعد أن قـهـرـ هـشـامـ الفـتنـ الدـاخـلـيـةـ فـيـ دـوـلـتـهـ ، اـعـتـزـمـ تـأـدـيبـ نـصـارـىـ الشـمـالـ الـذـيـنـ لـجـأـوـاـ إـلـىـ الـعـنـفـ وـاقـطـاعـ الـأـرـاضـىـ وـالـأـغـارـةـ عـلـىـ مـمـتـنـكـاتـ الـدـوـلـةـ الـإـسـلـامـيـةـ مـنـتـهـيـزـينـ فـرـصـةـ مـوـتـ عـبـدـ الرـحـمـنـ ، وـالـقـلـاـلـقـ الـتـىـ أـعـفـتـ وـفـاتـهـ ، وـلـنـصـارـىـ جـبـهـتـانـ فـيـ اـسـبـانـيـاـ تـقاـومـ كـلـ مـنـهـمـ الـحـكـمـ الـإـسـلـامـيـ ،ـ جـبـهـةـ نـسـرـقـيـةـ وـهـىـ مـنـطـقـةـ الـقـلـاعـ ،ـ الـتـىـ صـارـتـ فـشـتـالـةـ فـبـماـ بـعـدـ ،ـ وـجـبـهـةـ غـرـبـيـةـ وـهـىـ مـنـطـقـةـ جـلـيقـيـةـ ،ـ وـشـجـعـ النـصـارـىـ فـيـ جـبـهـتـيـنـ الـفـرـنـجـةـ وـالـبـشـكـنـسـ ،ـ فـأـرـسـلـ هـشـامـ الـجـيـوشـ الـتـىـ اـخـتـرـقـتـ قـلـاعـ فـشـتـالـهـ وـأـغـوارـ جـلـيقـيـةـ ،ـ وـهـزـمـ عـبـدـ اللهـ بنـ عـشـامـ بـرـمـندـ .ـ مـلـكـ جـلـيقـيـةـ .ـ سـنـةـ ١٧٥ـ هـ /ـ ١٧٩ـ مـ ،ـ وـاـصـلـ الـمـسـلـمـونـ غـارـاتـهـ عـلـىـ جـلـيقـيـةـ حـتـىـ تـنـازـلـ الـمـلـكـ عـنـ عـرـشـهـ لـولـدـهـ أـلـفـونـسوـ الثـانـيـ .ـ

ولـمـ يـكـفـ هـشـامـ بـذـلـكـ بـلـ سـيـرـ سـنـةـ ١٧٩ـ هـ /ـ ١٧٩٥ـ مـ حـمـلةـ أـخـرىـ إـلـىـ جـلـيقـيـةـ بـقـيـادـةـ عـبـدـ الـكـرـيمـ بنـ الـلـوـاـحـدـ بنـ مـعـيـثـ فـلـخـتـرـقـ الـمـسـلـمـونـ مـعـاـورـ جـلـيقـيـةـ .ـ فـقـرـ السـكـانـ لـلـىـ رـؤـوسـ الـجـيـالـ ،ـ وـدارـتـ رـجـبيـ

مـحرـكـةـ رـهـبـيـةـ بـيـنـ مـلـكـ جـلـيقـيـةـ وـقـائـدـ الـمـسـلـمـ ،ـ اـنـتـهـتـ بـهـزـيـمةـ الـجـلـالـخـةـ ،ـ

وغم المسلمون مفانع كثيرة . وبذلك عادت الولايات الشمالية إلى المدوه
والطاعة .

واراد هشام اعادة عهد الجماد فيما وراء النبرات ، فأرسل حملات
صيفية على ولاية سبتمانيا الفرنجية في جنوب فرنسا وغم منها معانم
كثيرة ، مكتنفة من بناء عدة مساجد على شاطئ الوادي الكبير ، وتوسيع
نطاق مسجد قرطبة الذي أسسه والده ، كذلك أعاد بناء الجسر القديم
المتد على الوادي الكبير ، والذي يربط العاصمة باراضيها الجنوبية ،
وصار يعرف بجسر قرطبة .

وقد كتب المؤرخ الفرنسي رينو يقول أن هشاما أراد أن يوجه
ال المسلمين إلى الجهاد ، بدلاً من أن يحارب بعضهم بعضاً ، ويجمع شملهم
بشرف الجهاد ، ويشغل المسلمين عن آثاره القلاقل والاضطرابات ، وأراد
في نفس الوقت أن يثبت لنصارى الشمال قوة المسلمين ، وتسدة بأسمهم ،
 وأن يحوض ما ضاع من المسلمين من أرض نتيجة لغزوات بين وشارلان ،
وأصدر هشام منشوراً قريراً في الجواجم يدعو الناس إلى الجهاد بالنفس
أو بالمال ، ولقيت دعوته قبولاً وحماساً من الأهلين ، فنفروا إلى قرطبة
خلفاً وثقالاً من كل فج عميق حتى تجمع لديه مائة ألف مقاتل ، وأموال
جمة ، فسير الحملات إلى الشمال وإلى جنوب فرنسا ، كما سبق القول .

مذهب مالك في الأندلس

من المعروف أن المذاهب الفقهية الرئيسية ، هي المالكي ،
والحنفي والشافعى والحنفى . وأنشرت هذه المذاهب في البلاد
الاسلامية ، كل فيما يناسبه من مذهب ، وقد انتشر المذهب الحنفى في
العراق ، لأنها عراقى ، ولم ينتشر في الأندلس لأنها مذهب الدولة العباسية
المعادية ، ولأن مالك نفسه كان يعارض سياسة العباسين ونقل عن الإمام
مالك ارتياده إلى سياسة هشام وورعيه وتقواه ، وتطبيق أحكام الإسلام
بأنماطه ودقته ، وتكان الفاتحون العرب والمحاجرون إليها من العرب أنماط من

أهل الشام أو من أهل الحجاز ، وأهل الشام تأثروا بمذهب الأوزاعي
الذى انتشر فى الأندلس بعد الفتوح ، أما الحجازيون فقد حملوا مذهب
مالك منهم إلى الأندلس وكان من بينهم فقهاء ، حملوا أفكار هذا المذهب
إلى أهل الأندلس ، وسافر طلاب علم إلى المدينة المنورة ، وتشددوا على
آيدى هذا العالم الجليل ، وعادوا إلى الأندلس فقهاء ينتشرون هذا المذهب
بين الناس ، ومن بين هؤلاء زياد بن عبد الرحمن ، وأخذ عنه يحيى بن
يحيى النبلي الذى رحل إلى الحجاز ، ليأخذ عن الشیخ ، وعاد إلى الأندلس
ليتم ما بدأه أستاذه زياد ، فانتشر المذهب في الأندلس ثم عبر بلاد المغرب ،
وانتشر فيها ، وحل مذهب مالك في الأندلس محل مذهب الأوزاعي .

ويتضمن مذهب مالك آراء فقهية في القضاء والفتيا وفي العبادات والأحوال الشخصية ، فيها الحلول للكثير من مشاكل الدنيا . وهناك سبب آخر ينوية ابن خلدون وهو أن البيئة الأندلسية والمغربية أو طبيعة أهل المغرب والأندلس كانت تشبه إلى حد كبير ، طبيعة أهل الحجاز من حيث البساطة والبعد عن التعقيد ، ولهذا فإن عقلية أهل الأندلس والمغرب ، كانت تختلف عليها نزعة أهل الحديث .

ويختلف مذهب مالك عن مذهب أبي حنيفة ، في أن مذهب مالك يقتيد بنصوص القرآن وبالآحاديث النبوية في استبطاط الأحكام الشرعية والفتاوی . ولا يعتمدون على الرأى والقياس الا فيما ندر . أما مذهب أبي حنيفة فيعتمد على الرأى والقياس إلى جانب التصوّص . لذلك عرف أنصار مذهب مالك بأهل الحديث . أما أنصار أبي حنيفة فعرفوا بأهل الرأى والقياس . وقد ظهرت في العراق مشكلات عديدة ومعقدة بسبب تعدد الأجناس وأزدهار الحضارة ، وظهور موضوعات جديدة في حاجة إلى الاجتماد والرأى والقياس .

يُوصل عماله إلى الكبور والاقليم لتفقد أحوال الحكم والقضاء ، فلادا تبت
ظلم واله أو قلض ، لاستدعاءه ، وعزله وعلقه ، وإذا ثبت للعكش حمد الله
على حسن أحوال الرعية . وأمر هشام بتدريس اللغة العربية في معاهد
النصارى ، مما أدى إلى دخولهم فيه .

ويرجع التفضل في هشام إلى أنه كان يطبق الزكاة ، فيجمعها طبقا
للشرع ويوزعها على المحتاجين ، وكان يطوف الشوارع ، ويتفقد أحوال
الرعاية ، وينظر في المظالم بنفسه ، ويزور المرضى ، ويبحث الناس على تعمير
المساجد حتى امتنعت بالصلين . لذلك أشاد الإمام مالك بعدله وتقواه .

وما مننا قد تحدثنا كثيرا عن الإمام مالك الذي عاصر هشام فيجب
أن نشير بنيجار إلى هذا الإمام .

مالك بن أنس رجل يمني من قبيلة ذي أصبع ، عاش بين عامي
٩٤ - ١٨٩ هـ أي أنه أدرك العصرين الأموي والعباسي ، واتخذ المدينة
النورة مقراً له ، وللإمام مالك كتاب في الحديث اسمه (الموطأ) مرتقب
حسب الموضوعات ، رتب فيه أبواب الفقة على الحديث بمعنى أنه ذكر
أبواب الفقة المختلفة كالصلة والزكاة والمصوم والحج والعائدات . . . الخ
ثم ذكر الأحاديث التبوية المتعلقة بكل موضوع من هذه المواضيع الفقهية .

قد عرف مالك بشدته في تحرى الصحة في الرواية والاسناد ولذا
فكتبه من الكتب الصحيحة ، وعرف عنه سعة العلم وكان محدثا بارعا ،
وأماما يعرفه للقاضى والدائن ، ويسعى إلى تلقى العلم منه ، طلب
الحديث من المشرق والمغرب .

الأمير الحكم الريفي

(١٨٠ - ٧٩٦ / ٢٠٦ - ٨٢٢ م)

تجنب هشام بن عبد الرحمن المثكلة التي حدثت بعد وفاة أبيه بسبب ولایة العهد ، والتى أشرنا إليها . لذلك عمد إلى ابنه الحكم بالحكم من بعده ، وسمى بالريفي لوقف بيته وبين أهل الربض من نواحي قرطبة .

تختلف شخصية الحكم اختلافاً واضحاً عن شخصية أبيه فبينما كان أبوه يعتمد على الفقهاء في إدارة شؤون الدولة رفض الحكم هذه السياسة . وأثبتت الأحداث التاريخية أن رجال الدين لا يمكن الاعتماد عليهم في الشؤون السياسية وأدارة أمور الدولة ، حتى أن العباسين كانوا يرفضون تولية أصحاب الطيالس مناصب الوزارة .

نعود إلى الحكم و موقفه من رجال الدين ، فقد أبعدهم عن مناصب الدولة ، ورفع عنهم الامتيازات التي منحها لهم هشام فأتهموه بالكفر والخروج على الدين ، وحرضوا عليه فئات الشعب ، وناصبوه العداء ، ووضعوا العرقل في سبيل حكمه . ولكنه لم يأبه بمعارضتهم ، بل تصدى لهم بقوة .

الفتن والثورات الداخلية

نم يهدأ سليمان وأخوه عبد الله في المقر الجديد بالغرب ، فكان سليمان يقيم في طنجة ، على حين يقيم عبد الله في المغرب الأوسط ، وكل من الأخوين يتربّب الفرصة المواتية للعودة إلى الأندلس ، والمطالبة بالحكم ، وأنهز الأخوان فرصة وفاة أخيهما هشام ، وعبر سليمان إلى الأندلس على رأس جموع من البربر والمرتقة ، وحاول الاغارة على قرطبة عدة مرات ، ولكن الحكم هزمه سنة ١٨٢ هـ . وهزمه الحكم في العام التالي بالقرب من استجه ، ففر في أصحابه متوجهًا إلى ماردة ، فبعث الحكم الجند في أثره وأرسل الحكم إليه جيشاً هزمه ، وقبض عليه ، وسبق هو ورفيقه

إلى قرطبة ، وأمر الحكم بأعدامهم ، وظيف بروزهم في شوارع قرطبة ؟
ثم أمر بتشييع جنازة عمه في احتفال مهيب ، ودفنه بالروضه بقصر الامارة
بجوار والده عبد الرحمن .

أما عبد الله ، فقد أحقى في بلنسـيه بعد هزيمـه أخيه سليمـان ،
ولكتـه في انتـهاية لم يـر مناصـا من طـلب العـفو والمـصفـح ، فـقدـر الحـكم لـه
أـمـانا ، عـلـى أن يـقـنـى في بلـنسـيه ، وـتـجـرـى عـلـيـه أـرـزـاقـه ، وزـوـجـ الحـكـمـ
أـحـدـيـ بنـاءـهـ لـعـبـيدـ اللهـ بـنـ عـبـدـ اللهـ وـرـكـنـ عـبـدـ اللهـ إـلـىـ اـنـطـاعـةـ وـالـسـكـينـةـ طـوـالـ
عـهـدـ الحـكـمـ ، وـأـظـهـرـ عـبـيدـ اللهـ بـنـ عـبـدـ اللهـ الـوـلـاءـ الـحـكـمـ ، وـدـخـلـ فـيـ خـدـمـهـ ؛
وـتـدـرـجـ فـيـ سـلـكـ الجـيـشـ وـطـهـرـ نـبـوـغـهـ فـيـ تـلـكـ الصـوـائـفـ الـتـيـ تـسـبـبـهاـ عـلـىـ
الـمـسـيـحـيـنـ فـيـ الشـمـالـ ، وـلـذـاـ لـقـبـ بـصـاحـبـ الصـوـائـفـ .

ثورات المولدين

المولدين — كما علمتم — هم طبقة شـائـتـ فـيـ الأـندـلسـ من زـواـجـ
الـمـسـلـمـيـنـ بـالـاسـبـابـيـاتـ ؛ وـسـكـلتـ هـذـهـ الطـبـقـهـ بـمـرـورـ الزـمـنـ الـغالـبيـهـ العـظـمىـ
مـنـ سـكـانـ الـأـنـدـلسـ ، فـمـنـهـ الـمـازـارـعـونـ وـالـطـبـلـهـ وـالـتـجـارـ وـالـفـهـاءـ وـالـصـنـاعـ ،
وـقـدـ نـسـعـواـ بـالـغـيـبـ مـنـ حـكـمـ الـأـنـدـلسـ الـتـيـ كـانـتـ تـحـرـمـهـمـ مـنـ الـنـاقـبـ
الـكـبـيرـ ، وـتـنـقـلـ كـاهـلـهـمـ بـالـصـرـائـفـ الـعـادـهـ ، فـقـامـواـ بـتـورـابـ تـهـدـىـ إـلـىـ
تـحـسـبـ وـضـعـهـمـ السـيـاهـيـ وـالـاجـنـمـاعـيـ وـأـهـمـ هـذـهـ النـسـورـاتـ ، بـورـةـ
فـيـ قـرـطـبـةـ ، وـأـخـرـىـ فـيـ طـلـيـطـلـةـ وـلـتـنـتـحـدـتـ الـأـنـ عـنـ ثـورـاتـ أـهـلـ طـلـيـطـلـةـ
عـاصـمـةـ القـوطـ الـقـدـيمـةـ وـقـاعـدـةـ التـغـرـ الـأـدـنـىـ ، وـكـانـ بـيـنـ أـهـلـهـ الـكـبـيرـ مـنـ
الـمـوـلـدـنـ وـالـمـسـتـعـمـرـيـنـ الـدـيـنـ يـشـعـرـونـ بـصـورـةـ الـتـخلـصـ مـنـ سـلـطـانـ قـرـطـبـةـ
الـذـيـ سـلـيـهـمـ حـقـوقـهـمـ السـيـاسـيـهـ وـالـاجـتـمـاعـيـهـ ، وـلـمـ يـنـسـواـ سـالـفـ عـزـهـمـ
وـمـجـذـهـمـ لـيـامـ أـنـ كـانـتـ مـديـنـتـهـمـ دـارـ مـلـكـ القـوطـ ، وـكـانـواـ يـعـتـرـوـنـ بـمـرـوتـهـمـ
وـكـثـرـتـهـمـ وـحـصـانـتـهـمـ ، وـنـشـيـتـ فـيـ طـلـيـطـلـةـ عـدـهـ فـتـنـ ، أـجـهـدـتـ جـنـدـ
الـحـكـمـ ، وـلـمـ يـسـتـطـعـ الـحـكـمـ اـعـادـةـ الـبـلـادـ الـهـيـدـوـءـ وـالـطـاعـةـ فـلـجـاـ إـلـىـ
الـجـبـلـهـ وـالـخـدـبـعـهـ ، وـعـيـنـ عـمـروـسـ مـنـ مـوـسـفـهـ — وـهـوـ مـنـ الـمـوـلـدـنـ سـرـيـالـيـاـ
ـعـنـ طـلـيـطـلـةـ . وـكـانـ عـمـروـسـ يـوـتـنـيـهـ الـحـكـمـ ، وـكـلـنـ الـحـكـمـ مـوـفـقاـ فـيـ هـذـاـ

الاختيار ، لأن عمروس ثسانه نسان معظم أهل طليطلة من المولدین ، ويطمأنون اليه ، لذلك بعلاقته بالحكم من ناحية ، وبالمولدين من ناحية أخرى ، يستطيع أن يلعب دوراً ناجحاً في أزالة التوتر من المدينة انماهه . وكتب الحكم إلى أهل طليطلة يقول : أسى قد اخترت لكم علاناً وهو منكم لتطمئن قلوبكم وأعفيتكم من تكرهونه من عمالنا ومواليها ، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم ، ودخل عمروس طليطلة ، وتظاهر أمام أملاها ببعض بنى أممية حتى استمالهم اليه ، تم شيد خارج المدينة قلعة جديدة ، منظاهراً أنه سيدها ليقيم فيها الجندي بعيداً عن المدينة ، حتى لا يقتلو الأهالي .

عول عمروس التخلص من زعماء الفتنة ، فأقام وليمة في الفلعة الجديدة ، ودعا إليها رؤساء وسادة أهل طليطلة المعارضين لحكم الحكم : وأمر بقتلهم جميعاً ، والقاء جثتهم في مكان أعد لهم سنة ١٩١ هـ / ٨٠٧ م وكان لهذه الجريمة النساعء أثرها في خصف أهل طليطلة ، فكروا عن العصيان ، وعادوا إلى الطاعة وأنولاً لحكومة قرطبة وأنتهت الفتنة والقلق في هذه المدينة العتيدة .

وثورة المولدین الثانية ، كانت أشد خطراً من الأولى ، وأبعد آثاراً ، وتعرف هذه الدورة ، بثورة الربضيين ، نسبة إلى الربض ، ضاحية من خواصي قرطبة ، يقيم فيها العمال والزارع والمصناع وأصحاب الحرف المختلفة ، وكانت قرطبة قد ازدحمت بالسكانخصوصاً من المهاجرين العرب والبربر ، وقد سيد هشام بن عبد الرحمن الجسر على نهر الوادي الكبير ، ليربط المدينة بأراضيها الجنوبية ، فامتد العمران إلى الضفة الأخرى المواجهة للمدينة ، فنشأ حي الربض - الذي سبقت الاسوار إليه - وأمتد إلى مدينة شقندة ، وهذه العناصر التسعبية التي أقامت في هذا الجي ، كانت تقع تحت تأثير الفقهاء الذي نأغفهم تحديد الحكم لنفودهم ، كما أن أهل الربض - ومعظمهم من المولدین - سعوا بالظلم الاجتماعي ، وأنهم كطبقة اجتماعية لم يكن لها حقوق تجعلهم على قدم المساواة مع العرب أو البربر .

وقد حدث حادث بسيط ، ولكن نظراً لجو السخط العام الذي كان مسيطرًا على المجتمع حينذاك ، فقد أدى إلى ثورة كانت لها نتائج بعيدة في الشرق والغرب . وملخص هذا الحادث أن جندياً من حرس الأمير ، ذهب إلى حداد بحريه ليصلح سيفه ، فتباطأ في أصلاحه ، وحدث خلاف بينهما لم يلبث أن تطور إلى جدال عنيف ، فما كان من الجندي إلا أن قتل الحداد ، الذي كان من طبقة المولددين ، وكان هذا بمثابة الشرارة التي أشعلت الحريق ، فقد انفجر السخط وتجمع الناس على الجندي فقتلواه ، ولم يكتفوا بذلك ، بل خرجن جماعات كبيرة مسلحة بالبلط والعصى والسكاكين ، وما وصلت إليه أيديهم من سلاح ، وأندنس بينهم الفقهاء وأغلقوا المتاجر والحوانيت ، وأتجهوا إلى قصر الامارة عبر الجسر ، وتزعمهم الفقهاء ، ومن بينهم يحيى بن يحيى الليثي ، وحاصرت هذه الجموع الثائرة قصر الحكم ، وحاولوا اقتحام القصر وقتل الأمير .

تصدى الحكم بسرعة لهذا الخطر اذاهم الذي يهدده ويهدد ملكه ، فاستدعي رئيس حرسه الخاص ، وأمره بالدفاع عن القصر ، كما استدعي ابن عمه عبد الله بن عبد الله البلنسي — صاحب الصوائف — وأمر أن يبذل هصارى جده ، ويسق طريقه إلى حي الريض ، وأشعال النار فيه ، ونجحت الخطة ، فأخترق جند الحكم النهر على مخاضة ، لأن الجسر كان مزدحماً بالثوار ، وأحرق جند الحكم مساكن الثوار ، ولما رأى أهل الريض مساكنهم تحرق ، أسقط في أيديهم ، وفزعوا وأسرعوا إلى الريض تاركين قصر الحكم لأنقاذ أولادهم ونسائهم . وعلى الجسر هاجمتهم القوات من خلفهم ومن أمامهم ، وأوقعت جند الحكم الثوار بين نارين ، وأحاطت بهم من كل جانب ، وأعملت فيهم السيف ، حتى مزقتهم كل ممزق ، وكانت هذه الواقعة حوالي سنة ٢٠٢ هـ ولم يكتف الحكم بذلك ، بل أمر أهل الريض بالرحيل من الأندلس ، وأمهلهم ثلاثة أيام ، فمن تخلف ، أمر بقتله ثم أمر بالريض ، وهدمت وحرثت مكانها وزرع ، وأوصى بألا يسكن هذا الحي بعد وفاته .

وأقرن اسم الحكم بالريض ، فسمى بالريضي ، ونفذ خلفاؤه

وحصيتها ، ولم يعمر هذا المكان حتى أواخر القرن الرابع المجري .

ومن أهم نتائج هذه الثورة ، أثبات مقدرة الحكم وكفاءته في اخضاع الثورات ، ودانت له البلاد بالولاء والطاعة ، وتقلص نفوذ الفقهاء ، وخسروا بأسه ، وفر بعضهم خارج الأندلس . وكفوا عن مهاجمة الحكم في الشوارع والأسواق والمساجد والمجتمعات ، وأتهموا بالكفر ، والالحاد .

أما النتائج الخارجية ، فهي خروج الريبيسيين من الأندلس بحثاً عن موطن جديد وحياة جديدة ، وأرضاً يهاجرون إليها ويستقرون فيها ، بعد أن طردتهم الحكم من بلادهم .

عبر الريبيسيون مضيق جبل طارق إلى العدوة الغربية حيث استقروا بين قبائل البربر في الريف شمال المغرب ، ورحب بهم أدریس الثاني – أمير دولة الأدارسة الثانية – وكان وقتئذ يؤسس مدينة فاس ، وفي حاجة إلى صناع وعمال وفنانين يعاونونه في تأسيس المدينة الجديدة ، فرحب بالريبيسيين ، ونقلوا إلى فاس مظاهر الحضارة الأندلسية لا سيما وأن معظمهم كانوا – كما قلت – من أهل الصناعات والحرف ، فأعطوا المدينة طابعاً أندلسيّاً جميلاً سواء في أبنيتها البيضاء ذات الحدائق الداخلية في أحواشها ، ونزل فريق منهم بـ بحـي ، عـرف بـ بـحـي الأندلسـيين .

أما المدينة العالية التي أسسها أدریس الثاني على الضفة المقابلة فقد أسكنها لجماعة من أفرقة من نواحي القيروان ، وسميت مدينة القرويين ، وبمرور الزمن غالب اسم فاس على المدينتين ، وصار يُسمى عدوة القرويين ، وعدوة الأندلسـيين ، وقد اشتغل القرويون بالتجارة ، وأشتعل الأندلسـيون بالزراعة والصناعة .

أما الفريق الآخر ، فقد سارعوا نحو الشرق بـرا وـبـحـرا ، وهاجموا الاسكندرية ، وأستولوا عليها بـمساعدة بعض العربـان ، وأستقرروا فيها ، وأقاموا لهم فيها ولـيـاً منهم . ولكن ولـيـاً مصر عبد الله بن طـاهـر

ابن الحسين ، لم يتخاض عن أهل الريض في الاسكندرية ، وانتراها من ولايه مصر ، بل صار اى الاسكندرية ، وشدد عليهما الحصار ، ودارت خدعة معارك بين افريقيين ، انتهت بتسليم أهل الريض الاسكندرية لعبد الله بن طاهر ، وعهد معهم صلحا ، بمقتضاه ، ينسحب أهل الريض من الاسكندرية الى اي ارض غير ارض العباسين وأعد لهم مراكب لاجلاقهم ، فقصدوا جزيره ذريت وانتزعوها من أيدي البيزنطيين وأقاموا بهم فيها دولة اسلاميه ، عرفت بالدولة الكلبيه ، وخلت هذه الدولة مصدر تهديد لجزر وسواحل الدولة البيزنطية ، وحاول البيزنطيون اجلاء هؤلاء المسلمين من جزيرة ذريت دون جدوى ، وكان المسلمون في ذريت يتلقون المساعدات من مصر وانسام وافريقيه الى هذه الجزيرة المجاهدة التي تتصدى للخطر البيزنطى . وأستمرت دولة الكلبيين الصغيرة زاهراه زهاء قرن وثلث (٢١٢ - ٣٥٠ م) حيث استعاد البيزنطيون الجزيرة .

العلاقات الخارجية

لم تكف دولة الفرنجة المتأخمة لدولة المسلمين في الأندلس عن محاولة غزو هذه الدولة ، والقضاء عليها ، وذلك لتأمين حدودها ، واستطاعت بالحرب والقتال انشاء ثغر قوطى في أقصى إسبانيا الشمالية الشرقية ، مما يلي جبال البرتات وكان الثغر القوطى يتكون من مدن جيرونه وأوزونه وسولسونه ، ولم يكتفى سارمان بذلك بل عول على توسيع الثغر القوطى ، وتطلع الى فتح شر برشلونه النائم ليكون معللاً لحماية أملاكه الجنوبية ، وحلقة اتصال بحري سهل بينها وبين فرنسا ، ولتحقيق هذا الغرض عقد شارمان تحالفًا مع الفونسو الثاني - ملك جليقية - لضمان ولاه البشكتس . وفي سنة ١٨٥ هـ أرسل شارمان جيشاً لتحقيق هذه العاية بقيادة لويس بن شارمان - أمير أكوتين - وكانت الفرحة مواتية ، بسبب انشغال الحكم بمقاومة المورات التي استولت خصده ، وقد واجه سعدون الرعينى - والى برشلونه - الحصار بشجاعه وبراعة ، وكانت حكومة قرطبة مسؤولة عنه بمدّاكنها الداخلية ونم تصله أية آمدادات ، وسدّد الفرنج الحصار على برشلونه حتى هلك معظم سكانها .

وي بعد سبعة أشهر أقتحم العدو المدينة الحصينة . وأتغذى الفرنج ببرسونه بدلاً من جيرنجه قاعده لنفسه القوطى الذى بما فيما بعد . وعند هذا التغير الفرنجى أمارة نصرانية تسمى قطلونية ، التى اندمجت فيما بعد فى مملكته أرagon . وخسر الاسلام بفقد برسونه أمن معهوره فى قاصيه أسبانيا ، وأرتقت حتدود الأندلس الى التغر الأعلى ، بعد أن كانت تجاوز جبال البرات . ونس الفرنج بقيادة لويس بن ناصر لان هجمات عنى ولاية التغر الأعلى سنة ١٩٢ هـ عدة مرات ، وحاصروا مدنه طرطوسه ولكن المسلمين ردواهم على أعقابهم حاسرين .

كذلك أنتهز الفونسو الثاني – ملك جليقية – سنة ١٩٤ هـ فرصة انتسغال المسلمين بالبرات ، وعبر الى بلاد المسلمين عدة مرات وعاد في البلاد تهبا وفساداً وخراباً ، ذـ دـى لجيـسـهـ اـحـكـمـ ، وـحـدـ هـجـمـانـهـ ، وهزم النصارى في عدة وقائع واطمأن المسلمين وأهانوا من هذه الغارات المتلاحقة ، وهاجم الحكم برسونه ، ودارت حروب بين الفرنج وال المسلمين بدون طائل ، ذلـجـأـ الطـرـفـانـ الـىـ اـصـلـحـ ، وـعـنـدـ اـنـحـكـمـ وـسـارـلـانـ مـلـحاـ ، أستمر حتى وفاة شارلـانـ سنة ٨١٤ مـ

وفي سنة ٢٠٠ هـ شن الحكم عدة هجمات في جليقية وعلى البشكـتسـ ، أضعفـوـمـ ، وأنـهـ قـواـهـ ، وأـمـنـ مـكـرـهـ ، وأـعـتـصـمـ النـصـارـىـ بـالـوـهـادـ وـالـرـبـىـ .

كان الحكم حاكماً قوياً مستبراً ، يصل إلى غايتها باى وسيلة ، صار ما قاسياً ، شغوفاً بأبهة الملك ، يترفع عن الرعية ، وهو في ذلك يختلف عن أبيه وحده ، وكان يحسن اختيار رجال دولته ، من عرقو بالعدل والورع والاستماره ، وهو أول من أظهر فخامة الملك ، وأول من أنشأ بالأندلس بلاطًا إسلامياً ملوكياً ، ورتب نظمه ومراسمه ، واستكثر من الموالى ، وجعل منهم حرسه الخاص ، واستكثر من الصقالية وعهد إليهم بمعظم شؤون القصر ، وكانوا من الرقيق الخصيان يؤتى بهم من بلاد الفرنج وحوض الدانوب وببلاد اللومبارد ومختلف نهور البحر المتوسط النصرانية وكان

يُؤتى بهم أطفالاً ، ويربون تربية أصلعية ، ثم يدرّبون على أعمال القصر ،
وتدريجوا في سلك الوظائف حتى بلغ بعضهم الرياسة والقيادة .

وأستطيع الحكم تنظيم البلاد أدارياً ، فكانت شرطته منظمة ومدربة
على تأدية مهامها على أكمل وجه ، وله عيون وحواسٍ يطلعونه على
الأخبار . وعلى الجملة كان الحكم عظيم السلطان والميبة .

الأمير عبد الرحمن الأوسط

(٢٠٦ - ٨٢٢ / ٢٣٨ - ٨٥٢ م)

يتميز عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، بالنقلة الحضارية التي انتقلت إلى الأندلس في أيامه ، فقبل عهد الأمير عبد الرحمن كانت المؤشرات الحضارية الإسلامية في الأندلس ، مبعثها بلاد الحجاز أو بلاد النسائم ، وكان انشاط الحضاري في هذه البلاد محدودا ، وبالتالي فالفوائد الحضارية التي انتقلت إلى الأندلس من تلك البلاد كانت محدودة ، ولما ولى الأمير عبد الرحمن الأوسط رأى ضرورة نقل بلاد الأندلس من شطوف البداوة إلى رونق الحضارة ، فقطع إلى بلاد العراق ، وهو الأمر الذي حرص أسلافه الأئمـاء على إغلاق هذا الباب ، نظراً للمعذـاء الشـديد بين الأمويين في الأندلس ، والعباسيـين في العـراق ، ولكن عبد الرحمن الأوسط أدرك بثاقب نظرـة أنه لا يمكن تـنمية بلادـه حـضارياً إلا بـفتح الـباب على مـصـرـاعـيه لـاهـلـالـعـراـقـ ، وـنـقـافـةـ أـهـلـالـعـراـقـ .

وكانت بلاد العراق بالذات في العصر العباسي قد بلغت شأنـاً كـبـيراً في مـضـمارـ الحـضـارـةـ ، وأـنـتـقلـ إلىـ بـغـدـادـ الفـرسـ ، وـغـيرـهـ منـ الـأـجـنـاسـ الـأـخـرىـ ، وـأـبـرـزـواـ عـلـومـهـ وـمـعـارـفـهـ ، وـحـظـواـ بـتـشـجـيعـ الـخـلـفـاءـ ، وـأـنـتـشـرـتـ فـيـ بـغـدـادـ الـكـتـبـ وـالـمـكـتـبـاتـ فـيـ كـلـ فـرـعـ ، وـتـرـجـمـتـ الـكـتـبـ الـأـجـنبـيةـ إـلـىـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ مـخـتـلـفـ الـعـلـوـمـ وـالـفـنـونـ ، وـنـبـغـ فـيـ بـغـدـادـ الـشـعـرـاءـ وـالـأـدـبـاءـ وـالـعـلـمـاءـ .

وشجـعـ عبدـ الرـحـمـنـ الـأـوـسـطـ الـعـلـمـاءـ عـلـىـ الـانـقـالـ وـالـهـجـرـةـ إـلـىـ بـلـادـهـ ، وـسـاـهـمـواـ فـيـ أـزـدـهـارـ الـحـرـكـةـ الـقـاـفـيـةـ ، كـمـ أـرـسـلـ إـلـىـ الـعـرـاـقـ يـشـتـرـىـ نـفـائـسـ الـكـتـبـ وـالـمـسـنـفـاتـ ، وـلـاـ غـرـوـ فـقـدـ وـرـثـ مـلـكـاـ مـمـهـداـ ثـابـتاـ ، وـدـوـلـةـ أـمـوـرـاـ هـادـئـةـ وـخـرـائـئـاـ عـامـرـةـ ، فـحـرـصـ عـلـىـ أـنـ يـجـعـلـ الـأـنـدـلـسـ مـنـ ذـوـ الـعـالـمـ الـكـبـيرـ تـخـطـبـ وـدـهـاـ اـنـدـولـ الـكـبـيرـةـ مـثـلـ الدـوـلـةـ الـبـيـزـنـطـيـةـ . وـدـوـلـةـ الـفـرـنـجـةـ وـأـنـتـقـلـتـ إـلـىـ الـأـنـدـلـسـ حـضـارـةـ لـلـعـرـاـقـ ، وـمـنـ قـبـلـ ذـلـكـ حـضـارـةـ

النسام والمجار ، وبالجملة حضارة الشرق ، وأمتهجت بحضارات العرب . ودبرها الأندلسيون ، وأخرجوا منها حضاره مميرة .

هاجر انى الأندلس - كما فتيا - علماء في مختلف الفنون ، وهل من
لم ييرز بعلمه في المسرق ، كان يهاجر الى الأندلس ، حيث بعد التقدير ،
ويعيش في بلد بكر في حاجه نلى العلم وأهله ، ونند طـ الأندلسيون في شراء
تحف قصور السرق ونجوارى من ذوات الحيبت الحسن ، فهربت الأندلس
برجالـ اعلم وتحفـ التسرق ، ورسلـ الحضارة ، لذلك تحولـ هداـ المجتمع
من البداؤة الى حياة مترفـة راقـة .

ومن أبرز مظاهر هذا الانتقال أيام عبد الرحمن الأوسط هو بروز شخصيات في عهد هذا الأمير ، بدل على سعة أفق هذا الرجل ، وعلى آناهه الفرصة لمؤلفاته العلماء لاظهار معارفه عن مسرح الحياة الاندلسية ، واهتمامه بأفادته بلاده من مواهب هؤلاء الرجال ، وليس – كما يذهب المؤرخ دوزي من أن ظهور هؤلاء الرجال في بلاد الاندلس ، وتمكنوا من الله لطان ، إنما يدل على ضعف هذا الأمير .

ولتأذنوا لى بالحديث عن أبرز هؤلاء الرجال :

يحيى بن يحيى القيسي

وهو الفقيه المشهور الذى لعب دوراً رئيسياً فى نشر مذهب مالك فى الأندلس ، وكان من المقربين لushman بن عبد الرحمن وحظى بمكانة رفيعة عندـه ، ولكن نفوذه تضاءل فى عهد الحكم ، وتنزعـم الثورة ضده ، ولكن الأمير عبد الرحمن الألوسط قربـه اليـه ، وأسـند اليـه منصب قاضـى الفضـاء ، وكان أـنـسبـه بوزير العـدـل فـي أيامـنا هـذـه ، يـعـينـ القـضـاء فـي النـواـحـى ، ويـشـرـفـ عليهم ، ويـتـقـدـمـ أـعـمـالـهـمـ ، ورـبـماـ فـي بـعـضـ الـأـحـيـانـ ، يـلـىـ قـضـاءـ بـعـضـ النـواـحـىـ ، وـيـعـينـ مـنـ الـقـضـاءـ مـنـ يـنـيـبـ عـنـهـ ، وـكـانـ نـفـوـذـهـ كـبـيرـاـ فـي الأـنـدـلـسـ ، حـتـىـ أـنـهـ كـانـ يـتـدـخـلـ فـي الشـؤـونـ السـيـاسـيـةـ فـي الدـوـلـةـ ، وـيـغـرـبـ رـأـيـهـ عـلـىـ الـأـمـرـ .

الحسين بن نافع زرياب

وحل زرياب إلى فرطبه في أوائل عهد عبد الرحمن الأوسط وهو مغني عراقي فارسي الأصل ، ولقب زرياب ، وهي كلمة تتلخص على طانز أسود حسن الصوت ، وشخصه زرياب فريدة في بابها ، لا في تاريخ الأندلس فحسب بل في تاريخ الإسلام عموماً ، وكان زرياب تلميذَ للموسيقى العراقي الكبير إسحاق الموصلى - كبير المغنين والموسيقيين في أيام الرشيد - وقد يقع في عن الألحان على يد أستاده من حدب أن عسى زرياب أمام الخيف العباسى هارون الرشيد ، فأعجب الخليفة بفتحه وبراعته ، وقد عزف زرياب أمام الرشيد بموعده صنعه لنفسه ، ورفض أن يعزف على عود أستاده ، وأعجب الرشيد بزرياب وأنقى عليه ، فأدرك إسحاق أن تلميذه ربما يحتل مكانته في يوم ما ، فهدده ، وطلب منه الرحيل عن إنجران إلى أي بلد يشاء .. فقرر زرياب الهجرة إلى الأندلس ، فبلغها في سنة ٢٠٧ هـ في أوائل عهد عبد الرحمن ، فأكرمه ، وورحب بمقدمه ، وأنزله في منزل يليق به ، ومنحه الرواتب والافتضاعات وأفسح له المجال لانطلاق نبوغه وفاز على أوسع نطاق .

أحدث زرياب تطوراً كبيراً في الموسيقى الأندلسية ، ونقل معه الحياة العراقية بظواهرها الفنية والاجتماعية ، ونجم في أحلال الموسيقى العراقية محل الموسيقى الحجازية ، وجدد في الألحان تجديداً لم يعرفه أحد من معاصريه ، وجعل مضراب العود من قوادم الفسر بدلاً من الخشب ، مما يساعد على نقاوة الصوت وسلامة الوتر ، وكان العود : آلة الطرب الرئيسية ويرمز إلى طبائع العصر مختلفه ، وطبائع المواد الأولى في نفس الوقت ، والطبائع هي الماء والعصبي والصقراوي وأنبارد ، والمواد الأولى هي الماء والهواء والتراب والنار ، فأضاف زرياب للعود وترا خامساً جعله في الوسط ، وهو يقابل النفس من الجسد وما زانت موسيقى زرياب ممثلة في الموسيقى الأندلسية المعروفة حتى اليوم في المغرب والجزائر وتونس .. وزرياب أول من غنى في وسط مجموعة من المنشدين والمنشدات ، ورتب طلابه على تنمية الصوت وتحفيته وظبطه

وتقوايته ، والغناء طبقاً لقواعد الموسيقية ، والتمشى مع الموسيقى في الغناء . وبذلك أصبحت الموسيقى الأندلسية — بفضل زرياب — أرقى أنواع الموسيقى شرقاً وغرباً .

وكان لزرياب ذوق رفيع في كل ما يتصل بشؤون الحياة والمجتمع فعلم الأندلسين طريقة الطهى العراقي ، وضرورة الترتيب في تقديم الأطعمة ، بدلاً من وضعها دفعة واحدة ، فيبدأ الإنسان بالقبلات ثم بالخضروات واللحوم ثم بالحلوى أو الفاكهة ، وأشار على الأندلسين ، استعمال الأواني الزجاجية في الطعام بدلاً من الذهبية أو الفضية ، وعلم الأندلسين ، كيف يضعون في الطعام التوابل ، وترتيب المائدة .

وزرياب علم الأندلسين ، اتخاذ ثياب للصيف ، وثياب للشتاء ، وكان الناس قبله يتخذون الصوف صيفاً وشتاءً ، أما هو فقد علمهم لبس القطن صيفاً ولبس الصوف شتاءً ، وكان له ذوق رفيع في اختيار ألوان الثياب وأنواعها .

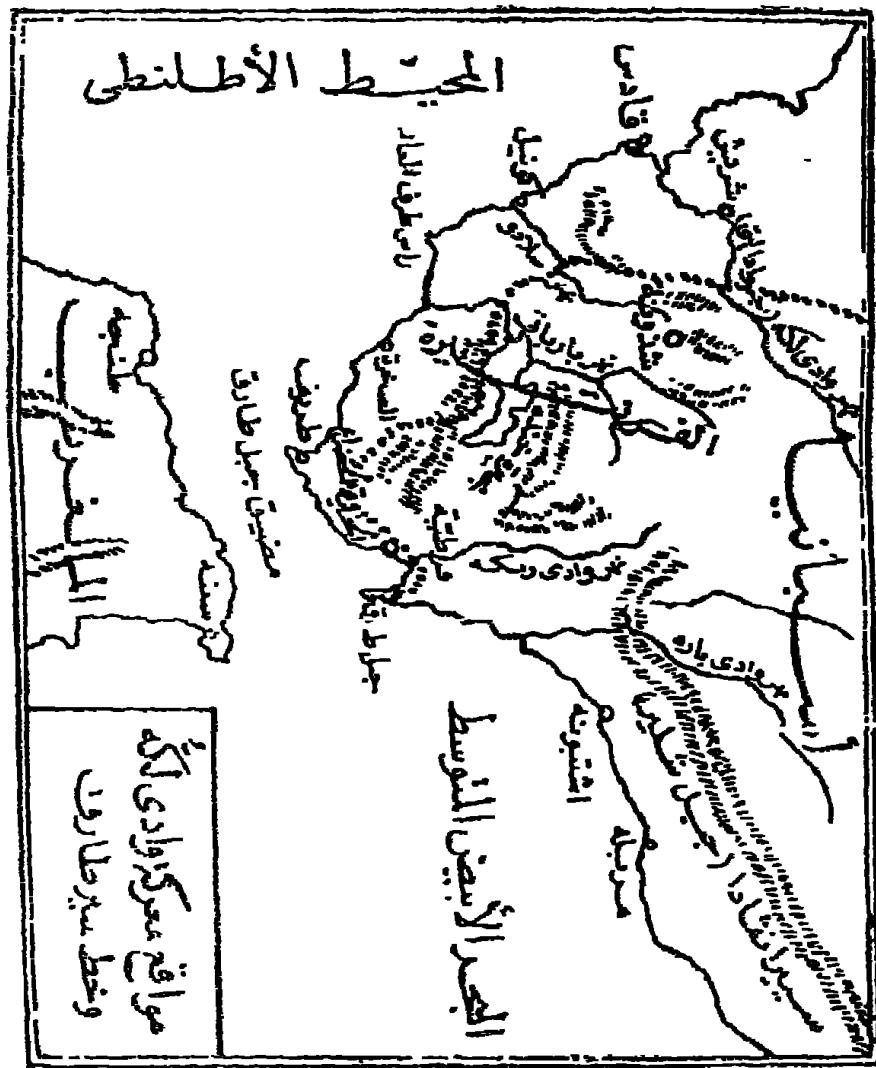
-- كذلك علم زرياب الأندلسين طريقة تصفيف شعورهم ورفرفه خلف الآذان ، بدلاً من تركه مسدولاً على جساهم وأعينهم ، وقد تبعه أهل الأندلس في هذا التصنيف ، والجدير بالذكر أن أهل الأندلس كانوا لا يستعملون العمائم ، إنما كانوا يتركون رؤوسهم دون غطاء ، شأنهم في ذلك شأن جيرانهم الذميين . وعرفت هذه المراسيم بمراسيم زرياب ، وتمثل انتقال نزعة التجديد والاناقة في ذلك العصر . وقد أثار وجود زرياب وآرائه ، وما أحدثه من تغيرات في المجتمع ثائرة وحنق الوزراء وكبار رجال الدولة مثل يحيى الغزال ، وأنكروا على الأمير عطاياه له . ولكن الأمير لم يقبل الاقتراح من شأن زرياب وقرب بيته وبين الوزراء . ومن عوامل صمود زرياب أمام منافسيه عدم تدخله في السياسة .

عباس بن فرناس

ومن أعلام ذلك العصر عباس بن فرناس ، وهو فلسيوف وعلامة رياضي من نوع فريد في بابه ، ويرجح أنه من البربر وقد شغف بدراسة الفلسفة والفالك والكيميات الصناعية ، حتى برع فيها ، وصار من أكبر علماء عصره ، وهو أول من استطاع بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وبرع أيضاً في الموسيقى ووضع آلة فلكية لتحديد الوقت ومعرفته سموها الميلات وله اختراعات كثيرة أخرى ، ورسم في بيته شكل القبة السماوية ، وقسمها إلى بروج ومنازل للشمس وللأفلان على مدار السنة ، وحاول أن يوضح اختلاف الفصول ، وأوجه القمر بالآلات صنعها لهذا الغرض ، وكان يجري تجاربه على ملايين المقربين إليه ، والمهتمين بالعلم ، فمنهم من استفاد منهم من رماه بالسحر والشعوذة وروى بعضهم أنه حاول أن يخترع أداة للطيران ، فصنع لنفسه جناحين على شكل معين ، وحاول الطيران من ناحية الرصافة ، فحلق في الهواء ، ولكنه لم يلبث أن سقط على الأرض . وكان هذا سبباً لم يسبقه إليه أحد من رواد الطيران . وأدى كثرة اشتغاله بالكيميات إلى اتهام الناس إياه بالسحر ، فرموه بهم القتل والضلالة ، ورفعوا أمره إلى القاضي . ولكن ثبتت براءته ، والخلاصة أن أحد أنوراء قدر لهذا الرجل علمه وفضله ، وأثره في الحضارة فقال : أبدع عباس بن فرناس طول أمده ابداعات لطيفه وأختراعات عجيبة ، وضرب بالعود ، وصاغ الألحان الحسنة وكان مع ذلك مجيداً للشعر ، حسن التصرف في طريقة كثير المحسن ، جم الفوائد .

يحيى الفزان

وينسب إلى بكر بن وائل ، وأصله من مدينة جيان ونقب بالغزال لجماله وظرفه وتألقه ، وكان شاعراً جزاً مطبوعاً ، ونبغ في شعر الغزل ، عالماً بالفالك والفلسفة وقد أكثر من التعرض للفقهاء ، وانتقادهم ، حتى سخطوا عليه ، وأتهموه بالكفر والالحاد ، وعرف عنه أصالة الرأي وحسن التصريف للأمور ، وقد رسمت هذه الصفات للقيام بمهام دبلوماسية كبيرة .



ويحيى الغزال نساعر لا يكتسب بسعره .. إنما يقول الشعر للشعر ذاته ، ولا يتتردد على الأمراء لدحهم واستجداء عطاهم ، بل لا يتتردد في هجائهم وهجاء كبار رجال الدولة لذلك أكثر خصوصه . وأضطرته طروف المعيشة إلى تقلد بعض الوظائف الصغيرة ، ولكنه لا يتقييد بواجبات الوظيفة والتراماتها ، ويسيير في عمله وفق هواه ، وبجمل في أداء عمله ، فيفصل من الوظائف ، وتفرغ لأهل قرطبه فكان يهجو كل من لا يحظى باعجابه وتقديره ، فكانت ضد إشكاوى للأمير فطرده من الأندلس ؛ فلجلأ إلى بغداد وحضر مجالس الأدب التي تترعرع بها العاصمة العباسية ؛ فتحدى العلماء والطلاب ، وأصحابهم ببيانه ، فكتب أعداؤه في بغداد ، فغادرها ، واستأنف الأمير عبد الرحمن في انعوده إلى قرطبة ، فأدان له . وعهد إليه بعمل يتناسب مع قدراته ، وهي السفارمة إلى الملوكي .

سعيد بن عبد ربه

ومن أبرز أدباء ذلك العصر ابن عبد ربه ، صاحب كتاب العقد الفريد ، وكان على نمط يختلف عن يحيى الغزال ، فكان يكتسب بسعره ، ويقترب إلى الأمراء ، ويلود بهم ، ويمثل الأدباء التقليديين الذين يدرسون القراء العربي القديم ، وبه يغدوه في مجادل كبير ، يستعمل الشعر والتاريخ وأخبار العرب وأيامهم ، ومن يقرأ هذا الكتاب سعر أن المؤلف قد جمع له معلومات متنوعة ، أو أنزله في عدة بساتين ، بحيث يأخذ من كل بستان زهرة . والعقد الفريد كتاب أدب نموذجي ، سماه صاحبه العقد لأنه جعل الفصول جواهر ، وأشار فيه – كما هو الحال في كتابه الكامل لأبي العباس المبرد إلى أيام العرب وأسواقها والخيل وأصنافها والشعراء الجاهلين وشعراء حدر الإسلام والبعد الأموي ، إلى غرائب ما قيل في الكرم أو النسجاء أو الفضلة ، كل ذلك في لغة صحيحة ، تفيد القارئ ، وتوسيع مداركه في اللغة .

وظهور هذا الكتاب في الأندلس بدل دلالة واضحة على أن الأدب في الأندلس استنقى مادته من الشرق وأن الأندلسيين في دراستهم

الادبيه ، تلمسوا النشاط الملحوظ في الشرق ، والمادة العلمية الغزيره منه وبذلك توطدت الثقافة العربية الاصيله في الاندلس أو بعبارة أخرى عاتش أدباء الاندلس في جو عربي شرقي خالص ، لا يتأثر الا قليلاً بالحياة الاندلسيه ، بدليل أن من يقرأ كتاب العقد الفريد ، لا يعتقد أن صاحبه أندلسي ، لقلة الاشارات فيه عن الاندلس . في حين أن كل ما فيه من معلومات عن الشرق .

الثورات الداخلية

حدثت في الاندلس عدة ثورات داخلية ، تغلب عليها الامير عبد الرحمن الأوسط ، ففي مستهل عهده ، عاد عبد الله البلنسي إلى الثورة ، واحتل كورة تدمير سنة ٢٠٧ هـ وانضم اليه الكثير من الانصار والأعوان . وقوى بأسمه ، وعولَ الزحف إلى قرطبة على الرغم من شيخوخته ، ولكن المرض فاجأه ، وتوفي سنة ٢٠٨ هـ ، وأنتهت بذلك آخر فتنة ، كانت تحدث بعد تولية الأمراء الذين أعقبوا عبد الرحمن الداخل .

على أن فشل هذه الثورة لم يؤد إلى هدوء تدمير ، بل عادت إلى الاضطراب من جديد ، بسبب فتنه بين اليمنية والمضريه سببها أن يمانيا قتله مضري ، وفضلت حكومة قرطبة في اخضاع المدينة الماثرة ، وأزدادت الأمر اضطراباً بعد أن تغلب أبو الشمامي اليماني على تدمير ، ولم تثبت أن هدأت الفتنة سنة ٢١٣ هـ ، بعد أن شغلت حكومة قرطبة وأرمقتها .

كذلك قضى عبد الرحمن الأوسط على ثورات في قرطبة وفي طليطلة
وماردة ..

وأستأنف عبد الرحمن سياسة أسلافه في غزو بلاد الفرنجة ، فهاجم سنتـة ٢٠٨ هـ / ٨٤٣ م آلـة والفلـاع وهـزم الفـنـاري في عـدـه وـقـائـعـ ، وـدـمـرـ مدـيـيـهـ ليـونـ ، وـلـقـنـ أـهـلـهـ دـرـسـاـ قـاسـيـاـ . وـفـيـ غـضـونـ ذـلـكـ صـدـ جـيـشـ عبدـ الرـحـمـنـ الأـوـسـطـ جـيـنـساـ لـلـفـرنـجـةـ ، أـرـسـلـهـ لـوـيـسـ - مـلـكـ الـفـرنـجـ - وـتـحـالـفـ الـبـنـسـكـنـسـ مـعـهـ فـيـ هـزـيـمةـ الـفـرنـجـيـةـ عـنـ بـنـطـونـهـ ، كذلك أحـيـطـ

عبد الرحمن محاولات الفرنجية في النهر القوطي، انتوسم في أراضي المسلمين .

غارات النورمان

من المعروف أن شبه الجزيرة الأيبيرية لها سواحل طويلة على مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسي شرقاً وغرباً وجنوباً، وعرضها هذا لغزوات بحرية كثيرة، وقد فطن المسلمون إلى ذلك، فأنشأوا دور الصناعة في الموانئ المختلفة، وتولى اليمنيون حراسة الموانئ، وحفظ السواحل من الغارات البحرية. واعتمدوا كذلك على جماعات بحرية أندلسية من المولدين والبربر والمستعربين، وكان لهم لاء البحريون الأندلس—يون مغامرات ومحاولات في المحيط الأطلسي لكشف مجاهله وظلماته في منتصف القرن الثالث الهجري، ولم يهدى الجماعات البحرية نشاط ملحوظ في البحر المتوسط، تمثل في الغارات التي شنتها على جزر البحر المتوسط المتاخمة للدولة البيزنطية أو الدولة الكارولنجية.

ساهمت القوات البحرية لعبد الرحمن الأوسيط في غزو جزيرة صقلية بالتعاون مع دولة الاغالبة في أفريقيا ، ولكن عبد الرحمن الأوسيط توقف عن هذا الغزو بسبب المعاهدة التي عقدها مع الامبراطور البيزنطي ، وتتضمن عدم مناصرة أي عدوان ضد الدولتين .

لكن موقف الأمويين من الفرنجة ، كان يختلف عن موقفهم من البيزنطيين ، ذلك أن الأعداء التقليديين للأمويين ، كانوا الفرنجة ، المجاورين لأراضيهم ، والطامعين فيها ، ولا يقين عبد الرحمن الأوسط أن قوته البحرية أقوى من قوات император لويس التقى أو الحليم — إمبراطور الفرنجة — شن غارات بحرية متولية من ٨٣٩ م — ٨٥٠ م على شواطئ « دولة الفرنجة في جنوب فرنسا » ، حتى قضى على قواعد المقاومة فيها مثل مرسيليا وغيرها ، وشملت هذه الغارات جزر البليار ، التي كانت في حوزه الفرنجة ، وما زال المسلمون يهاجمونها ، حتى سيطروا عليها ، وخضعت لسيطرة الحكومة ، القرطبية سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م.

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن البحرية الأندلسية لم تكن بالقوة اللازمة التي تكفي لصد الغارات البحرية القوية ، خصوصاً على السواحل الغربية ، وبهذا لم تستطع البحرية الإسلامية رد هجمات النورمان أو الفايكنج السريعة ، وأسهمها التاربة الخاطفة ، وأنسرتها السوداء ، التي جعلت بعض المعاصرين ، يراها وكأنها ملائكة البحر طيراً أسوداً .

وهؤلاء المهاجمون ، يسمون النورمان أو سكان الشمال أي سكان الدول الاسكتلنافية ، وسماهم العرب بالجوسن أي عباد النار ، لأنهم كانوا يشعرون النار في كل مكان يحلون به ، بل كانوا يحرقون جثث الموتى من زعمائهم بسفنهم فظن العرب أنهم يعبدون النار كالمجوس ، وسموا كذلك بالفايكنج ، وكان هذا الاسم يطلق على سكان الخلجان الاسكتلنافية . ولكن المراجع الإسبانية تفسر كلمة فايكنج بمعنى الماردين .

والشعوب الاسكتلندية — كما هو معروف — تنقسم إلى سويديين ونوريجيين ودنماركيين . والدنماركيون هم الذين هاجموا سواحل إنجلترا وهفرنسا والأندلس والمغرب وترעما حركة القرصنة في البحار ، وألقوا الرعب والذعر في نفوس أهل السواحل ، وعازوا فرساداً ونبيباً في البلاد السواحلية .

ولم تكن تجمع غارات النورمان قيادة واحدة أو خطة مشتركة ، بل كانوا مجموعات متفرقة ، كل مجموعة تعمل لحسابها الخاص . وكانت هذه الجماعات تتتجنب مهاجمة السواحل المحسنة التي بها حراسة ورقابة بحرية ، كالسواحل الشرقية عوائماً تهاجم السواحل غير المحسنة ، كالسواحل الغربية ، ومن هنا اشتدت هجماتهم على قادس ، وأحلتوصاً وأخترقوا نهر الوادي الكبير من مصبه ، وصعدوا فيه لسفنه ، واستولوا على مدينة أشبيلية ونواحيها سنة ٢٣٠ هـ ، وأمعنوا في السكان قتلاً وتنكيلًا وعذاباً فيها فساداً ، وعسكروا في ظاهرها ، وأرسل عبد الرحمن الأوسط قوات لصدتهم ، ودارت بين الفريقين معركة حامبة ، هزم النورمانيون بعد قتال عنيف ، وقتل منهم نحو ألف ، والأسرى أكثر من أربعين ألف ، وأحرق من سفنهم ثلاثة ، وارتدى النورمان خاسرين ، بعد أن فقدوا قائدتهم ، ونحصناً بسفنهم ، ثم غادروا السواحل الأندلسية ، والمسلمون من ورائهم يتعقبونهم ، ويقتدون أسرابهم ، وانتقم النورمان لأنفسهم أثناء انسحابهم بالاغارة على بعض البلدان بعد أن قضوا في البلاد أيامًا عديدة ألقوا فيها الرعب في نفوس أهلها .

أما الأسرى النورمان ، فقد اعتنق بعضهم الإسلام واحتلوا بالآهالي ، وتكونت منهم جالية نورمانية اشتغلت بتربية الماشي وصناعة منتجات الآليان ، نبيت هذه الهجمات الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى تحصين الموانئ والسواحل ، واعداد العدة لواجهة أي هجوم في المستقبل ، فلاحظ مدينة أشبيلية بأسوار حجرية عالية ، وبينى فيها دار صناعة لبناء السفن الحربية وزودها بالأسلحة إلى جانب المدارس والآرياط ، وزود هذه التحصينات برجال مدربين على القتال ، ومد الغارات البحرية ، وزود السواحل بالمنارات وبث عيون المراقبة على أماكن عالية ، للكشف عن العدو إذا اقترب ، وقويت البحرية الأندلسية ، التي لم تثبت أن سبّطت على الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وكان للأندلسين أسطولان أسطول البحر المتوسط ، وأسطول المحيط الأطلسي ، وكان للأسطول مراكز كثيرة على الساحل الغربي والمجنوب والجنوبي الشرقي

بصفة خاصة ، وكان رجال البحر يعتبرون سلاحا خاصا من أسلحة الجيش ،
ولهم أجور عالية ونظام خاص في الأندلس .

فتنة المستعربين المتطارفين في قرطبة

المستعربين هم النصارى الذين بقوا على دينهم ، ودخلوا في ذمة المسلمين وتعلموا اللغة العربية ، واندمجوا في الحياة الإسلامية ، وتولوا الوظائف الحكومية ، وتمتعوا بتسامح المسلمين ، فبقوا على دينهم . يمارسون شعائرهم الدينية بحرية تامة ، ولكن بعض القساوسة المتعصبين في قرطبة نفروا من الإسلام ، وحرضوا أخوانهم المستعربين على الثورة ضد دولة الإسلام وأبرز هؤلاء القساوسة هو الراهب الفارو انقرطبي وكان شابا غنيا ، فأعلن الثورة على المسلمين ، واستنكر من أخوانه النصارى أقبالهم على الثقافة العربية ، ونسائهم لغة اللاتين وكتبات آباء الكنيسة وسفراء اللاتين .

اتخذت هذه الفتنة طابعا خطيرا باسم الدين ، فكروا المسلمين وسخروا من دينهم ونبيهم وتعاليمه ونسبوا إلى الإسلام خرافات وأباطيل .

ثار المتعصبون في المدن الإسبانية - حصونا قرطبة - وقاتلوا الحكام ، وحاولوا الاستشهاد بطريقة التحدى والاستباق ، وعمد القسر والمتعصبون إلى تحقيق غايتهم بوسيلة خطيرة ، وهي سب الإسلام ونبيه الإسلام علينا ، وهي جريمة تعرض مرتكبها للقتل ، وقد زعماء الثورة من القساوسة الثوار ، وساروا في شوارع قرطبة في سب النبي الإسلام جهرا ، وإذا ما قبض عليهم ، حاول انقضاؤه انتزاع اعتذار منهم على خطئهم ، ولكنهم كانوا يصررون على سب النبي الإسلام أمام القاجي ، لذلك كان جزاؤهم الموت . وأدى إعدام بعض الثوار ، إلى زيادة انتساع الفتنة ، وأضفوا على المقتولين صفة الشهداء ولم يتورع الكثير من الثوار المتعصبين عن اعلان السب لنبي الإسلام للبا للشهادة فرادى أو في موكب .

اعترف عبد الرحمن الأوسط على معالجة هذا الخطر الداهم بالحوار
المبناء والتفاهم ، فاستدعي مجلساً من الأساقفة ، عقد في قرطبه برئاسة
مطران أثبيليه وبالجلس ممثل للأمير ، وأصدر المجلس بعد مناقشات
مستفيضة قراره بعدم جدواه هذه الفتنة الطائفية التي ستؤدي إلى
الخراب والدمار وازهاق الانفس والأموال ، واستذكر المجلس مسلك
أولئك المترافقين وتحذير النصارى من السير في طريق الثورة ، ولكن قرار
هذا المجلس نم يؤد إلى انتهاء الثورة ، بل خلت مشتعلة واعتقل الخزيون
ومنهم فتيات مسلمات ، وقعوا تحت تأثير الثوار ، وتتصروا ، وتمادوا في
سب النبي ، ومن بين هؤلاء الفتيات فتاة رائعة الحسن تدعى فلورا شغف
بها الأسقف أولو خيو حبا .

كانت فلورا ابنة مسلم هـ زوجة نصرانيه ، وتوفى أبوها وهى صغيرة ، فربتها أمها ءاعن مبادىء انصرانية ، ودخلت في النصرانية ، ولما علم أخوها المسلم شديد التعصب بتتصريها ، حاول اعادتها الى الاسلام بكل الاساليب ولكنها لم يستطع ، فأخذها الى القاضي ، وأخبر القاضي بأن أخته تنصرت ، وسبت النبي ، واعترفت فلورا وعاقبها القاضي بالضرب ، ولكنها لم تكف عن عصيانها وأشعلت الثورة من جديد ، وتحدى المسلمين في كل مكان بسب النبي ، وأظهرت من ضروب الشجاعة والبسالة والتفاني في سبيل انعقيدة ما جعلها من قديسات الكنيسة الاسبانية ، وحاول القاضي نصحها ، ولكنها أصرت على الضلال ، عندئذ حكم عليها بالاعدام .

وأستمرت هذه الفتنة الخطيرة روها من الزمن ، وندرعت حركة قرطبة في قمعها بالحزم والندة ، وهكذا انتهت هذه الفتنة التي أقليت حركة قرطبة ، ولم يجد فيها المتعصبون أملا ، وقد استقرت عامة النصارى ورؤساؤهم هذه الحركة وأيدوا الحكومة في موقفها من أولئك التائرين ، ولم تظهر هذه الفتن في التاريخ الاندلسي الا في القليل النادر وبشكل طفيف جدا .

العلاقات الدولية في عهد عبد الرحمن الأوسي

وكانت الادبراطورية البيزنطية منذ مطلع القرن الثالث الميلادي تقاس من غارات المسلمين على سواحلها وممتلكاتها ، والغالبية حكمت أفريقية ، انتزعوا منها جزيرة صقليا ، وشنوا غارات على سواحل إيطاليا ووصلوا زحفهم في الأراضي الإيطالية حتى طرقوا أسوار مدينة روما والربضيون — كما علمتم — استولوا على جزيرة كريت ، وشنوا غارات على جزء بحر ايجه وساحل تراقيا ، هذا إلى جانب حملات العباس على الأراضي البيزنطية .

وفي سنة ٢٢٥ م / ٨٤٠ م ، أرسل ثيوفيل الامبراطور البيزنطي ا
الامير عبد الرحمن الأوسط السفير اليوناني قسطنطيوس ، بهدايا فاخرة :
ورسالة ودية .

وف سنة ٤٣٥هـ / ٨٤٠م ، أرسّل نيكوڤيل الامبراطور البيزنطي إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط الصهير اليوناني فرطيوس ، يهد

ناحره ، ورسالة وديه ؛ يسأله عقد محالقة منه ضد أعدائه العباسين ، الذين قضاوا على ملك أجداده الأمويين في المسرق ، وطلب مساعدته ضد الأغالبة في صقلية ، والربضيين في كريت .

ورحب عبد الرحمن بالسفير ، ورد على رسالته ، ورد على الهدايا بمثلها ، وارسل إلى الامبراطور البيزنطي السفير يحيى الغزال ، فقابلته بالترحيب ، وأكرم وفادته ، وسلمه رسالة الامير وتضمن السفط على العباسين والربضيين ، ولكن الرسالة لا تضمن وعدها بالانضمام إليه في محاربة المسلمين . وتحدى في الرسالة عن الأغالبة في صقلية ، فوضفهم بأنهم مجاهدون في سبيل الله ، واعتذر عن الوقوف ضدتهم ، وعاد الغزال إلى قرطبه ، يتحدث عن مشاهداته في القسطنطينية وبلاط الامبراطور ، وأحوال رحلته في البحر .

والخلاصة أن العلاقات الدبلوماسية التي قامت لأول مرة بين قرطبة والقسطنطينية ؛ توضح لنا أن كلا من العالمين المسيحي والاسلامي ، قد بدأ يخرج عن تقاليده القديمة تحت تأثير مصالحه الخاصة التي أصبحت هي المتحكمه في سياسته لا اعتبارات الدينية ، كما كان الحال من قبل .

أعماله الادارية والمعuranية

أنظمت الادارة في عهد عبد الرحمن الأوسط ، وأعاد ترتيب وتنظيم الجهاز الحكومي ، وأجرى تعديلات في الوظائف العامة ، ومن أهمها خطة الوزارة ، اذ قسمها إلى عدة وزارات مختلفة ، وكان الوزراء يتزدرون على الأمير يومياً لمناقشتهم في أعمالهم ومهامهم وانجازاتهم ، وكان هناك وزيراً للمالية وزيراً للمراسلات وزيراً للادارة .. الخ وأتحمرت الاعمال الوزارية في بيوت معينة .

واما أصحاب المناصب الاداريه فهم :

صاحب السوق ، وصاحب الشرطة العليا وصاحب الشرطة السفلية وصاحب المدينة ويشرف على المرافق العامة للمدينة ، وكانت الأندلس حتى

عهد عبد الرحمن الأوسط تعتمد على الدراما الفضية والدنانير الذهبية من الشرق ، ولم تكن تضرب إلا عملة برنسية محدودة ، وكان التعامل بين الناس في كثير من الحالات يتم بطريقة المقايسة . فأنشأ عبد الرحمن الأوسط في قرطبة دار للسكة لضرب عملة أندلسية خاصة بالبلاد .

وعن عبد الرحمن الأوسط بالمنشآت العامة ، فزاد في مسجد قرطبة الجامع وما زال هذا الجامع قائما حتى يومنا هذا بعموده الإسلامية وأوضه ومحاربته ، وحول إلى كنيسة في القرن السادس عشر ، وعلى الرغم من إزالة قبابة ومعظم زخارفه الإسلامية لتحول محلها الزخارف النصرانية إلا أن مخاريبه الفخمة ، ما زالت تحتفظ بنقوشها الإسلامية وآياتها القرآنية ، ولا يزال يحمل اسمه الإسلامي القديم (المسجد الجامع) .

كما أنشأ عبد الرحمن مسجد اثبيلية الجامع ، وشيد سورها الكبير عقب غارات التورمان ، وفي عهده حفلت قرطبة بطائفة من المساجد والقصور والقناطر والمنشآت المختلفة ، وقد وصف القدس أولو خيو قرطبة بقوله : إن عبد الرحمن أسبغ على عاصمة مملكته ثوبا خارقا من العظمة ، وأعدق عليها الثروات ، ورفع من شأنها ، وحقق لها الرفاهية والمجد والسؤود ، وسبق انعقوله أن عبد الرحمن الأوسط اجتذب العلماء والأدباء إلى قرطبة ، وكان أدبيا عالما اشتري كثيرا من الكتب والصنفات من الشرق .

وأستذكر عبد الرحمن الأوسط من الصقالبه والموالي واستبدالهم بجندهم « المعلم » وتدرجوا في سلك الوظائف حتى بنى نصر منصبا ساماها في بلاط قرطبة .

والخلاصة أن المدن عمرت في عهد عبد الرحمن الأوسط ، وزاد الخير في الريف ، وأزدهرت الحياة في المدن الأندلسية وخللت سمة هذه المدن طوال العصور الإسلامية ،

مصر- دولات الطوائف الأولى

(٢٣٨ - ٩١٢ م / ٤٣٠ - ٨٥٢ م)

أشتد الاضطراب في الأندلس ، عقب وفاة عبد الرحمن الأوسط ، وقد رأينا كيف نقل عبد الرحمن الأوسط بلاده من البداوة إلى الحضارة ، ووحد البلاد ، وقضى على الفتن الداخلية ، إلا أن خلفاؤه فتسلوا فيما نجح فيه عبد الرحمن وحكم البلاد في فترة الفوضى والاضطراب ثلاثة أمراء وهم على التوالي :

محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٩١٢ م / ٤٣٣ - ٨٥٢ م)

المخدر بن محمد (٢٧٣ - ٩٢٥ م / ٤٧٣ - ٨٨٦ م)

عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٩١٢ م / ٤٣٠ - ٨٨٨ م)

أى أن فترة الاضطراب هذه بدأت منذ نهاية عبد الرحمن الأوسط ، وأنتهت بتولي عبد الرحمن الناصر ، وقد ضعفت خلال هذه الفترة حكمة قرطبة ، وعجزت عن القيام بأعباء الحكم في الأندلس الموحدة .

طبيعة بلاد الأندلس الجغرافية تجعل الوحدة بين سكانها أمراً صعباً . كما أن هذه البلاد في ظل الحكم الإسلامي ، ثمة مت شعوبها متعددة ، فسكان الأندلس الأصليين ، انقسموا إلى نصارى تعلموا اللغة العربية ، وسموا مستعربين ونصارى أسلموا ، واحتلوا بالعرب والبربر ، ونشأ عن ، التزاوج بين هذه العناصر جيل جديد ، يسمى المولدين ، أما الوافدون على الأندلس ، فانقسموا إلى عرب ، والعرب أنقسموا إلى قيسية ويمنيين ، وبين هذه العناصر عداء شديد وحرباً مستمرة ، والبربر وهم أكثر من العرب بحكم قرب وطنهم الأصلي (المغرب) من الأندلس وبين العرب خلاف مستمر ، ذلك أن العرب استأنروا بأجود الأراضي ، واستحوذوا على المناصب الرفيعة ، أما البربر فقد ترك لهم العرب الأرض القاحلة الشديدة البرودة .

هذه العناصر التي يتركب منها المجتمع الاندلسي يجعل من الصعب على أمراء قرطبة فرض الوحدة فرضاً ، لذلك كلما قويت الحكومة المركزية ، خضعت هذه العناصر ، وكلما خضعت رفعت هذه العناصر شعار الاستقلال ، وهذا ما حدث بعد عزد عبد الرحمن الأوسط اذا انقسمت البلاد الى دوبيلات مستقنة .

ظهرت في الاندلس خلال تلك الفترة دوبيلات يمنية ، ودوبيلات مصرية ، ودوبيلات من المولدين ، وأخرى من المستعربين ، أي أن وحدة البلاد تمزقت الأمر الذي أدى الى خطورة الوضع السياسي في الاندلس ، وسيؤدي ذلك في النهاية الى ازدياد نفوذ النصارى في الشمال ، وانهيار الحكم الاسلامي ودولة المسلمين في الاندلس .

ومن أبرز هذه الدول ، دولة قامت في أسيبلية ، أقامها بنو الحجاج اليمانية من قبيله لخم ، وحرص أمراؤها على اظهار هيئتهم في البلاط والتشريع بيني أميه في الترف والفحفة ، ورفعوا من شأن دولتهم ، وسعوا الى تقويتها ، وبسط نفوذها على البلاد المجاورة ، وقوبت هذه الدولة بصفة خاصة في عهد ابراهيم بن الحجاج الذي كان له بلاط وحدم وحشم وجيش منظم ، وأضفى على بلاطه هيبة ورونقا ، بعد أن أجتذب اليه رجال الفن والعلم والشعراء والأدباء ومن أبرز رجال العلم الأديب المؤرخ ابن عبدربه صاحب كتاب العقد الفريد ، وأتقدم الى بلاطه قمر البغدادية وهي أدبية معنية ، أستقدمها من العراق ، ونشرت فنها في الاندلس ، ومن جميل ألحانها .

(ما في الغارب من كريم يرجى الا حليف الجود ابراهيم) (انى حلت لدية منزل نعمة كل المنازل ما عداه ذميم) ، ومن دوبيلات البربر المستقلة في ذلك العصر ، دوبيلة قامت في الولايات الغربية وجنوب البرتغال ، وكانت أسرة ذى النون البربرية من أقوى الدوبيلات التي استقلت عن قرطبة ، وقويت في عهد زعيمها موسى ، وعرف عنه هو وأولاده الشدة والبطش والظلم ، فأغارت هذه الأسرة على بلاد الاندلس ،

ونشروا الخراب والدمار في كل مكان وأعملت السيف في رقاب الأهلين ،
وألقت الذعر والرعب في نفوس الأندلسيين .

على أن أحضر هذه الديليات ، دولته بني حفصون التي بلغت سانا
كبيراً في عهد زعيمها عمر بن حفصون — وهو من المولدين — وكان من
أسرة فقيرة وكان يجالس في تباهه ، المولدين الناقمين على الحكم الأموي .
والذين يقايسون في طل الحكم الأموي الشدائد ، والتابع الاقتصادية ،
وعدم مساواتهم بالعرب الحاكمين ، وتحمس تحمساً شديداً لقضية
المولدين ، وجمع حوله شباب المولدين ، ثم استولى على حصن روماني
قديم لسم بيشرى في أعلى الجبال الإسبانية الجنوبية ومن هناك أخذ
يسيطر نفوذه على البلاد المجاورة حتى أقترب من قرطبة ، ولم يستطع
الأمراء الأمويون العلاة محمد بن عبد الرحمن والمنذر بن محمد ،
وعبد الله بن محمد ، القضاء عليه ، لكنه أنتصر ، وقوة بأسه ، وأستثار
أنصاره ، ووعدهم بأنه يعيد إليهم أموالهم التي اغتصبها العرب ، وظل
ابن حفصون في قوته حتى أرتد عن الإسلام ، ليغير المستعمرين
بالاتضمام إليه ، ولكن خطته هذه ، عجبت ب نهايته ، وضعف أمره ، فانخفض
من حوله المسلمون ، ولم ينضم إليه النصارى وفقدوا الثقة به ، فلا حصل
مسلمًا ولا حصل نصراً .

وظل ابن حفصون يحكم في ولايته التي انتزعها من قرطبة حتى وفاته
سنة ٣٥٥ هـ ، وحكم أبناءه الولایة من بعده حتى قضى عليها الناصر ،
 واستولى على القلعة بيشرى .

هكذا كانت الأندلس خلال تلك الفترة التي نحن بصدد الحديث
عنها ، ممزقة الاتساع ، ولم يجد لحكومة الأندلس المركزية من النفوذ
والسلطان إلا قرطبة العاصمة ، وصارت الأندلس دواليات مستقلة عن
بعضها ، كل ولاية تحارب الأخرى ، وتبيّن سلطانها على حساب جاراتها ،
وظل الأمر كذلك حتى ولى عبد الرحمن الناصر الأندلس فأعاد للبلاد
حريتها وندوله الأندلس قوتها وهيبتها .

ـــــ الا أن ركبة التحضر لم يتأخر على الرغم من التدهور السياسي فظاهر ابن عبدربه الذي تحدثنا عنه والفيلسوف ابن حناد ، صاحب كتاب طبقات الأمم ، يتكلم فيه المؤلف عن الأمم من حيث عنايتها بالثقافة والعلوم والفنون والأداب ويختتم عن المعلوم في الاندلس بشيء من التفصيل ، ويوضح كيف ومتى ظهرت في الاندلس ، ويقول ان أول ظهورها كان في عهد الامير محمد ، الذي يميل الى العلوم والفنون والأداب .

وإذا كانت الحروب والعداوات بين عناصر السكان في الأندلس ، فقد أدت إلى تدهور اقتصادي وانهيار اجتماعي إلا أنها على المدى البعيد ، مزجت بين عناصر السكان في بوتقة واحدة ، وظهرت الشخصية الاندلسية ، تمثل نتيجة المزج بين هذه العناصر ، ولم تعد الارستقراطية العربية متسطلة على العناصر السكانية في الأندلس ، وظهرت في الأندلس لغة مزدوجة العربية والاسبانية القديمة نتيجة لهذا الاختلاط الكبير بين العرب والاسبان .. وكان كبار رجال الدولة العرب يتكلمون مع الاسبان باللغة الاسبانية إلى جانب اللغة العربية . ومعنى ذلك أن أهل الأندلس عرب إسبان ، كانوا يتكلمون اللغتين العربية والاسبانية .

- ونشأ عن انتشار اللغتين بين الاندلسيين ، ظهور فن المؤسحات وهو فن شعبي أندلسي .

ويعتبر هذا الفن الجديد ثورة في الشعر العربي ، وحركة من حركات التجديد فيه ، وإذا كان الشرق قد أعطى المغرب فن القصيدة الشعرية ، فإن المغرب أدى الاندلسي أعطى الشرق فن الموشحة التي لا تلتزم بنظام القوافي الموحدة ، كالقصيدة الشعرية وإنما تسير على قوافي متعددة ، ووحدتها المقطوعة الشعرية ، وليس البيت الشعري ، ويدخلها كلمات إسبانية ، أو عامية أندلسية دارجة .

ولم يلبث هذا الفن الجديد أن انتشر في المغرب والشرق ، وأستخدمه الصوفية في مدائحهم وأذكارهم والموشحة تطور منها الزجل ، وأثرت في الشعر الشعبي الأوربي المعروف باسم الشعر ٠

والخلاصه أنه ظهرت طبقة جديدة في المجتمع الأندلسي على طبقة المستعربين التي أشرنا إليها من قبل تكلمت اللغتين العربية والاسبانية ، وتأثرت بالعادات والتقاليد والثقافة العربية والحياة العربية ، بل اتخذوا أسماء عربية .

وقد قام هؤلاء المستعربين بدور هام في نقل الحضارة الاسلامية إلى الممالك المسيحية في شمال الاندلس ، وأدت إلى نشر الثقافة والتقاليد الاسلامية في تلك الجهات ويظهر ذلك جلياً في اللغة الاسبانية ، التي بها أعداد تقدر بالالاف من الالفاظ العربية .

المملكة النصرانية في الشمال

ترك المسلمون — كما قدمتنا — جليقية اهتماما لأمر سكانها المستضعفين الذين نجوا إلى هذه البقعة الجبلية الوعرة المسالك تهقر أمام غزوات المسلمين ، ولكن هذا أبعد نما وترعرع دون أن يشعر المسلمون ، متحصنة ومتحصنة بالجبال الوعرة والمسالك المغلقة ، وقامت جنبا إلى جنب مع مملكة المسلمين في إسبانيا .

لجأت الجماعات المهزومة من انقوط والاسبان إلى الجبال الشمالية ، وامتنعت في مقاوز جبال استورية ، وقامت إمارتان نصرانيتان حفيتان في كانتيريا وجليقية وكانت الامارة الأولى التي أسسها البعض بتروض لوفوها في الطريق الغربي من جبال البرانس في سهول ناهار بيسكونييه عرضة لهجمات المسلمين في حملاتهم على جبوب فرنسا ولكن امارة جليقية كانت تقع في أعماق جبال أستورش الوعرة ، بعيداً ، غزوات الفاتحين ، وفي هذه المضائق اجتمع بلايو وأنصاره ، ولجا إلى معاور منيعه ، ويسمى بها العرب بالصحراء .

وقد تعددت حملات المسلمين على جليقية ، لما طهر المسلمين موطنهم وتحالف أهلها مع البنكتس في عصر الولادة ، ولكن هذه الحملات كانت نوعاً بالنصارى الذعر والرعب دون أن تتمكن من القضاء على جليقية بهائيها لوعورة هذا البلد ، وصعوبته مسالكه .

ولكن انسحاب المسلمين هوى من شأن بلايو : واعظم بأنه وأنضم إليه كثير من النصارى في كانتيريا وسهول جليقية ، ورأوا فيه خيراً من بعودهم في مواجهة الخطر الإسلامي : والتحدى له ، وانتهت المعركة بعد سبع ربيع دولته ، فأغار على بعض البازد الإسلامي المجاورة ، من匪زا شرفة انشغال المسلمين بحروبهم الأهلية ، وقمع الفتن والدسائس . ومع ذلك فقد نجح بلايو للحملات التي أرسلها ولاه المسلمين إلى بلاده :

بل هزم هذه الحملات هرائم منكره ، عندئذ ازدادت قسوةه ، وعذمت
هيئته ، وتحول من الهجوم الى الدفاع ، فاخترق بسكونية . وشن عدء
غارات على المسلمين .

ولما انسلخ المسلمون بعزواثهم في جنوب إنسا ، وكفوا عن مهاجمة
جليقية ، تعددت غارات أهل جليقية على البلاد الإسلامية في شمال نهر
دوبيه ، وفي منطقة استرقه ولم يستطع عقبة بن الحجاج في حملته على
جليقية الانتصار عليهم ، لاعتصامهم في الجبال والمعاقل .

ولما كثرت الفتن الداخلية في الأندلس في عصر الولاة أزدادت فوه
أهل جليقية ، وكبرت غاراتهم على الأراضي الإسلامية ، وكافت مقاومة
قرطبة من الضعف بحيث لم تستطع قهر هؤلاء المغireين . لذلك قويت هذه
الإمارة النصرانية ، ورأى فيها نصارى إسبانيا الحصن الحصين والملاذ
المنجي الذي يعيد إليهم بلادهم التي استولى عليها المسلمون ، فلجأ
النصاري من أنحاء الأندلس إلى بلايو يقدمون له العون والتأييد^(١) .

لما توفي بلايو سنة ٧٣٧ م على الأرجح ، خلفه ابنه فافبلا ، ولكنه
لم يلبث أن توفي سنة ٧٣٩ م ، فخلفه ابنه الفونسو — دوق كاتبريا ،
وأتحدت الإمارتان في مملكة واحدة ، هي مملكة ليون النصرانية أو مملكة
جليقية ، وتمتد من بلاد البشكتش شرقاً إلى ساطي، المحيط غرباً ، ومن
خليج بسكونيه شمالاً إلى نهر دويره جنوباً^(٢) .

وبعتبر الفونسو الأول المؤسس الحقيقي لمملكة قشتالة الذين خاضوا
معارك متعددة عبر القرون انتهت باستزدادهم إسبانياً من المسلمين
بسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين سنة ١٤٩ م

وأنف الفرض للفونسو الأول لتوسيع رقعة دولته ، فقد استندت

-- ١١ اثنان : دولة الإسلام في الأندلس ٢١٦ .

. - (٢) نفس المصدر ٤١٢ .

الفتن الداخلية في الاندلس ، وكان من نتيجتها خراب الاراضي المجاورة لجليقية في شمال غرب الاندلس ، وفي سنة ١٣٣ هـ - ٧٥٠ م حدث في ابلاد قحط نسبي ، حتى هجر الكثير من سكان شمال غرب الاندلس من المسلمين بلادهم لذلك شن الفونسو غارات على هذه البلاد ، واستولى عليها في غفلة المسلمين ، وفي صراعاتهم المريمة مع بعضهم البعض ، واستولى الفونسو على استرقة وعلى كثير من ابلاد والضياع المجاورة وضمها الى حوزته ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م ، وبذلك اتسعت رقعة المملكة النصرانية ، وأصبح في أماكنها القصوى للMuslimين بل وضم المزيد من أراضيهم الى مملكتهم الناشئة .

وعهد الفونسو بامارة كافنتيريا - وهي القسم الشرقي من مملكته - الى أخيه فرويلا ، فشدد هجماته على أراضي المسلمين متهزماً الحرب الأهلية في الاندلس في عهد واليها يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، وغزا الفونسو مدينة لك الحسينية ، واستولى عليها ، وهي أقصى معاقل المسلمين في الشمال الغربي ، ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م ، وعبر الفونسو نهر دويره أكثر من مرة ، وعاث في أراضي المسلمين فساداً وتخريباً ، وظل يحارب مع أخيه فرويلا المسلمين ويوضع ملكه على حسابهم حتى توفي فرويلا سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٤ م ولم يلبث أن لحق به أخيه الفونسو الأول سنة ٧٦٥ م ، خلفه ابنه فرويلا الأول .

عاصر فرويلا الأول : عبد الرحمن الداخل ، وكان هذا الامر الاموي مشغولاً بالثورات التي قاتلت ضدّه في الاندلس ، فانتهز فرويلا الفرصة فغزا لك وبرتقال وسلمته وسفوييه وآبله وسحوره وقشتاله ، واستولى عليها وانتزعها من المسلمين ، وأتساع الخراب والدمار في البلاد المجاورة ، وضمها إلى ملكه . وبذلك قويت المملكة النصرانية ، وأصبحت مسلك خطراً جسيماً على ملك المسلمين في الاندلس .

تباه عبد الرحمن الداخل إلى الخطير الجسيم لهذه المنكحة النصرانية . فشن عليهم عدة غارات ، هبوا جملة بقيادة مولاه بدر أغارت

عنى آلبه والقلاع وتقع بين بلاد البشكس وجبال كانتيريا ، وأرغموا على أداء الجزية^(١) ولكن هزم النصارى المسلمين في غزوات شنواها عليهم وقتلوا منهم الكثير .

وكان فرويلا شديد البطش فثار ضده رعاياه ، ولكنه كان يخمد انورات بشدة وعنف ، وحدث انقسام في المملكة النصرانية بعد وفاة فرويلا ، انتهت بعودة الوحدة إليها وحكم سيلو جليقية المتحده ثلاط سفين وتوفي سنة ٧٨٤ م

انقسمت المملكة بعد موت شيلون وفي بداية عهد خليفته مورقاط (٧٨٣ — ٧٨٩ م) الذي حكم جليقية ، بينما الفونسو المطالب بالعرس تمركز في الجزء الشرقي من الدولة في نبره ، وهناك ، واستعلن بالفرنجة ، فاستعلن مورقاط ضده المسلمين الذي يشعر بالقرب منهم ، لأن أمه جارية عربية .

استطاع الفونسو ولد فرويلا أن يسترد عرش أبيه بعد وفاة مورقاط ، ولكن حيث انقسام في البيت الحاكم انتهى بتولية برمند (٧٨٩ — ٧٩١ م) ومن بعده الفونسو الثاني (٧٩١ — ٨٤٢ م) . وكانت الدولتان المسلمة والنصرانية في عهد هشام بن عبد الرحمن مشغولتين عن الصراع بينهما بالفتنة والثورات داخلها .

انقسمت المملكة النصرانية بين برمند الذي استقل بالجزء الغربي من المملكة بتأييد الأشراف ، واستقل الفونسو بالجزء الشرقي ، لكنهما تصالحا واتحدا في وجه العدو المشترك ، وهو هشام بن عبد الرحمن الذي أعلن الجهاد ضد النصارى . ولم يلبث أن توفي برمند ، وتولى الفونسو حكم مملكة النصارى كلها : وبذلك عادت إلى المملكة النصرانية وحدتها .

كان الفونسو يلقب بالعنيف ، وكان ملكا قويا تولى الملك سنة ٧٩١ ، فأعاد الهدوء والسكينة إلى البلاد ، وأصلاح أحوالها وادارتها ، وحسن

(١) عنان : دولة الاسلام في الاطلس ط ١ ص ٢١١ - ٢١٣ .

ثغورها وقواعدها ، واتخذ أوبيدو Oviedo عاصمة له وكانت مملكة جليقية تمتد من ولاية بسكوينة شرقا الى المحيط غربا ، ومن خليج بسكوينه شمالا حتى نهر دويره جنوبا ، واستقلت عنها نافار وبلاط البشكتس ، وقامت بها مملكة نصرانية .

طال حكم الفونسو الثاني حتى تجاوز النصف قرن ، عاصر خلالها هسام بن عبد الرحمن ، والحكم بن هشام ، وحفيده عبد الرحمن ، وفي خلال هذه الفترة ، نسبت بين الفريقين حروب متعددة ، ومن أهم هذه الاشتباكات التي هزم فيها النصارى شر هزيمة ، موقعة المصفرة في أقصى بلادن ومواضع جليقية سنة ٧٩٥ م / ١٧٩ م . وفي عهد الحكم بن هشام تجاوز الفونسو نهر دويره سنة ٨١٠ م / ١٩٣ هـ ، وهاجم الاراضي الاسلامية ، وتغل فيها حتى قلمرية وأشبونة ، وعاث في بلاد المسلمين فسادا فرد عليه الحكم بعزوza في جليقية ، ضرب فيها المواقع التي اجتازها .

ولما غزا الفونسو الثغر الأعلى في عهد عبد الرحمن الأوسط أرسل هذا الامير حملة بقيادة الحاجب عبد الكسرى بن مغيث في سنة ٨٣٣ م / ٢٠٨ م ، فغزت آلبة والقلاع ، وأغارت على مدينة سالم ، ونكل المسلمين بالنصارى ، وخربوا بعض أراضي جليقية ، ودمروا مدينة ليون ، وأجبروا النصارى على صلح مهين .

ولما توفي الفونسو الثاني سنة ٨٤٢ م خلفه ابنه راميرو ، وقد شغل راميرو منذ توليه الحكم بقمع الثورات التي قامت ضدّه خصوصا ثورات الأشراف ، كذلك شغل عبد الرحمن الأوسط بصد انورمان ، ودرء خطرهم عن المملكة الاسلامية ، ولما انتهى عبد الرحمن الأوسط باصلاح التخريب الذي الحقه انورمان بيبلاده ، انصرف الى غزو النصارى والجهاد في سبيل الله ، فسير ولده محمد في سنة ٨٤٨ م الى جليقية ، فاخترق بساطها ، وحاصر مدينة ليون ، وأحدث الخراب والدمار في هذه البلاد ، وتوفي راميرو سنة ٨٥٠ م بعد حكم دام ثمانية أعوام .

تربيع أورد رينو على عرش أبيه ، وحرصن في بداية عهده على تحصين بلاده من أخطار وهجمات المسلمين وأصلاح القلائع والمحصون ، وساعد بعض الثوار ضد حكومة قرطبة في بداية عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، ولكن المسلمين أحبطوا محاولته ، وقضوا على الثورة .

ولما اشتدت الفتن في الدولة الاموية في الاندلس ، انتهز أوردرينو انفرصه ، وغزا مدينة قوريه ، ثم غزا شلمقنه وهزم المسلمين ، وعاش فساداً وتخرّيماً في ديارهم ، فسيّر الأمير الاموي محمد جيشاً إلى الشمال بقيادة ولده المنذر ، فسيطر على آلبه والقلاع ، وألحق عدّة هزائم بالنصارى ، وهزم المسلمين النصارى عدّة هزائم واعتزم الأمير محمد القضاء نهائياً على مملكة جليقية فسيّر السفن إلى المياه الغربية لتعزّوها من البحر ، ولكن الاسطول لم يستطع تحقيق هدفه بسبب الأحوال الجوية .

وفي سنة ٨٦٦ م توفي الفونسو الثاني ، وخلفه ولده الفونسو الثالث . وقد نشبت ضدّه عدّة ثورات في بداية حكمه ، ولكنه أخمدّها ، وظل يحكم البلاد قرابة أربعة وأربعين عاماً ، اتحدت البلاد في عهده ، وقويت المملكة ، واستطاع خلال حكمه الطويل أن يوصل حدود مملكته إلى جبال البرانس شرقاً ، وعبر نهر دويرة كثيراً إلى أراضي المسلمين ، ووصل في غزواته إلى ضفاف أنتاجه ، وغزا عدداً من المدن الإسلامية المتاخمة مثل مارده وقلمرية وبازو وقوريه وشلمقنه وبذلك أصبح في مركز قوى يستطيع به مواجهة المسلمين ومنعهم عن بلاده ، وهزم المسلمين في سموره بعد أن حاولوا مهاجمة ليون واسترقة ، وبلغت غزواته إلى بلاد المسلمين مارده ووادي أاته .

كان أمراء البيت الحاكم يعارضون حكم الفونسو ، ودبّروا عدّة

مؤامرات للتخلص منه ، وقبض على المتأمرين ، ومن بينهم ابنه غرسية ، ودبرت مؤامرة أخرى ضده قادها زوجه خمينا ، واشترك فيها أولاده ، وسيطروا على بعض بلدان الملكة . وخشي الفونسو من مغبة هذا الانقسام ، فتنازل عن العرش لونده الأكبر مرسيه ، ولم يلبث أن توفي .

سميت مملكة جليقية بعد وفاة الفونسو مملكة ليون ، وانتقلت عاصمة الدولة من أوبيدو إلى ليون المجاورة لأن نافار كانت تخشى من مطامع ليون في أراضيها ، وقد حارب غرسية انجيبيز أردونيو ملك ليون إلى جانب صهره موسى بن موسى في موقعة البلدة وقتل سنة ٨٦٢ م

وخلف غرسية ولده فرتون ، ثم خلفه ابنه ساتشو غرسية ، وهو أول من تلقب في نافار بلقب ملك وبه تبدأ مملكة نافار الحقيقية . وقد حكم ساتشو حتى سنة ٩٣٦ م ، وخاض ضد الأمير عبد الله عدة حروب ووقائع ، ومع الامارات المجاورة كذلك .

ظهرت نبره على المسرح السياسي منذ بداية القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي ، وكانت قبل ذلك تسير في تلك ملوك جليقية أو مملكة الفرنجة ، واشتركت مع جليقية في الهجوم على منطقة الشغر الأعلى عام ٥٢٠—٨٤٥ م ، فخرج إليهم الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث في عدة معارك .

كانت مملكة نبره تقوم في غرب البرانس في بلاد البشكنس الجبلية وتسمى نافار ، وكانت بلاد البشكنس أو نافار منذ الفتح الإسلامي مسرحا للعمليات الحربية بين المسلمين والفرنجة وقد حاول أمراء جليقية غزوها غير مرة ، وضموا إلى المملكة النصرانية ، ولما انصرف عنها الجائقة بصراعاتهم الداخلية ، وبعدت غزوات المسلمين ، هاجموا المسلمون مرارا .

وقد استقل بها أحد الزعماء والقادة سنة ٧٩٩ م ويدعى آزار ،

وأعلن نفسه أميرا على البلاد ، ولما توفي سنة ٨٣٦ م خلفه أخوه سانشو ، ولكن أحد الزعماء البشكتش عزله ، وولي مكانه ، ويسمى انجيز أريستا ، وفي عده اتخذت نافار شكل المملكة المستقلة ، وتعاقب الملوك على الحكم في هذه المملكة .

وقد تحسنت العلاقات بين مملكة نافار النصرانية والمملكة الإسلامية المجاورة وتسمى إمارة بنى قسي ، وأرتبطت الدولتان الحليفتان بعلاقة المصاهرة ، وقد رأى غرسيه انجيز أن يتالف مع عمر ابن حفصون الثائر ضد الحكم الأموي في الأندلس .

المغرب الإسلامي في القرنين الثاني والثالث للهجرة

١ - المغرب من سقوط الدولة الأموية حتى قيام دولة الأغالبة :

سقطت الدولة الأموية في سنة ١٣٢ هـ فأعلن عبد الرحمن بن حبيب دخوله في طاعة أبي العباس . فلما توفي أبي العباس في سنة ١٣٦ وبُويع أبو جعفر المنصور بالخلافة ، أقر ابن حبيب على ولاية أفريقيا وأرسل إليه خلعة سوداء . وهو أول سواد دخل أفريقيا . ثم كتب إلى عبد الرحمن بن حبيب يدعوه إلى الطاعة ، فأجابه ودعا له ، ولكنَّه أرسل إليه رسالة أوضح لها فيها سوء الاحوال الاقتصادية في أفريقيا ويطلب منه ألا يطالب بهمال . فغضب المنصور وكتب إليه يتوعده وعندئذ أعلن أبو حبيب خروجه عن طاعته وأحرق خلعة المنصور . ثم تعرض عبد الرحمن بن حبيب لمؤامرة دبرها أخوه الياس ، إذ دخل عليه وهو مريض وطعنه بسكين في صدره وقتله في سنة ١٣٧ هـ ، وتولى الإمارة مكانه بينما قر حبيب بن عبد الرحمن إلى عمه واتفق مع عمه عمران على محاربة عمه الياس قاتل عبد الرحمن . فأعاد جيشاً لذلك الغرض ، ولكن الياس بادر ابن أخيه بالهجوم ، وانتسب الفريقيان في قتال يسير انتهى في سنة ١٣٨ بالصلح على أن تكون أفريقيا كلها لالياس وتكون قفصة وقسطنطينية ونقطة لحبيب وتونس لعمراً . ولكن الياس كان يضم السوء بأخيه عمران ، إذ كان يخشى منه على إمارة أفريقيا ، فعمل على التخلص منه أولاً ، ثم يتفرغ بعد ذلك للتخلص من حبيب . فلما رحل حبيب إلى مقر ولايته ، غدر الياس بعمراً فقتلته وقتل أنصاره من أشرافه العرب وأسترجع تونس وعاد إلى حاضرته القيروان وقد أطمأنَّت نفسه ظناً منه أنه أصبح سيد الموقف ، وبعث بطاعته لأبي جعفر المنصور . لتطهيرها من دنس ورجومه وتحرير أهل القيروان من طغيانها . فقصدَ له الصفريَّة بقيادة عبد الملك الورجومي في صفر سنة ١٤١ هـ ودارت

الدائرة على عبد الملك وأنهزمت جموعه وسقط صريحاً ، وتمكن عبد الأعلى من دخول القيروان • ثم ترك عليها زميله عبد الرحمن بن رستم الفارسي أحد كبار علماء الباباوية وعاد إلى طرابلس استعداداً للاقاء القوات العباسية التي سيرها أبو جعفر المنصور لقاتلته •

أما المغرب الأقصى فقد أضطراب أمره بعد انهزام الصفرية في موقعها القرن والاصنام على يدي حنظلة بن صفوان ، وتفرقوا في نواحي المغرب الأقصى وأنضم معظمهم إلى عسكر بورغاطة بزعامة طريف بن شمعون وكان هرطقياً أدعى أنه أنزل عليه قرآن الصفرية • كذلك أنضم فريق آخر من الصفرية إلى أبي القاسم سمعون بن واسول المكتامي في الموضع الذي أسست فيه سجلماسة ، وأبو القاسم هذا هو جد بنى مدار أصحاب سجلماسة •

وكان أبو جعفر قد بلغه ما ارتكبته قبيلة ورفجومة في القيروان من المحرمات والفضائح فولى على مصر وأفريقية محمد بن الأشعث الخزاعي ، وسير من مصر جيشاً عباسياً يقوده أبو الأحوص العجلى لاسترجاع أفريقيا • فاشتبك العباسيون مع جيش عبد الأعلى في سرت في سنة ١٤٢ فانهزم العباسيون • فعزل المنصور محمد بن الأشعث عن ولاية مصر وولاه قيادة الجيوش في المغرب • فخرج ابن الأشعث على رأس جيش كبير عدته خمسون ألف مقاتل ، وكان في جملة عسكره عدد من كبار القادة العباسيين منهم الأغلب بن سالم والمحارب بن هلال وفاجأ ابن الأشعث قوات عبد الأعلى على غير استعداد للحرب فوضع العباسيون السبيوف في الخوارج وأسفرت الموقعة عن مصرع عبد الأعلى ومعظم أتباعه في سنة ١٤٤ وكان عبد الرحمن بن رستم قد تأهب لنجدته أبي الخطاب فلما وصل إلى قابس بلغه ما انتهى إليه مصر أبو الخطاب ، فحمل ولده وخرج من القيروان ولحق بباباوية المغرب الأوسط ، فالتقىوا حوله وباييعوه بالأمامية ، فأسس مدينة تاهرت في سنة ١٤٤ هـ وأستقر بها في سنة ١٤٥ مؤسساً دولة بنى رستم أول الدولة الرسمية •

أما ابن الأشعث فقد دخل القيروان في أول جمادى الأولى سنة ١٤٥، وأذعن له أهل أفريقيا بالطاعة وأكتفى ببسط نفوذه على أفريقيا اذ كان العباسيون يحرسون على الاحتفاظ بها لتكون سداً منيعاً أمام حركات الخوارج وتتابع على ولاية أفريقيا من قبل ولكن ذلك لم يمنع حبيباً من اعداد العدة للاستيلاء على القيروان ، والتف حوله موالي أبيه وأنصاره ثم زحف إلى القيروان وأستولى على الرئيس فخرج إليه عمه الياس لمقاتلته وأشتبك معه اشتباكاً خفيفاً ، فلما جن الليل وتوقف القتال أودى حبيب النار في معسكره وأوهم عمه في المعسكر المقابل أنه مقيد في معسكره ثم أسرى وأسرع بدخول القيروان فأستولى عليها ، وأخرج من السجون من كان محبوساً ، فكثرت جموعه ، فلما عاد الياس إليه تصدى له حبيب ثم نازله فقتله . فهرب أخوه الياس بعد قتله إلى قبيلة ورجومة وكانوا من غلة الخوارج الصفرية ونزلوا في كف أميرها عاصم بن جميل . فكتب إليه حبيب يأمره برد أعماله ولكن عاصم امتنع عن اجابته ، فزحف إليه حبيب وأصطدم معه في موقعة انتهت بهزيمته ، فقوى أمر ورجومة وتقديموا نحو القيروان وسحقوا من تصدى لهم من أهلها ثم دخلوها في ذي الحجة ١٣٨ هـ فأستحلوا المحارم وأرتكبوا الكبائر . ثم ترك عاصم نائباً عنه في القيروان يسمى عبد الملك بن أبي الجعد وسار لقاتلته حبيب في قابس فأنعم حبيب وأحتمى ببربر جبل أوراس ، فطارده عاصم وأشتبك معه من جديد في قتال عنيف أسفى عن هزيمة عاصم ومقتله . وعندئذ تقدم حبيب إلى القيروان وحاول اقتحامها ، فهزمه عبد الملك وقتله في المحرم سنة ١٤٠ هـ . وبمقتل حبيب تمت سيادة البربر الخوارج على أفريقيا والمغرب وقد العرب كل سلطان لهم في هذه البلاد وأنقرضت بذلك دولة بنى حبيب الفهري .

وفي هذه الائتلاف انتهز الخوارج الاباضية بنواحي طرابلس هذه الفرصة وبايعوا أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعاافري أما علىهم

في طرابلس سنة ١٤٠ هـ من خليج سرت إلى قابس ، وانضم إليه معظم سكان المغرب الأوسط المتشبعين بتعاليم الخوارج الاباضية وبما يعوده أيضاً بالأمامية . أما أفريقية فقد ظلت خاصةً لقبيلة ورجمة الصفرية المتطرفة وكان أميرهم المقتول عاصم قد أدعى النبوة والكمانة ولذلك قاست ورجمة من الفساد والظلم والاستهتار بالدين بحيث استحلوا المحرمات واستهانوا بالمسجد وارتکبوا كثيراً من الفظائع في القيوان . وذكروا أن رجلاً اباضياً شاهد في القيوان قوماً من ورجمة أخذوا امرأة قهراً والناس ينظرون فأدخلوها الجامع ، فغضب الاباضي وقصد أبو الخطاب في طرابلس فلأعلمه بذلك ، فخرج أبو الخطاب وهو يقول : « بيتك النهم بيتك » فاجتمع إليه حشد كبير من الاباضية في طرابلس الغرب وزحف بجموعة نحو القيوان وانتزعها من العباسيين بعد أن خلع ابن الاتسع عن ولايتها في سنة ١٤٨هـ وعليها عدد من الولاة هم : الأغلب بن سالم التميمي (١٤٨-١٥٠) الذي استشهد في تونس ، وعمر بن حفص الذي قتله الصفرية في ١٥٤هـ ، ويزيد بن حاتم الذي توفي سنة ١٧٠هـ وأخوه روح بن حاتم حتى وفاته سنة ١٧٤هـ ثم الفضل بن روح الذي قتل في سنة ١٧٨هـ ، ثم هرثمة ابن أعين (١٧٨-١٨١) ثم محمد بن مقاتل العكى (١٨٤-١٨١) إلى أن تولى إبراهيم بن الأغلب على إمرة أفريقية واستقل بامارته استقلالاً جزئياً عن الخلافة العباسية في ستة ١٨٤هـ .

وبولايته إبراهيم بن الأغلب يبدأ عهد جديد في تاريخ أفريقية والعرب .

٢ - دولة الأغالبة في المغرب الأدنى (١٨٤-٢٩٦) :

شهد المغرب الإسلامي منذ أواخر القرن الثاني الهجري قيام دويلات مستقلة في سائر أجزائه : ففي المغرب الأدنى (أفريقية) قامت دولة الأغالبة ومركزها القيوان ، وفي المغرب الأوسط (الجزائر) قامت

دولة الرستميين ومركزها تاهرت ، وفي المغرب الاقصى قامت أربع دويلات صغيرة هي دولة الأدارسة الحسنيين (نسبة إلى أدریس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب) في فاس ودولة بنى المدار في سجلماسة ودولة بنى صالح في نكور ودولة بنى صالح بنى طريف البرغراطي في شالة وتمسنا . ودولة الاغالبة هي أهم هذه الدويلات جميعا ، والاغالبة أسرة مستقرة حكمت Africique طوال القرن الثالث الهجري ، أسسها ابراهيم بن الاغلب بن سالم التميمي الذي ثبته الرشيد في ولاية Africique في سنة ١٨٤ هـ ، وهي أسرة عربية راقية عملت على نشر بذور الحضارة الاسلامية في البلاد التي خضعت لنفوذها أى في Africique وصقلية وأقام امراؤها المدن والقصور وشيدوا المساجد والحسون وشجعوا الآداب والعلوم والفنون .

وأول أمراء هذه الدولة ابراهيم بن الاغلب (١٩٦-١٨٤ هـ) وكان من أفضل ولاة Africique ، فقد كان يجمع إلى علمه وتقنه في الدين وأدبه حسن الرأى والتجده والبأس والحزم والقيادة ، ولم يل Africique أحسن سيرة ولا سياسة ولا أسفاق على رغبة ولا أوفى بعهد منه .

وأتخذ ابراهيم مدينة القيوان عاصمة لولايته ، وأخذ يعمل منذ استقلاله عن الخلافة العباسية على تكوين قوة بحرية هائلة مكتت أعقابه من بعده من غزو جزيرة صقلية وافتتاحها منذ سنة ٢١٢ هـ وغزو مالطة وسواحل ايطاليا الجنوبية الغربية . ولقد أهتم ابراهيم بن الاغلب بالعمaran اهتماما خاصة ، فشرع في سنة ١٨٥ في بناء مدينة القصر الفديم التي تقع أطلالها على بعد ثلاثة أميال جنوبى القيوان وسمها العباسية تعبيرا عن ولائه للعباسيين . ولم يخل عهد ابن الاغلب من الثورات والفتنة ولكنها كانت لا تقاوم بالثورات التي كانت تضطرم في Africique في العهود السابقة .

وأعظم انجاز قام به الأغالبة هو فتح صقلية في عهد دولة زيادة الله ابن ابراهيم (٢٠١ - ٢٢٣) أعظم أمراء بنى الأغلب وأفضلهم على الاطلاق ولم تنعم البلاد التونسية في عهودهم كما نعمت في عهده ، وكان رجل بناء وتشييد فقد ترك لنا آثارا كثيرة بالقيروان والعباسية وتونس وسوسة ، وكان يجمع الى جانب حبه للفنون والعمارة والآداب مقدرة وكفاية حربية ، فقد تمكّن من اخماد الثورات التي اشتعلت بمجرد توليه الامارة وعكف على الاصلاح والبناء والتشييد ، وتشهد بذلك آثاره في سوسة والقيروان وتونس من مساجد وقناطر وأربطة وخزانات . ومن آثار زيادة الله عزّيته بالاسطول الاسلامي وقيامه بغزو بعض الجزر القريبة من تونس . ففي سنة ٢٠٦ بعث أسطوله الى جزيرة سردانية فغزاها ، وغنم منها غنائم كثيرة وأهم الغزوات البحرية التي تمت في عهده فتح جزيرة صقلية . وترجع أسباب فتح صقلية الى العوامل الآتية :

١ - القضاء على غارات الروم وعودة الى سياسة الجهاد البحري التي جرى عليها ولاة بنى أمية .

٢ - كانت صقلية بالنسبة للمسلمين بلادا غنية في الوقت الذي أقفرت بلاد المغرب من الخيرات وكانت صقلية لذلك تمثل أراضي جديدة يمكن استغلالها .

٣ - هناك عامل ديني هو الجهاد في سبيل الله ، ولا ننسى أن أهل أفريقيا كانوا قد تفهموا الدين وأصبح منهم العلماء والفقهاء ، وساعدت الرباطات على تكوين طبقة من الصالحين الذين كرسوا حياتهم للجهاد ضد الروم .

ومن أسباب الفتح العربي لصقلية سبب مباشر يتلخص في أن رجلاً يسمى فيمي عارض حكم قسطنطين — بطريق صقلية وأعلن الثورة ، وشق عصا الطاعة ، ذلك لأن حكومة بيزنطة كانت تشك في نوايا فيمي الانفصالية ، وحرضت بطريق صقلية على التكيل بفيمي . وأعلن فيمي الثورة في سرقسطة ، ولكنه فشل ، فأعتزم التخلص من البطريق ومن حكم بيزنطة ، فاستجد بالعرب .

اذن نوايا فيمي الاستقلالية والانفصالية كانت من أسباب استعانته بالعرب لتخليصه من بطريق صقلية . وتضييف الروايات التاريخية عامل آخر ، وهو أن فيمي احب اومونيزا الجميلة ، ولكن صاحب صقلية ، اغتصبها منه ، فأعلن الثورة ، واستجد بيبي الاعلب . وهذه الرواية قد تبدو ضعيفة . ولكننا نستطيع أن نقول بأن هذا القائد فيمي كان طاماً في الملك وفي حكم صقلية . وكانت جزيرة صقلية قد تعرضت من قبل لغزارات عربية ، فنبهت الروم إلى هذا الخطر الداهم ، واتخروا من صقلية قاعدة لحماية الامبراطورية عند حدودها الجنوبية ، فחסنوها بالقلاع ، ولم يتركوا جيلاً إلا وبنوا عليه حصنًا ومن وقت لآخر كانت تخرج دوريات عسكرية تطوف بالجزيرة لرقبة ، ما قد يشنء العرب من حملات على سواحل الجزيرة .

كانت بين أفريقيا وصقلية هدنة ، ولكن استجاد فيمي بأمير أفريقيا — زيادة الله — شجع هذا الأمير على نقضها ، ورأى أنه آن الاوان ، وتهيأت الفرص لتحقيق حلم بيته المنشود في فتح صقلية ، وضم أراضٍ جديدة إلى دولة الإسلام ، الامر الذي يكسبه تأييداً ومكانةً ومهابةً في نظر المسلمين عامه والعباسيين خاصةً ، كما أنه آن الاوان لتأمين حدود بلاده من غزو بيزنطي عن طريق صقلية .

ومهما يكن من أمر جمع زيادة الله كبار رجال أهل القيوان والفقهاء والقضاة ، ومن بينهم اسد بن الفرات ، واستفتاهم في أمر الهدنة ، وتقرير مصير صقلية ، هل يعيقها تابعة للدولة البيزنطية ، أم يضمنها إلى

الدولة العباسية ودنيا الاسلام ، وانقسم المجتمعون قسمين ، فريق يرى ضرورة الجهاد ، وغزو أراضي صقلية ، وفريق يرى التريث وعدم نقض الهدنة ، ولا يوافق الفريق الأول في نقض الهدنة ، ولكن في النهاية تغلب رأى أسد بن الفرات بنقض الهدنة ، وقال لهم :
ولا تهنووا وتدعوا الى السلم وأنتم الاعلون ٠

وأنتصر رأى اسد حينما تأكد للامير زيادة الله وجود اسرى مسلمين في جزيرة صقلية ، فلابد من فداء اسرى المسلمين ، والجهاد فريضة على المسلمين . وأسند زيادة الله لامس بن الفرات بقيادة جيش لغزو جزيرة صقلية ، وأقلم الاسطول الاغلبى الاسلامى من مدينة سوسة في منتصف ربيع الاول سنة ٢١٢ هـ في نحو مائة مركب ، وانضم الى هذا الاسطول مراكب فيمى ٠

وتعرض المسلمون لخطر داهم ومشقات وأحوال ، فانتشر بينهم الوباء وأهلكهم الجوع ، فمات الكثير من جند المسلمين ، وكل ذلك وزاده الله في انشغال عنهم بفتن داخلية ، ومتاعب خارجية ، ولما انتهى من مشاكله ، أرسل نجدة للمسلمين مكتوم من فتح بلرم – عاصمة صقلية – وكان فتح بلرم خطوة كبيرة وهامة في فتح باقى بلدان صقلية ، ذلك ان بلرم تقع على البحر ، ومن خلال البحر يستطيع المسلمون تلقى الامدادات من افريقيا ، كما ان بلرم صارت قاعدة عسكرية للمسلمين ، يتخذها المسلمون لشن الغارات على باقى بلدان صقلية وفتح مدنهما وقرابها ، بدلا من القلاع التي كانوا يعسكرون فيها من قبل ، ثم ان المنطقة حول بلرم خصبة ، ويكفيها ان تزود عساكرهم بما يحتاجون اليه من مسيرة وعلوفه ، ومن بلرم كانت السرايا تخرج كل يوم فتشن الغارات في انحاء الجزيرة ، وتتعدد محملة بالغنائم والاسلاب وخاصة الرقيق . وأدت هذه الغارات المتكررة في أنحاء الجزيرة ، الى ضعف المقاومة الوطنية فأستسلموا للمسلمين ، وطلبوا منهم الامان ، ودخلوا في طاعتهم ٠

وأجه المسلمون مقاومة عنيفة ومريرة من طريق مقاية من ناحية ،
وجيوش الدولة البيزنطية من ناحية أخرى وكانت أقوى مراكز المقاومة ،
وأكثرها ثباتا قصريانة وسرقوسة وطبرمين ومنطقة دمنش .

وأجه المسلمون كل هذه الأخطار ، وحاولوا جاهدين اضعاف
مراكز المقاومة ، وأستولى المسلمون على مسينة فأنفتح أمامهم الطريق
إلى جنوب إيطاليا ، وقد صرفتهم هذه الجهود نحو جنوب إيطاليا
عن تثبيت أقدامهم في صقلية ، وعن اتمام فتحها ، وأتاحت لدن صقلية
فرصة لاسترداد قوتها ، وتنمية وسائل الدفاع عن استقلالها ، واعداد
العدة لشن الهجوم على المسلمين ، ورغم ذلك ظلت السرايا الإسلامية
تشن هجماتها صيفا وشتاء ، ونتيجة لاصرار المسلمين على مواصلة
الفتح ، سقطت قصريانة بيد العرب ، ذلك ان العباس بن الفضل حاصرها
ثلاثة أشهر متالية ، قاسي خلالها أهل المدينة الجوع والعطش
والحرمان ، وفي فصل الشتاء غطى الداجن البقاع ، وأعتقد أهل قصريانة
انهم آمنون من هجمات المسلمين ، وجعلهم البرد غير مستعدين للقاء العدو ،
ولكن أحد البيزنطيين أتصل بالعباس ، ووعده بتيسير مهمة المسلمين في
فتح قصريانة ، فأمده العباس ببعض فرسانه وقاد الروماني الفرسان إلى
مدخل المدينة ، ودخل المسلمون قصريانة ، وشيد العباس بها مسجدا ،
واسر من فيها من بنات البطارقة ، وغنموا منها مغانم كثيرة . وبسقوط
قصريانة أصبح المسلمون أكبر قوة في صقلية يعمل لها كل حساب . وبات
 واضح أن الحكم البيزنطي بصقلية على وشك الزوال . لذلك أرسلت
بيزنطة الأسطيل لطرد المسلمين ولكن المسلمين قهروا كل مقاومة
بيزنطية .

وحصن المسلمون قصريانة ، حتى يتحصن المسلمون فيها من
العدو ، وأتخذ الروم من سرقوسة مركزا للمقاومة وشن الهجمات على
المسلمين ، وكان القسم الشرقي من صقلية لا يزال مستقلا عن العرب ،
ولما كان هذا القسم أقرب إلى القسطنطينية ، فقد أتخذه أهل صقلية

مركزًا للمقاومة ، مستعيناً بالأمدادات البيزنطية ، وعادت القلاع التي استسلمت لل المسلمين إلى الثورة من جديد سنة ٢٤٦ هـ ومات القائد المسلم العباس بن الفضل في ساحة القتال ولكن ظل المسلمين يشنون الغارات على سرقوسة وغيرها ، وكادت طيرمين تسقط في أيديهم ٠

ولى جعفر بن محمد أمر صقلية ، وظل يقاوم الأخطار التي واجهته في صقلية ، ويعمل على اتمام فتح البلاد ، وظلت سرقوسة تقاوم منذ أيام أسد بن الفرات حوالي نصف قرن ، وصمدت في مواجهة هجمات المسلمين القوية ، ولكن أهلها ضعفوا ووهنوا في عهد جعفر ، حينما استولى على بعض أرباض المدينة ، ودمر المسلمين مراكب الروم التي جاءت لنجددة سرقوسة ، وحاصر المسلمين البلدة تسعة أشهر قاسي فيها الأهلون المؤس والجوع والحرمان وأعد المسلمين معدات كثيرة لحصار البلدة ، وضعف الأهلون بسبب نفاد المؤن والمعدات ، واضطرب أهل البلدة وعم فيها الاضطراب بسبب البحث عن القوت ، ونهب الناس ببعضهم بعضاً ، وضعف أهلها ووهنوا ، وكان جيش صقلية ضعيفاً ، اختلطت فيه جنود من جنسيات تستوي ٠ بينما يسود الجيش المسلم النظام والطاعة لا وامر قائهم الأعلى ٠ وخربت المدينة ، وتمكن المسلمين من أسر الكثير من أهل البلدة ، والحصول على الغنائم ، ونقل العرب غنائمهم وأسراهم إلى بلرم ، وثارت في نفوس هؤلاء الأسرى عواطف الوطنية ، وتطلعوا إلى مقاومة العرب ٠

ويحدثنا صاحب كتاب العرب في صقلية بأن ثيود وسيوس نقل مع الاساقفة ورئيسيهم صوفرينيوس بعد خمسة أيام إلى الأمير الأعلى ، ويعنى به والي صقلية ، فوجدوه «جالساً في رواق وقد احتجب عن الأعين خيلاً وجبروتاً» وتحدث الأمير إلى رئيس الاساقفة والترجميوجه الحديث بينهما في جدل ديني قصير ، ثم أذن لهم فأنصروا^(١) ٠

(١) انظر : احسان عباس «العرب في صقلية» ٠

كان سقوط سرقوسة نهاية محاولات طال مداها ، وقد بقى القسم الشرقي غير خاضع لل المسلمين ، وظل الروم يجددون محاولاتهم لاسترداد ما فلدوه ، وظلت قطانية وطبرمين وغيرها من المدن الشرقية شوكة في جنب الدولة الإسلامية ، وكانت الروح الدينية في هذه المنطقة ذات أثر في اذكاء روح المقاومة ، وظل والى بلرم يخرج بجيشه أو بيت سراياء ، ويفسد الزروع والثمار ، ويحرق الكروم ، ولما قرر ابراهيم بن الأغلب الخروج للجهاد سنة ٢٨٩ هـ ، استطاع فتح طبرمين وكان وقع الخبر على سمع الامبراطور مؤلا ، وارتکر عمل ابراهيم في منطقة دمشق ، ولكن منيته لم تمثله ليتم فتح هذه المنطقة وأخذت الفتنة المحلية تشغل بال المسلمين ، ووافق ذلك ظهور العبيديين وسقوط الأغالبة ، وكانت مهمة أول والى عبيدي على صقلية أن يحارب دمشق ، ولكن استمرار الفتنة مدة طويلة أراح شبه الجزيرة من الحاج الجيش الإسلامي ، حتى طبرمين التي فتحها ابراهيم عمرت من جديد ، واضطر أحد ولاة الكلبيين على الجزيرة أن يعود فتحها سنة ٣٥١ هـ ويدمرها ، وبقيت المنطقة الشرقية غير معترفة تماما بسلطان المسلمين إلى آخر أيامهم بالجزيرة ، وقنع منها الولاية بالجزيرة ، ووجهوا جهودهم إلى الفتح جنوبى ايطاليا .

وخلص أهل صقلية لأنظمة المالية الإسلامية المتعارف عليها في إفريقية ، وازدهرت أحوالهم الاقتصادية على الرغم من كثرة الحروب وتغيرت الأحوال الاجتماعية ، باختفاء العنصر البيزنطي صاحب السيادة على الجزيرة ، وتحرر العبيد بدخولهم في الإسلام ، وظهرت عناصر جديدة في المجتمع من العرب والبربر والفرس والخراسانيين ، كما شهدت صقلية ازدهاراً في الثقافة الإسلامية ، وأصبحت المساجد بمثابة مدارس لتعليم الفقه الملاكي ، وألف سالم بن سليمان الكندي قاضى صقلية كتابه في الفقه المعروف بالسليمانية .

وانتشر علم القراءات والتصوف ، وعمت الرباطات سواحلها
ومن أبرز نتائج الفتح الأغليبي لصقلية انشغال الجند بحركة الجهاد
في الجزيرة بدلاً من انتصافهم إلى الخلافات والمشاحنات فيما بينهم ،
الأمر الذي جنب دولة الأغالبة ويلاتهم ٠

يضاف إلى ذلك انتعاش الأحوال الاقتصادية في إفريقيا بعد
حصول العرب الفاتحين على الكثير من الغنائم وتحف الكنائس ولم يعد
البيزنطيون أصحاب السيادة الحقيقة في حوض البحر المتوسط ، فقدوا
مورداً مالياً هاماً بانفصال مقلية عنهم وأدى اللقاء بين البيزنطيين
والأغالبة ، إلى استفادة الأغالبة من الفن البيزنطي ويتجلّى ذلك بوضوح
في القلاع والحسون والعمائر التي شيدت في إفريقيا في عصر الأغالبة ٠

الأغالبة والفرنجة :

بدأ العداء بين الأغالبة ودولة الفرنجة سنة ٨٢١-٢٠٦ م وشنّت
السفن الأغليبية عدة غارات على سردينيا عادت محملة بالغنائم وشنّ
الفرنجة بدورهم غارات على إفريقيا ، واشتدت غاراتهم حتى بلغت
أبواب القيوان ، ولم ينسحبوا إلا بعد جهود مضنية قادها محمد بن
سحنون ، واشتد العداء بين الأغالبة والفرنجة بعد حملة الأغالبة على
صقلية ، وعبر هم مضيق مسيينا إلى شبه الجزيرة الإيطالية ، التي كان
يخضع معظمها لـ الكارولنجية ٠

شجعت العناصر المناوئة لنظام الحكم في إيطاليا الأغالبة على غزو
الجزيرة ، فقد نشب نزاع بين دوقية نابولي ودوقيّة بنيفت اللومباردية
وانتهى هذا النزاع بعقد هدنة بين البلدين بمقتضاهما وافقت نابولي على
أداء جزية للدوق سيكير اللومباردي ، ولم يوافق لويس التقي أميراطور
الفرنجة على مساعدة نابولي في نزاعها ضد اللومبارد ٠ لذلك لم ير دوق
نابولي أندرية بدا من الاستعانة بالأمير الأغليبي في بلرم بصقلية ، واستطاع
أنسطول الأغالبة أن يرفع الحصار عن اللومباردي الذي كان مفروضاً على

نابلي ، لذلك أضطر سicker على عقد صالح مع دوق نابلي ٨٣٧/٢٢١ :
ومن ثم بدأ التحالف بين نابلي والأغالبة .

ورأى الأغالبة في وجودها في جنوب ايطاليا تأمينا لجزيرة صقلية
من غارات البيزنطيين عليها ، لذلك رأى الأغالبة ضرورة ضرب معاقله
في الطرف الآخر من مضيق مسينا ، وبصفة خاصة أسطول البندقى
الذى كان يهدى شمال صقلية . وتوفي سicker سنة ٢٢٥ وانقسمت مملكة
اللومبارد إلى امارتين متباذلين هما بقيقت وسالرن ، وشجع ذلك
الأغالبة على العبور إلى شبه الجزيرة مرة أخرى ، واتجهوا إلى الفتى
المنظم وقد انت لهم المدن والمعاقل في أرض قلوريه وأنكيرده ، وانتصروا
فيها بصفة دائمة ، ومن أهم هذه المدن مدينة تارنت الشهيرة كما ضربوا
بابوا في غزوة خاطفة ، وأحرقوا الأسطول الأغلىبي سفن البندقية التي
حاولت استعادة تارنت سنة ٢٢٦ / م ٨٤٠ .

وواصل الأغالبة زحفهم حتى وصلوا نهر أبو ، واستولوا على
بارى ، واتخذ الأغالبة من بارى قاعدة عسكرية تخرج منها السرايا لشن
المغارات على سائر أنحاء شبه الجزيرة .

وأثبتت دوق نابلي حسن نوایاه من الأغالبة ففي سنة ٨٢٨ — ٨٤٣
وقف إلى جانب الأغالبة أثناء حصارهم مدينة مسينا في صقلية ولكن
نابلي عادت عن موقفها الودي من الأغالبة ، وناسب دوقها العدد
للأغالبة ، وواصل الأغالبة غاراتهم على شبه الجزيرة الإيطالية حتى
استولوا على أربعة وعشرين حصنا .

وتعرضت روما نفسها لغزو الأغالبة بعد أن استطاع المسلمون احتلال
صقلية الاستيلاء على مسينا ، ويبدو أن هجف الأغالبة في ذلك الوقت
فتح جنوب ايطاليا ، وقد باعث الأغالبة مدينة أوستى على
التبر ، ووصلوا إلى أسوار روما سنة ٢٣٣ ، وهاجموا الجانب الغربي
لأنه لم يكن محصنًا وغنموا غنائم كثيرة ، واستولوا على كنوز القديس

بطرس والقديس بول ، وعادت الحملة الاغالية الى افريقيا ، حين تعرض لها قيصر بن الدوق سيرجيوس حاكم نابولي ٠

وانشغل الملك الكارولنجي عن الاغالبة بغزواته خارج ايطاليا وازداد الخطر الاغالبي على جنوب ايطاليا بتخريب بنيةفت وحصار جاشيه حول منتصف عام ٨٤٦ / ٢٣٣ ، لذلك ظهر لويس الثانى في جنوب ايطاليا على جيش قوى لمقاومة الاغالبة ولكن الاعالبة انتصروا عليه ، ولم يستطع الملك أن يجمع شمل الامراء اليطاليين لدفع خطر الاغالبة عن ايطاليا ٠

وانتهى الاغالبة الفرصة فأغاروا على سواحل الكارولنجية في ايطاليا وخارجها ففي سنة ٨٤٩ / ٢٣٥ سقطت مدينة آرل في أيديهم كما عاودوا غزو روما وجهزوا لذلك أسطولا كبيرا في جزيرة سردينيه ، وأبحروا تجاه مدينة أوستى ، ولم يستطع المسلمين اقتحام مصب النيل لحسانته ومنعاته ، ودمرت عاصفة عاتيه الاسطول الاغالبي ٠

وأظهرت تهديدات الاغالبة ضعف البيسابوية وعدم قدرتها على مواجهة الغزو ، لذلك لم يجد البابا مناصا من التسليم للويس الثانى بتبني الدفاع ضد المسلمين في الغرب ، خصوصا وأن الامارات اليطالية لا تستطيع الاضطلاع بهذا العبء بسبب ما بينها من خلافات . ولم يستطيع لويس الثانى مواجهة الاعالبة في جنوب ايطاليا ، لذلك تمكنت الاغالبة من الاستقرار في جنوب ايطاليا ، وعسكر الجند الاغالبة في المنطقة . فتدخل البيزنطيون لطرد العرب من ايطاليا ، واستولى الامبراطور البيزنطي على باري ، لذلك ضعف شأن الاغالبة في جنوب ايطاليا وشنوا الغارات على السواحل الغربية لشبه الجزيرة ٠

وبتولى شارل الاصم حكم الامبراطورية وبتخليه عن أمور ايطاليا ازداد نفوذ الاغالبة في جنوب ايطاليا من جديد ونجح الاغالبة في مصانعة بعض الامراء اللومبارد الصغار في الجنوب ،

بل ظهروا في دوقية نابلي ، وهددوا روما نفسها ، وتوطأً منهم بعض موظفي البلاط البابوى على تسليم المدينة اليهم عام ٨٧٦/٢٦٣ م ، ولما ضعف البابا عن صد الاغالبة ولم يجد عونا من الامراء والملوك ، دفع للاغالبة اتاوة مالية كبيرة مقابل الكف عن روما . وفي نفس الوقت اتجه البابا لبيزنطة لتخلیص بلاده من الاغالبة .

وكان في امكان الاغالبة الاستيلاء على ايطاليا كلها لو لا ضعف الاغالبة بعد موت ابراهيم بن احمد ، واضطربت دولة الاغالبة في افريقيا في عهد ابنه أبي العباس عبد الله ، وانشغال خليفته زيادة الله الثالث بمقاومة الخطر الشيعي ، وأدى ذلك الى انصراف الاغالبة عن أعمال الفتح في ايطاليا ، وكان سقوط الدولة الاغالية على يد الفاطميين الشيعة خلاصا لايطاليا من الخطر الاغالبى ومع ذلك فقد احتفظ الاغالبة حتى سقوط دولتهم بعدة قواعد حصينة في ايطاليا مثل سابينو شمال بنيفت وجنوب بسطوم .

* * *

كان عصر الاغالبة عصر ازدهار في تاريخ افريقيا ، فلم تعرف هذه البلاد منذ العصر الرومانى ازدهارا اقتصاديا كما عرفته أيام الاغالبة ، فقد أصيب اقتصادها منذ النصف الثاني من القرن الثالث الميلادى حتى أواخر القرن السابع باضطراب شديد بسبب تعاقب الغزاؤ على افريقيا وقيام البربر بالثورات على حكامهم ، والفقن المواكب لغارات سكان الجبال والبدو على المدن والمسهول . وعلى هذا النحو لم تكن المزارع الافريقيية تعرف الامن اللازم لقيام الزراعة واتصال عبر القوافل التجارية . وكان البناء الاقتصادي في افريقيا عند بداية الفتح العربي للمغرب في غاية التصدع وعجلت ثورة كسيلة والكافنة على هذا التصدع وأتى عليه تشدد أمراء بنى أمية في جباية الضرائب ومانع ذلك من حركات بين حشود البربر الخوارج المتساوين بالمساواة . ولما قامت أسرة الاغالبة بامارة افريقيا أحسن المزارعون بنوع من الاستقرار النسبي كانوا يفتقدونه منذ عهود طويلة وفي ظل هذا الامن الذي ساد

في معظم عهود الأغالبة زادت المحاصيل الزراعية ولم تتعرض أفريقية للقطع . وقد أبدى البيعقوبي الجغرافي دهشته لظهور الخضراء وكثافة الاشجار في المنطقة الممتدة من قعودة إلى الساحل ، حيث تسود زراعة الزيتون والنخيل والكرום أما المنطقة الواقعة شمال قعودة فكانت مرارع للحبوب . ومن حيث ثروة أفريقية المعدنية فقد اشتهرت مجانية بمعادنها الكثيرة لا سيما الفضة والحديد والرصاص . وبفضل توفر المعادن ازدهرت الصناعات في عصر الأغالبة ومنها صناعة الالات الحديدية اللازمة لصناعة السفن والسيوف والسرورج ولجم الخيل وصناعة التحف الزجاجية وكان في القيوان حتى خاص بالزجاجيين مما يدل على شهرة القيوان بهذا النوع من الصناعات . أما صناعة الخزف فقد تأثرت في أفريقية بالتقاليد العراقية حيث كانت ترد على القيوان القراميد المذهبية البغدادية لتزيين قصور الأمراء . كذلك اشتهرت أفريقية بصناعة السجاد والمسوحات وأهمها الثياب السوسية الرفيعة ناصعة العياض .

وأزدهرت الحياة التجارية في القيوان أزدهاراً عظيماً وكثرت في أيدي أهلها الأموال بسبب التجارة وكانت القوافل التجارية تسير في الطرق المؤدية إلى أفريقية والمغرب آمنة مما يدل على الرخاء الاقتصادي والاستقرار .

تطور المجتمع الإسلامي في أفريقية في العصر الأغلبي ، واستقرت البلاد ، وانتعشت الحياة الاقتصادية فنمّت المدن ، واتخذت طابعاً إسلامياً مثل القيوان وتونس وسوسة ، فازدادت بالمساجد والمنشآت العامة كصهاريج الماء ودور الصناعة ودور الحكم وقصور الأمراء وكبار رجال الدولة .

ومن أبرز سمات المجتمع الإسلامي في أفريقية في العصر الأغلبي تماسته هذا المجتمع في عقيدة واحدة ومذهب واحد ، هو مذهب أهل السنة ، أما الخوارج فكانوا قلة في هذا المجتمع لا تأثير لهم في تطور شؤونه .

واهتم الولاية المهاجرة بتطوير جامع القريوان وإنشاء أسواق في القريوان وتونس ، وإنشاء الدور للمرابطين والزهاد ، والمحارس على الساحل .

ولكن د . حسن مؤنس^(١) يقول بأن بنى الأغلب هم الذين أدخلوا الحضارة الإسلامية في إفريقيا والمغرب الأوسط ، وجددوا مسجدى القريوان وتونس الجامعيين ، وهما مسجد عقبة ، ومسجد الزيتونة ، وقد أنفق زيادة الله بن الأغلب الأموال الطائلة في تجديد مئذنته ، واعطائه الصورة الرائعة التي هو عليها الآن ، وكان يقول : ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيمة وفي صحبتي أربع حسنيات : بنائي المسجد الجامع بالقريوان وبنائي قنطرة أم الربيع ، وبنائي حصن مدينة سوسة وتوليتني أحمد بي أبي محرز قضاء إفريقيا . وهذا يدل على اهتمام زيادة الله بتعمير بلاده ، وصلاح أحوالها ، ونشر العدل بين ربعها . واهتم ذلك باصلاح جامع تونس فأمر ببناء قباه المصلعة ، ووضع فيه أعمدة الرخام ، وزينه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية الجميلة ، كما أمر ببناء القبة الكبيرة في جامع القريوان التي تعتبر من أجمل القباب في تاريخ المساجد .

ومن الآثار المعمارية الرائعة التي خلفها الأغالبة ، جامع سوسة الذي جدد بناؤه خامس الأمراء الأغالبة ، أبو العباس محمد بن الأغلب .

كذلك أهتم أمراء الأغالبة بالمنشآت العسكرية متلماً اهتموا بالمنشآت الدينية ، فلأقاموا دار صناعة في تونس وسوسة ، كما شيد الأغالبة الرباطات ، وهي بيوت يقيم فيها المجاهدون في سبيل الله ، سواء رجال تطوعوا للجهاد أو جند في جيش الدولة ، وقد تضخم الرباط بمروor الزمن حتى تحول من معسكر للمجاهدين إلى مدينة كبيرة تتضمن معسكرات ومساكن وأماكن للحراسة وأخرى للعبادة ، ويرعى هذا الرباط ويدبره شيخ من رجال الدين والتقوى والجهاد ، ينظم شؤونه ، ويقود

(١) حسين مؤنس : معلم تاريخ المغرب والأندلس ص ٩٦ .

رجاله ، ويصرهم بشؤون دينهم ، ويحدد واجباتهم نحو الله والوطن .

كان الشيوخ والفقهاء والزهاد رؤساء الناس والمحدين باسمهم أمام الحكم ، لأن بني الأغلب لم يختلطوا بالبرير ، وانزلوا في مدنهم الملكية ، يحيط بهم جندهم وعيدهم وحواشيهم ، ولا يتصلون بال العامة إلا عن طريق الشيوخ وأهل العبادة ، وكان الفقهاء في الغالب يكرهون التردد على الحكم ومحاسنهم ، لأنهم في نظرهم أهل ظلم ، ولا يتقدون الله في القول والعمل ، لذلك كرهوا منصب القضاء ، وإن كانت السلطات ترغمهم عليه أحيانا .

ومن أبرز الفقهاء في ذلك العصر سحنون وهو أبو سعيد عبد السلام ابن سعيد بن حبيب النتوخى ، كان يجلس في جامع القيوان يعلم الطلاب الفقه ويقتى ، ويعلم طلاب العلم علوم الدين وأداب السلوك ، وقد عاصر الأمراء الأغالبة الأربع ، وكان لا يخشى في الحق لومة لائم ، وينوم الحكم على ظلمه ، وينصحه ، ويحذر من محاسبة الله ، لذلك تعرض للاضطهاد من قبل زيادة الله الأول ، وفي عصره أصدرت الدولة العباسية أوامرها بامتحان الفقهاء والقضاة في قضية خلق القرآن ، وكان سحنون هو وكثير من فقهاء المغرب يرفضون القول بخلق القرآن ، وقبل أن يتعرض سحنون للعذاب انتهت المحن ، وتوقف تعذيب المعارضين للقول بخلق القرآن .

والى سحنون ينسب أحسن تدوين عرف للسماع عن مالك بن أنس ، وهو المعروف بالمدونة ، وهي كتاب فقه على المذهب المالكي ، يعرض لمسائل الفقه الرئيسية من العبادات والمعاملات عرضا بلينا ومجزا ، وتعتبر المدونة من أشمل كتب الفقه الإسلامي^(١) .

ويعتبر حكم الأغالبة فترة انتقال في تاريخ إفريقيا ، فقد تحولت البلاد من مجتمع مضطرب إلى مجتمع له سماته وخصائصه من البرير

(١) حسين مؤنس : معلم تاريخ المغرب والأندلس ص ٩١ .

والعرب الواقدين والخراسانيين والأندلسيين يعملون جمِيعاً بالزراعة والتجارة والصناعة ، ويندمجون مع بعضهم البعض ، ليظهر من هذا الاندماج مجتمع جديد ، يضم خلاصة هذه العناصر ، وخصائصها وميزاتها ، ويعزز شخصية هذا المجتمع المميزة .

وفي أفريقيا ظهرت المدن بكل امكاناتها بها المساجد الفخمة والقلاع الحصينة والأسوار والقصور المنيفة ، وظهرت هذه البلاد في أواخر القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي شعباً إسلامياً عربياً مكتملاً التكوين ، ولها مكانه الواضح المميز على الخريطة العامة للعالم الإسلامي في عصره الذهبي^(١) .

٣ — دولة الأدارسة في فاس

استطاع العلويون بعد ثورات متعددة في العهد الاموي وفي العصر العباسى الأول تحقيق هدفهم الرامى إلى إقامة دولة يحكمها أمام من آل بيت رسول الله ، ذلك هو ادريس بن عبد الله وهو الاخ الرابع لابناء عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، واستشهد اخوهه الثلاثة في ثوراتهم ضد الخليقة العباسية ، وأولهم هو محمد ذو النفس الزكية ، وثانيهم ابراهيم شميد باخمرى ، وثالثهم يحيى بن عبد الله : ورأى ادريس وبعد بثورته عن مركز الخليفة العباسية ، فلجمأ إلى المغرب الأقصى وأيده البربر . وأقام دولة الأدارسة .

ودولة الأدارسة هي دولة طويلة العمر ، قامت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجرى ، واستمرت حتى أواخر القرن الرابع الهجرى أي أنها استمرت قرنيين ونصف قرن أي ضعف ما عمرته دولتنا الاغالية والرمتمنين ، واستطاعت أن تصمد في وجه دعوة الفاطمية ، وحافظت على استقلالها من دولة الامويين في الاندلس ولكنها رغم صغرها أخذت دوراً حضارياً بارزاً في تاريخ المغرب سواء في نشر الاسلام أو في تعميره

(١) المصدر السابق . ص ١٠٠ .

البلاد وفد ادريس الى الغرب الاقصى ومعه مولاه راشد يقال انه من أصل ببرى ، وكان راشد يتربى على التجار ويتظاهر بأنه السيد وادريس خادمه ، يأمره أمام الناس فيطيع أمره ، ذلك ليخفى شخصيته أمام الناس وفي خلال سنة ١٧١/٧٨٨ ظهر الاننان في طنجه وأخذ راشد يدعو لامير علوى يحمل راية الاسلام ، ويخلص الناس من الظلم والزندقة .

وقد التف الناس حول راشد حيث جذبهم الدعوة لرجل من آل بيت رسول الله ، وواصل راشد الدعوة بين أفراد قبيلة أوربه ، وكثير انتصاره ومؤيده في بلده وليلي ، وهي أصلح ما تكون كمركر لدعوة سياسية ، لأنها مرکزا تجاريا ممتازا وسوقا عظيما للقبائل ، وتشهد تجمعات كبيرة من البربر ، ونزل ادريس مدينة وليلي حوالي ١٧٢ ، وبدأ يدعو لنفسه ، وأيده شيوخ أوربه ورأوا فيه خيرا من قد لهم من سلطان برغواطه ، وتطلعوا إلى أن يقيم بهم دولة مستقلة مثل دولة بنى رسمتم في تاهرت خصوصا أن هذا الداعي من آل البيت ، وبعد جهد ليس باليسير عهد شيوخ القبائل إلى ادريس بحكم وليلي وزعيم الجناح الغربي من قبيلة أوربه ، وتبعه بعض أفراد القبائل الصغيرة المقيمة في تلك النواحي ، وكانت ناقمة على برغواطه ، وواصل ادريس بث سلطاته في تلك النواحي سلما أو حربا حتى امتد سلطانه في أقل من عام إلى بقعة كبيرة في الشرق الاقصى .

وقد استاء الرشيد من اقامة دولة الادارسة ، فقد اقتطع ادريس جزءا من دولته ، ورأى الرشيد أنه من الصعب ارسال جيش للقضاء على هذه الدولة بعد المسافة ، ولأن ادريس يتمتع بتأييد البربر ، وينسب المؤرخون إلى اهل الرشيد بأنه لجأ إلى التآمر للتخلص من غريميه ، فأرسل طبيبا يقال له الشمامخ ، قدم لاドريس دواء فيه مادة سامة قضى عليه ، وتوفي ادريس بعد حكم دام ثلاثة سنوات سنة ١٧٥ / ٧٩١ م

حافظ راشد على استقرار حكم الدولة الجديدة في آل ادريس ،

وقد ترك ادريس جارية له حاملا ، فاتفاق ادريس مع شسيوخ القبائل على الانتظار حتى تلد الجارية ، وأنجبت ولدا ، فظل ادريس وصيا عليه حتى بلغ العاشرة من عمره وولاه سنة ١٨٦ م حكم الدولة الجديدة .

ولى ادريس الثاني الحكم خلفا لابيه – وهو طفل – فكفله راشد ، وأحفظه القرآن في طفولته وعلمه الحديث وعلوم اللغة وسير الملك وأخبار الماضين وأيام الناس وركوب الفيل والرمي ، والخلاصة أعده للملك غير اعداد .

ولما تهيا ادريس للملك ، أخذ راشد له البيعة من سائر القبائل سنة ١٨٦ هـ ، ولكن ابراهيم بن الاغلب خلى على ملكته من دولة الادارسة ، وكان يرى أن راشد هو المدبر الحقيقي لهذه الدولة ، لذلك دبر مؤامرة للتخلص منه ، على أن هذا العمل لم يؤثر ولم يضعف دولة الادارسة ، بل تولى أبو خالد يزيد بن الياس العبدي الاشراف على المملكة واستقرت الامور ، وقويت الدولة .

ازدادت قوة ادريس بتوافق العرب عليه ، وقربهم ورفع هنالئهم ، وجعل منهم بطانته دون البربر . وبذلك خرج ادريس من سيطرة البربر على الحكم .

قرر ادريس الثاني بناء مدينة ليقيم فيها هو وخاصته وجيشه ووجوه مملكته ، واشترى أرضا في موضع مناسب لبناء مدينته ، وشرع العمال في البناء في موقع يقع بين جبلين صغيرين ، على ضفتي نهر صغير وهو نهر فاس ، وبدأ البناء في سنة ١٩٢ هـ بدعوة الاندلس ، وقد سمي هذا الشق من المدينة فيما بعد باسم المهاجرين الذين أجlahم الحكم ابن هشام عقب الفتنة الربضية ، وشيد ادريس سور المدينة ، والمسجد الجامع ، وأما دعوة القرويين فانها أُسست سنة ١٩٣ هـ ، وأذن ادريس للناس ببناء الدور وغرس الاشجار والبساتين حولها ، وبنى جاما

متصلًا بمنزله ، وهو المعروف بجامع الشرفاء ، وعقب اتمام أسوار شقى المدينة والجامعين ، أتزل ادريس الثاني الوافدين عليه من الاندلس بالعدوة الشرقية ، فسميت عدوة الاندلس وأتزل الوافدين من القิروان الذين كانوا معه بالعدوة الغربية ، وسميت عدوة القرويين ، ثم أمر بزيادة البناء والغرس والدور والمساجد والحوانيت ، وعمرت الأرض وكثرت خيراتها ، وقصدها الناس من مختلف المناطق للإقامة والتملك ، وسكنها العلماء والأدباء والتجار والصناع • وهكذا كانت مدينة فاس عبارة عن مدینتين منفصلتين مسوريتين ، كنتما في سفح جبل ، ويفصل بينهما نهر ، تمتد عليه جسور ، ويستمد مياهه من عين غزيرة ، وقد احتفظت كلتا العدوتين بكيانها على النمط الذي خطته ادريس الثاني حتى عهد ملوك زنانه في أواخر القرن الرابع المجري • فكان لكل من الحينتين مساجدها وأسواقها وولاتها •

حاول ابراهيم بن الأغلب التخلص من ادريس الثاني ، وذلك بالحداث الفرقه بين أصحابه وحملهم على مبايعة الرشيد ولكن هذه المؤامرات باعت بالفشل ، ثم خرج ادريس سنة ١٩٧ هـ لغزو من بقى من الكفار بنفيس ، ودخل هذه المدينة ثم اتجه إلى الجنوب ، واستولى على مدينة أغمات ، وبعدها أخضع البلاد بين المنقطتين ، ثم دخل تلمسان صلحًا وقضى في تلمسان ثلاث سنوات نظم أمورها ، وأضعف الخوارج ، وبعدها عقد هدنة مع الأغالبة ، أمن بها من بطش الأغالبة • وتوفي ادريس الثاني سنة ٢١٣ هـ

ويعتبر ادريس الثاني بحق المؤسس الحقيقي لدولة الادارسة وهي أول دولة كبيرة في المغرب منذ الفتح الاسلامي — فقد تمكن من درء خطر الأغالبة ، وسيطر على البربر سيطرة كاملة ومد حدود مملكته — التي كانت تضم أوريه — عبر جبال الأطلس الاعلى في جنوب مراكش حتى درعة ولذلك ضمن لنفسه الاستفادة من موانئ المحيط الأطلسي والسيطرة على مضيق جبل طارق من طنجه وسبته قاعدة الزحف إلى الاندلس •

ومن أهم إنجازات ادريس الثاني التوغل عبر الجبال المنيعة ومواجهة القبائل شبه المتوحشة المعتصمة بهذه الجبال ، والتي ظلت في معزل عن الدنيا ، واجتاز ادريس الثاني هذه الصعاب ، ونشر الاسلام بين أهل هذه الجبال الذي امتد منها إلى الصحاري الواسعة التي تمتد وراءها . ومن أهم إنجازات ادريس القضاء على الخوارج الصفرية الذين أضعفوا بلاد المغرب سياسياً واجتماعياً واقتصادياً أما خوارج بنى مدرار والدولة الرستمية فقد تعايش ادريس معها سلمياً .

بلغت دولة الادارسة — كما قلت — أوج عظمتها في عهد ادريس الثاني ، وأما عهد ابنه ممد بن ادريس ، فهو يمثل استقراراً للأمور ، والحافظة على المكاسب التي حققها أبوه ، وأعقبه عهد تدهور كبير بقيام الدولة الفاطمية بال المغرب ، والتنافس بينهم وبين الامويين في الاندلس .

تأسيس مدينة فاس

في الواقع نشأة مدينة فاس ، هو نشأة مدینتين احدهما قريبة جداً من الآخر ، وان بقيتا مستقلتين برغم هذا سنّة واحدة ويستترعن الانتباه كيف استطاع ادريس الثاني القيام بهذا العمل الضخم على الرغم من صغر سنّه ، تأسيس مدینتين متباينتين في مكان واحد ، وجعل لكل منهما سوراً بدلاً من احاطتهما معاً بسور واحد ، وحقيقة الامر أن مدینة فاس قد بنيت في سنّة ١٧٣ هـ عندما دخل المغرب ادريس بن عبد الله هارباً من تعقب أبن جعفر المتصور له حيث التقى حوله البربر عند ذلك ، وجعلوه على رأسهم وبنوا له مدینة فاس على مستنقعٍ عشبى ، وعندما حضرت الاسس — استكشفت فاس في الأرض ، وهكذا سميت بمدینة فاس ، وضربت بها النقود ابتداءً من تاريخ غير محدد ، ولكن يرجح على الأقل سنّة ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م ، ويقضى ادريس الثاني ولايته في المدينة الجديدة ولما كان ولعاً بالتجديف ، بنى هو الآخر في الجزء الواقع إلى الغرب من نفس الموقع ، والذي وجده الأفضل مدینة جديدة على

الطراز الشرقي ، أو على الطراز الافريقي ، هذه المدينة أطلق عليها رسميا اسم العاليه ، ولعلمهم سموها أيضا فيا ذكر اليعقوبي اسم افريقيه وهو اسم له علاقة واضحة بالاسم الذي انتهى به الامر الى أن صار شائعا على ألسنة الناس ، فقالوا مدينة القروين أو مدينة القرروانية ، وبعد ذلك بقى سنين سنة ٢٠٢ هـ كان حضور القرطبيين المعروفين باسم ثوار الريض الى ادريس الثاني مؤديا الى اضعاف الصفة التي اتسمت به مؤسسة أبيه الواقعة على الضفة اليمنى من وادى فاس ، حين استقروا فيها ، وقد انشأوا مدينة فاس على النمط الاندلسي ، وما لبثوا أن أعطوها طابعا جديدا مدينة منظمة لم يكن لها من قبل ، وهكذا لم يلبث اسم مدينة الاندلسيين أن حل محل الاسم القديم ، وهو مدينة فاس فصار يطلق بعد ذلك على كل الاقليم والمدينتين القائمتين فيه .

كانت مدينة فاس في عصر ادريس الاول لا تبدو أكثر من أنها مدينة ببرية صغيرة ولم يزل بمراكن أمثلة عدة لهذا النوع من المدن مما يجعل طابع القرى الرعوية خاصة وهي غالبا تكتلات قليلة الكثافة الى حد ما تتشاء في طريق جبلي أو في الجبل نفسه ، وتكون محصنة تحصينا بدائيا ، حيث نجدها متراصة بوجه عام على سطح ينحدر الى بطن أحد الأودية ، وفيها سوق أسبوعي . أما في الداخل بيوت متواضعة ومراع للماشية ومخازن الغلال وجامع متواضع .

وفي عهد ادريس الثاني عاشت فاس في رخاء وضررت فيها عملة سنة ١٨٥ هـ ، واستقبل فيها ادريس الثاني المهاجرين العرب الذين لجأوا اليه من الاندلس ومن افريقيه الاغلبية وكان وجودهم في فاس يكسبا كبيرا لادريس الذي كان يشعر أنه في عزلة وسط البربر ، وأخذ يستعد لاستغلال هذا العنصر المهم من العرب للتخلص من البربر ، وأخذ يستعد واتخذ بلاطها عربيا له وزير وكاتم سر وقاض من أفالصل العرب .

والظاهر أن الوزير عمير الذي تزوج عاتكة - ابنة ادريس الثاني -

قام بدور مهم حاسم في تأسيس مدينة عدوة القروانين ولا شك أنه أقنع سيده الشاب بـألا يقيم مقره في مؤسسة أبيه بمدينة فاس وأنه يستقر بقربها على الجزء الأكثر ماء من هذا الموقع ، وأن يحسن إنشاءها الدنى الحقيقى الجدير بالمدن السورية والأندلسية الظاهرة في ذلك الوقت ، فأنشأ في المدينة الجديدة قصراً للإماراة ، كما بني مسجداً اسمه مسجد الأشرف وكان لابد للمدينة الجديدة من أن تتمو سريعاً ، وكان أحد أحياها خاص بيهمود استقروا فيه ، وتزعموا النشاط التجارى ، على أن العرب والموالى كانوا في الغالب من الفارين القروانين ومن وفدو لخدمة الحكومة الأغلبية بأفريقية . أما البربر فلم يكن لديهم ما يشكون منه ، إذ كانت لهم مدینتهم الخاصة ذات الطابع الذى يميز حياتهم ، وكانت قرية من متازلهم .

ومن هنا نرى أن ادريس الثاني قد احتفظ بمدينة فاس لكي تكون سكناً لجنده البربر ولضباطهم .

وكل الدلائل تدل في النهاية على أنه بينما كانت مدينة ادريس الثاني تنمو وتتردّه إذا بمدينة فاس القديمة تظل متأخرة في مضمار المدن العربية بل وتزداد اضطراباً لدرجة أنها بعد ذلك بعده سنين عندما سمح الامير للقرطبيين من أهل الربض بالاقامة فيها . لم تكن بلا شك أكثر من مجرد تربة كبيرة تقوم عليها بيوت متواضعة من اللبن مغطاة بفروع الأشجار ، وكان على الاندلسيين أن يحسنوا مدینتهم سريعاً ومع هذا فقد تركوا في أحياها المتطرفة طابعاً ريفياً قوياً .

حركات الخوارج في المغرب

الاباضية فرقة من الخوارج ، وقبل أن نشير إلى حركتهم في بلاد المغرب في أواخر العهد الاموى ، يجب أن نتكلم بايجاز عن الخوارج .

الخوارج مفردها خارجي ، وهم أتباع أقدم فرقة في الاسلام ، وقد نشطوا في أواخر عهد على بن أبي طالب ، وتولية معاوية الخليفة ، وأحدثوا اضطرابات كثيرة في الدولتين الاموية والعباسية ، وقدر بعض حركاتهم النجاح فترة من الزمن^(١) .

نشأت فرقة الخوارج أثناء معركة صفين بين على بن أبي طالب ، ومعاوية ابن أبي سفيان ، وطلب جند معاوية تحكيم كتاب الله في النزاع بين الفريقين ، وعارض فريق من جيش على التحكيم على اعتبار أن الرجال لا يصح أن يحتمل عليهم حكم الله . وهذا الفريق قوامه قبيلة تميم بالذات ، وهجروا جيش على قائلين لا حكم الا لله ، ثم تركوا الجيش ، وانسحبوا إلى قرية حرورة غير بعيد عن الكوفة ، وارتضوا بعد الله بن وهب الراسبي قائدا عليهم^(٢) .

وسمى هؤلاء الخوارج الأوائل بالحرورية^(٣) ، وانتشرت هذه الفرقة ، وانضم إليها القراء في جيش على . بعد ما شعروا بالخذلان وخيبة الأمل من نتيجة التحكيم التي كانت في صالح معاوية وفي غير صالح على وأظهر الخوارج مذهبهم وقالوا بعدم أحقيّة على في الخليفة ، وأصبحوا يعتقدون أنهم وحدهم المسلمين ، ومن ليس على عقيدتهم كافر^(٤) ، وعليهم رد هؤلاء الكفار إلى حظيرة الدين ، وطعنوا في مسلك عثمان ، وأبوا التأثر بقتله ، وقوى أمر الخوارج شيئاً فشيئاً بتراييد

(١) دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٥٨ - ٦٠ .

(٤) ابن تقيية : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٣٤ .

المساواة بين الشعوب في الاعتقاد وهو المبدأ الذي قال به الخوارج^(١) .

وكان على بن أبي طالب قد عول على الزحف إلى الشام لمحاربة معاوية ، و إعادة الوحدة إلى دولته ، بعد أن رفض قرار الحكمين لكنه علم أن الخوارج تجمعوا في النهران ، وقوى أمرهم واشتد خطرهم ، وقتلوا مخالفיהם ، وأشاعوا الذعر بين الناس ، وسبوا النساء وأشاعوا الفراب والدمار ، فتحمّل على إلى النهران ، وألحق بهم المذيمة سنة ٣٨ هـ^(٢) ، ونكل بهم ، لكنه مع ذلك لم يتيسر له القضاء عليهم وعلى آرائهم ، فظل بعضهم يقيم معه بالكوفة ، كما أقامت جماعة منهم بالبصرة ، وقتل على بن أبي طالب بيد أحد الخوارج سنة ٤٠ هـ . ولما قامت الدولة الأموية قوى شأن الخوارج ، واعتبرضوا على تولية معاوية الخلافة ، لأنه لم ينلها بجماع كلمة المسلمين ، وخالف سيرة الخلفاء الراسدين باتخاذه الحرس والحجاب وتشييده قصر الخضراء مقراً له ، وقوى أمرهم في البصرة والكوفة^(٣) .

اشتد ولادة بنى أمية في العراق في قمع الخوارج ، وتعقبوهم ، ونكلوا به ملتهم لم يهنو ولم يضعفوا ، وظلوا يعارضون الحكم الأموي ، ولما أعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة في مكة ، انضم إليه فريق من الخوارج بقيادة نافع بن الأزرق وذهبوا إلى مكة ليجاهدوا مع ابن الزبير ضد الحكم الأموي ، وينذودوا عن البيت الحرام^(٤) .

على أن الخوارج اختلفوا مع ابن الزبير حول رأيه في عثمان فقال لهم : أئني ولی لابن عفان في الدنيا والآخرة ، وولی أوليائه وعدو أعدائه ، فقالوا له : بربك الله منك يا عدو الله . ثم انصرفوا عنه .

(١) نشوان الحميري : الحور العين ص ١٧٠ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٣٨ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٠ هـ .

(٤) محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية ص ١٠٠ .

فسار جماعة منهم الى البصرة وفيهم نافع بن الازرق الحنفى وعبد الله ابن صفار السعدي ، وعبد الله بن اباض^(١) .

ساد الاضطراب بلاد العراق بعد وفاة يزيد بن معاوية ، وعجز ولاته عن مقاومة الخوارج ، فأعادوا تنظيم صفوفهم ، وأعلن نافع بن الازرق نفسه أمير المؤمنين في الاهواز ، وبايده أنصاره ، وعارض بيته عبد الله بن صفار وعبد الله بن اباض ، وأتباعهما من الخوارج .

وامض الخوارج شن غاراتهم في شرق الدولة الاسلامية . وكانت غاراتهم أشبه بحرب العصابات . ويرجع الفضل في معظم انتصاراتهم الى سرعة حركة فرسانهم فكانوا يتحركون فجأة لا يتوقعهم أحد ، ويكتسحون البلاد ، ويباغتون المدن غير الحصينة ، ثم ينسحبون مسرعين تخلصا من مطاردة جيش الدولة لهم^(٢) .

وكان على ولاة بنى أمية بعد القضاء على ابن الزبير أن يخوضوا حربا لا هوادة فيها على الخوارج الذين كانوا أعداء لابن الزبير والامويين على السواء . وانقسم الخوارج الى أزارقة وصفريه واباضية وتعددت فتتهم في شرق الدولة الاسلامية وازداد خطرهم نتيجة لاعمالهم التخريبية . وانتفاضاتهم التي اتسمت بطابع العنف والقسوة بل الوحشية ، ولم تفت في عضدهم ، ولم يضعفوا ولم يهلكوا من بطش الامويين وتنكيلهم بهم . على أن المطلب بن أبي صفرة والحجاج بن يوسف الثقفي . قد تمكنا بعد جهد جهيد وعناء شديد دام عدة سنوات من هزيمة جموع الخوارج^(٣) .

وكانت جزيرة العرب مسرحا لحركات الخوارج وبالذات بين عزمي

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوک ج ٤ ص ٤٢٣ .

(٢) ن فهوzen : الخواروج والشيعة ص ٩٦ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٨٠ .

٦٥ — ٧٣ هـ حيث استولوا على اليمامة • وامتد نفوذهم إلى حضرموت واليمن ومدينة الطائف ولم يمنعهم من الاستيلاء على مكة والمدينة إلا خوفهم من اثار الشكوك في دينهم • حقيقة ذلك بضم الحاج بن يوسف ولكنه لم يكن قضاء مبرما • فقد بقي أفراد من الخوارج في بلاد اليمن يتهدّون للثورة ضد الحكم الاموي حينما تناهى لهم الفرصة • فيذكر الخزرجي^(١) أن الخوارج قدموا إلى صنعاء سنة ٧٢ هـ • فجمع وهب بن منبه الناس لقتالهم • فقال له الناس : لا طاقة لنا بهم ، ونحن نخشى أن يستحلوا دماغنا فتفرق الناس • وصالحوا الخوارج على مائة ألف دينار • فاستعنوا أهل صنعاء بأهل المخالف على المال • فأمدّوهم بالمال • وتفرق الخوارج •

اضطربت الأمور في الدولة الاموية بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ وتولية الوليد بن يزيد الخليفة — الذي قضى معظم أيام خلافته في الbadية • وبقي في الخليفة سنة وشهرين • ثم قتل لسوء سيرته سنة ١٢٦ هـ • وخلفه يزيد بن الوليد الذي توفي بعد خمسة أشهر وبوبع أخيه ابراهيم ، وفي عهده تجلّى الاضطراب في البيت الاموي فلم يكن هناك اجماع على توليته • فكان الناس يسلمون عليه بالخلافة ، وناس بالamarة • وناس لا يسلمون عليه بواحدة منها • وانتهى الأمر بعزله وقتله على يد مروان بن محمد^(٢) • ولما ولى مروان بن محمد الخليفة تحصب للقيسية وطلب اليمانيين بدم الوليد بن يزيد • فثار عليه يزيد بن خالد القسري بدمشق^(٣) • وانضمت إليه اليمانية فأرسل مروان إلى دمشق جيشاً أخمد الثورة كما قضى على ثورات أخرى في بلاد الشام قام بها اليمانية^(٤) •

ولم يكدر يستقر الأمر لموان بن محمد في بلاد الشام حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك • ودعا أهليها إلى خلعه • وانضمت

(١) الكلبة والاعلام من ٦٨ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء من ١١٦ .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى ، في الاداب السلطانية من ١٢٣ .

(٤) الداینوری : الاخبار الطوال من ٣٢٤ .

اليه اليمانية • فسار اليه مروان • وأوقع به^(١) الهزيمة وما كانت أكثر عرب الشام من العنصر اليمني فقد أتى مروان بن محمد أن يتخد حران حاضرة لدولته بدلاً من دمشق حيث كانت تقيم القيسية عماد دولته^(٢) •

وكان مروان بن محمد من أقدر خلفاء بنى أمية في الادارة وال الحرب والسياسة ، ولكنه ولد في وقت كثُرت فيه القلاقل والاضطرابات في الدولة ، وتعددت الثورات ، وانقسم البيت الحاكم على نفسه ، وانتشرت الدعوة العلوية في الكثير من أرجاء الدولة الإسلامية ، ونجحت الدولة العباسية في اقليم خراسان نجاحاً كبيراً • وازداد نشاط الخوارج •

قيام الدولة المستمية

قام نزاع بين حبيب بن عبد الرحمن والى العباسين على أفريقيا مع ورفجومه وما انضم اليها من الخوارج وأضطربت الأمور في أفريقيا حيث دخلوا القويوان وربطوا دوابهم في المسجد الجامع ، وقتلوا كل من كان من قريش وسامت أهل القويوان سوء العذاب ، وندم الذين دعواهم أعادوهم أشد ندامة في هذا الوقت • رأى الأباكسية في منطقة طرابلس وجبل نفوسه الوقت قد حان ليكونوا لهم امارة مستقلة ينظمون فيها شؤونهم وفق تعاليمهم ومبادئهم ، ويكون على رأسها امام متواافق فيه الشروط التي يجب أن تكون في الامام كما يرى ذلك علماؤهم ويقول المؤرخون أن الأباكسية في منطقة طرابلس صاروا في دور (الكتمان) بعدما أقتل الحارث بن ثلید وعبد الجبار بن قيس الموارى من طرف عبد الرحمن بن حبيب ، وظلوا كذلك حتى قدم أبو الخطاب وأصحابه من المشرق ، فتطلعوا إلى الخروج من هذا الدور إلى دور (الظهور) وخاصة عندما قدروا قواتهم • وقدروا مكان دفاعهم ورأوا أنهم قادرون على الدفاع عن كيانهم بعد ظهورهم •

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ من ١٥٦ .

(٢) المصدر السابق ج ٥ من ١٥٧ .

وقد تطلب أمر الظهور منهم تعين أمم يقصد حركتهم . وكان الامام الذى اتفقا عليه هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المغارى الذى أشار له بالأمامية من قبل أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، وقد أشترط الأباشية عليه أن يحكم بينهم بكتاب الله وسنة رسوله وأثار الصالحين ، أما هو فقد أشترط عليهم — حتى يقبل الإمامة — لا يثروا مسألة الحارث وعبد الجبار التى أحدثت الفرقة بين صفوفهم وقبلوا منه ذلك فبایعوه على القيام بحقوق الله ، وعلى ما فى الكتاب والسنّة واتباع آئمّة المهدىين ، وكان ذلك على رأس ١٤٠ هـ . وأتاه أهل القىروان داخلين في حماء وطالعوه بما ارتكبه الورفجوميون من ضروب البطش والظلم والفساد ، وأستباحة الأعراض وتدنيس المساجد . فلما بلغه ذلك غضب وأنكر من ورجومة سلوکها فتحركت في نفسه عوامل الغيرة على الإسلام . فأسس تفرق أتباعه من الأباشية وشایعة بربير طرابلس وفي مقدمتهم هوارة وزحف بجموعه يريد القىروان لقتال ورجومة ، فالتقى معهم وقاتلهم ، ثم هزمهم وتبعدهم يقتلهم ، ثم انصرف إلى القىروان .

ترعم أبو عبيدة حركة الأباشية السرية ، وأوجد مجتمعاً متعاوناً متماسكاً ، وكان جماعة تعمل في سرية وكتمان على نشر المذهب الأباشى وأنشأ مدارس سرية لتعليم الدعوة وتوجيههم ، وهؤلاء الدعاة الذين عرفوا بحملة العلم ، انتشروا في بقاع العالم الإسلامي لنشر المذهب الأباشى ، وعرفوا بحملة العلم ، وقد وفقو في نشر المذهب الأباشى في كثير من البلاد ، ومن بينها المغرب ، الذى عرفت أفكار الخوارج منذ نشأتها . وأول من دعا للأباشية في المغرب ، سلمة بن سعد الحضرمي في أواخر القرن الأول الهجرى .

استقر سلمة بن سعد الحضرمي في جبل نفوسه في منطقة طرابلس وأخذ يدعو لذهبية بين قبائل هوارة البربرية التي كانت تسكن في تلك المنطقة ، وكان سلمة شحيد الحماس ، متفانياً في نشر مذهبه ، ممسحاً

في سبيل ذلك بالنفس والنفيس ، وقد استطاع هذا الداعي اقناع بعض مؤيديه المتحمسين للمذهب بالذهاب إلى البصرة للتفقه بأصول الدعوة الأباضية على يد زعيم الحركة في البصرة الإمام أبي عبيد مسلم بن أبي كريمة التميمي^(١) .

وبعد أن انتشرت الدعوة الأباضية في المغرب ، توافد الطلاب على البصرة لتلقى الدروس عن فلسفة المذهب ، ومن أبرز هؤلاء الطلاب عبد الرحمن بن رستم من القيروان ، ومكثوا في البصرة عدة سنوات يتعلمون علوم المذهب الأباضي في المدرسة السرية للأباضية هناك ، وعادوا إلى بلادهم لنشر المذهب ، ودعاهم الإمام بالرجوع إليه في كل ما أشكل عليهم من أصول المذهب وقد نشط هؤلاء الدعاة في نشر مذهبهم بين أهليهم من سكان المغرب ، وقاموا بتأسيس المدارس السرية على غرار مدرسة البصرة ، وتخرج على أيديهم عدد من الدعاة الأباضية المغاربة يسمون تلاميذ حملة العلم ، وأخلص الأئمدة والتلاميذ في نشر دعوتهم ، واستطاعوا بعد اشتباكات ومعارك متعددة مع الولاة العباسيين في المغرب ، أن يعلنوا إماماً ظهور سنة ١٤٠ هـ ، وبايعوا آبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري إماماً عليهم ، وتمكن الأباضية بقيادة أبي الخطاب من الاستيلاء على طرابلس ، ومعظم بلاد المغرب الأدنى ، والقيروان خامسة إفريقية .

تصدى الولاة العباسيون للحركة الأباضية الناشئة ، ورأوا ضرورة القضاء عليها في مهدها ، فحاربهم الوالي العباسى محمد بن الأشعث الخزاعي سنة ١٤٤ هـ ، فقتل الإمام الأباضى آبا الخطاب المعافري في معركة تاورغا سنة ١٤٤ هـ .

ويرى المؤرخون من الأباضية ما أن آبا الخطاب بعد انتصاره على ورفجومة وأهل القيروان الذين ناصروه طبع مبدأ الأباضية الذي

(١) عرض محمد خليفات : النظم الاجتماعية والتربوية عند الأباضية في شمال إفريقيا ج ١٧ .

ينص على أن أموال المخالفين ودماءهم حرام أخذها ، ولا يحل إلا السلاح ، ومحاربة السلطان وجنده فقط ، لأن المخالفين ليسوا مشركين ولكنهم كفار نعمه ٠

وأثر أبو الخطاب أن يرجع إلى طرابلس ، ويتخذها عاصمة له ، فقادر القويوان بعد أن عين عليهما ومن والاهما من المدن عبد الرحمن ابن رستم الذي تلقى العلم معه في مدرسة أبي عبيدة بالبصرة والذي سيصبح له شأن كبير فيما بعد عندما يؤسس دولة أبياضية بالمغرب هو وأولاده قربة المائة والخمسين سنة ٠ ومن القويوان استطاع عبد الرحمن بن رستم أن يراقب المغرب الأوسط عن كتب ، وأن يغذي الذهب الأبيض بالكثير من الأنصار والأتباع ، اذ رأى في المغرب الأوسط امتداد يحمي الدولة الناشئة من طرابلس ويؤكد نظرة عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط ، ما تحدث عنه ابن خلدون من وجود تحالف وطيد بين عبد الرحمن بن رستم وقبيلة مليبة البقرية التي كانت تسكن في هذا الأقليم ٠

لكن عبد الرحمن بن رستم لم ينعم بمقامه طويلا في القويوان ، وذلك لتطور الأحداث السياسية من جديد في أقليم طرابلس ٠ فبعد أن هزم أبو الخطاب عبد الأعلى بن المسعم ورفجومه وفدى جماعة من رجالات العرب بها على الخليفة المنصور واستصرخوه على الخوارج ، وشكوا إليه تسلّتهم على كرسى الامارة بالقوسطنطينية ٠

فولى المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي على مصر وأفريقية ٠ وسير من مصر جيشاً من المسودة بقيادة أبي الأحوص عمر بن الأحوص العجلى لاسترجاع المغرب وكان ذلك سنة ١٤٢ هـ فخرج إليه أبو الخطاب ، فالتقوا بمقداس على شاطئ البحر ، فانهزم أبو الأحوص وأصحابه ، وأحتوى أبو الخطاب على عسكرهم ٠ ورجع أبو الأحوص إلى مصر ، وأنصرف أبو الخطاب إلى طرابلس ٠ وكانت أفريقية كلها في يديه ٠

ولم ينعم أبو الخطاب بالنصر الذي أحرزه ، اذ مالبث أن رأى

جيوش العباسين قادمة الى المغرب لاستعادة نفوذها وسيطرتها عليه ، ففي سنة ١٤٣ هـ أتصل بأبي الخطاب أن محمد بن الأشعث والى مصر والذى عينه أبو جعفر المنصور كقائد الجيوش الى المغرب عازم على مشاربته فخرج اليه أبو الخطاب في زهاء مائتى ألف فعسكلر بهم في أرض سرت ، وأتصل ذلك بمحمد بن الأشعث . فسار اليه في أربعين ألفاً ومعه الأغلب بن سالم التميمي ، فالتقوا بأبي الخطاب ، وكان قد جمع أصحابه من كل ناحية ، وهموا في عدد عظيم ، فضاق ابن الأشعث ذرعاً بلقاء ابن الخطاب لما بلغه من كثرة جيوشه . وإنهم أبو الخطاب ومن أسباب انهزامه حدوث انسجام في جيشه ، حيث تنازعت زناته وهوارة بسبب قتيل من زناته ، فأتممت الأخيرة أبا الخطاب بأنه يميل الى هوارة وافتقرت جماعة من المعسكر بسبب ذلك .

ويقول المؤرخون أن أبا الخطاب عندما وصل إلى (تاورغا) من أرض سرت وهي على مسيرة ثمانية أيام من طرابلس هو وعسكره تاقت نقوسهم إلى الجهد في سبيل الله ، وألتقي بابن الأشعث وأشتد القتال ، فكانت الرجال في الميدان تتهدى كالحيطان ، ولم ييرح أبو الخطاب وأصحابه حتى استشهدوا جميعاً وكانوا في أربعة عشر ألفاً أو أثنتي عشر ألفاً .

وكان مقتل أبي الخطاب وعامة من معه في صفر : كما يروى ابن الأثير أو زبيع الأول كما يروى النويري سنة أربعة وأربعين ومائة . فاجترأ ابن الأشعث رأس أبي الخطاب وبعث به إلى المنصور ببغداد .

- وعندما علم الأبااضية بقتله هربوا إلى الجبال ، ولجأوا إلى الحصون المنيعة والقلاع العالية ، ورجع عبد الرحمن بن رستم عامل القيروان . عندما علم بالهزيمة بعدما انتهى إلى مدينة قابس ، وكان في طريقه إلى أبي الخطاب مع المدد الذي طلب منه . وقبل أن يدخل القيروان ، علم أن أهلها أوتقوا عاملها في الجديد ، وولوا عليهم عمر بن عثمان القرشى من الموالين للخلافة فاتجه إلى تاهرت بالمغرب الأوسط حيث جمع حوله الأبااضية ، وأسس دولة هناك .

على كل حال — أثمرت اتصالات ابن رستم بأباضية المغرب الأوسط ، فآذروه في حصار عمر بن حفص بطيشه ١٥١ هـ / ٧٦٨ م وكانت هزيمتهم في تهوده في نفس العام سبباً في اقتناعهم بضرورة تأسيس دولة تجمع شمل أبياضية المغرب وانشاء مدينة تكون قصبة الدولة ومركزاً للمذهب ، وكانت هذه الدولة اسلامية في قضائها ، عربية في معارفها ، يربيرية في عصبيتها ، فارسية في ادارتها .

وأقام عبد الرحمن بن رستم بين قبائل مالية ، واستقر رأى الأباضية على تنصيب عبد الرحمن بن رستم لما رأوا فيه عن حميد الخصال ومجيد الأعمال وقالوا (يا عبد الرحمن رضيك الامام أبو الخطاب في ابتدائنا ونحن الان نرضي بك ونقدمك على أنفسنا ، فقد علمنا أنه لا يصلح أمرنا الا امام نلجاً اليه في أمورنا ونتحكم اليه في قضائيانا فقال لهم ان اعطيتموني عهد الله وميئاقه على الطاعة فيما وافق الحق وطابته قبلت ذلك منكم فأعطوه عهد الله وميئاقه على ذلك وشرطوا عليه مثلاً شرط عليهم ، وقدموه على أنفسهم وألقوا اليه بأيديهم . ثم قالوا له لابد لنا من امام ظهور بعد تأسيس مدينة حصينة منيعة بعيدة عن هاجمات العدو وتكون مأوى ومقر لامتنا وملجاً لنا في حربنا وسلمنا فأجابهم عبد الرحمن الى ذلك واستحسن رأيهم . فاختاروا من أهل العلم والخبرة بالأرض جماعة ليرتادوا مكاناً جيداً الهواء كثير الحياة خصب الأرض ، قابلاً للعمارة . مأموناً من العدو كما طاقوا أقطسار تلك الجهات الى أن عثروا على المكان الذي بنيت فيه وهي في سفح جبل يقال له جزول . ولما أراودا بناء المدينة أى تاهرت كانوا يبنون النهار كله ، فإذا جن الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهي الحديثة وتبعد عن تاهرت القديمة بخمسة أميال . وكانت تاهرت القديمة موجودة قبل ذلك التاريخ فالمدينة قديمة ترجع الى العصر الروماني ثم البيزنطي ولقد جاء ذكرها أيام الفتوح الاولى سنة ٦٨١ / ٥٦٢ م .

دخول عبد الرحمن بن رستم المغرب الأوسط وبناء مدينة تاهرت :

لما علم عبد الرحمن بن رستم بمقتل أبي الخطاب بعد الأعلى
بعد السمح، وجد أن من الاسلام له ولاتباعه النجاة الى المغرب الاوسط
حيث يستطيع بفضل أنصاره هناك أن يعيد انشاء دولة على المذهب
الأياضي على نسق دولة أبي الخطاب في طرابلس .

فخرج مستخفيا هو وأبنه عبد الوهاب وعبد لهما متوجهين إلى أرض المغرب وليس معهم حمولة ولا مركوب غير فرس واحد فمات الفرس في بعض الطريق فدفنهوا مخافة أن يقتفي أثراً لهم أحد من حزب عبد الرحمن بن حبيب فيطعم فيهم ، فسمى ذلك الموضع قبر الفرس ، ولما كانت المسافة التي مالية طويلة والتي توجه إليها عبد الرحمن بن رستم لحلف قديم بينه وبينهم فقد كان من الطبيعي أن يحسن عبد الرحمن ابن رستم بالتعب ، لكبر سنّه وشيخوخته تعاون معه ابنه يحمله تارة ويحمله العبد تارة أخرى .

وأخترق شمال وادى سوق ، وسار الى سوق جيج غاية المفعة
والحسانة لصورية مرقاہ ۔

فأنتقلوا بذلك إلى تاهرت الحديثة وبقبيلتها لوانه وهوارة
ويغربها زواغة وي gio فيها مطمامنة وزناته ومكتاسة وكانت الأرض
التي بنيت تكتتفها غابة ملتفة بالأشجار ، يسكنها أنواع من الوحوش
فاستأنسوا فاتفاق على بنائهما وكانت أرضا صالحة للزراعة
حيث تتبع فيها العيون الطبيعية ويجري فيها نهر لا ينقطع ماءه أسمه
نهر مينة وهو في قبليها ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتش
ومن تاتش شرب أهلها وكانت هذه الأرض ملكا لقسم
مستضعفين من مراسة وصنهاجة فساومهم عبد الرحمن على البيع فأبوا
فوافقهم على أن يؤدوا الخراج من الأسواق ويقولون التفوسى في
روايتها أنهم أمروا مناديا فنادي بأعلى صوته يا من بها من الوحوش
والسباع ان اخرجوا وارتحلوا فانا نريد عمارتها وننزلون بها ولكنكم أجلئ
ثلاثة أيام ولم تمر الايام ولم يبق من تلك الوحوش شيء فأودعوا
شجرها نارا ، ولا خمدت النار وتمنت تنقية الأشجار . وصارت
صالحة للعمارة . شيدوا مسجدها الجامع ، وكان يتألف من أربع
بلاطات وكان لهذا الجامع مصلى للجنائز . ويدعى أن يهتموا بتحصين
المدينة وحمايتها فأقاموا سورا حولها وجعلوا لها أبواب أربعة وهي باب
الصفا وباب النازل وباب الاندلس وباب المطاحن وأصبحت المدينة
الجديدة في مأمن من اعدائها ، ولا غرو فقد أطلق عليها معسكر
عبد الرحمن وقيل معسكر الببارك .

ولقد أعجب بهذه المدينة جمیع المؤرخین . الیعقوبی الذي كان
معاصرا لاتمة بنی رستم يصفها بقوله : والمدينة العظمی مدينة تاهرت
جليلة المقدار عظيمة الامر تسمی عراق الغرب ، بها أخلاق من الناس
تغلب عليها قوم من الفرس يقال لهم بنو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب
ابن عبد الرحمن بن رستم الفارسی .

امامة الامام عبد الرحمن بن رستم (١٦٠-١٧٨ هـ / ٧٨٢-٧٧١ م) :

كان تأخير اعلان الدولة ومبادئ امامها دهاء كبير من عبد الرحمن ابن رستم وصحابه ، انهم لو أعلنواها قبل أن ترسخ عروقها ، ويُسْتَدِّ جذعها ، وتدخل في شبابها ، لجعلها العباسيون نصب أعينهم . فلربما حشدوا لها من الجيوش الكثيفة ما حشدوا لدولة أبي الخطاب فينقضون عليها ، ولكتهم تمهلوا ، فنظموا كل أمورهم في الداخل وحلوا كل المشاكل ، ووحدوا صفوفهم ، وبنوا عاصمتهم ، فبرزت شخصية الدولة وبدت ساقمة في الوجود ، وأصبح في استطاعتها الوقوف في وجه العباسيين .

وشرع عبد الرحمن بعد بيعته في العمل على توطيد حكمه وارساء دعائم دولته ومواجهة المشاكل المصاحبة لقيام الدول سواء فيما يتعلق بسياساتها الخارجية أو الداخلية وأثر بسياسة المهاجنة في الخارج ، فقد حرص على موادعة عمال بنى العباس وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون ورغم عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة أحدى وسبعين ومائة في موادعة صاحب القبور روح بن قبيصه بن الهاب فوادعه وانكسرت شوكة البربر واستكاثوا وتمكن الاسلام من قلوبهم ، وفرض على البربر الضرائب الشرعية ، وصاهر بنى هدار .

وما أطمأن الى سلامه دولته من الاخطار الخارجية شرع في ارساء دعائمها . وكان عليه أن يعسط نفوذه على سائر القبائل داخل حدودها ويستكمل انشاء عاصمتها ويرسى دعائمها . ويعسط نفوذه على سائر القبائل داخل حدودها ويستكمل انشاء عاصمتها ويرسى نظمها في الحكم والادارة .

وعكف عبد الرحمن على تنظيم وتوطيد سلطانه ، ولا شك أنه استفاد من عقريقة الفرس في الحكم والادارة ، ومع ذلك فقد غالب الطابع الديني المذهبى على ما اتخذه من اجراءات في هذا الصدد فكانت دولته مستقرة

وسيرته حسنة وقضاته مختارة ، وببيوت أمواله ممتلئة وأصحاب شرطته وعماله ، قائمون بما يجب ، وبفضل قدرته على ألاف العناصر والفصائل المختلفة داخل الدولة (لم ينقم عليه أحد في خصومة ولا حكومة ولم يكن على يديه افتراق)

وفي سنة ١٦٠ بويغ ابن رستم بالأمامية بعد أن أرسى قواعد الدولة ووطد أركانها بحيث أصبحت قادرة على الدفاع عن نفسها ، وهاجر إلى تاherent كثير من المغاربة والمشارقة والأندلسيين وقصدوها التجار والكتاب ورجال الصناعة والفن من سائر أنحاء العالم الإسلامي وكان لذلك أعظم الأثر في اتساع عمرانها ونمو تجاراتها واتساع مواردها الاقتصادية .

ولما أحسن عبد الرحمن بن رستم بقرب دنو أجله أقتدى بعمر بن الخطاب فاختار سبعاً من خيرة رجال دولته من يتوسم فيهم الزهد والصلاح منهم مسعود الاندلسي ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وعمران بن مروان الاندلسي ويزيد بن فندين ثم توفي عبد الرحمن في سنة ١٧١ . ثم اجتمع المرشحون للأمامية شهراً وانتهوا إلى اختيار عبد الوهاب ، وتمت مبايعته بالأمامية . ولكن ابن فندين أحد المرشحين للأمامية عارض في إمامته وأخذ يعمل على إشعال نار الفتنة وأنكر إمامية عبد الوهاب من أصحابها بدعوى أن في المسلمين من هو أعلم منه ، وأدى ذلك إلى حدوث انقسام مذهبى عند الإبااضية إلى نكارية ووهابية ، ثم دبر ابن فندين مؤامرة لقتل عبد الوهاب ، ولكن المؤامرة فشلت ، وقامت المعارك في المدينة بين أنصار كل من الفرقتين وانتهت بهزيمة النكارية ومصرع رئيسها ابن فندين .

ولما توفي الإمام عبد الوهاب في سنة ٢١١ خلفه ابنه الإمام أفلح . وفي عهد أفلح ساد الأمن في البلاد ووصلت حضارة الرستميين إلى ذروتها ، وتولى على الإمامة بعده ولده أبو بكر ، ثم أبو اليقظان محمد ثم أبو حاتم يوسف بن محمد وأخرهم الإمام اليقطان بن أبي اليقطان محمد ، الذي انقضت الدولة الرستمية على عهده .

وكان من الطبيعي أن تقتصر العلاقات السياسية بين الأغالبة والرستميين ، إذ أن أمراء بنى الأغلب كانوا يمثلون الدولة العباسية كما أنهم كانوا ينazuون الرستميين أملأكم بطرابلس الغرب ، وفي مقابل ذلك قامت بين الرستميين والأمويين في الاندلس علاقات ودية ، لأن العباسيين الذين كانوا يحاربون بنى أمية في الاندلس ، كانوا أيضاً أعداء للإباضية في تاهرت ، فقامت بين قرطبة وتاهرت علاقات تجارية ، وكانت السفن تتردد بين وهران والمريية ، وكانت تاهرت تضم جالية كبيرة من أهل الاندلس . وكان لافلخ بن عبد الوهاب مع أمراء بنى أمية في الاندلس موصلة وأرتباط وودة بها يعودونه بالهدايا النفسية وبهادئهم بمثلها ، وظلت العلاقات الودية مع الاندلس قائمة في عهد ابنه أبي اليقظان محمد ، وكان أبو اليقظان لا يتخذ قرار إلا بموافقة محمد بن عبد الرحمن الأوسط .

وازدهرت الحياة العلمية في تاهرت ازدهاراً كبيراً ، فقد كان أئمة الدولة الرستمية علماء كرسوا حياتهم للعلوم ونشرها وشاركوا مشاركة فعالة في الحركة العلمية فكانوا يتولون التدريس في جامع تاهرت ، وكان عبد الرحمن من كبار علماء عصره برع في علوم الدين واللغة والفلك وأقبل على التأليف ، وكان ابنه عبد الوهاب توافقاً للعلم محباً له وكان يبعث الأموال إلى العراق لشراء الكتب ولا يمل قرائتها . واشتهرت تاهرت بمكتبتها التي كانت تضم نحوها من ٣٠٠ ألف مجلد وقد حرقت هذه المكتبة على أيدي الفاطميين ومن حيث الحياة الاقتصادية توسع الرستميون في الانتاج الزراعي يتوافر المياه وخصوصية الأرض وغزاررة الأمطار . وإلى جانب الثروة الزراعية اعتمد الرستميون على التجارة البحرية مع الاندلس والبرية مع السودان وعابة وسبتماسة والمغرب الأقصى . وقد جنت الدولة الرستمية بسبب التجارة مكاسب هائلة فازدهر العمران وأشرقت الحياة وتألقت ، وتعززت المباني والمنشآت وقد تبقى بعض آثار العمائر الرستمية في الصحراء الجزائرية . حيث استقرت حتى اليوم بعض الامارات الإباضية .

ومن نظم الاباضية مجلس العزابة ، ويعُيّس في كل مدينة أو منطقة ، يدين معظم سكانها بالذهب الاباضي ، ولهذه الجماعة رئيس ينتخبوه من بين أعضائها ، ومن اشتهر بالسيرة الحسنة والعدل والغيرة على الذهب الاباضي ، وشئون أفراده ، ومن بين هؤلاء الجماعة قضاة يحكمون في المنازعات التي قد تقع بين أفراد الذهب ، ومن بين هؤلاء شيوخ لتعليم أبناء الذهب ، فكانت^(١) مجالس العزابة تعقد في مقر سرى ، وكان أعضاء مجلس العزابة يستعملون في قراراتهم السريّة ألفاظاً غير معروفة للاحتفاظ بسرية الذهب .

ومجلس العزابة مهام دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية مثل الإشراف على المساجد والجوامع ، وضمان تطبيق الذهب الاباضي وتعيين القضاة ، وتأليف الكتب ، وارسال الوعاظ الى تجمعات الاباضية لتفقيه الناس بأصول الذهب ، ومن مهام المجلس تنظيم العلاقات بين الاباضية في المدينة والاباضية في المناطق الأخرى سواء كانوا في شمال افريقيا أو في زنجبار أو عمان ، وابرام الاتفاقيات مع الدول الاسلامية سواء في شمال افريقيا أو في الدول الأخرى ، ويحرص المجلس على تكوين مجتمع اباضي يسوده المحبة والوئام ، وذلك عن طريق القاء الخطب والمواعظ واسداء النصائح والارشادات التي تدعو الناس الى التضامن والتمسك بالذهب ، وكذلك مساعدة الاغنياء للقراء حتى يخلو المجتمع الاباضي من الحقد والحسد ، ويحترم الاباضيون بعضهم بعضاً ، وكان مشايخ الاباضية يراقبون الاسواق ، وينهون الناس عن الغش والربا وأنواع المعاملات التي لا يقرها الاسلام .

أنشأت مجالس العزابة في المناطق التي يدين فيها الناس بالذهب الاباضي مدارس للتعليم داخلية خاصة بالتلמיד الاباضية ، وذلك للمحافظة على الذهب .

ويرأس المدرسة الاباضية الشيخ ، وهو المسؤول الاول في المدرسة ،

(١) المصدر السابق .

ومن مهامه قبول الطلاب وتحديد المفاهيم وتعليم الطلاب ، والنظر في
ادارة المدرسة وميزانيتها .

وقد حافظ نظام العزابة على وحدة الجماعة الاباضية وساهم في
نشر اللغة العربية بين بعض القبائل البربرية وكان علماء الاباضية
يرتحلون إلى الحواضر العربية لتعلم فنون اللغة العربية واتقانها ،
وقد حرص مشايخ العزابة على نصح طلابهم بالتردد بعلوم العربية
واتقانها وذلك لفهم القرآن الكريم وعلوم التفسير والحديث وساهم
شرط حفظ القرآن الكريم في مدارس العزابة على تعلم اللغة العربية .

وساهم شيوخ الحلقة وتلاميذهم إلى جانب التجار الاباضية في
نشر الاسلام في بعض البلاد الافريقية جنوب الصحراء ، ونشر الاسلام
طبقاً للمذهب الاباضي في بعض بلدان البربر ، كما ساهم هذا النظام في
نشر التعليم بين أبناء المذهب الاباضي^(١) .

وقام شيخ العزابة بنشاط كبير في تأليف الكتب التي تبحث في
العلوم الاسلامية على المذهب الاباضي ونظام العزابة فيه من القسوة
بحيث لا يترك للطالب فراغاً ، كما عزل أتباع المذهب عن بقية اخوانهم
من أصحاب المذهب الآخرى بدعوى السرية والمحافظة على تراثهم
وعدم كشف أسرارهم لخالفيهم خوفاً من تعرضهم للاذى والعدوان ،
بل كان شيخ العزابة يمنعون طلابهم من قراءة كتب بقية المسلمين^(٢)
حتى لا يضروا .

دولة بي مدار

كان أهل سجلمانسة من مكتسيه يعتقدون مذهب المصفرية ،
وتعلموه من مشايخ وفقهاء الخوارج الذين وفدوا على بلادهم ، وولوا
عليهم سودانيا يسمى عيسى بن يزيد — من موالي العرب — ويلاحظ

(١) المصدر السابق ص ٩٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٤ .

أن الصفرية والياضية كانوا من أكثر المذاهب الخارجية انتشارا في المغرب عقب الفتح العربي ، كما كانوا أكثر المذاهب تسامحا واعتدالا مع المخالفين لذهبهم .

ومؤسس الدولة المدارية سوداني أسود اللون يسمى عيسى بن يزيد ، وأخذ يستأثر بالأموال في أواخر أيامه ، مما أثار معارضه مواطنه ، وقصدى له زعيم المعارضة ويسمى أبو الخطاب الصفرى ، وقال لاصحابه في مجلس عيسى بن يزيد : « السودان كلهم سراق حتى هذا » وأشار إلى عيسى ، فأخذوه وشدوه وثاقا إلى جذع شجرة في الجبل بعد أن طلوه بالعسل ، وتركوه حتى قتله البعوض والنحل والنمل في سنة ١٥٥ هـ

ويشير الاستاذ الدكتور محمود اسماعيل إلى أن تقليد عيسى ابن يزيد الاسود ، امامة الصفرية ، كان مرتبطة بتفوق عنصر السودان على سائر العناصر الأخرى القيمة والمستقرة في هذا الأقليم ، كما كانت هجرة مكتنasse إلى هذا الأقليم سببا في سيطرتها على مصائر الدولة واحتكارها للإمامية وتقوّتها على سائر العناصر والقبائل الأخرى التي اختفى صوتها تماما فيما حدث من صراع على الامامة بين أفراد بني مدرار المكاسين ، وبايعوا كبيرهم أبي القاسم سanko بن واسول بن مصلان ابن أبي نزول ، وكان من أنصار عيسى بن يزيد ، وهو الذي دعا أهله إلى طاعته ، وظل يحكم هذه البلاد حتى وفاته سنة ١٦٧ هـ ثم خلفه ابنه الياس ، ولكنهم خلعوا طاعته ، وعزلوه سنة ١٩٤ هـ ، وولوا مكانه يسح بن أبي القاسم فلم يزل أميرا عليهم ، وشيد سور سجلماسة ، وفي عهده قويت دولته الصفرية ، وأكمل بناء سجلماسة واحتضن القصور ، والدور ، والأسواق .

ولقد حرص الصفرية على إنشاء هذه العاصمة في مكان حصن ، فلما قاموا في موسطة الصحراء جنوبي تلمسان بعشرة مراحل ، وأسسوا الصفرية حصنًا في وسط المدينة أسموه العسكرية ، كما أسسوا المسجد الجامع ودار الإمارة ثم أقبل الناس على بناء دورهم حول الحصن .

فاقتصر العمران حتى جاوزت المدينة فرعى نهر ملوية ، وشيد لها سور وأربعة أبواب .

ومما ساعد على ازدهار الحياة الاقتصادية في سجلamasة توفر الماء فيها الصادر من نهر ملوية ، وشققت فيها الترع وغرس أشجار النخيل والفاكهه ، فتحولت الحياة من الرعى والبداوة إلى الزراعة والاستقرار ، وقد أغري الازدهار الاقتصادي لسجلamasة الصفرية في أنحاء بلاد المغرب إلى الرحيل إليها ، والاستقرار بها .

وتحسن العلاقات بين الصفرية وبين الدولة الرستمية المجاورة وبزواج ابنه مدرار من ابنة عبد الرحمن بن رستم — أمير تاهرت — .

ولى مدرار حكم سجلamasة خلفا لأبيه سنة ٢٠٨ ولقبه المنصر ، وطال أمر ولايته ، وكان لها ولدان يدعى كل منهما مأمونا ، أحدهما من زوجته الرستمية والأخر من زوجة أخرى تدعى بقية ، فعرف ابنها بيمون بن بقية وكان المنصر يفضل ابن الرستمية على أخيه حتى أنه عهد إليه بولاية العهد ، وكان ذلك انتصارا للأبااضية سجلamasة ، ودخل الإخوان في صراع مميت ، استمر ثلاث سنوات ، ولم يستطع المنصر إنهاء هذا الصراع لذلك خلع نفسه ، وعهد إلى ابن الرستمية بعد طرده ابن بقية من سجلamasة ، وأغضبه هذا التصرف شيوخ الصفرية في سجلamasة ، لأنتهاكه تعاليم الذهب من ناحية ، ولخوفهم من وقوع البلاد تحت سيطرة الأبااضية من ناحية أخرى ، فخلعوا ابن الرستمية ، وان كان قد رفض الامامة ، لذلك أعادوا أباه مدرارا إلى الامامة .

لكن المنصر أرسل إلى ابنه ابن الرستمية يطلب منه العودة إلى الحكم ، فخلعه شيوخ الصفرية ، وولوا ابنه ميمون ابن بقية سنة ٥٢٩هـ ، ولقبوه بالأمير ، وظل يحكم البلاد حتى وفاته سنة ٢٦٣هـ ، وكان قد نفي

الى قرية سجلماسه ، وخلفه ابنه محمد ، وكان أبا ضيما وتوفى سنة
٢٧٠ هـ ، فخلفه اليسع بن المنصر ، ووُفِدَ عليه عبيد الله المهدى وابنه ،
فرزجهما في السجن ، الى أن سار أبو عبد الله الشيعى ، فأفرج عنهما ،
ودخل مع أبي عبد الله الشيعى في معركة قتل فيها سنة ٢٩٦ هـ ودخلت
سجلماسه في حوزة الدولة الفاطمية النائمة وبذلك سقطت الدولة المدارية

سنة ٢٩٧ هـ

الدولة الاسماعيلية الأولى

في اليمن

ترعى جعفر الصادق العلوى في أواخر العهد الأموى ، وهو الامام السادس عند طائفة الامامية ، وترى هذه الطائفة أن الامامة يجب أن تتحضر في أبناء على الحسينيين ، وأنها لا تنتقل من أخي إلى أخي بعد أن انتقلت من الحسن إلى الحسين ، ولا تكون إلا في الأعقب ، وقد انقسم الامامية إلى فرقتين بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ ، الامامية الموسوية والامامية الاسماعيلية . وسبب هذا الانقسام ما قيل من أن جعفر الصادق ، عزل ابنه الأكبر اسماعيل — صاحب الحق في الامامة من بعده — لأنها نسبة إليه أموراً تتنافى مع الدين ، وعهد إلى ابنه موسى فرفض فريق من الامامية نقل الخلافة من اسماعيل إلى موسى . وبذلك ظهرت فرقتان : الاسماعيلية والموسوية .

بايع الاسماعيلية محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق بالامامة ، بعد وفاة اسماعيل في حياة أبيه ، ووفاة جعفر ، وظلت الامامة الاسماعيلية التي ترى أن الامامة لا تنتقل من أخي إلى أخي ، وأصبح محمد بن اسماعيل الامام السادس عندهم .

حرص الأئمة الاسماعيلية على نشر دعوتهم سراً ، خوفاً من بطشبني العباس فكان محمد بن اسماعيل ينتقل في البلاد الإسلامية النائية ، خوفاً من أن تلافق عيونبني العباس ، حتى استقر به المقام في قرية تدعى سهلاً بالقرب من جبل دماوند .. وأطلق عليها فيما بعد — محمد أباد — .

استقر الامام عبد الله الرضي في سلمية — من أعمال حمص — وأصبحت دار هجرة للأئمة الاسماعيلية ، ولما توفي عبد الله ، تولى ابنه اماماً الاسماعيلية .

وكان الدعاة يتبثون في أرجاء العالم الإسلامي يدعون إلى المهدى المنتظر في سالميه ويغترون بقرب ظهوره ، ولما ولى الحسين بن أحمد الامامة خلفاً لأبيه ، بدل كل جهد لنشر الدعوة الإمامية في البلاد الإسلامية .

بَنِ الْإِسْمَاعِيلِيُّونَ دُعَاتُهُمْ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ إِلَّا لِتَحْقِيقِ حَلْمِهِمُ الْمُشْرُدِ وَهُوَ اقْلَامَةُ اسْمَاعِيلِيَّةٍ ، وَلِجَاؤُهُ إِلَى السُّكُونِ ، وَرَأَى الدُّعَاءَ فِي بَلَادِ الْيَمَنِ أَرْضًا مَالِحةً لِتَنْشِيرِ دُعَاتِهِمْ وَاقْلَامَةُ الدُّولَةِ الْفَاطِمِيَّةِ فِيهَا ، نَظَرًا لِطَبِيعَةِ الْبَلَادِ الْجَبَلِيَّةِ الْوَعْرَةِ وَتَضَارِيسِهَا الْمَعْدَةِ ، وَصَعُوبَةِ سِيَطَرَةِ الْعَبَاسِيِّينَ عَلَيْهَا .

وكان الدعاة يتقدون بالشيعة المتخمسين في الكوفة ، ويقربون إليهم من يلتقطون فيه الكفاءة والمقدرة وقوفة الشكيمة ونفذ البصيرة . وهم من قربوه إليهم ، أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوسب بن زادان الكوفي ، وهو من ولد عقيل ابن أبي طالب ، وكان متعمقاً في دراسة علوم القرآن الكريم ، والفقه والحديث مخلصاً لعقيدته الشيعية ، على مذهب الانجاشية عشرية (١) .

وقد التقى بالأمام الفاطمي الحسين بن أحمد الذي تعرف على فضله وعلمه ، ولا يمكن قبول ما ذكره بعض المؤرخين مثل الحمادي اليماني والجندى من أنه التقى ببعيد الله بن هيمون القداح أو بميمون القداح نفسه ، لأنهما قد توفيا قبل مولد ابن حوشب بكثير ، كما أن ابن حوشب ، لم يذكر أنه اتصل بأحد منهما ، وقال إن الإمام الحسين بن أحمد كان يخصني ويقربني ، ويرمز بقرب الأمر ودنو العصر (٢) .

(١) الاتنا عشرية يقولون أن الامامة بعد موسى الكاظم ، تنتقل إلى أبيه على الرضا ثم إلى أعقابه من بعده حتى الامام الثاني عشر ، وهو محمد المنتظر ابن الحسن العسكري بن علي الهادى بن محمد الجواد بن علي الرضا ، وعرفت هذه الطائفة باسم الامامة الاتنا عشرية ، لانتظارهم أمامهم الثاني عشر ، ويقال إن أمامهم الثاني عشر يدخل سردايا في مدينة سامرا سنة ٣٦٠ هـ وأختفى على أثر ذلك الاتنا عشرية متذمرون عودته ليهلا الدنيا عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً .

(٢) النويجي : فرق الشيعة ص ٥٧ وما بعدها)

ومهما يكن من أمر فإن الإمام الفاطمي لقن ابن حوشب^(١) أسرار الدعوة الفاطمية ووجهه إلى بلاد اليمن ، وقال له : يا أبا قاسم ، البيت يمانى والركن يمانى والدين يمانى ، والكعبة يمانية ، وعهد اليه بأمر بـ الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن وأن يتبعها الناس بأنفسهم الدولة الفاطمية مستظهر في اليمن^(٢) .

وفي نفس الوقت تعرف الدعاة الفاطميون على ، على بن الفضل الجيشاني — وهو يمني من بني جيسان — وكان تسيعياً اثنى عشرياً ، وقد أدى فريضه الحج^(٣) . وسار في ركب حجيج العراق لزيارة فبر الحسين بن عَلِيٍّ ، وتأكد الدعاة من اخلاصه في التسليم ، فقربوه إليهم ، وأقنعواه بالدخول في المذهب الاسماعيلي^(٤) . واتصل بالأمام الاسماعيلي المستور — الحسين بن أحمد الذي اقتنع به ، ورأى ضرورة ضمه إلى ابن حوشب والدعوة في بلاد اليمن ، لأنَّه يمسي يتعرف على طبيعة بلاده وأهلها^(٥) . وجمع بينه وبين ابن حوشب ، ودعاهما إلى التعاون والتضامن في نصر الدعوة ، وقال لابن حونسب : « إِلَى عَدْنٍ عَلَيْهَا فَاقْصُهْ ، وَعَلَيْهَا فَاعْتَمِدْ ، فَمَنْهَا يَظْهُرُ أَمْرُنَا وَفِيهَا تَعْزِيزُ دُولَتِنَا ، وَمَنْهَا تَفَرَّقُ دِعَاتِنَا » وأمره أن يخلص للمذهب ، ويتخذ التأويل الذي هو من فلسفة التسليم ، ويقول بالظاهر والباطن^(٦) . « فَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ ظَاهِرٍ إِلَّا وَلَهُ بَاطِنٌ » ، وداعاه

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٣٠ .

(٢) الحمادي اليمني : كشف أسرار الباطنية ص ٢٢ .

(٣) الجندي : أخبار القرامطة المأخوذ من كتاب السلوك ص ٦٣ .

(٤) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ٧٧ .

(٥) ادريس عماد الدين : نزهه الأفكار ج ٣ ص ٢٧ .

(٦) استطلاوا على ما ذهبوا الله بقوله تعالى : (وذروا ظاهر الائم وباطنه) — (وقل إنما حرم ربى الفوائح ما ظهر منها وما بطن) . فالظاهر ما ينطوي عليه الناس وعرفه الخاص والمعلم . وإنما الماطن ملا يعرفيه إلا قليل . من ذلك قوله تعالى (وما آمنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) وجتمع ما عليه الناس أمثال مضروبة لمثولات وجحودة . فأعرضوا للصلوة وما فيها وقف على باطنها ومعانتها ، نان العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه فمثلاً (أقيموا الصلوة وآتوا وآتوا الزكاة) . فالزكاه مفروضة في كل عام مرة وكذلك الصلوة .

إلى العمل بالظاهر ، واحفاء الباطن ، ودعو إلى ظهور المهدى من العين ،
وأن يجند الرجال ويجمع الأموال ، ويظهر الصصوم والصلوة والزهد ، ثم
أوصاه خيراً على بن الفضل ، وأوصى على بن الفضل بأن يقف إلى
جانب أبي القاسم بن حوشب ، ويحسن صحبته .

وفي نهاية سنة ٣٦٧ هـ غادر الداعيان الأسماعيليان الكوفة ، وتوجهوا
إلى مكة المكرمة ، وأدوا فريضة الحج ، وبعدها عادراً بلاد الحجاز متوجهين
إلى اليمن ، وبلغوا غلاققة في مستهل عام ٣٦٨ هـ ، وكانت بسند مدينة
زبيد ، تقع على ساحل البحر الأحمر ، ثم افترق الداعيان ، بعد أن اتفقا
على أن يتصل كل واحد منهما بصاحبه ، ليتعرف أحواله^(١) .

سار ابن حوشب في صحبة التجار قاصداً عدن لاعه ، ورحل معهم
وقال أنا رجل من أهل العلم ، رغبت في الخروج معكم إلى بلادكم ،
ففرحوا به وقدروه وأكرمواه ، وقالوا : نحن أحوج إلى من يتصدى بأمور
ديتنا ، ونحن نكفيك المؤنة ، وكان في الرحلة يسامرهم ، ويروى لهم عريب
الأخبار ، فأحببواه وأصغوا إليه وأكرمواه حتى قدموا لاعه ، فادعى مذهب
السنة وألجماعة فتسامع به الناس ، وأقبلوا عليه من كل ناحية ، وهو
يظهر الزهد والورع^(٢) .

وانتشر أمره ، وطار ذكره في البلاد ، حتى أيدته مغارب اليمن ،
والتقوا حوله ، وولوه أمرهم ، وعهد إلى الثقة العدول منهم بجمع
الزكاة عن أموالهم طبقاً للشريعة الإسلامية^(٣) ، ولما استقر أمره في
مغارب اليمن ، وأطاعه الناس ، وأخلصوا له ، ولم يعد يخشى من القوى
المحلية في بلاد اليمن — وخصوصاً بعد مقتل محمد بن جعفر ، واختلاف
الحواليين فيما بينهم — وطلب من أتباعه وأنصاره بناء حصن يدع فيه

(١) ابن فیض الله الهمداني . الصالحون والحركة المفاطمة في اليمن

(٢) الحمادي اليمني : كشف أسرار الباطنة في اليمن ص ٣٥ .

(٣) الشبياني : قرة العيون ص ١٨٢ .

الأموال التي تجمعت لديه ^(١) . ويتحده معصها يعتصم به اذا هاجمه عدو ، وقاعدة لشن الهجمات على أعدائه ، فبنوا له موضعًا يقال له عبر محرم ، وهو جبل تحت سور ، وأقام في الحصن بعد بنائه هو وأصحابه ونساؤهم وأولادهم ^(٢) .

استطاع حوشيب من معلمه التصدي لكل التحديات التي واجهته وهزم صاحب صنعاء من بني يعفر - وبذلك ازدادت هيئته ، وقوى بأسره وعظم أمره ، ودخل في طاعته من كان حوله طوعاً أو كرها ، واتخذ الطبول والرایات ^(٣) وهنا تخلى عن ادعائه المذهب السنى ، وكشف للناس عن حقيقة أمره ، وأظهر أنه داع اسماعيلي يدعو إلى المهدى المنتظر من آل محمد ، فبايعه عامة الناس على المذهب الاسماعيلي ، وسيطر على جميع مخاليف مغارب اليمن وعهد إلى ولاة من قبله بحكم البلاد التي سيطر عليها وقمع كل المؤمرات التي تعرض لها ، واستولى على مسامير ، وغنم مغانم كثيرة من أموال بني يعفر ^(٤) ، وكتب إلى عبيد الله المهدى سنة ٢٩٠ هـ يخبره بانتصاراته ودخول الكثير من البلدان اليمنية الاسماعيلية ، وأوصى له بالهدايا النفيسة ^(٥) .

أما على بن الفضل ، فبعد أن فارق ابن حوشيب بخلافه ، قصد سرو يافع ، ورأى أن أهلها سريعاً التأثر بمذهبه ، فطلع رأس الجبل ، وبنى فيه مسجداً ، وأظهر العبادة والورع والتقوى والزهد ، فكان نهاره صائماً وليله قائماً ، فاجتذب بذلك قلوب الناس إليه ، وولوه أمرهم . وسألوه أن ينزل عن ذلك الجبل ، ويسكن بينهم ، ولسته رفقن وقائد : لا أفعل هذا ولا أسكن بين قوم جهال ضلال ، الا أن يعطوني العهود والمواثيق باتباع تعاليم الدين ، ونبذ ما نهى عنه الإسلام التحنيف ،

(١) الشيباني : نقرة العون ص ١٨٤ .

(٢) الحادى اليمنى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٦ .

(٣) الشيباني : نقرة العيون ص ١٨٩ .

(٤) الحمادى اليمنى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٧ .

(٥) المترizi : اتعاظ الحنا : ص ٦٨ - ٦٩ .

وينكرون النكر ، ويأمرون بالمعروف ^(١) .

فاستجنب لعلى ، وأمرهم ببناء حصن سرو يافع ^(٢) وشن عدة حملات على لحج وأبين ، وهزم سلطانها أبا العلاء ، وأخلص له الجندي لأنه أظهر لهم أنه يجاهد أعداء الدين ، ورغبو كذلك في الحصول على غنائم الحرب ، وما زال يواصل انتصاراته حتى دخلت قبيله مذبح وغيرها في طاعته ، ودخل المذخرة سنة ٥٩٤ واستولى على حصن التعرّ وعلى يحصب ، ودخل بنكت ، ودمرها ، بم زحف إلى صنعاء فلما بلغ عنس ، رأى ابن يعفر أن لا طاقة له بابن الفضل وجنته ، فخرج من صنعاء هاربا إلى الجوف ^(٣) ، فدخل ابن الفضل صنعاء ، وسيطر عليها ^(٤) . وبذلك استطاع ابن حوشب وأبن الفضل اخضاع معظم بلاد اليمن لسيطرتها .

وقد أبدى الرجالان من التعاون والتنسيق ، ما جعلهما ينجحان في نشر الدعوة ، وكانت سياستها واحدة ، فاتخذ كل منهما حسنا لحفظ المال والاحتماء به ، واتخاذه قاعدة للمهاجم على أعدائه .

وقد نال ابن حوشب تقدير الإمام الفاطمي ، ولقبه المنصور ، وبلغ من ثقته به أنه كلفه بنشر الدعوة في أرجاء بلاد الإسلام ، فكان يرسل الدعوة من قبله إلى مصر واليمامة والبحرين والهند والمغرب ، فضلا عن بلاد اليمن .

لم يكتف الإمام محمد الحبيب بنشر الدعوة في بلاد اليمن ، بل عول على بشما في بلاد المغرب ، ذلك أن بلاد المغرب أرض صالحة لنشر المذاهب الاسماعلية لأن أهلها عرموا بمعارضتهم لبني العباس ، وعبروا عن ذلك بانضمامهم إلى الأحزاب المعارضة كالخوارج والشيعة . لذلك أرسل

(١) الشيعاني : قرة العيون من ١٨٧ .

(٢) الحمادي اليمني : كشف أسرار الباطنية من ٢٨ .

(٣) الحمادي اليمني : كشف أسرار الباطنية من ٢٧ - ٢٨ .

(٤) الشيعاني : قرة العيون من ١٨٧ .

الامام الفاطمي أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن زكريا المعروف بالسيعى
إلى ابن حوشب وأمره بالدخول في طاعته ، وان يأخذ عنه تعاليم ومبادئه
المذهب الاسماعيلي ، ويستفيد من تجاربه ، وبعد ما يتوجه إلى المغرب
لنشر الدعوة على غرار ابن حوشب في اليمن ، وهذا يدل على أن ابن
حوشب أصبح من أكبر الدعاة الفاطميين في دار الإسلام ٠

ظل أبو عبد الله الشيعي في اليمن عند ابن حوشب يتلقى منه تعاليم
الدعوة حتى توفي الداعيان الفاطميان في المغرب ، أبو سفيان والحلواني ،
فأذن ابن حوشب لأبي عبد الله الشيعي بالتوجه إلى المغرب ونشر
الدعوة فيها ١) ٠

بذل أبو عبد الله الشيعي جهداً كبيراً في نشر المذهب الاسماعيلي
في المغرب ، وبشر أهلها بقرب ظهور المهدي ، وظل على اتصال بالأمام
محمد الحبيب ، لما توفي خلفه ابنه عبيد الله المهدي أظهر له الطاعه
والولاء ، وأرسل ببشره بنجاح الدعوة في المغرب ، بل أرسل إليه وفداً
من كتابة يدعوه إلى القدوم إلى بلاد المغرب ٢) ٠

على أنه في نفس الوقت الذي كان يعتقد فيه رؤساء الدعوة
الفاطمية في اليمن ، أن المهدي سيظهر في اليمن ، كان دعاء الاسماعيلي
في المغرب يسعون أيضاً إلى ظهور الدولة الفاطمية في المغرب ، وأرسل
رؤساء الدعوة في اليمن ، كما أرسل رؤساء الدعوة في المغرب إلى
عبيد الله يطلبون قدمه إلى بلدتهم ٣) ٠

لا علم الخليفة المكتفي بازدياد نشاط عبيد الله المهدي ودعاته ،
Beth عيونه في سلمية حتى يتمكن من المهدي ، فغادر المهدي سلمية

١) المقرizi : اتعاظ الحنف اص ٧٤ - ٧٥ ٠

٢) المقرizi : المواعظ والاعتار ج ٢ ٢٢٥ ٠

٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ اص ٩٥ ٠

هو وحاشيته وأسرته ومواليه ^(١) ، وأظهر للمقربين إليه أنه يريد اليمن، ولما بلغ مصر ، غير وجهته ، وسار إلى المغرب بدلاً من اليمن في وقت ذر منصور اليمن ، ابن حوشب — يستعد لاستقباله في اليمن ٠

تختلف الروايات التاريخية حول أسباب تغير عبيد الله المهدى وجهته إلى المغرب بدلاً من اليمن ٠ فيرى البعض ^(٢) أن المهدى علم بخروج ابن الفضل على ابن حوشب ، فكره أن يستقر في بلد منقسم على نفسه بين الدعاة وغير موحد وتسوده القلاقل والاضطرابات ٠ ولكن هذا الكلام بعيد عن الحقيقة ، لأن ابن الفضل لم ينتقض على ابن حوشب ، الا بعد أن علم بتغيير وجهة نظر المهدى من اليمن إلى المغرب فخلع طاعة المهدى وداعيه ، وارتد عن المذهب ، واستقل بالبلاد التي في حوزته ٠

ولا يبعد أن عبيد الله المهدى اعتمد بعد خروجه من سلية الذهاب إلى المغرب بدلاً من اليمن ، وقد أغراه بذلك أبو عبد الله الشيعي وزين له أمر المقام فيها ٠ أما اعلانه لخاصةه ومواليه حين مغادرته سلية بأنه ذاهب إلى اليمن ، وغير وجهته من مصر إلى المغرب ، فيتمسّى مع ما جبل عليه اسماعيليون من اظهار غير ما يبطنون ، كما حرص الإمام الفاطمي على ألا يتسرّب الخبر إلى بنى العباس فيتعقبونه وينكلون به ٠

غضب الداعي فيروز — الذي كان في صحبة المهدى في رحلته من سلية إلى مصر — من تغيير المهدى وجهته إلى المغرب بدلاً من اليمن ، فتخلى عن صحبته ، ورحل مفاصباً إلى اليمن ، وأكرم ابن حوشب وفادته ^(٣) ولما علم ابن حوشب خروج فيروز على الإمام ، شرع فيقتله ، غلباً

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ق ٩٦ ٠

(٢) المقريزى : أتعاظ الحنفأ ص ٩٠ ٠

(٣) ابن المؤيد اليمنى : أنباء الزمن في أخبار اليمن ص ٣١ ٠

فيروز إلى بن الفضل ، الذي ثارت ثائرته عندما علم بتغيير المهدى وجهته^(١) وخلع طاعته ، وارتد عن الذهب الاسماعيلي ، وكون نفسه ملكاً عريضاً في ربوع اليمن ، حكمه بالقوة والعنف مستقلاً عن الدوله الفاطمية ، واتخذ المذىخرة سنة ٢٩٤ هـ عاصمة لدولته^(٢) .

حاول منصور اليمن أن يعيد على بن الفضل إلى سابق طاعته للإمام عبيد الله المهدى ، لكن بن الفضل أكد لابن حوشب أنه يخدو حدو أبي سعيد الجنابي الذي استقل بالبحرين ، وكتب إليه يقول : « إن لي بابي سعيد الجنابي أسوة . وأنت إن لم تنزل وتدخل في طاعتي نابذتك الحرب » فكتب إليه منصور اليمن يعاتبه ، ويذكره بالعهود والموابيق التي أخذها عليه الإمام ، كما حذر عاقبه الانقسام ، الأمر الذي سيكون له أثره في اضعاف الدعوة . وقتل في كتابه : كيف تخلع طاعة من لم تر خيراً الا ببركة الدعاء اليه . وقد أعطينا من العهود ما قد علمته^(٣) . فأجابه ابن الفضل بقوله : « إنما هذه الدنيا تساة ، ومن ظفر بها افترسها^(٤) . وبذلك فنلت جهود ابن حوشب في إعادة ابن الفضل إلى الذهب الاسماعيلي ، ونسأ العداء بين الرجلين .

قاد ابن الفضل عشرة آلاف رجل لحرب ابن حوشب والتخلص منه ، حتى تصفو له اليمن ، فدخل قرية شبابام ، وخرج المنصور للقاء ، وحاصره المنصور ، وشدد عليه الحصار في جبل الحميمة ثماني أشهر^(٥) ، حتى مل المقام ، وأرسل إليه المنصور ابنه ، فأكرمه ابن الفضل ، وبقى عنده مدة ، نم أطلق سراحه^(٦) . وبذلك لم يستطع

(١) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية ص ٣٣ .

(٢) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥ .

(٣) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية ص ٣٢ .

(٤) الشيبانى : قرة العيون ص ٢٠٢ .

(٥) المصدر السابق : ص ٢٠٥ .

(٦) زيارة : آئية اليمن ص ٣٣ .

المصور النيل من ابن الفضل ، وظل يحكم دولة كبيرة في اليمن . وكان جبارا عاشما .

وأول من دعا إلى المذهب الاسماعيلي بأفريقييه الحلواني وأبو سفيان ، أنفذهما جعفر الصادق ، وقال لهما بالغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيئ صاحب البذر ، فنزل الرجلان ببعض بلدان كتابة، وبذلا جهودا مخنثة في نشر الدعوة الاسماعيلية، وكان الإمام الاسماعيلي محمد الحبيب ينزل بسلمية من أرض حمص ، وبعد هذا الإمام محمد الحبيب — كما قلنا — على بن الفضل وابن حوشب إلى اليمن لنشر الدعوة ، وفي عضون ذلك اتصل أبو عبد الله الشيعي بالأمام الاسماعيلي، فلاحظ فيه مواهب الداعي ، فأرسله إلى ابن حوشب في اليمن ، ليتعلم منه أصول المذهب ، وعلوم الظاهر والباطن ، وواجبات الدعاء وأسرار الدعوة ، وبعد أن يتيقن ابن حوشب من تعلمه وتفقهه في الدعوة ، يرسله إلى المغرب ، ويقصد بلاد كتابة فيظهر بينهم الدعوة .

لزم أبو عبد الله الشيعي جانب ابن حوشب ، ونسهد مجالسه واستفاد من علمه ، ثم خرج مع حاج اليمن إلى مكة ، فلقي رجالات كتابة ورؤسائهم ، وجلس إليهم وسمعوا منه ، وألقى عليهم دروسا في الدين والأدب ، وأعجبوا به خصوصا لما رأوا ما هو عليه من الزهد والعبادة ، فأحببواه وأخلصوا له ، وتعلقا به ، وصار يتعهدهم فرحاهم ، فاغبطوا به ، واغبطوا به ، ولما أرادوا الرحالة إلى بلادهم ، سألوه الصحبة ، فوافقهم ، وحرس على أن يخفى حقيقة مذهبهم عنهم . واستطاع في رحلته معهم أن يعرف أحوال بلادهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولما بلغوا مصر تظاهر برغبته في الانصراف عنهم علىكتهم آلهوا عليه ، وأصرروا على أن يصبحهم إلى بلادهم .

وفي سنة ٢٨٨ هـ وصل وفد كتابة إلى بلادهم في صحبة الداعي أبي عبد الله الشيعي ، وأكرم أهل كتابة وقادة الداعي الاسماعيلي ، وكانت

الدعوة الاسماعيلية قد انتشرت بينهم من قبل بفضل الحلواني وأبو سفيان ، وكانا قد حرثا هذه البلاد ، كما انتشر التشيع من قبل في بلاد المغرب على يد الامام ادريس بن عبد الله الذي أقام أول دولة شيعية في بلاد المغرب الأقصى بعد موقعة فتح ، التي قادها الشاعر العلوي الحسين ابن علي بن الحسن بن علي ، وكان معروفاً بالعلم والتفاني والكمان ، ولكن العباسين تصدوا له في ذي طوى بالقرب من مكة ، وقتل في مكان يقال له فتح على بعد ستة أميال من مكة .

ومما أدى إلى سهولة مهمة أبي عبد الله الشيعي في المغرب انتشار التشيع بينهم ، بل اعتنق بعض وزراء الأغالبة في تونس المذهب الاسماعيلي .

تنافس أهالي كتابه على اكرام وفادة أبي عبد الله الشيعي وبشرهم بقرب ظهور المهدى الذي سيصلاح الدنيا ويعيد العدل ويمنع الظلم ويطمئنهم على حاضرهم ومستقبلهم ، ولم يلبث أن كشف أبو عبد الله الشيعي عن نوایاه لأهل كتابه ، فقال لهم : أنا صاحب العذر الذي أخبر به أبو سفيان والحلواني .

. انتشرت وراجت الدعوة لآل البيت بين أهل كتابه وناظر أبو عبد الله الشيعي علماءهم ، ودعا للرضا من آل محمد ، وكانوا يسمونه بالشيعي أو الشرقي .

استخدم أبو عبد الله الشيعي التبيؤ والسحر والتبشير كوسيلة من وسائل الدعاية التي تلائم عقلية البربر في هذه البلاد ، ويرى المؤرخون أن الشيعي لما نزل افريقياً سأله أين فتح الآخيار ؟ وهو جبل من جبال كتابه ولم يكونوا قد ذكروه له ، فدهشوا من سؤاله ، ودلواه عليه . يقال ما سمي إلا بكم . ولقد جاء في الآثار أن للمهدى هجرة تبتو عن

الأوطان ، تتصدر فيها الأخيار قوم اسمهم مستقى من الكتمان
أى كتمه) ٠

كذلك استخدم الداعي السحر ، وصنع من الحيل والطلاسم والرقى
والاحجية ما أذهل العقول ٠

لما علم ابراهيم بن الأغلب — أمير افريقيية — بأمر أبي عبد الله
الشيعي ، أنكر ذلك ، ورأى أن وجوده في المغرب يشكل خطرًا على
ملكه ، فبعث إليه بالتهديد والوعيد ، وتبعه عمال الأغالبة ، فخشى رؤساء
كتامه عليه ، وأخفوه عن أعين الأغالبة ٠

أظهر الداعي أبو عبد الله الشيعي الولاء والطاعة للإمام الأسماعيلي
— المستور — محمد الحبيب ، وكان يرسل إليه الهدايا وأخبار الدعوة في
بلاد المغرب ٠

لم يكتف أبو عبد الله الشيعي بنشر الدعوة في بلاد المغرب ، بل
حرص على بسط سيطرته ونفوذه على افريقيا ، فأرسل رجاله الموالين
له إلى بلدان افريقيا ، فسقطت في أيديهم الكثير من بلدان افريقيا ،
وكانت دولة الأغالبة ، قد اعترافها الضعف والوهن ، وانتشر التشيع بين
كبار رجال الدولة ، وانقسم أفراد البيت على أنفسهم ، وفي خلال ذلك
هلك ابراهيم بن أحمد بن الأغلب ، وقتل ابنه أبو العباس ، وقام
 بالأمر ابنه زيادة الله ، وانتقل من تونس إلى رقاده ، وانهلك في
 ملذاته ، وانتشرت جيوش أبي عبد الله الشيعي في البلاد ، وعلا أمره ،
 وطار ذكره في الآفاق ، وبشر الناس بقرب ظهور المهدى ، « فكان
 كما قال » ٠

لم تقطع الحرب بين زيادة الله الثالث والشيعة على الرغم من أن
وزراءه أيدوا دعوة الداعي الشيعي ٠ وفي سنة ٢٩٦ هـ دارت واقعة
الاربس التي أدت إلى زوال دولة الأغالبة بافريقيا ، وامتد نفوذ
الفاطميين في ذلك الوقت إلى أكثر أجزاء بلاد المغرب حتى أصبحوا
 مسيطرين تماما على أكثر بلدان المغرب الواقعة إلى الغرب من مدينة
 القيروان ٠

ولما توفي محمد الحبيب بن جعفر بن محمد بن اسماعيل الامام عهد الى ابنه عبيد الله ، وقال له : أنت المهدى ، وتهاجر بعده هجرة بعيدة ، وتلقى مهنا شديدة ، واتصل خبره بسائر دعاته في افريقيه واليمن ، وبعث اليه أبو عبد الله رجالا من كتامه يخبرونه بما فتح الله عليهم ، وأنهم في انتظاره وشاع خبره ، واتصل بالعباسيين ، فتتبعه الخليفة العباسى المكتفى ، وبئث عيونه للاحقة والقبض عليه وعى انصاره واحباط الدعوة الاسماعيلية ، واستطاعت الخليفة الكشف عن الموضع الذى يختفى فيه الامام ، لذلك رأى الامام الخروج من سالمية ، وفر هو وانصاره ومواليه وأهله من أرض الشام ، الى العراق ، ثم لحق بمصر ، ومعه ابنه أبا القاسم غلاما حدثا معتزما للحراق بأبي عبد الله الشيعى ، والنزول بأرض المغرب ، وارتحل من الفسطاط الى الاسكندرية ، ثم خرج من الاسكندرية في زي التجار ، وجاء كتاب الخليفة المكتفى الى عامله على مصر عيسى النوشرى يأمره بملحقة عبدالله المهدى والقبض عليه وعلى انصاره واستطاع عيسى النوشرى تتبع المهدى والقبض عليه ، لكن المهدى أغراه بمال ، فأخلى سبيله ، وزعم الوالى للخليفة بأن الرجل الذى قبض عليه ليس المهدى ، ولكنه أحد التجار ، وبذلك استطاع المهدى الفرار من أعين العباسين .

واصل عبيد الله المهدى زحفه الى بلاد المغرب ، فبلغ برقة ، ومنها الى طرابلس ، و تعرضت قافلته لهجمات قطاع الطرق ، ونهب المصووص فيما نهبوا كتابا في الملائكة منقوله عن آباءه .

لما وصل عبيد الله المهدى الى طرابلس ، أرسل رسلا الى داعيه أبي عبد الله الشيعى ، يبلغه أنه في الطريق اليه ، ومن هؤلاء الرسل أبو العباس أخو أبو عبد الله الشيعى وجماعة من الكتاميين ، ولكن خبر هؤلاء الرسل بلغ زيادة الله وهو يسأل عنهم ، فقبض على أبي العباس ، ولم يستطع أن يعرف منه خبر عبيد الله المهدى ، وانلوضع الذى يقيم

فيه ، وطلب زيادة الله من عمله على طرابلس القبض على المهدى وعلى رفاقه ، ولكن المهدى كان قد غادر طرابلس متوجهًا إلى قسطنطينية ، ثم عدل عنها خشية على أبي العباس أخي الشيعي المعتقل في القيروان ، فذهب إلى سجلماسه وبها يسوع بن مدرار ، فأكرم وفادته ، وأنزله في ضيافته غير أن زيادة الله أرسل إلى يسوع يبلغه بأن الرجل الذي قدم إليه هو المهدى . لذلك قبض عليه يسوع ، وزوجه في السجن .

وأصل أبو عبد الله الشيعي انتصاراته في بلاد المغرب وسقطت في يده البلاد ، الواحدة تلو الأخرى ، وساع عن الشيعي وفاؤه بالأمان ، فآمنه الناس ، وسار يزيد رقاده فرأى زيادة الله أنه لا قبل له بالشيعي ، ففر من رقاده إلى المشرق ونبت قصّوره ، ولجأ أهل رقاده إلى القيروان وغيرها ودخل أبو عبد الله الشيعي رقاده ، وأعطى للناس أماناً على أموالهم وأنفسهم ، وأكرمهم ، ورحب به أهل رقاده والقيروان ، ودخل رقاده في رجب سنة ٢٩٦ هـ ، ونزل في قصرها ، وأطلق سراح أخيه أبي العباس ، ونودى في الناس بالأمان ، وقسم الشيعي السدور في رقاده على أهل كتماه واستولى على أموال وأسلحة زيادة الله ، وحذف اسم الخليفة العباسى عن الخطبة وعن العملة .

كان لابد لأنبياء عبد الله الشيعي بعد أن أسقط دولة الأغالبة وأسنوا لى على عاصمتهم رقادة ، أن يطلق سراح الإمام عبد الله المهدى المعتقل في سجلماسة ، فاستخلف على إفريقية أخيه أبي العباس ، اهتر المغرب لخروجه ، وفترت زناته من طريقه ، ثم دخلوا في طاعته ، وأرسل إلى يسوع بن مدرار – صاحب سجلماسة – يخطب وده ، لكن يسوع قتل الرسل ، ولم يقبل صداقته ، بل خرج لحاربته ، ولكنه ليس قوة أبي عبدالله الشيعي ، وكثرة جنده ، وقوه بأسه ، فهرب هو وأصحابه ، وخرج أهل البلد للقاء الشيعي ، وساروا في صحبته إلى سجن المهدى وابنه ، وأفروا عنهم وباعوا للمهدى ومشى مع رؤسائه

القبائل بين أيديهما ، وهو يبكي من الفرح ، ويقول : هذا مولاكم . ولنزل المهدى في مخيم ريثما يتخلص من اليسم بن مدار ، وفلا قتله ، وسار في صحبة المهدى إلى رقاده سنة ٢٩٧ هـ وبوبع المهدى البيعة العلامة ، واستقام أمره وبث دعاته في الناس ، فرضوا إلا قليلاً ، وقسم الأموال والجواري في رجال كتامه ، وأقطعهم الأعمال ، ودون الدواوين ، وجبي الأموال ، وبعث العمال على البلاد .

اتخذ عبيد الله المهدى رقاده حاضرة لدولته سنة ٢٩٧ هـ وأمر بذكر اسمه في الخطبة من منابر البلاد ، وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين ، وبذلك قامت الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب ، وتطورت بذلك نظرية الخلافة ، لم يبعد أن كانت الخلافة وحدة واحدة لا تتجزأ ، صارت هناك خلافة جديدة ثانية ، لا تعرف بخلافة بنى العباس ، وتدعى أنها أحق لانتسابها إلى آل بيت رسول الله .

أرسل عبيد الله المهدى بعد اعلن خلافته ، عملاً إلى الولايات المختلفة ، واختارهم من زعماء كتامة ، وغيرهم من أهل المغرب الذين أظهروا الولاء والطاعة للإمام ، وأمر أبو عبد الله الشيعى بتوحيد بلاد المغرب تحت سلطانه ، واستطاع أبو عبد الله الشيعى اخضاع بعض يلدان المغرب الأوسط والأقصى ، وفي سنة ٢٩٨ هـ أخضم قبائل زناته جنوبى بلاد كتامه ، فدانوا له بالولاء والطاعة .

وعلى الرغم من أن الدولة الفاطمية مدينة بوجودها وقيامها لجهود أبي عبد الله الشيعى ، الا أن المهدى تخلص منه ، ذلك لأنه استثنى من استبداد أبي عبد الله وأخيه أبي العباس بالأمر دونه ، ذلك أن المهدى لما شعر بتحكم الشيعى في أمره ، نهاه عن مباشرة الناس ، وقال : انه مفسد للهيبة ، وساعت العلاقات بين الأخرين من ناحية والمهدى من ناحية أخرى ، حتى أن أبي عبد الله الشيعى أوهم الناس أن عبيد الله ليس هو الإمام المعصوم ، حتى أن رجلاً من كتامه ، يعرف بشيخ المشايخ ، ذهب إلى المهدى وقال له : جئنا بأية على أمرك ،

فقد شبكنا هنّاك ، فقتله المهدى ، وحامت الشكوان حول امامة المهدى
واتفق الكتاميون على قتله ، ولكن المهدى استقطب زعماءهم ، وأغراهم
بماله والمناصب ، وأرسل المهدى رجلا لقتل أبي عبد الله الشيعى وأخيه
أبي العباس ، وحينما هم الرجل بقتل الشيعى ، قال له : لا تفعل .
فقال : الذى أمرتنا بطاعته ، أمرنا بقتلها ، ثم قتلها فى سنة ٣٩٨ هـ

استاء الكتاميون من مقتل أبي عبد الله الشيعى ، وثاروا على
عبد الله المهدى ، ولكن المهدى أخمد الفتنة ، ثم اشتباك الكتاميون مع
أهل القيوان فى معارك متعددة .

ولما استقام الأمر للمهدى بعد مقتل الشيعى ، وهدأت البلاد ،
وتوقفت الفتنة ، عهد عبد الله المهدى بولاية العهد لابنه أبي القاسم
نزار ، وولى على برقة وما إليها حبasseة بن يوسف ، وعهد إلى أخيه
عروبه بولاية المغرب ، وفتح تاهرت .

لكن الكتاميين لم ينسوا حادث مقتل أبي عبد الله الشيعى
ونصبوا طفلاً لقبوه المهدى ، وزعموا أنه المهدى ، وأن أبي عبد الله
الشيعى لم يمت ، فأرسل عبد الله المهدى ابنه أبي القاسم إليهم ،
فحاربهم وقاتلهم ، وهزمهم ، وقتل الطفل ، وبذلك هدأت هذه
الفتنة .

وفي سنة ٣٠٠ هـ ثار أهالى طرابلس على الحكم الجديد ، والدولة
الجديدة ، ولكن أبي القاسم أخضعهم وفرض عليهم غرامة مالية
كبيرة .

طلع عبد الله المهدى لفتح مصر لأنها قلب العالم الإسلامي ،
ولقربها من الحرمين الشريفين ، ولوفرة خيراتها ، ولعدم ثقته باستمرار
ولاء أهل المغرب له ، فأرسل حملة من أهل كتامة ، بقيادة أبي القاسم
سنة ٣٠١ ، يدعها أسطول في البحر بقيادة حبasseة بن يوسف ،
وامتلكت الحملة برقة ثم الإسكندرية والفيوم ، ولكن جيوش بنى
العباس تصدت لهذه الحملة ، وأجلتها عن مصر .

استاء المهدى من هزيمة حباشة ، فقتله ، وانتقض لذلك أخوه عروبه في المغرب ، واجتمع اليه خلق كثير من كتابه والبربر ، ولكن المهدى أخمد الفتنة ، كما قضى على فتنة في صقلية .

اعترم المهدى بناء مدينة على ساحل البحر يتذذها معصما لأهل بيته ، لما كان يتوقعه على الدولة من الفوارج ، وخرج بنفسه يرتاد موضعها لبنيتها ، ومر بتونس وقرطاجنه حتى وقف على مكانها ، جزيرة متصلة بالبر ، وتقع على بعد ستين ميلا جنوبى القิروان ، واحتضن المهدى هذه المدينة ، وأسمها المهدية ، وجعلها دار ملكه ، وحاضرة دولته ، وأدار بها سوريا محكما ، وجعل لها أبوابا من الحديد ، وابتداً ببنائها أواخر سنة ٣٠٣ هـ ، وجعل زنة كل باب ألف قنطار ، وطوله ثلاثون شبرا ، ونقش على هذين البابين صور بعض الحيوانات ، وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجا ، عدا ما كان يجرى فيها من القنوات ، وبين المهدى في المهدية دارا للصناعة ، تسع أكثر من مائتين مركب ، وشيد فيها الأسواق والقصور والدور ومخازن الطعام والسلاح وصهاريج المياه ، ولما أتم بناء حاضرة دولته سنة ٣٠٦ هـ ، قال : اليوم أمنت على الفاطميات ، يعني بناته ، وفي سنة ٣٠٨ رحل إليها ، وأقام فيها ، وراجت فيها التجارة ، وكان لكل طائفة من التجار سوق يمارسون فيها نشاطهم التجارى ، ولأرباب الحرف شوارع معلومة ، يقيم فيها أهل كل حرف ، وقد انتقل الناس إلى هذه المدينة الجديدة ، وأقاموا فيها ، وشيدوا بها الدور والبيوت ، فعمرت ، وانتشرت فيها التجارة .

أقام المهدى مدينة أخرى إلى جوار حاضرته ، يفصل عنها ميدانا فسيحا ، وأحاطها بسور وأبواب ، وسمها زويلة ، نسبة إلى أحدى قبائل بلاد المغرب .

وفي سنة ٣٠٧ هـ أرسل المهدى ابنه أبي القاسم إلى مصر لفتحها فملك الإسكندرية ، والجيزة والأنسونين ، وكثيرا من بلدان الصعيد ،

وكتب إلى أهل مكة يطلب منهم الدخول في طاعته ، ولكتهم أبويا ، وكان مصير الحملة الفاطمية على مصر ، نفس مصير سابقتها ، حيث الحق جند بنى العباس بها المهزيمة .

وفي سنة ٣٠٨ هـ أخضع عبيد الله المهدى الأدارسة في المغرب الأقصى بسلطانه ، وضم فاس إلى حوزته ، وزالت دولة الأدارسة ، وأخضع قواد عبيد الله المهدى بنى مدرار حكام سجلماسه ، وقتلوا أميرها المدراري المكتاسي ، وتعددت الثورات في بلاد المغرب ضد الحكم الفاطمى ، فأرسل عبيد الله المهدى قادته لاخضاع الثورات خصوصاً الحركات المناوئة من قبل الخوارج الاباضية والصفيرية . والخلاصة أن عبيد الله المهدى قضى سنتي حكمه في اخضاع الثورات المتعددة والمترفة في بلاد المغرب .

وفي سنة ٣٢٢ هـ توفي عبيد الله المهدى ، وولى ابنه أبو القاسم محمد ، ولقب القائم بأمر الله ، وكثير عليه الثوار وثار عليه بنواحي طرابلس ، ابن طالوت القوشى ، وزعم أنه ابن المهدى ، وحاصر طرابلس ، ولما ظهر للبربر كذبه قتلواه وأخضعوا ثورة في فاس وفي الريف ، حتى خضعت هذه البلاد للدولة الفاطمية ، وشنّ عدة غزوات على بعض جزر البحر المتوسط وأرسل حملة إلى مصر باعت بالفشل .

وفي عهد هذا الخليفة شهدت بلاد المغرب ثورة كبيرة ، أشعلها ضد الحكم الفاطمي ، أبو يزيد مخلد بن كيداد ، وهذه الثورة دافعها قومي ، ذلك أن أبو يزيد عبر عن مواطنيه البربر الذين أقاموا ملكاً إسلامياً في الأندلس ، وفتحوا هذه البلاد بسيوفهم ودمائهم ، واستأثر العرب بالثروات والنفوذ دونهم ، ولم يجنوا ثمار كفاحهم ، وكذا الحال في المغرب فقد رأى أبو يزيد مواطنيه البربر أقاموا الدولة الفاطمية في المغرب ، ولم يحصلوا على مكاسب من جهودهم ، فرأى ضرورة الثورة من أجل إقامة حكم وثاني من البربر ، وازالت كل حكم دخيل عن بلاد المغرب .

اعتق أبو يزيد مذهب الخوارج الصفرية ، وسافر إلى تاهرت وأقام بها يعلم الصبيان ، ولما صار الشيعي إلى سجلماسه في طلب المهدى ، انتقل أبو يزيد إلى نقيوس يعلم فيها وكان يدعو إلى ما يدعو إليه الخوارج الصفرية من استباحة الأموال والنساء والخروج على السلطان ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر سنة ٣١٠ هـ ، فكثر أتباعه ، ولما توفي المهدى خرج بناحية جبل أوراس ، وتلقب بشيخ المؤمنين ودعا للناصر الخليفة الأموى بالأندلس ، فانضم إليه جمٌّ غير من البربر ، وهزم عامل باغايه الفاطمي ، واستولى عليها ، ولكنه لم يلبيث أن أرتد عنها ، ثم ملك أربس ، وأحرقها ونبأها ، ودخلت في حوزته بعض البلدان التي يحتلها الفاطميون ، ولم يلبيث أن اقترب من المهدية ، وشن عليها عدة غارات ، حتى هجرها أهلها إلى البلاد المجاورة . وسار عسكره إلى القويوان ، وامتلكوها سنة ٣٣٣ هـ ، وخرج إليه شيخ القويوان فآمنهم ، ورفع النهب عنهم .

شاع الخراب والدمار في بلاد إفريقيا من عارات أبي يزيد فبعث الفائم إلى رؤساء كتمه والقبائل والى زيري بن منداد — ملك صنهاجة — بالمسير إلى المهدية لاخضاع الثوار .

ولم يلبيث أن ضعف نفوذ أبي يزيد بسبب انضمام عدد كبير من البربر إلى جيوب الفاطميين ، الأمر الذي اضطره إلى مغادرة المهدية تاركاً حلقه الملون والعتاد ثم تقدم إلى العيون ، ووقع باهلها المهزومه سنة ٣٣٤ هـ .

وفي هذه السنة توفي الخليفة القائم ، بعد أن عهد إلى ابنه اسماعيل بالحكم من بعده ، وولي اسماعيل الخلافة ، وتنبأ بالتصور ، وكتم موت أبيه بسبب اضطراب العlad من جراء ثورة أبي يزيد ، فلم يلتقط نفسه خليفة ، ولم ينقش اسمه على السكة ولم يذكر اسمه في الخطبه ولا البنود إلى أن فرغ من أمر أبي يزيد .

وأى للنصر مخروبة انتحلمن من أبي يزيد ، واعادة المهدوة

والسكنية إلى البلاد ، فارسل جيشا وأسطولا إلى سوسه لمحاصرة أبي يزيد ، فانهزم أبو يزيد ، واستبيح معسكره ، ولحق بالقيروان ، فمنعه أهلها من دخولها ، وطردوا عامله من بلدهم ودخل المنصور القيروان ، أمن أهلها ، ودارت عدة حروب بين الخليفة وأبي يزيد في موضع متفرق ، وهزم جند أبي زيد ، ومزقوا سر هزق ، ومضى أبو يزيد منهزا في قلة من جنده ، ودارت الحرب بين الفريقين في كل موضع وفي كل ناحية ، حتى لجأ أبو يزيد إلى بعض القلاع ، فتحتها الفاطميون عنوة ، وأسرموا فيها النيران ، وقتل أصحاب أبي يزيد في كل ناحية ، وقبض على أبي يزيد ، ومات متأثرا بجراهه سنة ٣٣٦ هـ .

تدهورت الأحوال الاقتصادية في بلاد المغرب بسبب ثورة أبي يزيد ، فانهارت الزراعة ، وتعطلت التجارة ، وكشفت هذه الثورة عن مدى معارضة أهل المغرب للحكم الفاطمي واستعدادهم للاتضمام إلى الحركات المعارضة للدولة الفاطمية . وأخذ النفوذ الفاطمي ينضاعل منذ قيام هذه الثورة ، كما ابتدأت الحكومات المستقلة في الظهور في المناطق الغربية من الدولة الفاطمية .

وفي سنة ٣٣٧ هـ شيد المنصور في الموقع الذي دارت فيه المعركة التي أنهت حركة أبي يزيد على مقربة من القيروان مدينة سماها المنصورية ، واتخذها حاضرة لدولته ، وكان لهذه المدينة خمسة أبواب ، الباب القبلي والباب الشرقي وباب زويلة ، وباب كتسامه ، وباب الفتوح ، وكانت جيوش الفاطميين تخراج من هذا الباب . وازدهرت فيها النجارة والصناعة ، وعم فيها العمran ، وظلت حاضرة للدولة الفاطمية ، حتى غادرها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى حاضرته الجديدة ، القاهرة سنة ٣٦٢ هـ .

ووفى سنة ٣٤١ هـ المنصور ، وخلفه ابنه معد ، ولقب بالعزيز لدين الله الفاطمي ، وحرص على توطيد النفوذ الفاطمي في بلاد المغرب ، وقهر معارضيه ، فارسل في سنة ٣٤٧ هـ قاتله جوهر الصقلي

الى تاهرت ، فاستولى عليها ، ونكل بواليها يعلى بن محمد الزناتي ،
الذى خلع طاعة الفاطميين وأعلن ولاء الخليفة عبد الرحمن الأموى فى
الأندلس . وواصل جوهر زحفه الى البلاد المعارضة للحكم الفاطمى
فوصل الى سجلماسه ، وقد سيطر عليها ابن واسول الذى تقىب
بالشياكة بالله ، وخطبته الناس بأمير المؤمنين ، ونقش اسمه على
العملة ، وقد استطاع جوهر مطاردته ، وهزيمته ، واسترد نفوذ
الفاطميين على سجلماسه .

واصل جوهر جهوده فى بسط السيطرة الفاطمية على بلادان
المغرب الأقصى حتى تم له ذلك باستثناء سبتة وطنجه التى سيطر
عليها الأمويون فى الأندلس وبذلك استرد الفاطميون سيطرتهم على
بلاد المغرب ، وان كان ذلك بصفة مؤقتة ، لأن المغاربة وان كانوا قد
خضعوا للحكم الفاطمى ، الا أنهم كانوا غير راضين عنه ومعارضين له ،
ويتحينون الفرص للثورة على هذا الحكم ، وقد واتتهم الفرص بعد
انتقال العز الى مصر .

الدولة الزيرية

لما اعترم المغز لدين الله الفاطمي الرحيل إلى مصر ، رأى ضرورة تولية أحد القادة الثقة أفريقية والمغرب ، حتى يضمن استمرار ولاه هذه البلاد لدولته ، فعهد إلى بلکین بن زيري بن مناد بحكم هذه البلاد نيابة عنه ، وأسماه يوسف بدلاً من بلکین ، وكتاباً أبا الفتوح ولقبه سيف الدولة ووصله بالخلع والأكسيه الفاخرة ، وأسند إليه قيادة الجيش والأسطول وإدارة الولايات ، وأوصاه بثلاث : أن لا يرفع السيف عن البربر ، ولا يرفع الجبائية عن أهل الباادية ، ولا يولي أحداً من أهل بيته ، وأوصاه بأن لا يسمح للأمويين بعد نفوذهم في بلاد المغرب ، وأن يحافظ على السيطرة الفاطمية والنفوذ الفاطمي في هذه البلاد .

اضططاع بلکین بالمهمة التي أسندت إليه ، فأخضع بلاد المغرب الأوسط ، وسيطر على سجلماسة ، وقضى على ثورة أهل تاهرت ، وأخضع جموع زناته في تلمسان ، وحاصر هذه البلدة حتى استسلمت له ، ولكنه لم يتوجل في المغرب ببناء على أوامر الخليفة المعز ، ولم يثبت أنضم إليه الخليفة ، طرابلس ، وعاد بلکين إلى محاربة زناته ، وفرت أماته ، فملك فاس وسجلماسه والبلاد المجاورة ، وطرد منها عمال بنى أمية الأندلسين ، ثم غزا جموع زناته بسجلماسه ، وأوقع بهم ، وقبض على ابن خزر — أمين مغراوه ، وقتله .

استتجدت جموع زناته التي لجأت إلى سبته بالحاجب المنصور في الأندلس ، فآمدتهم بجيش كبير ، ولكن بلکين تراجع عن القتال ، بعد أن هاله قوة جيش المنصور ، وانسحب إلى برغراطة ، وشنقل بجهادهم ، وقتل ملكهم عيسى بن أبي الأنصار ، وأزال الدعوة الأموية ، والنفوذ الأموي من أنحاء المغرب ، وتفرق الزنانيون في الصحراء .

ولَا توفي بلکین خلفه ابنه منصور ، يقام بأمر صنهاجة من بعد أبيه ، وفي سنة ٣٧٤ هـ أرسل جيشاً إلى المغرب الأقصى لاستعادة هذه البلاد من أيدي زناته ، الذين استولوا على سجلماسة وفاس ، ولكن زيري بن عطيه المغراوى الملقب بالقرطاس – أمير فاس – هزم جيش منصور بن بلکين ، وتعددت عزوات الأمير منصور وحملاته على بلاد زناته في المغرب الأقصى ، وعلى فاس بالذات ، حتى أذعن زيري بن عطيه – أمير فاس – وتخلى عن طاعته للأمويين في الأندلس . وفي سنة ٣٨٢ هـ ، وفدى على المنصور في القیوان فأكرم وقادته ، وعفا عنه ، وولاه تاهرت .

خلف باديس آباء المنصور في حكم الدولة الزيرية ، وأرسل عدة حملات لقهر زناته ، ولكنها هزمت ، واضطربت بلاد المغرب ، وتعددت ثورات زناته ، وقطعوا الطرق فاضطربت التجارة ، وساعت أحوال البلاد الاقتصادية ولكن حماد – قائد الأمير الزيري – شن عدة هجمات على زناته سنة ٣٩٥ هـ ، وشنق عصا الطساعة على سيده ، واستقل بما تحت يده من البلاد ، فسار إليه باديس ، لكنه توفي في معسكره ، فخلفه ابنه المعز ، فعاد حماد إلى الثورة ، ودخل المسيلة ، فسار إليه المعز وهزمه ، واستسلم ، حينئذ نظم المعز بن باديس إدارة دولته ، وولى الولايات من يثق في أخلاقه ، وانقسمت الدولة الزيرية إلى قسمين : دولة المنصوريين بلکين – صاحب القیوان ، ودوله آل حماد بن بلکين – أصحاب القلعة . ولكن المعز لم يقبل انفصال جزء من دولته فسار إلى القلعة ، وحاصر حماد سنة ٤٣٣ هـ ، عدة سنين ، ثم أفلح عنها ، وعاد إلى بلاده واستمر ملك المعز بالقیوان والقیوان ، وكان أضخم ملك عرف للبربر بالفريقيه ، وقد بلغت الدولة في عهده أوج ازدهارها وعظمت ثروتها ، وازداد دخಲها ، وظهر زناته في معظم المعارك التي اشتراك فيها ، وقد رفض المعز المذهب الأسماعيلي ، اعتنق مذهب أهل السنة ، ولعن الشيعة وقتل من وجد منهم ، ونكل بذلة الشيعة ، وقد استثناء منه الخلق الفاطميون ،

وأرسلوا اليه يتوعدوه ، لكنه خلع طاعتهم ، وقطع الدعاء لهم سنة ٤٤٠ هـ في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، وأحرق بنوده ، ومحا اسمه من الطرز والمسكة ، ودعا للخليفة العباسى القائم . وبذلك زال النفوذ الفاطمى من بلاد المغرب ، وعادت إلى حوزة الخلفاء العباسيين .

لما قطع المعز بن باديس الخطبة للمستنصر الفاطمى سنة ٤٤٠ هـ كتب إليه المستنصر يهدده ويتوعده ، فأرسل المستنصر بنى هلال إلى أفريقية ، وملكتهم كل ما يفتحونه ، وبعث الحسين بن على التاぞرى وزير الدولة الفاطمية فى مصر — إلى المعز بن باديس « قد أرسلنا إليك خيولا ، وحملنا عليها رجالا فحولا ، ليقضى الله أمرًا كان مفعولا » .

سار بنو هلال إلى برقة ، فوجدوها خالية ، لأن المعز قد أضعف أهلها وشتت شملهم ، فاستوطن الهلالينيون برقة ، ولكن المعز ارتاب في شأنهم ، وسألهم ، العبث الذى أحذنوه في البلاد ، وسيطرتهم عليها ، وتخوف على ملكه منهم ، كما تخوف من سيطرتهم على التواحى الاقتصاديه لبلاده ، الأمر الذى قد يهدى سلطانه عليها ، لذلك عهد إلى ثلاثة ألفا من أرقائه بالقضاء على بنى هلال ، واجلائهم عن أفريقية ، فملكونها سنة ٤٤٦ هـ فخرج كبار رجال بنى هلال إلى المعز بن باديس ، وطلبوها منه العفو والمصالحة ، فعفا عنهم ، ووصلهم ، واجزله لهم العطايا . ولائهم عادوا إلى العبيث والفساد في الأرض ، ونتيجة لهذه الأعمال التخريبية توقفت الزراعة ، والتجارة ، فعم القحط والبلاء في البلاد ، وانهار المجتمع ، وهجر الفلاحون قراهم ، وترك أصحاب الحرفة أعمالهم ، فحرج اليهم المعز في جميعه من صنواهجه والسودان فيما لا يقل عن ثلاثة ألفا ، ولكن الهلالين هزموا جنده المعز باديس ، وقتلوا الكثير منهم ، واستباحوهم وعاد المعز إلى القيوان مهزوما ، وعاد إلى الاشتراك معهم فهزمه مرة ثانية وثالثة ، وملكونها مدنية باجة ، وأمر المعز أهل القيوان ، بالانتقال إلى المهدية تجنبا لبطش

بني هلال ووالياتهم ، وانتقلت أيدي العرب على القسيروان بالأنهيب
والتخريب ، وعلى سائر الحصون والقرى ٠

وهاجر مع بني هلال من مصر الى بلاد المغرب ، عرب بني سليم ،
وهم بطن من مصر ، وأكثراهم جموعا ، وكانت منازلهم بنجد ، وكان
بنو سليم حتى عهد الخليفة العباسية ، سوكة بني وفتة ، حتى لقد
أوصى أحد خلفائهم ابنه ، بآلا يتزوج منهم ، وكانوا يغسرون على
المدينة ، وتخرج الكتائب من بغداد اليهم ، وتوقع بهم ، وتحالفوا
مع أمراء القرامطة من بني طاهر أمراء البحرين ، وتغلبوا على البحرين
بعد انفراط أمر القرامطة ، وظلوا بها معتقدين لذهب الشيعة ، فطردوا
عنها ، فهاجروا الى صعيد مصر ، وأذن لهم الخليفة المستنصر بالهجرة
إلى افريقية ، لمحاربة المعز بن باديس ، واقاموا مع الهلالين في برقة
وجهات طرابلس ، ثم صاروا الى افريقية ٠

نعود الى المعز بن باديس ، فقد هاجمه القبائل العربية — كما
رأينا — حتى اضطر الى الانسحاب الى المهدية ، وسقطت بلاد دولته
الواحدة تلو الأخرى في أيدي العرب الهلاليين وعرب بني سليم ، وقضى
السنوات الأخيرة من حكمه في المهدية التي لم يبق له من ملكه سواها
حتى توفي سنة ٤٥٤ هـ — ١٠٦٣ مـ ، وخلفه ابنه نمير الذي حكم
المهدية وبعضاً البلاد المجاورة لها ٠

ويختبر عهد تميم بن العزيز أيام النهاية للدولة الزيرية ، وتقاسم
ملك آل زيري الهلاليون وبعض زعماء زناته ومنهاجه ، يحكم كل قائد
بلداً صغيراً ، الامر الذي فتت وحدة البلاد ، واساء الى اوضاعها
الاقتصادية واضعف من قوه المجتمع في افريقية ومن تماسته وادي
ذلك في النهاية الى انهيار اجتماعي خطير في افريقية ٠

وفي سنة ٤٤٤ هـ — ١٠٥٢ مـ استرد روجر الأول التورمندي
جزيرة صقلية بعد جهود حربية قليلة ، وانسحب آخر المدافعين عنها ،

وهو أبو الحواس باهله وماله إلى افريقيا ، ولم تثبت قصرياتة أن سقطت في أيدي النورماندين . وفي سنة ٤٨٤ هـ - ١٠٩٢ م سقطت بلرم - آخر معاقل المسلمين في صقلية - وبذلك زال الحكم الإسلامي من صقلية ، وزالت دولة الإسلام ، وانطفأ نوره عن هذه الديار .

وقد قاوم تميم بن العز النورماني ولكن دون جدوى وأصبح النورمان يشكلون خطرا جسريا على المهدية نفسها ، فاستجده على ابن تميم بالمرابطين ، ورفعوا الخطر عن المهدية ، وغزوا صقلية ، وبعد انتصار المرابطين عنها ، جمع روجر أسطولا ضخما ، وشن عدة غارات على المهدية ، وعجز الحسن بن على بن تميم عن الدفاع عن بلاده ، فسقطت المهدية سنة ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م وكذلك كل مدن الساحل الأفريقي وطرابلس في يد النورمان . ولكن الموحدين أنقذوا هذه البلاد ، واستردوها من أيدي النورمان .

ويجدر بنا أن نشير إلى ملحمة أبي زيد الهلالي فنقول أن بني هلال لما هاجروا إلى المغرب ، دارت بينهم وبين الزناتيين معارك متعددة ، وكان الهلاليون يوصلون بأخبار هذه المعارك إلى بني جلدتهم في مصر ، فينظمها شعراؤهم في صورة قصص سعبي عربى مصرى ، عرفت فيما بعد بقصة الهلاليه ، وبطل القصة يسمى أبو زيد الهلالى أما خصمه ، فيسمى جليفه الزناتي أو الزناتى خليفه . وهذه الملحمة تعتبر من أبرز الأشعار الشعبية العربية ، وتمثاز يطابع شعبي حلق ، يجعلها في الأدب التسجيى المرموق .

ويرى الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بأن قصة بني هلال في الأدب تختلف عن وقائع التاريخ تماما ، فالقصة الأدبية تدور حول فتاة جميلة من بني هلال أحيت فتى من آقاربها ، وأراد الزواج منها ، فرفضها أهلها زواجه من ابنتهم بعد تمامه ، واحتالوا على حبيبها ونقلوها إلى مكان بعيد في المغرب ، وزوجوها من ابن عمها ، ولكن قلبها خل معلقا بعييقها ، ولم ينس الفتى محبوبته ، وتنفس القصبة بموت الفتاة كحمد لحرملتها من عشيقها ، وموت الفتى حزنا على فراق حبيبته له .

وتتجذر بنا الاشارة تفصيلا عن سيرة بنى هلال في المغرب فنلاحظ أنهم نسوا خلافاتهم في هذه البلاد ، وتحالفت القيسية واليمنية بعد طول خصم ، ويقدم السلطان حسن بن سرحان على الزواج من أخت دياب ابن غانم وتدعى « ناقلة » ويتعهد السلطان حسن لشيخ اليمنية دياب ابن غانم على أن يزوجه أخته نور بارق التي سميت بالغازية أو الجازية وأصبح لها دور كبير في تدبير أمور بنى هلال ، ورثته من أمها .

وحدثت عدة حروب قبلية ، أنتهت بهجرة بنى هلال إلى المغرب — كما أشرنا من قبل — ولعب بنو هلال دورا كبيرا في تعریب بلاد المغرب ونشر الإسلام بين البربر .

وعن هذا الدور الهلالي تتحدث السيرة عن قحط شمل الجزيرة العربية ، وتسبب في هجرة الهلاليات إلى بلاد المغرب حيث الخصب والزرع ، وقادهم أبو زيد الهلالي ، مصطحبًا الأمراء الثلاثة أبناء السلطان حسن بن سرحان ، مرعي وبونس ويحيى إلى تونس ، ولكن حاكم هذه البلاد ، الزناتي خليفة خشى على ملكه من هؤلاء الهلاليين ، وأوجس منهم خيفة ، فقبض على الأمراء الثلاثة ، وزجهم في السجن . ولم يلبث أن أطلق سراح أبي زيد ، وعاد إلى نجد ، وعقد العزم على غزو تونس ، وفك أسراً الأمراء الثلاثة .

وسار أبو زيد الهلالي على رأس جيشه من بنى هلال وحلفائهم وأصطحبهم الجازية الجيش ، وكانت في مقدمته ، وكان لهذه الجيوش بطولات في صعيد مصر ، ولما بلغت تونس ، وضع لها أبو زيد الهلالي خططاً حربية ناجحة ، فهو يضلل الجنوسيين تارة ، ويستقول على عيون الماء تارة أخرى ، وأثار جيش الهلالي الرعب في نفوس الزناتي وجنده ، واستخدم أبو زيد الهلالي النساء كثيراً في أعمال السلب والنهب داخل بلاد العدو لالقاء الذعر في قلوب أهل البلاد ، والتمهيد لدخول الهلالية بلادهم ، وكانت الجازية تدبّر هذه الخطط ، وتنقود النساء إلى تنفيذها . وتوصل السيرة الهلالية حديثها عن بطولة الجازية ، التي

تمكنت من اطلاق سراح مرعى ويونس ، ولم يثبت أن لقى الزناتى مصرعه بمؤامرة دبرتها ابنته سهدة التى وقعت في حب مرعى عندما كان في سجن أبيها ، فهى التى أشارت على الملاطية بارسال دياب إلى أبيها ومحاربته ، لأن دياب أقدر الفرسان على التعرض لخليفة .

وبذلك تغلب الملاطية على الزناتى خليفة ، ويكتفى أبا سعدى وكان فارسا شجاعا ، وكانت المدينة حصينة منيعة ، وكان يأتمر بأمره أفيالا ذلوا بأس شديد ، وتحذثنا المسيرة أن الملاطية دخلوا في حرب ضارية ، قتل فيها الكثير من الطرفين ، وقتل زناتى عددا كبيرا من صناديد العرب وشجاعتهم ، واستمرت الواقع سجالا ، والفرسان يتلقون زرارات ووحدانا وانتهت المعركة بانتصار الملاطية بعد أن قتل دياب زناتى خليفة ، وتفرق جنده ، ولاذوا بالفرار ، وتم فتح تونس ، وجلس دياب على عرشه ، ولبس تاجها ، وعلق رمحه على بابها ، وأمر العرب أن يهروا تحته ، اشارة إلى تملكه عليهم . وثار به بنو هلال ، وكادوا يقتلونه^(١) .

وواصل العرب تقدمهم في بلاد المغرب ، ولكن عادت الصراعات التقليدية بينهم ، واشتد العداء بين القيسية واليمنية . ولكن ظل العرب رغم ذلك يواصلون زحفهم في بلاد المغرب حتى بلغوا الأندلس .

ويمكن القول بأن هذه الجموع العربية أدت دورا كبيرا في نشر الإسلام واللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية في بلاد المغرب . وبعبارة أخرى أحدثت تغيرا كبيرا في البناء الاجتماعي لشعوب المغرب ، وتحولته إلى مجتمع عربي لغة وديننا وثقافة .

الفصل الخامس

الخلافة الاموية

بالاندلس

(١٠٣١ م - ٩٢٩ هـ / ٤٢٢ - ٤٣٦ هـ)

- ١ — الخليفة عبد الرحمن الثالث — الناصر لدين الله .
- ٢ — الخليفة الحاكم الثاني — المستنصر بالله .
- ٣ — الخليفة هشام الثاني — المؤيد بالله والدولة العاميرية .
- ٤ — الحاجب المنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر .
- ٥ — أبناء المنصور نهاية الدولة العاميرية .

عبد الرحمن الناصر

१९८२-१९८३ / १०५०-५००

الانتقال من عصر الأمير عبد الله إلى عصر عبد الرحمن الناصر يمثل بـ فعل نقلة كبيرة من عصر إلى عصر ، ومن فترة إلى أخرى تختلف كل منها عن الأخرى تمام الاختلاف ، وهذا الاختلاف هو تباين بين حكميـن وبين عهديـن كل منهما يتميز بصفة خاصة وكل منهما له خصائصه وسماته . ذلك أن الأمير عبد الله كان حاكماً عادياً من حكام الأندلس ، أما عبد الرحمن بنـصر فقد نهض بيـلاده نهـضة شاملـة ، وحول الإمـارة إلى خـلافـة ، وتمـتع مـحب شـعبـه واحـترـام أـعـدائـه وـمنـافـسيـه .

حكم عبد الرحمن حوالي نصف قرن ، وطول العمر بالنسبة للحكام
قد تتيح لهم الفرصة الكافية لاصلاح أحوال البلاد .

وَعَبْدُ الرَّحْمَنْ حَفِيدُ سَلْفِهِ الْأَمْيَرِ عَبْدِ اللَّهِ، وَقَدْ عَاهَدَ عَبْدُ اللَّهِ لِحَفِيدِهِ
عَبْدُ الرَّحْمَنْ، وَلَمْ يَعْهُدْ لِأَحَدٍ مِّنْ أَبْنَائِهِ، ذَلِكَ أَنَّهُ قُتِلَ ابْنُهُ مُحَمَّدُ وَالْدُّ
عَبْدُ الرَّحْمَنْ بَعْدَ أَنْ وَجَهَ إِلَيْهِ تَهْمَةُ التَّآمِرِ ضِدِّهِ وَضَدِّ نَظَامِ حُكْمِهِ.
وَيَبْدُوا أَنَّ الْأَمْيَرَ عَبْدَ اللَّهِ نَدَمَ عَلَى قُتْلِ ابْنِهِ، وَشَعَرَ بِتَأْنِيبِ الصَّمِيرِ عَفَافِيسِ
عَنْ "تَهْمَنْ عَلَى قَاتِلِ الْأَبْنَاءِ" مَوْتِ الْأَبْنَاءِ بِلِ التَّسْبِيبِ فِي مَوْتِهِمْ — وَلَقَدْ
دَعَ هَذَا النَّدَمُ الْأَمْيَرَ عَلَى تَكْرِيمِ ابْنِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنْ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي هَذَا
تَكْرِيمِهِ، فَفَضَّلَهُ عَلَى أَبْنَائِهِ وَأَحْفَادِهِ، وَدَفَعَتْهُ عَقْدَةُ الذَّنْبِ، إِلَى
عَاهَدِ لِحَفِيدِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِالْحُكْمِ مِنْ بَعْدِهِ مُتَخَطِّلًا أَبْنَائِهِ، وَلَمَّا تَوَفَّ
عَبْدُ اللَّهِ بَايِعَ أَهْلَ الْبَيْتِ الْأَمْوَى وَالشَّعْبِ عَبْدُ الرَّحْمَنْ، وَلَمْ يَنْسَازْهُ فِي
ثَلَاثَ مَنَازِعٍ. وَيَبْدُوا أَنَّ اضْطِرَابَ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، وَكَثْرَةَ الْفَقْنِ وَالثُّورَاتِ
بِهِ — جَعَلَتِ الْحُكْمَ مَحْفُونًا بِالْمَكَارِهِ وَأَصْبَحَتْ مَهْمَةً حَاكِمِ الْأَنْدَلُسِ شَاقَةً،
لَا تَدْعُوا إِلَى الْمَنَافِسَةِ، وَلَا يَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا أَحَدٌ. وَعَلَى أَمِيرِ الْأَنْدَلُسِ أَنْ
يُوَجِّهِ مَتَاعِبَ دَاخِلِيَّةٍ وَخَارِجِيَّةٍ لِلتَّغَابُ عَلَيْهَا مِنَ الْأَمْوَرِ الْعُسِيرَةِ. أَيُّ أَنْ
يُؤْمِنُ عَدَاهُ تَرَكَ تَرَكَةً لَا يَحْسُدُ عَلَيْهَا.

سياسة عبد الرحمن القاصر الداخلية

وَجَدَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَرْضَ الْأَنْدَلُسَ مُضْطَرِّبةً كُلَّ الاضْطِرَابِ ، فَبِدَا عَهْدُهُ بِمُحاوَلَةِ فِرْضِ الْوَحْدَةِ عَلَى بَلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، وَذَلِكَ بِتَسْأِيْدِ الْعَصَمَةِ ، وَالْقَضَاءِ عَلَى الْفَقْنِ وَالثُّورَاتِ . وَاعْدَادُ الْمَدْوَءِ وَالْإِسْقَارِ إِلَى الْبَلَادِ ، وَالْمَوْدَعَةُ بِدُولَةِ الْأَنْدَلُسِ إِلَى سَابِقِ قُوَّتِهَا ، فَاتَّبَعَ سِيَاسَةً التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ ، وَالشَّدَّةِ وَالْلَّيْنِ ، فَانْفَذَ الْكِتَبُ إِلَى الْعَمَالِ فِي جَمِيعِ كُورِ الْأَنْدَلُسِ ، يَطَّالِبُهُمْ بِالطَّاعَةِ وَالْوَلَاءِ وَنَبْذِ الْخَلَافِ وَالشَّقَاقِ . وَمِبَابِيَّةُ أَمِيرِ قَرْطَبَةِ ، وَالخُضُوعُ لِحُكْمِهَا ، وَبِدَا بِاَصْدَارِ مُنْشَوْرِ أَرْسَلَهُ إِلَى كُلِّ أَمِيرٍ أَوْ مَلِكٍ مِنْ هُؤُلَاءِ الْمُتَعَلِّبِينَ عَلَى النَّوَاحِي ، وَفِيهِ يُعَدُّ وَيُتَوَعَّدُ وَيُحَذَّرُ فَالرَّجُلُ الَّذِي يَقْدِمُ وَلَاهُ لِلْحَاكِمِ الشَّرِيعِيِّ ، فَإِنَّهُ سَيَكُونُ مِنَ الْمُقْرَبِينَ وَسِيقْحَقُ لَهُ مَا يَرِيدُهُ مِنْ مَالٍ وَسُلْطَانٍ تَحْتَ رَأْيَةِ الْأَمَارَةِ الْمَرْكُرِيَّةِ وَمَنْ لَمْ يَفْعُلْ فَيُنْذَرُ بِحَرْبٍ مَدْمُرَةٍ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ، فَكَانَ يَرْسِلُ جَيْوَشَهُ إِلَى النَّاحِيَةِ ، وَمَعَ قَائِدِهِ خَطَابَ الْأَمَانِ الْمُتَغَلِّبِ إِذَا تَخَاهَ عَنِ الْحَرْبِ ، وَأَقْلَمَ عَنِ الْعِنَادِ ، فَإِذَا رَفَضَ قَائِدُ النَّاحِيَةِ الْأَمَانِ ، لَقِنَهُ جَيْشُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ حِرْسًا قَاسِيًّا ، وَيَفْرَضُ الْجَيْشَ عَلَيْهِ وَعَلَى نَاحِيَتِهِ الْإِسْتِسْلَامِ . أَمَّا إِذَا وَافَقَ الْقَائِدُ عَلَى الصَّلْحِ أَعْطَاهُ الْأَمَانَ ، وَنَقْلَهُ هُوَ وَعَائِلَتَهُ وَأَهْلَهُ وَمَوَالِيهِ إِلَى قَرْطَبَةِ ، حِيثُ يَكْفُلُ لَهُمْ بِهَا رَغْدَ الْعِيشِ ، يَنْزَلُهُ بِمَنَازِلٍ تَلِيقُ بِهِ ، وَيَغْدُقُ عَلَيْهِ مِنِ الرِّوَاٰتِبِ ، مَا يَجْعَلُهُ يَعِيشُ وَأَهْلَهُ فِي رِخَاءٍ وَاطْمَئْنَانٍ .

وَعُرِفَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْوَفَاءُ بِوَعْدِهِ ، لِذَلِكَ اطْمَانَ لِهِ الْأَمْرَاءُ فِي النَّوَاحِي وَالْقَادِهِ . وَمِنْ هَنَا نَرَى كِيفَ اسْتَطَاعَ عَبْدُ الرَّحْمَنَ أَنْ يَتَغلَّبَ عَلَى هُؤُلَاءِ الْأَمْرَاءِ ، الَّذِينَ قَضُوا السَّنَوَاتِ الطَّوَالِ فِي حُرُوبٍ ، يَسْتَسْلِمُونَ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، وَيَقْبِلُونَ إِلَى قَرْطَبَةِ ، حِيثُ يَعِيشُونَ فِي أَمْنٍ وَعِزَّهُ ، عَلَى أَنَّا لَا نَنْكِرُ أَنَّ الْأَمِيرَ عَبْدَ اللَّهِ قَدْ عَهِدَ لِحَفِيْدِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَمْرَ اَسْعَافِ هُؤُلَاءِ الْأَمْرَاءِ وَانْهَاكِ قُوَّاتِهَا .

وَكَانَ أَشَدُ الْأَمْرَاءِ عِنْدَهُ بَنِي الْحَجَاجِ فِي اِشْبِيلِيَّةِ وَبَنِي حَفْصَوْنِ

في بيشر ، أما بنو الحجاج فقد استطاع عبد الرحمن أن يجتذب منهم إليه أحمد بن محمد بن مسلمة بن حجاج ، الذي ولى أشبيلية بعد وفاة عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج سنة ٣٠١ هـ ، ثم أذعن له محمد بن إبراهيم بن حجاج صاحب قرمونية ، واستعمل عليها الناصر سعيد ابن المظفر فهدم سور أشبيلية حتى لا يتمكن الثوار من التحصن بداخلها ، وبنى القصر القديم المعروف بدار الامارة ، وحصنه بسور من الحجر .

والخصم العنيد الذي أشرنا إليه سابقاً ، وهو ابن حفصون ، لما ضعف عمر بن حفصون بعد اعتيشه النصرانية ، تظاهر بالانضمام إلى عبد الرحمن بن محمد حتى وفاته سنة ٣٠٢ هـ ، وخلفه ابنه جعفر الذي ذهب مذهب أبيه في العناد والفساد ، فسير إليه عبد الرحمن جيشاً سنة ٣٠٦ هـ ، واستولى في طريقه إليها على حصن دوس أمانتس ، وحاصر حصن بلدة من حصون رية ، ودخل المدينة . وفي عام ٣٠٧ هـ ، افتتح عبد الرحمن حصن طرش خشين من أعمال ابن حفصون واستأنف صاحبه عبد الرحمن بن عمر بن حفصون داخل حصن بيشر ، فخففه أخوه سليمان ، وتظاهر سليمان هذا بطاعة الأمير ، فسامه الأمير ، فلما قوى أمر سليمان ، نكث عهده ، وشن الغارات على قرطبة ، ودخل مدينة المنكب عنوة ، وقتل جميع سكانها وظل يشن الغارات على قرطبة ونواحيها ، ويشكل خطرًا على دولة الأمويين في الأندلس ، حتى قتل سنة ٣١٤ هـ ، فخلفه أخوه حفص في قلعة بيشر ، ولما لم يجد هذا الأمير فائدة من التمادي في العصيان ، استسلم للأمير عبد الرحمن ، وأسلم الحصن وبذلك قضى الأمير عبد الرحمن على أحطر الخارجين عليه ، وهم آل حفصون .

وهكذا أعاد الأمير عبد الرحمن إلى أسبانيا وحدتها وقضى على كل الحركات الانفصالية التي هددت كيانها ، وجمع شمل الأندلس تحت راية واحدة ، الأمير الذي جعل حكومة قرطبة قوية مهابة أمام أعدائها في الداخل والخارج .

تحويل الامارة الى خلافة

بعد أن أخضع الأمير عبد الرحمن الأندلس ووحدها تحت سلطانه رأى أن يعلن نفسه خليفة ، ويأقب بأمير المؤمنين بدلاً من لقب أمير الذي ورثه عن أسلافه الأمراء الأمويين ، فأصدر منشوره في ٢ ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ إلى عماله في الكور والمدن الأندلسية يقول لهم : « وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب علينا ، وردوها علينا كذلك . اذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتظر له ودخول فيه ، ومقسم بما لا يستحقه منه . وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضنه ، وأسم ثابت أستقنه ، فمرحباً بالطبيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله » وأمر الناصر لدين الله باثبات عبارة « الناصر لدين الله أمير المؤمنين في أعلامه وطرازه ودنانيره ودرارمه ، ونفذ الأمر بذلك » .

وهكذا تحولت الامارة الأندلسية إلى خلافة ، واستمر خلفاء عبد الرحمن الناصر يلقبون بلقب خليفة ، حتى سقوط الدولة الأموية سنة ٥٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م .

رأيتم أن الأمراء الأمويين — قبل الناصر — كانوا يلقبون بأبناء الخلفاء أو الأمراء ، ولم يجرأ واحد منهم على التلقيب بلقب خليفة على الرغم من العداء الشديد بين الامارة الأموية ، والدولة العباسية ، وعدم اعتراف الأولى بالثانية ، ذلك أن مفهوم الخلافة عند المسلمين في ذلك العصر ، أنها وحدة لا تتجزأ ، وأن الخليفة ، هو حامي حمى الحرمين ، والسيطر على الحجاز أهل العرب والملة . ولكن بمرور الوقت أفتى علماء الأندلس بجواز تجزئة الخلافة إلى أكثر من واحدة ، بحيث يكون بينهما مسافات شاسعة ، منها للحروب بين الخلفتين ، وذكر بعض المؤرخين أن الأندلسيين أنفسهم طلبوا من عبد الرحمن ، اعلن نفسه خليفة ، ولقبوه الناصر لدين الله . وبذلك تكيف نظرية الخلافة السياسية تكييفاً جديداً ، تبعاً للواقع والضرورة السياسية ومصلحة المسلمين .

ونستطيع ان نجمل أسباب اعلن عبد الرحمن نفسه خليقه في نقاط منها ، ان الخلافه العباسيه قد ضعفت في العصر العباسى الثاني ، بسبب ازدياد نفوذ الأتراك ، وعدم مقدرة الخلفاء على السيطرة على بلدان الدوله ، وضعف نفوذهم وسلطانهم . وفي نفس الوقت قامت الخلافه الفاطمية في المغرب ، وهي خلافه علوية لا تعرف بالعباسين ، وقري أن الخلافه يجب أن تتحضر في آل بيت رسول الله ، وانخفاء الفاطميين هم أول من جزاوا الخلافه ، وشجعوا الأمويين على اعلن الخلافه في الأندلس ، وكان لابد لعبد الرحمن أن يعلن نفسه خليقه لواجهة خطر الخلافه الفاطمية في المغرب على دولته ، وبعد أن شهدت الأندلس الانقسامات وافتتن الداخلية ، كان لابد لحكومة قرطبة من أن تحول الاماره الى خلافه ، حتى يكتسب حكمه هيبة دينية وسياسية أمام رعاياه ، وتضمن على الدولة قوه ومهابة .

ونضيف الى ذلك ما سبق القول من أن أهل الأندلس قد طلبوا من الأمير عبد الرحمن اعلن نفسه خليفة .

مهما يكن من أمر فقد قامت الخلافه الأموية في الأندلس وهي تستند الى السياسة أولا ثم الدين ثانيا ، وتتبع قاعدة الوراثة في الحكم بمختلف في ذلك عن نظام الخلافه في الاسلام أيام الراشدين الذي يتبع قواعد الشورى والانتخاب .

وبذلك قامت في العالم الاسلامي ثلاث خلافات ، الخلافة العباسية المتداعية ، والخلافة الفاطمية الناشئة في المغرب ، والخلافة الأموية في الأندلس ، وإذا ما قارنا بين هذه الخلافات الثلاث لوجدنا أن الخلافة الأموية في الأندلس أكثرها ديموقراطية ذلك أن الخلافة العباسية تقوم على الاستبداد ، وال الخليفة يرى أنه مفوض من الله ، أو سلطان الله في أرضه كما قال الخليفة المنصور . أما الخليفة الفاطمي فيرى أنه الامام المعصوم من الخطأ ، ولا يسأل عما يفعل ، ورث العلوم الدينية وخفايا الكون وأسرار الوجود عن رسول الله ص .

أما الخلافة الأموية في الأندلس ، فسلا تضفي على نفسها هذه القدسية ، وإنما تتبع الديموقراطية في الحكم ، وتستمع إلى آراء المعارضة ودليلنا على ذلك ، أن عبد الرحمن الناصر حينما شيد مدينة الزهراء ، وأنفق عليها أموالا باهظة ، عارضه الأهل بي زعامة قاضي قرطبة ، الذي هاجم الخليفة الناصر على النير ، واتهمه بالاسراف والتبذير ، وتبذير أموال الدولة بدون وجه حق ولكن الخليفة لم يعزله ، ولم يعاقبه ، بل تركه وشأنه .

وكانت الدولة الأندلسية تمتاز عن الدولتين السابقتين من حيث الوحدة والتجانس بين الحاكم والمحكوم ، ثم أنها كانت شغرا من شغور المسلمين ، يواصل عملية الجهاد .

سياسة الناصر الخارجية

١ - المخطر الفاطمي في المغرب :

كان الفاطميون عند تأسيس الدولة الفاطمية في المغرب ، يهددون إلى غزو الأندلس ، لجعل المغرب الإسلامي كله خاضعا للسيطرة الفاطمية الشيعية ، وبهذا ينقسم العالم الإسلامي إلى قسمين ، قسم شرقي تابع للخلافة العباسية السنوية ، وقسم غربي تابع للخلافة الشيعية الفاطمية ، فأرسل خلفاؤهم العيون إلى الأندلس ، لكتف عوراتها ، والتجسس على أحواها أمثال ابن حوقل ، وقد لعب هؤلاء الجواسيس في الأندلس ، دورا هاما للدعائية الفاطمية في الأندلس ، في نفس الوقت الذي أمدوا فيه الخلفاء الفاطميين بمعلومات غزيرة عن أوضاع الأندلس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وقد نجح هؤلاء الجواسيس في اجتذاب أنصار لهم في الأندلس من العناصر الناقمة على حكومة قرطبة .

خشى عبد الرحمن الناصر من بأس هذه الدولة المجاورة الطامعة

في بلاده ، فاتخذ خطوات مضادة لحملية حدوده ، وتأمين بلاده من عزو فاطمي مرتعب ، ماعلن نفسه حلبيه — كما فلسا — ليضفي على سلطانه مهابه ، ويتبذور الفتنه بين قبائل البربر في بلاد المغرب ، وانضم إليه الأدارسه أمراء العدوة ، وملوك زناته ، وأمدهم عبد الرحمن بماله والعتاد ، وساند اثنائين موسى بن أبي العافية في ثورته ضد الفاطميين ، حتى كثر جمعه ، وشكل خطرا على الحكم الفاطمي ، ولكن يؤمن الناصر حدود بلاده ، استولى على ثغري سبنة وطتجه ، وسيطر على حركة الملاحة في مضيق جبل طارق ، وأخضع بقليا الأدارسه ، كما وطد علاقته بأمراء تاهرت ، وشجع التوار على انتفافه الفاطمي أمثال أبي يزيد مخلد بن كيداد كما أنشأ عبد الرحمن أسطولا قويا نازع فيه أسطول الفاطميين في البحر المتوسط ، كما قصد به الدفاع عن سواحل الأندلس ضد أي هجوم يقوم به أعداؤه الفاطميين ، وحدث أن هاجم الأسطول الفاطمي بقيادة الحسن بن على مدينة المرية سنة ٣٤٤ هـ وأحرق السفن الراسية في الميناء ، وسب رجاله المدينة وأسرموا عددا كبيرا من سكان البرية ، فعمد غالب — قائد أسطول عبد الرحمن الناصر — إلى الرد على هذه الحملة ، فتغار في ستين سفينه على سواحل أفريقيا سنة ٣٤٥ هـ وبالذات على مرسى الخزر ، ودمر كل منطقة سوسة .

كما وطد الناصر علاقته بأعداء الفاطميين ، فتحالف مع ملك إيطاليا هو جودي بروفانس الذي كان غاصبا من الفاطميين لدميرهم ميناء جنوه ، كما تحالف مع أميراطور بيزنطة الذي كان يهدف إلى استرداد صقلية من الفاطميين ثم وطد علاقته بالأختشidiyin في مصر ، وعمل على إرسال الفقهاء المالكيه من الأندلس إلى مصر لحاربة المذهب الشيعي . وهذه السياسة منعت الفاطميين من غزو الأندلس .

٢ - الفطر الأسبياني المسيحي في الشمال :

لما فتح المسلمون الأندلس أبقوه على بقعة جبلية وعرة وهي

جلية دون فتح ، وأهملوا أمر الجماعات المستضعفة فيها ، ولكن هذه البقعة نمت وترعرعت وقوى أمرها مستغلة الحروب بين المسلمين والاضطرابات الداخلية في البلاد ، وترعم حركة المقاومة ضد المسلمين بلай ، تم نمت هذه المملكة ، وقوى بأسها في عهد الفونسو الأول الذي استولى على مدينة ليون ، وسيطر على جميع المنطقة الشمالية الغربية التي صارت تعرف بملكية ليون وقد حصنت هذه المملكة حدودها من خطر المسلمين بسلسلة من القلاع ، ولم تلبث هذه القلاع أن اتحدت في القرن الرابع الهجري في إمارة واحدة عرفت باسم مملكة قشتالة .

ولم تقتصر حركة المقاومة الإسبانية على ليون وقشتالة بل انتشرت قواعد لها على سفوح جبال البرانس شرقا ، ومن أهمها مملكة نافار ، التي سيطرت بحكم موقعها الجغرافي على المعابر الجبلية التي تربط إسبانيا بأوروبا ، وكانت قاعدتها مدينة بيلونة .

ويلاحظ أن هذه الممالك النصرانية نشأت في الجبال خوفا من بطش المسلمين ، وتحصنت بها ، ولما قوى أمرها ، بسطت نفوذها على السواحل المجاورة ، واستولت على أراضي المسلمين وهذه الممالك كانت تستمد العون والتأييد من أهم القوى النصرانية المجاورة مثل فرنسا والعالم الكاثوليكي والبابوية .

ولما ولى عبد الرحمن الاندلس ، كان شانشو الأول - ملك نافار - وأوردينيو الثاني - ملك ليون - قد تحالفوا على مهاجمة أراضي المسلمين في الاندلس ، وضموا إلى بلادهم ، منتهزين فرصة الفتن الداخلية في الاندلس ، واحتل المكان فعلا بعض الدين ، واستوليا على بعض الأراضي ، ولما هاجما المكان قاعدة الشفر الأعلى - سرقسطة - رأى عبد الرحمن الناصر ضرورة التصدي لهذا الخطر الداهم ، فخاض عدة حروب ضد هذين الممالك ، وألحق بهما هزائم كثيرة ، وهدم حصونهم وأسترد البلاد التي انتزعوها من المسلمين ، ومن هذه البلاد أسماء وتطليلة ، ولكن رامiro

الثاني كان ملكاً عنيداً وواصل القتال ضد المسلمين ، واستمرت الحرب ببيه وبين عبد الرحمن فترة طويلة ، وأشد هذه الحروب ضراوة ، تلك الحملة التي قادها نجده الصقلي ضد رامiro ، غير أن هذه الحملة انتهت بهزيمة المسلمين عند خندق مدينة سمنقة سنة ٣٣٧هـ ومن أسباب هزيمة المسلمين في هذه الواقعة الانقسام بين العرب والصقالبة أثناء المعركة ، وقتل القائد نجده الصقلي ونجا عبد الرحمن الناصر هو وقلة من الجنود من أيدي العدو بأعجوبة ، حتى أن عبد الرحمن ، لم يشترك في غزوة بعد ذلك ٠

ولكن هزيمة الناصر لم تؤثر على قوته العسكرية في الأندلس تنفسه عن عزمه في السيطرة الكاملة على بلاد الأندلس ، ووقف حملات النصارى على بلاده ٠ لذلك جرد على ممالك النصارى عدة حملات أخضعم ، وأوقف توغلهم في البلاد الإسلامية وفي النهاية صار سيد الأندلس بلا منازع ٠

ولا توف رامiro الثاني ملك ليون ، ودب النزاع بين ولديه أوردنيو وسانشو ، كان الناصر الحكم بينهما ، تحالفت ممالك النصارى معه في الأندلس ، وكسب صداقتهم وأجبر الباقيين على احترامه ، كل ذلك في سياسة وكياسة جعلت الجميع لا ينظرون إليه كعدو ، بل صديق ، يحكمونه فيما شجر بينهم ٠ والدليل على الصداقة بين ملوك النصارى وعبد الرحمن الناصر ، أن سانشو – ملك نافار – كان مفرطاً في السمنة ، وطلب من قرطبة طبيباً يعالجه ، فأرسل إليه عبد الرحمن طبيباً حاذقاً في الطب ، هو حسداي بن شيروط الإسرائيلي لعلاجه ، ونجح هذا الطبيب في مهمته ، فقدم سانشو إلى قرطبة على رأس وفد من كبار رجال إمارته لشكر الخليفة فأكرم عبد الرحمن وقادته ، وندب الأطباء لمواصلة علاجه وكان من نتيجة ذلك عقد محالفه ، نال من ورائها المسلمون حصوناً على حدود مملكته ٠ ومن ناحية أخرى كان ملوك ليون وأرجون ، يفدون إلى قرطبة ، يحتكمون إلى أميرها ، ليقر السلام بينهم ٠ وحينما عزل سانشو عن عرشه

طلب من عبد الرحمن مساعدته ، فأرسل جيشاً إلى ليون أعاد إلى سانشو عرشه سنة ٣٤٩ هـ ، وهذا يدل على أن الناصر استطاع أن يبسط مفوذه على الشمال المسيحي ، وأن يفصل في مشاكل ملوكه ، ويعزل من يشاء منهم .

الخطر النورماندي :

سبق القول أن النورماندي هاجموا سواحل الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط عدة مرات ، ولكن عبد الرحمن الأوسط تمكّن من صد هجماتهم . وفي عهد الناصر ، اتّخذ الخطّ النورماندي طابعاً جديداً ، فاتّخذ قاعدة لهم بالقرب من شعور الأندلس الشماليّة وسواحلها الغربية ، في ولاية نورمانديا في غرب فرنسا . وقد شكلت هذه الولاية النورماندية خطراً كبيراً على الأندلس ، فكانت تخرج منها الحملات البحريّة ، وتغزو جنوباً على السواحل الغربية ، وعن طريق الحملات البريّة التي كانت تعبّر جنوباً فرنسا ، تجتاز جبال البرانس ، وتشن غاراتها على الشعور الاندلسيّة الشماليّة ، وقد تصدّت جيوش عبد الرحمن لهذه الحملات البريّة والبحريّة ، ولم تتمكنها من تحقيق أهدافها التخريبية .

العلاقات الدبلوماسية بين الناصر وملوك أوروبا

لم يرتبط الناصر بعلاقات دبلوماسية مع ملوك الولايات الشمالية في أسبانيا فحسب ، بل كانت له علاقات دبلوماسية مع ملوك أوروبا ونشرير في هذا الصدد إلى سفارة بيزنطية في عهد الخليفة الناصر ، إذ وفد رسول الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع ٥٣٨/٩٤٩ حاملة هدية رائعة إلى الخليفة العظيم وأحتفل الناصر بقدوم الرسل وأسطف العساكر في ذلك اليوم بالسلاح في أكمل شكل ، وزين القصر الخلاف بأبهى معالم

الزينة ، وصنوف الصنور ، وعهد الخليفة إلى أحد قواده باستقبالهم ومرافقتهم من الميناء إلى العاصمة فلما اقترب موكب رسول الروم من قرطبة ، خرج القواد للقائهم واستقبالهم بالعدد واعتاد ، واصطف القواد وتلقوهم قائداً بعد قائد ، ثم استقبلهم أخيراً الفتىان للكبيران ياسر ونمام أعلم قواد الخليفة ، وذلك مبالغة في الاحتفال بهم ، ورفاقهم إلى أحد قصور قرطبة ، التي أعدت لمقامهم ، وأحيط هذا القصر بالحراسة المشددة ، ومنع الناس من الاقتراب منه ، ورتب الناصر حاكماً لقضاء حوائج الرسل ، وكان الخليفة الناصر مقيناً وقائداً بالزهراء ، فلما مضى شهر على قدوم مؤلاء الرسل ، وحان موعد مقابلة الخليفة ، رحل من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة ، وجلس لهم في ١١ ربیع الأول سنة ٤٣٨ هـ في بيو المجلس الظاهر ، الذي يعتبر أروع قاعات القصر في قرطبة ، وكان مختصاً للاستقبالات الرسمية وجلس إلى يمينه الحكم المستنصر ولـي العهد ، ويليه عبد الله فبعد العزيز فالأخضر فمرwan ، وجلس إلى يساره المنذر ثم عبد الجبار فسليمان — من أبناء الخليفة .

وتوزيع الوزراء حسب مراتبهم إلى اليمين واليسار ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي ورءاهم وفرشت أبواء القصر بالبسط القيمة . وبدت قاعة المجلس الظاهر متأنقة بستور الدبياج ، ويريق الثريات ، وسادها السكون ، حتى وصل رسول الإمبراطور بمهورين حائرين إلى باب القاعة ، بعد أن مروا بين صفوف القواد رافعين الأسلحة على شكل أقواس ، نم اقتربوا من الخليفة ، وقدموا له الهدية . ثم عد الرسل إلى القسطنطينية بالهدايا إلى الإمبراطور البيزنطي ، ورد على رسائل الإمبراطور .

نشأت دبلوماسية بين أوتو الكبير ملك الفرنجة ، وأمبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، نتيجة لغارات المسلمين المجاهدين على سواحل بلاده الجنوبية ، وأرسل أوتو الكبير إلى عبد الرحمن الناصر ، رسالة شديدة اللهجة ، يطلب منه وقف أعمال القرصنة ، والتخلص في

بلاده الجنوبية ، وقد رد عليه الخليفة انصار برسالة مماثلة سنة ٣٦٣هـ وبعد أعوام قليلة عاد أوتو الكبير ، وأرسل رسالة إلى الخليفة الناصر فأحسن الناصر استقبال حامل الرسالة في قرطبة ، وهو راهب يدعى جان دى جورز ، وأنزله الناصر في قرطبه في قصر بجوار أحدى الكثائس حتى يستطيع تأدیة شعائره الدينية ، وكان من عادة الناصر أن يحاط علماً بالرسالة قبل تقديمها إليه ، فعلم أنها ت Siddehah الملة ، وفيه افتاء على الإسلام واستقبل الخليفة الراهب ورفض تسلم الرسالة وألح الراهب حتى لا يغصب الملك ، ولكن ازاء اصرار الناصر عاد الراهب ومعه رسول من الناصر من المستعربين ، يجيد العربية واللاتينية ، ويسمى ربيع بن زيد ، واستقبله الملك الجديد أوتو أحسن استقبال ، وتخلى عن الرسالة التي فيها نيل من الإسلام ، وأعاد رسوله إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر برسالة لا تتعرض للدين (الإسلامي) ، واستقبل الخليفة الناصر رسالت الامبراطور في احتفال كبير .

وهذه السفارات تدل بوضوح على مدى ما كان لرجال البحر الأندلسيين من نشاط في حوض البحر المتوسط ، إلى درجة جعلت كلاً من امبراطور بيزنطة وامبراطور الدولة الغربية ، يتواصطاً لدى حلقة قرطبة ، كي يحد من نشاطهم .

الصقالبة في عهد الناصر :

أطلق الجغرافيون اسم الصقالبة على مجموعة الشعوب السلافية سكان البلاد الممتدة بين بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأدربياني عرباً ، وهي بلغاريا العظمى في العصور الوسطى ، ولقد دأبت القبائل الجرمانية على سبي الشعوب السلافية ، وبيع رجالها ونسائهم إلى عرب إسبانيا ، وأطلق عليهم الصقالبة ولكن هذه التسمية يمرور الزمن لم تعد تقتصر على الشعوب السلافية فحسب ، بله اتسع نطاقها ، وشملت سبي نصارى

الشمال والفرنجة من جنوب فرنسا • ومن سواحل البحر الأسود ومن
لبارديا وكلا بريا في إيطاليا •

وهؤلاء الصقالبة ، كانوا يجلبون أطفالا ، ويتعلمون اللغة العربية .
ويدينون بالاسلام ، ويختلطون بالشعب الاندلسي ويعيشون الحياة
الاسلامية ، وكان منهم الجناد والحرس الخاص بال الخليفة والخدم وتدرجوا
في سلك الوظائف ، حتى بلغ منهم الشعرا و الادباء وامتلكوا المكتبات
الكبيرة وللضياع الشاسعة ، وقد ألف حبيب الصقلبي كتاباً أسماه
(الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة) وقد هذا الكتاب
وأشار إليه ابن بسام في كتابه (الفخريه) ظهر ان الصقالبة في الاندلس منذ
عهد الحكم الربضي ، وكثير عددهم في عهد الناصر حتى شكلوا طبقة
جديدة في المجتمع ، ومن أسباب استكثار الناصر من الصقالبة أنه لاحظ
أن جند العرب والبربر ، اذا انتظموا في الجيش انتظموا بعصبيتهم .
وكان هذا يؤثر على بناء الجيش ، لذلك رأى الناصر ضرورة القضاء على
العصبيات في الجيش ، ويجعل جنده متحدين كأفراد لا كعصبيات ،
وأدى هذا إلى ضعف جيش الدولة ، لأن العربي أو البربر لم يكن
يحسه في القتال سوى الحرب في العصبية ، لذلك استكثر الناصر من
الصقالبة في الجيش ، فقد رباهم في المعسكرات ، ونشأوا على الطاعة
والولاء لا عصبية لهم ولا وطن ولا أسرة •

المنشآت المعمارية في عهد الناصر

ازدهرت البلاد في عصر الناصر حضاريا : وتجلى هذا الازدهار في
المنشآت الفخمة التي خلدت اسمه ، وجعلته من أعظم ملوك أوروبا في
العصور الوسطى •

ومن أبرز منشآته ، مدينة الزهراء التي أسسها شمال غرب قرطبة ،
وعلى بعد ثمانية كيلو متراً منها ، وقد شيد الناصر هذه المدينة ، لتكون

مدينة ملوكيه ، يعيش فيه هو وأفراد البيت الأموي بعيداً عن قرطبة المزدحمة بالسكان ، وتروى بعض المصادر أسطورة تقول أن الناصر شيد هذه المدينة تخليداً لذكرى جارية له كانت تحمل اسم الزهراء ، هام بها جسماً .

كانت الزهراء مدينة مدرجة على مسطح الجبل ، القسم الأعلى فيه قصور الخليفة ، والقسم الأوسط بساتين ورياض ، والقسم الأعلى يحتوى على المسجد ومنازل الخاصة والحراس وكل قسم من هذه الأقسام له أسوار وأبواب . وقد أشرف على بناء الزهراء الحكم المستنصر ولدى العهد سنة ٣٣٥هـ ، وأنفق في بناء المدينة أموالاً طائلة ، زادت عن ثقة أميراد الدولة لمدة ١٧ سنة ، واستغرق بناء هذه المدينة أربعين سنة في عهد الحكم المستنصر .

وتفيد المصادر أن الناصر قد انتقل إلى الزهراء قبل اتمام بنائها ، ونقل إليها أبناؤه وأقاربه ومواليه وخدمه ، وظللت قرطبة مع ذلك العاصمة الرسمية ، ولا تزال بقايا مدينة الزهراء قائمة حتى يومنا هذا .

على أن العمran لم يستمر طويلاً في مدينة الزهراء ، فبعد ستين سنة منه ، تعرضت لبعث العابثين وللأعمال التخريبية التي صحيت نهاية الحكم الأموي ، وظللت المدينة في الزوال ، حتى أصبحت خراباً تبكي من شيدها وبنائها وأقام مرحاماً .

ومن أعمال الناصر الانشائية إعادة بناء مدينة سالم التي تقع شمال مدريد بنحو ١٥٣ كم ، وعرفت هذه المدينة باسم قائد من قواد الفتح الأول ، وقد تعرضت هذه البلدة للخراب في عهد الأمير عبد الله ، فأعاد الناصر بناءها ، وجعلها ثغراً حربياً لواجهة امارة قشتالة الناقصة . وأصبحت مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط إلى جانب طليطلة قاعدة الثغر الأدنى ، وسرقسطة قاعدة الثغر الأعلى .

والمعروف أن الخليفة الناصر وسع مسجد قرطبة الجامع . ومع أن الناصر حكم حوالي خمسين عاما ، وعذبت له في آخر حكمه الأيام ، فقد وجد في مذكراته الشخصية أن أيام السرور التي صفت له دون تكثير ، كانت أربعة عشر يوما ، وهذا يعطينا فكرة عن مقدار الجهد المتواصل الذي بذله الناصر طول مدة حكمه في التهوض بأعباء الدولة . ويدل على أن الملوك الذين يشعرون بالمسؤولية لا يجدون وقتا لراحة أو اللذة بالحياة .

ومما يدل على عظمة هذا الخليفة وتقدير ملوك العصر له أن الملك الأسباني أوردينيو ملك ليون زار الأندلس ، في أوائل عهد الخليفة الحكم المستنصر ابن عبد الرحمن ، زiar قبر الناصر ، وركع أمامه في خضوع مظهرا عظيم احترامه لذكراء .

ويعتبره المؤرخ دوزي من الملوك العصريين من حيث تحطيم بالروح الديمقراطي ، والأخذ بأسباب الحضارة وأتباع سياسة داخلية وخارجية ناجحة حتى كانت الأندلس في عهده من الدول الكبرى .

الحاكم المستنصر بالله

(٣٥٠ - ٩٦١ / ٩٣٣٦ م)

ولى المستنصر الحكم بعد أبيه ، وقد تجاوز الأربعين من العمر ودربه أبوه على ادارة بعض الولايات ، وقيادة الجيوش ، وولى المستنصر البلاد ، بعد أن وطد أبوه الحكم فيها ، وكفل للبلاد الاستقرار والهدوء ، وقضى على الفتن الداخلية ، وأضعف النصارى في الشمال ، وتحولت الأندلس في عهده إلى دولة كبيرة ، تخطب دول العالم ودها ، لذلك كانت مهمة مستنصر في الحكم سهلة ميسورة وانشغل بقراءة الكتب ، وكان دودة كتب — كما يقول لين بول أنشأ مكتبة في قصره الزهراء تتلطف من أربعين مائة مجلد ، وروى أنه قرأ معظم هذه الكتب ، بدليله أن تعلیقات بخط يده ، وجدت على هذه الكتب ، وأنفق الأموال الضخمة في شراء نفائس الكتاب والمصنفات ، ومن الكتب القيمة التي بعث في شرائها ، كتاب الأغانى لأبي المرج الأصفهانى ، وأشتراه بalf دينار .

وكما يقول المرحوم الاستاذ عبد الحميد العبادى أن من يقضى وقت في قراءة الكتب ، لا يستطيع أن يقوم بأعباء الحكم بكفاءة ، لأن منصب الملك لا يهوى لصاحبها أن يبلغ الذروة في العلم ، فيجب على الملك ألا يدفن نفسه في خزائن كتبه ، وإن يعني بمكتبته ومحفوظاته ، أكثر من عذائبه يتسمون الحكم ، والاتجاه إلى صالح دولته .

وكان الحكم يجذب العلماء إلى قرطبة ، وييذل في ذلك أمواه طائلة ومن أبرز العلماء الذين ظهروا في قرطبة في عهده ، العالم المنفوى أبو علي القالى ، وتصدى للتدریس في جامع قرطبة ، وجمع محاضراته في كتاب فسماه الأمالى ، وقدم هذا العالم الجليل الأندلس في عهد الناصر لدين الله وظل يواصل نشاطه في عهد الحكم ويتضمن الكتاب فصولاً متفرقة عن العرب ولغتهم وشعرهم وأمثالهم وأخباراً تاريخية .

تتصل بعرض شعرائهم ، ومن أشهر علماء الأندلس في عهد المستنصر ابن القوطية ، نسبة إلى أمه سارة حفيدة الملك غيطشة ، وله مصنفات منها كتاب في النحو ، يسمى الأفعال ، وكتاب في التاريخ ، يسمى العربي (تاريخ افتتاح الأندلس) ويدأ تاريخه من فجر الأندلس ، ويتحدث عن الفتح العربي لهذه البلاد ، ثم يتتابع الكتابة في تاريخ الأندلس حتى ينتهي بوفاة الأمير عبد الله سنة ٩١٢ م ، وقد أملى هذا الكتاب على تلاميذه ، بدليل ما ورد فيه مرارا وتكرارا من عبارة قال شيخنا أبو بكر أو قال ابن القوطية .

ومن أبرز العلماء الذين اجتبهم الحكم المستنصر إلى قرطبة ، محمد بن الحارث الخشنى ، وقد استدعاه الحكم من القبوران ، وأعدق عليه ، ومن أهم مؤلفاته ، « كتاب الفخاراء بقرطبة » ولهذا الكتاب أهمية كبيرة في دراسة الحياة الاجتماعية في قرطبة .

كما كان المستنصر يعقد حلقات البحث والدرس في قصره مع العلماء ، ويتدارس معهم فروع العلم ، ويناظرهم ويناقشهم ، شأنه شأنهم . وحرص كذلك على نشر التعليم بين عامة الشعب ، فأنشأ الكتاتيب في قرطبة وفي شقي بلاد الأندلس ، ليتعلم فيها أبناء القراء القرآن والقراءة والكتابة والحساب وبعض العلوم الدينية ، فمن إنشاءاته القيمة سبعة وعشرون مكتبا حول المسجد الجامع ، وبكل ربع من أرباض قرطبة .

ولم تزل كتب الحكم في قصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر ، وقد أمر ببيعها الحاجب واضح من موالي المنصور بن أبي عامر ، ثم نهب ما بقي عند دخول البربر قرطبة ، واقتحامهم الحاضرة الأندلسية عنوة . ومن المؤسف حقا أن الحاجب المنصور ابن أبي عامر ، أمر بحرق كتب الفلسفة أرضاء المفهاء .

ذاعت شهرة قرطبة بالكتب في عهد الحكم المستنصر ، فلم يقتصر اقتناء الكتب على الخليفة وحده ، وإنما تعداه إلى أفراد الشعب وكانت

الكتب من أروع متاجرها فقيل : اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه ،
حمله الى قرطبة حتى تباع فيها وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلات
حملت الى اشبيليه ٠

ومن أعماله الانشائية توسيع المسجد الجامع ، وامداد المسجد
بالماء العذب ، وتيسير وسائل الصرف الصحي ٠

السياسة الخارجية

١- الخطر الفاطمي في المغرب :

خفت حدة الخطر الفاطمي على بلاد الأندلس في عهد الحكم المستنصر ، ذلك لأن الفاطميين أدركوا أن بقاءهم في المغرب محفوف بالمخاطر ، بعد تعدد ثورات البربر ، وشعورهم بعدم الأمن والاطمئنان على بقاء دولتهم واستمرارها وأسس جوهر الصقلى مدينة القاهرة ، وانقتل الفاطميين إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ تاركا حكم المغرب في يد خلفائه بنى زيري زعماء صنهاجة ٠

وظلت بلاد المغرب موضع تنافس بين الأمويين والفاتميين واتخذ كل من العدوين المتنافسين حلفاء وأعوان وأنصار له في المغربين ، فجاء فيما كانت زنانة تتبع الأمويين وتناصرهم كانت صنهاجة حلفاء الفاطميين ، وأخيرا وبعد تنافس مويي بن زناته وصنهاجة ، سيطر الزبيديون من صنهاجة على القسم الشرقي للمغرب ، تحت السيادة الفاطمية ، وسيطرت زنانة على القسم الغربي للهند تحت السيادة الأموية في الأندلس ٠

وأدى ابتعاد المسافة بين الخلافتين إلى تخفيف حدة التوتر بينهما ، ومع ذلك حرص الأمويون على تأكيد سيادتهم على المغرب الأقصى تأميناً لحدود بلادهم من خطر فاطمي متوقع فأكد المستنصر سيطرته على مضيق جبل طارق عن طريق احتلال القواعد المغربية المطلة على المضيق مثل سبتة وطنجة ومد النفوذ عن طريقها إلى العدوة الغربية ، ولكن

الأدارسة في المغرب الأقصى ، طعموا في الاستقلال بملتهم ، واستعادة دولتهم ، ولكن الحكم تصدى لهم ، وأرسل اليهم قائده الشجاع غالب ، فاستعاد السيطرة الأندلسية على المغرب الأقصى ، وأخضعهم وقضى على دولتهم ، ونفى بقایا أسرة الأدارسة إلى قرطبة . وكان هذا آخر عهد لهذه الأسرة التي قامت في هذه البقعة في أواخر القرن الثاني الهجري .

٢ - الخطر النورماندي :

سبق القول أن النورمان بدأوا يشنون الغارات على سواحل الأنجلوسكسون في عهد عبد الرحمن الأوسط ، وأدى ذلك إلى يقظة الأنجلوسكسون ، وأنتساء أسطول قوي يتصدى لخطر أي هجوم بحري وقد عاد هذا الخطر الجديد على الأنجلوسكسون سنة ٣٦٠ هـ ، ويرى المؤرخون أن ريكارد الأول دوق نورمانديا — مؤسس هذه الولاية — شن هجوماً على السواحل الإسبانية بعيد من السفن ، فقصد المستنصر هذا الهجوم ، واتخذ كافة الاحتياطات منها للتحالف مع بعض إمارات نصارى الشمال ، واتخاذ العيون والجوايس ، للأخبار عن الهجوم قبل وقوعه وأمر بصنع بعض مراكب على هيئة مراكب (المجوس) ووضعها في الوادي الكبير تمهدًا لقتالهم بها على نفس طريقتهم وشن غارات على سواحل نورمانديا بغية اضعاف النورمان ولعب قيادته المشهور غالب دوراً كبيراً في هذا المضمار . وكان أشد غارات النورمان (المجوس) ضراوة على شواطئ الأنجلوسكسون ، ما حدث منها على غرب الأنجلوسكسون وفي مياه المحيط الأطلسي .

وقد هاجم النورمان في عهد الحكم سواحل جنوب البرتغال وسهول لشبونة ، حيث حدثت اشتباكات عنيفة قتل فيها من الطرفين كثيرون . ولكن الأسطول الأنجلوسكسوني لم يستسلم لعنف القتال ، وإنما طارد المراكب النورماندية حتى أباد معظمها ، واسترد أسرى المسلمين .

٣ - موقف المستنصر من نصارى الشمال :

قلنا أن عبد الرحمن الناصر ، اتفق قبل وفاته على إعادة سانشسو

إلى العرش بدلاً من أوردنيو الرابع ، مقابل أن يسلم سانشو إلى الناصر بعض الحصون ، وأعاد الناصر فعلاً سانشو إلى العرش ، ومات الناصر ، وولي الحكم المستنصر ، فانتهز سانشو الفرصة ، وماطل في تسليم الحصون ، ظناً منه أن الحكم ليس بقوة أبيه وأنه فيلسوف لا يفهم إلا الكتب . وفي غضون ذلك وفَدَ أوردنيو على المستنصر يطلب منه إعادته إلى الملك ، بدلاً من سانشو ، ولما علم سانشو بذلك ، وعد بتسليم الحصون خوفاً على ملكه وخوفاً من تخلف الملكين ضده ، ولكن توفى أوردنفيو ، فخلال الجو لسانشو ، ولم يعد أمامه سوى خصم واحد وهو الحكم ، فعاد إلى رفض تسليم الحصون ، وتحالف مع ملك قشتالة وملك نافار ، ولكن الحكم أرسل الجيوش إلى الشمال ، وهزمت الملحقة . وتُنكبَد سانشو خسائر جسيمة . وأدرك أنه لا قبل له بالحكم ، فسلم إليه الحصون .

واعتمد الحكم في إدارة شؤون دولته على وزرائه ومن أبرزهم وزير المصنف ، وكان يتصرف في إدارة الدولة تصرفاً مطلقاً ، ولا يرجع إلى الخليفة إلا في بعض الأمور ، ومن هنا ظهرت طبقة كبار الموظفين ، التي سيكون لها أثراً في الحياة السياسية في الأندلس بعد وفاة الحكم ، والتي ستفرض سلطانها على الدولة ، على حساب خلفاء البيت الأموي .

وكان ولِي عهد الحكم في العاشرة من عمره ، وأوصى رجال الدولة به ، وعهد إليهم بتربيةه وتدريبه على شؤون الحكم والسياسة وولي هشام الحكم بعد أبيه ، ولكن حرس كبار الموظفين على منعه من ممارسة سلطانه ، لذلك يمكن القول بأن فترة الازدهار في الخلافة الأموية كانت في عهد عبد الرحمن الناصر ، والحكم المستنصر قويت البلاد سياسياً وعسكرياً ، وازدهرت فيها الحضارة ، ونهضت فيها الحركة العلمية .

هشام الثاني

(٣٣٩ - ٩٧٦ / م ١٠٠٨ - ١٠٠٩)

تولى هشام الحكم وهو طفل صغير قد تجاوز عشر سنوات الا قليلاً، وظهر في الدولة حزبان يتنافسان حول السلطة والنفوذ، الحزب المدني، ويترעם الحاچب المصحفي وزراؤه ويرى هذا الحزب الموافقة على تولية هشام الحكم عملاً بوصية أبيه، وهذا الحزب يريد البقاء على هشام الطفل حتى يتسلّى له السيطرة على مقاليد الأمور في الدولة، والبقاء على هشام العوبة في أيديهم، يحكمون باسمه. أما الحزب العسكري، وقوامه المقايلية فيرى أنهم خاضوا غمار الحروب في الشمال وفي البحر وفي داخل البلاد، وأن لهم الحق في السيطرة على سياسة الدولة، وعلى الحكم، ويرى هذا الفريق أن هشام طفل لا يصلح للحكم، ويرشحون للخلافة رجالاً يستطيعون إدارة أمور البلاد، ودرء الأخطار الخارجية عنها، وقمع الفتن الداخلية، وهذا الرجل هو المغيرة بن عبد الرحمن الناهري. وتنازع الحزبان حول ترتير مصير البلاد، وانتصر الحزب المدني بقيادة المصحفي على الحزب العسكري، وتصدى لهذه المؤامرة الخطيرة محمد بن عبد الله بن أبي عامر، قتل المغيرة، وثبتت هشام الثاني على العرش، وتاريخ الأندلس منه تولية هشام حتى نهاية القرن الرابع الهجري هو في الحقيقة تاريخ هذا الشاب الذي وصل إلى الحكم والسيطرة على مقاليد الأمور في الدولة بأساليب ميكانيكية أي الغاية تبرر الوسيلة، لذلك يسميه دوزي بسمارك القرن العاشر الميلادي.

محمد بن عبد الله بن أبي عامر
الملقب بالنصرور

(٣٦٦ - ٣٩٣ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٢ م)

محمد بن عبد الله بن أبي عامر من أسرة عربية يمنية من قرية المعاشر ، اشتراك جده عبد الملك في جيش طارق بن زياد في عمليات عسكرية في الجزيرة الخضراء ، وبرزت هذه الأسرة في الأندلس ، وشغلوا مناصب هامة وكان منهم القضاة والولاة والعلماء ، وكان عبد الله والد صاحبنا من رجال العلم والأدب .

عرفه عن محمد بن عبد الله بن أبي عامر الطموح منذ نعومة أظفاره ، وتنقذ بثقافة أسرته ، فدرس اللغة والأدب على ، أبي على القالي البغدادي وابن القوطي ، وقرأ الحديث على ، أبي بكر بن معاوية بن القرشى ، ثم فتح دكانا بجوار قصر قرطبة لكتابة الشكاوى للخليفة الحكم ، وظهرت براعته في كتابة الشكاوى ، فكان يحسن عرض الموضوع ، ويكتب بعبارات أدبية جذابة ، وأسلوب ممتع ، فأعجب به الحكم ، وتقرب إلى السيده صبح زوج الحكم ، وكان يرسل إليها الهدايا في المناسبات ، حتى قيل أنه دخل معها في علاقة حب ، ومن هداياه المشهورة ، للسيده صبح ، قصر من الفضة الخامسة نموذج من قصر قرطبة ، وقد حمله الرجال إلى القصر وسط نظرات الاعجاب والدهشة ، ومازالت صبح تبادله الاعجاب ، حتى رفعت من شأنه ، خواص الحكم أمانة دار السكة ، ثم خواص قضاء بعض النواحي ، ثم عهد إليه بالاشراف على أموال الزكاة والمواريث في اشبيلية وعلى إدارة الشرطة فيها ، ثم جعله وكيلاً لولده هشام ولدى العهد ، ومازال ابن أبي عامر يرقى في سلك المناصب ، حتى أصبح من كبار رجال الدولة ، وفي مرتبة الوزراء ، ومن المساسة الذين يديرون دفة الأمور في الدولة .

تولى هشام الثاني الحكم – كما قلنا – بتأييد المصحفى وابن أبي عامر ، وبالطبع الام صحيح ، ورأى هؤلاء الثلاثة ضرورة التخلص من أعدائهم ومنافسيهم ، الصقالبة ، وزعمائهم المغيرة بن عبد الرحمن .

عهد هشام الى المصحفى بالحجابة — كما كان حاله في أيام أبيه — ورقى ابن أبي عامر الى مرتبة الوزارة ، بدلا من خطة الشرطة ، ولكن المصحفى كان يخشى على نفوذه من ابن أبي عامر ولا يستريح لبلوغه مرتبة الوزارة ، وكان ابن أبي عامر قويا بفضل مهارته ومقدرتها ، وتأييد صبح التام له ، وكانت صبح تطمئن اليه ، وتطمئن الى مقدرتها على تعزيز وضع ابنها الفتى ، وحماية ملكه ، وأدار شؤون البلاد بمهارة حتى صار الحكم المطلق في الأندلس ٠

كان لابد لابن أبي عامر من التخلص من كل الشخصيات التي تتعرض تحقيقاً لها وحده ، فبعد أن تخلص من المغيرة بن عبد الرحمن ، رأى نسراً ربة التخلص من الصقالبة ، ثم المصحفى الذي لا يزال من الناحية الرسمية الرجل الأول ، والمهيمن على السلطة العليا فيها وكان يضرب أعداءه ببعضهم حتى تخلص منهم تماما ، ولم يبق له في الحكم منازع ، وكان الصقالبة وعددهم ألف لا يزيدون عن يحسب حسابها فانتهز فرصة كرامته الحاجب المصحفى للصقالبة — الذين نافسوا بترشيح المغيرة بدلا من هشام — فحمل ابن أبي عامر الحاجب المصحفى على نكبة الصقالبة ، فجد في مطاردتهم واستصفاء أموالهم ، وأعمل فيهم القتل والنفي ، حتى هلك الكثير منهم ، وانهار بذلك سلطان الصقالبة ، وأمن الحاجب وأبن أبي عامر شرهم وتقلد الحاجب أمر القصر بدلا منهم ، ويذكر ابن حيان أن الصقالبة اشتد طغيانهم في القصر والدولة ، ونقلت وطأتهم على الناس وعلى الشعب قاطبه ٠

اعترم ابن أبي عامر بعد التخلص من الصقالبة ، على توطيد مركزه بين الجيش والشعب ، فقرر استئناف الجهاد ، وكان المصحفى قد أبدى تفاسفاً في ذلك ، حتى اتسع نفوذه : نصارى الشمال ، وكثُرت غاراتهم على أراضي المسلمين حتى اقتربوا من قرطبة ، فقداد ابن أبي عامر جيشا إلى الشمال ، وعاقب ممالك النصارى ، ولقائهم درسياً قاسياً ، وحذرهم من مفعة الاغارة على أراضي المسلمين ، وعاد محملاً

بالغنائم ، فأخذ على جنده ، ونال رضى الشعب والجيش ، والسيدة صبح ، وتطلع الناس اليه للقبض على زمام الأمور في الدولة .

لا يستطيع ابن أبي عامر تحقيق طموحه الا بالتخليص من المصحفى ورأى في الشقاق الذى نشأ بين القائد الشجاع غالب وبين غريميه - أقصد المصحفى فرصة لاضعافه والتخلص منه ، وضم ابن أبي عامر القائد غالب الى جانبها ، وسعى للرفع من شأنه أمم الخليفة والسيدة صبح ، حتى خرج المرسوم برفعه الى خطة « ذى الوزارتين » وانتدابه لقيادة جيش التغزير وجاهد ابن أبي عامر الى جانب القائد غالب في ممالك النصارى بالشمال ، وانتصر الرجالان ، وزادت مكانتهما في قربطة ، وتتحقق بينهما التحالف للتخلص من العدو المشترك المصحفى .

استطاع ابن أبي عامر استصدار مرسوم من الخليفة بعزل محمد بن جعفر المصحفى من ولاية قربطة ، وبذلك أضعف من نفوذ المصحفى ، وصدر مرسوم من الخليفة بتولية ابن أبي عامر حكم قربطة ، وبذلك سيطر على الجيش والحكومة معا ، وضبط العاصمة ، وتخلى من المفسدين ، وأعاد الامن والطمأنينة الى أهل قربطة . وبذلك ازداد نفوذ ابن أبي عامر ، في الوقت الذي ضعف فيه نفوذ المصحفى .

وقوى التحالف بين ابن أبي عامر ، والمائد غالب ، وواصل سويا الجهاد في الشمال ، وفي كل عزوة يحرزان الانتصارات ، ويعودان إلى قربطة محملين بالغنائم ، فترتاد مكانتهما في القصر على حساب الحاجب المصحفى ، ولم يلبث أن قلد الخليفة ، القائد غالب خطة الحجاجة إلى جانب جعفر المصحفى ، وبذلك ازداد المصحفى ضعفا ، وتوطدت العلاقة بين غالب وابن أبي عامر بصفة خاصة بعد المصاهرة التي تمت بينهما ، فقد متزوج ابن أبي عامر من ابنة القائد غالب ، وأخيرا آن الاوان للتخلص من المصحفى ، فأمر ابن أبي عامر بالقبض عليه بمرسوم استصدره من الخليفة ، اتهمه بتبييد أموال الدولة ، ومضادر

أمواله ، ونكب أهلها ، واستصفي أموالهم وأمر ابن أبي عامر بقتل بعض أفراد أسرة المصطفى ، بل طالبه بالمال الكثير ، حتى اضطره إلى بيع قصره المنيف ، ومازالت يخضطه بضع سنين حتى توفي سنة ٣٧٢ هـ . وبذلك تخلص ابن أبي عامر من خصم عنيد ، يقف عقبة في سبيل تحقيق طموحاته .

ولم يبق أمام ابن أبي عامر إلا القائد الأندلسي القوي غالب ، وعلى الرغم من المصاورة بينهما إلا أنه كان يتوجس خيفة منه ، ويراه خطرا على سلطانه ، وعقبة في سبيله ، وكان غالب يقيم بعيدا عن قربة ، وكان المعارضون ، يرون فيه الرجل الوحيد ، الذي يستطيع التصدى لابن أبي عامر ، والتخلص منه ، لذلك رأى ابن أبي عامر ابعاد القائد غالب عن طريقه ، فاستدعى ابن أبي عامر جعفر بن على ابن حمدون المعروف بالأندلسي من عدوة المغرب ، وكان من قواد البربر الأقوباء من زناته ، واستنصر له مرسوما بالوزارة ، واستعلن ابن حمدون بالبربر ، وأيده ابن أبي عامر ، ورحب بمقدمهم إلى الأندلس ، وأدخلهم في الجيش ، واستثنى ابن أبي عامر من البربر حتى اتخذ منهم الحرس والحاشية ، وتقوى بهم ، فارتبا القائد غالب في تصرفات صهره ، وتطور الشك إلى عداء شديد بين الرجلين ، انتهى بالحرب بينهما أمام حصن شفت بجنت ، ولكن القائد غالب أثناء المعركة ، سقط ميتا من فوق جواهه ، فدب الذعر في نفوس جنوده ، وشتت ابن أبي عامر شملهم ، وأمعن في جيش غالب قتلا وأسرا سنة ٣٧١ هـ . وبذلك تخلص ابن أبي عامر من هذا الفارس الشجاع .

ومع أنه استعلن بابن حمدون في التخلص من غالب ، إلا أنه رأى ضرورة التخلص من ابن حمدون حتى لا ينافسه في السلطان ، فاستعلن عليه بابن جهور وابن ذي النون وأولياء الدولة من العرب حتى تخلص

حتى السيدة صبح أم الخليفة التي أوصلت ابن أبي عامر إلى ما وصله إليه حتى شكل الناس في العلاقة بينهما ، تخلص منها أيضا ، فقد أغضبها استبداده بالأمر ، ومفع ابنتها الخليفة من ممارسة سلطانه ، وأرادت أن تقضى على نفوذه ، فاستعانت عليه ببعض زعماء البربر في المغرب الأقصى المعادين لابن أبي عامر ، وأرسلت إليهم الأموال والهدايا ، ولكن المؤامرة اكتشفها ابن أبي عامر في مهدها ، وأستولى على الأموال ، ثم استعانت بالفقهاء ، فأعلن الفقهاء في قربطبة أن ابن أبي عامر يستبد بالنفوذ دون الخليفة ، ولكن ابن أبي عامر دحض هذه التهمة بالتقارب إلى الخليفة ، واظهر الولاء والطاعة له ، والخروج معه في شوارع قربطبة في موكب ، وان الخليفة يحادث وهو يحادث الخليفة مظهرا الحضور والخشوع له ، وحدد من إقامة السيدة صبح ، وأحاط قصرها بالجوايسين ، وشدد الرقابة عليها ، حتى قضت بقية حياتها في زوايا الفسيان . وهكذا كان مصير هذه السيدة التي أوصلت ابن أبي عامر إلى ما وصل إليه ، وفبت الاشتراك معه في منع ابنها الخليفة من ممارسة نفوذه وسلطانه .

وهكذا تخلص محمد بن أبي عامر من منافسيه ، وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة وولي منصب الحاجب ، وهو أرفع منصب في الدولة ، ولقب بالنصرور سنة ٣٧١ هـ ودعى له على المناير ، شأنه شأن الملوك ، وكانت الكتب تتقدّم عنه ، وكان الناس يتقدّمون بيده ، كما لو كان الخليفة ، وأضحى ابن أبي عامر بعد أن قضى على كل منافسيه سيد الأندلس بلا منازع ، وصاحب السيطرة على الجيش ، والسيطر على سيادة الدولة . ولم يكن الخليفة هشام المؤيد سوى أدلة لينة في يد هذا الرجل القوى ، يوجهها كيف شاء .

جهاد المنصور ضد الممالك المسيحية في شمال إسبانيا :

أراد المنصور أن يضفي على حكمه هيبة وقوة ، فاستأنف عهد الجهاد ، وغزا الممالك المسيحية ، وكان يقود جيوبشه بنفسه في الرياح

والغريف أى في الضواط والشواطىء ، وبلغت هذه الغزوات سبعاً وخمسين غزواً على مدى حكمه الذي استمر حوالي خمساً وعشرين سنة ، وانتصر في كل هذه الغزوات ويروى ابن عذاري : أن المنصور اعتقد بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته مواطن جهاده حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بفرش قبره بهذا الغبار عند دفنه ، وكان يحمله حيثما سار مع أكفانه توقعوا لحلول منيته في أى لحظة .

حارب المنصور في جبهات المسيحيين المتعددة في قشتالة ولنون ونافار وقطالونيا ، وأنزل بهذه البلاد خسائر فادحة ، وما رأى أسبانيا القسمال هزائم ولا مذلة كهزائمهم على يديه فمدنهم الكبيرة دمرها ووصل إلى أقصى الركن الشمالي الغربي من إسبانيا ودانت له جميع إسبانيا شمالاً وجنوباً .

ومن أهم حملاته الغزو التي شنتها على برشلونة وقطالونيا في شمال شرق إسبانيا سنة ٣٧٤ هـ ، والحملة التي شنتها على جليقية شمال غرب إسبانيا سنة ٣٨٧ هـ . أما الحملة الأولى ، حملة برشلونة وقطالونيا ، فقد خرجت من العاصمة قرطبة ، وبلغت برشلونة بعد شهرين من زحفها ، فدمرها المنصور ولم يستطع أهل المدينة مقاومة هذا الجيش القوي .

أما حملة جليقية ، وهي الغزو الثامنة والأربعون ، فكان غرض المنصور منها ، هو غزو مدينة شنت ياقوب أى القديس يعقوب ، ويعتقد المسيحيون أنه من حواري السيد المسيح ، وترك القدس ، وساح في البلاد ، حتى انتهى به المطاف إلى هذه البلدة ، ومات فيها ، وأقام له السكان مقبرة ، فوقها كنيسة ، يزورها المسيحيون من شتى البلاد . لهم أن ابن أبي عامر هدم البلدة كلها إلا قبر هذا القديس . وهذه الانتصارات التي لم يشهد الأندلسيون مثلها في أي عهد سابق ، جعلت المنصور شعبية كبيرة ، والتفت الناس حول هذا البطل الذي أعاد لهم كرامتهم .

العلاقات الأندلسية المغربية في عهد المنصور

حرص المنصور على الاحتفاظ بالعدوة المغربية تلمنا لحدود دولته ، ودرءاً لخطر شيعي محتمل ، واصل بسط نفوذ دولته في تلك الأصقاع حتى دانت له البلاد العربية الممتدة من سجلعاشرة جنوباً سنة ٣٧٠ هـ والى ولالي تلمسان وقاهرت شرقاً .

ولتدعم هذه السيطرة على العدوة المغربية ، ولتلافي ثورات البربر في المستقبل ، أقام المنصور قاعدة عسكرية في الجزيرة الخضراء ، لمراقبة الأوضاع في العدوة المغربية ، وسرعة تجريد حملة عسكرية على هذه البلاد ، اذا ما أعلنت النوراة ، كما شيد المنصور منازل له واستراحات في الطريق من قرطبة الى الجزيرة الخضراء لسرعة حركته من قرطبة الى بلاد المغرب في حالة تمرداتها ، وهو نفس ما في الطرق المؤدية الى الشعور الأندلسية شمالاً .

وواجه المنصور عدة حركات استقلالية في المغرب ، تهدف الى التخلص من الحكم الأموي في الأندلس ، وأول هذه الحركات سنة ٣٩٩ هـ ، وقد تزعمها يلكين بن زيري الصنهاجي وهاجم ظاهر مسيبته ، ولكن جيش المنصور مزق جيشه كل ممزق ، والمحاوله الثانية التي قادها الحسن بن جنون — وهو من الأدارسـ — وقد لجأ الى يلاط انفاطميين في عهد الخليفة العزيز وحرضه الخليفة الفاطمي ، على المسير الى المغرب الأقصى ، واسترد ملك آبائه وأجداده ، ومسار ابن جنون الى بلاد المغرب الأقصى ، والتف حوله ، الزنانيون والعلويون ، وكثروا جمعه ، ولكن جيش المنصور ، هزم العلويون شر هزيمه ، وطلب ابن جنون الامان ، ولكن المنصور رفض لكثره نكثه وقتله ، الأمر الذي أثار استياء العلويون .

ومن أشد الثورات ضراوة في العدوة المغربية ضد حكم المنصور قادها زيري بن عطيه المغراوى الزناتى سنة ٣٨٦ هـ ، وهذا الزعيم ورجال قبيلته مغراوة لعبوا دوراً كبيراً في اخماد الثورة العلوية ، وهزيمة

أبن جنون ، لذلك كافياً المنصور زيري بن عطية ، بأن عهد اليه بحكم بلاد المغرب ، وأقام مدينة وجده سنة ٣٨٤ هـ على الحدود الجزائرية ، وجعلها عاصمة لدولته المغروبية ، وكانت العلاقات بين هذا القائد وبين المنصور قوية ، وكان يظهر له الولاء والطاعة ، ويقترب إليه بالهدايا النفيضة والأموال الكثيرة ، لكن حدثه نفسه بالاستقلال ببلاده عن الدولة الأموية في الأندلس ، وطرد عمال وولاه — المنصور من بلاده . ويختلف المؤرخون حول تفسير أسباب ثورة زيري ، فيرى البعض أنه استغل لقب وزير ، الذي منحه له المنصور ، وكان يريد لقب أمير ، ويرى آخرون أنه كان ينتظر من المنصور مكافآت مالية كبيرة . وهناك من يقول أن السيدة صبح حضرت زيري على الثورة ، وأرسلت إليه الهدايا ، وحضرته على التخلص من المنصور الذي حجر على ولدها الخليفة هشام بدليل أن شعار جيش زيري كان : هشام يا منصور .

ولتكننا نستطيع أن نقول بأن كل هذه الأسباب — إن صحت — اتخذها زيري ذريعة للثورة ، أما السبب الحقيقي للثورة فهو رغبة زيري القوية في الاستقلال ببلاده عن الدولة في الأندلس .

رأى المنصور ضرورة القضاء على هذه الثورة التي تشكل خطراً على النفوذ الأموي في المغرب ، فأرسل جيشاً إلى المغرب بقيادة مملوكة واضح المصطلبي — صاحب شفر سالم — وسار إلى طنجة ، وانضم إليه جموع البربر هناك ، على حين استصرخ زيري بن عطية قومه زناته ، فعزم أمره وقوى بأسه ، لذلك استطاع صد هجوم جيش الأندلس ، وارتد واضح عن فاس . هنا تاذ المنصور كل جيوش الأندلس إلى الجزيرة الخضراء ، وأرسلها إلى المغرب بقيادة ابنه المظفر عبد الملك وتشتت بين الفريقين معارك عنيفة بالقرب من طنجة دون نتيجة حاسمة . وفجأة اغتيل زيري بن عطية ، ويدو أن المنصور كان من وراء هذه المؤامرة التي أدت إلى تشتيت شمال جيشه ، ومزق عبد الملك جند زيري هزيمهم ، واستولى على فاس وسجلماسة ، ودانت بلاد المغرب لأقصى بالولاء والطاعة للدولة الأموية سنة ٣٨٩ هـ ، وعهد المنصور إلى إضع بحكم بلاد المغرب .

أعمال المنصور الإدارية والمعمارية

كان ابن أبي عامر اداريا من الطراز الأول ، واستغل مسلطاته المطلقة لمصلحة الدولة والشعب ، وكان يواصل الليل بالنهار في العمل ، ويقال ان ساعات عمله تجاوزت عشرين ساعة في اليوم في خدمة الدولة وتقىد أمرها بنفسه ، ووكل مهام الدولة الى رجال يثق بهم ، وكان يراقب أعمالهم بنفسه ، وبث عبونه في كل ناحية ليطلع على كل كبيرة وصغيرة ، وكان اداريا قديرا حازما ، وعلمتم أنه رغم أعماله المدنية وأعبائه الادارية الكبيرة كان يقود الجوش بنفسه .

اهتم المنصور بتنظيم الجيش ، وأنشأ صفوفا جديدة من المرتقة من زناته وصفاجه وغيرهما من قبل البربر ومن الجندي النصارى من ليون وقشتاله ونافار ، وبذل اهم الأجرور السخية ، واجتذب قلوبهم بعده ورفقه وجوده ، وغير أنظمة الجيش القديمة ، فقدم رجال البربر ، وأخر زعماء العرب ، وأقصاهم عن مناصبهم وفرق جند القبيلة الواحدة في صفوف مختلفة ، وكانوا من قبل ينتظرون في صفة واحد ، وكان العرب يتمسكون منذ أيام الفتح بوحدة القبيلة ، لأن العصبية كانت في قبائلهم في أيام الناصر ، ما تزال قوية ، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل العربية ، واضطجع هيبتها ، وجاء ابن أبي عامر ، فألقى الميدان مهددا لخططه ، فلم تلق سياسته الجديدة معارضه ، وبذلك جعل المنصور الجيش ، جيشا نظاميا دائما ، يتكون من فرق متعددة ، وكل فرقة تتالف من جميع هذه العناصر المختلفة كالعرب والبربر والصقالبة ، وكل جندي من هؤلاء يقتاضى مرقبا سوريا من الدولة حسب رتبته ، وزالت بذلك العصبية القبلية من فرق الجيش .

واهتم المنصور بالمحافظة على الأمن والطمأنينة في البلاد كما اهتم بالقضاء ، وراقب أعمال القضاة ، حتى يحكموا بالعدل ويعنوا الظلم .

ومن أهم الانجازات المعمارية للمنصور تأسيسه مدينة منكية جديدة ، يتذذها مركزا مستقلا للادارة والحكم ، ويستخدمها مظهرا

للسلطان ، وسمى مدینته الزاهرة ، سنة ٣٩٨ هـ ، وتقع بالقرب من قرطبة ، وأنشأ المنصور بها قصراً يلوكياً فخماً ومسجدًا ودواوين للادارة والحكم ، ومساكن للبطانة والحرس ، وأقام حولها سوراً ضخماً ونقل إليها خزائن المال والسلاح ، وادارات الحكم ، وقام بناء المدينة الجديدة في نحو عامين ، واقطع ما حولها للوزراء والقادة وكبار رجال الدولة ، فشيدوا الدور العظيمة وأنشئت الشوارع والأأسواق الفسيحة ، واتصلت أرياضها بأرياض قرطبة .

وفي سنة ٣٩٢ هـ توفي المنصور وهو منصرف من غزوة شمالية بالقرب من مدينة سالم ، وقد تنفس نصارى الشمال الصعداء ، فقد كتب أحد الرهبان في تقويمه عن هذه الجملة ، في سنة ١٠٠٢ م مات المنصور ودفن في الجحيم . وهذا يدل كما يقول دوزي على مقدار المراة والحضره التي يشعر بها النصارى من هزائم المنصور لهم .

عهد الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور

وبممات المنصور تتنفس ملوك أسبانيا المسيحية الصعداء ، وغمرتهم موجة من الفرح والاغتراب فلقد دمر المنصور بلادهم ، واكتسح سهلهم ، وهدم حصونهم ومعاقلهم ونشر الذعر واللعنة في قلوبهم ، وشرد جيوشهم ، وأزال سيادتهم ، وأذلهم بانتصاراته العديدة ، وغزواته المتكررة . فلما مات كتب مؤرخ لاطني في حولياته : « مات المنصور سنة ١٠٢ ، ودفن في النار » .

ولما علم هشام بممات ابن أبي عامر استقدم أباً مروان عبد الملك ابن المنصور ، وأمره بقمع حركة الفتیان الصقالیة الذين استغلوا هذه الفرصة لاسترجاع ثروتهم القديمة وحذره الخليفة مواجهة الدماء ، وخلع عليه ، وأخرج معه كتاباً بولاية الحجابة مكان أبيه . وهكذا قام عبد الملك بالحجابة ، وتلقب بالظفر سيف الدولة في ٣ رمضان سنة ٣٩٢ هـ ، وقضى على حركة الفتیان الصقالیة ، ونفى بعضهم إلى سبنته . وكان عبد الملك قد ورث كثيراً من صفات أبيه ، فاستوسق له الأمر

وأجتمع الناس على حبه لعدله وانسانيته وحمايته للشرع ، وسهره على رعيته ، ونصرته للمظلومين ، وجياده في سبيل الله « حتى أيس الاعداء من دولة بنى عامر ، وعلموا أنها وراثة » . وذكروا أنه كان يزور الصالحين والوليا في المقابر ، ويستهدي أدعية قرئ . ويذكر ابن الخطيب زيارته لابي أيوب . كذلك كان يزور المسجونين ويتفقد حال المسجونين ، وبكشف عن طلاق سجنهم فيطلقه . ويذكر ابن بسام نقاً عن أبي هروان بن حيان فقرات ذبها وصف لحالة البلاد في عهده منها : « راقت أيامه ، وأحبه الناس ، سرا وعلانية ، وأنصب الأقبال والتأييد عليه انصبابا لم يسد مع بمثله ، وسكن الناس منه إلى عفاف ونزاهة نفس ، فباخروا بالتعمة ، وأخذوا في المكاتب والزيينة من المراكب والملابس والقيان ، حتى سمت أثمان هذه الأشياء في مدته ، وبلغت الاندلس في أيامه إلى نهاية الجمال والكمال وسعة الحال ، في كتف ملك مقبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام ، مسرور بما تنافس فيه رعيته من زخرف دنياه . فاجتمع الناس على حبه ، ونجا من الفتن » .

ويضيف ابن حيان في ذكر حسناته وما ثاره فيذكر أنه كان من أكثر الناس حباء . نال حظوة الخليفة ورضاه ، فظفر بلقب المظفر ، وظفر ابنه بلقب ذي الوزارتين . ولكن لم يتحقق لعبد الملك أن يتمتع طويلاً بهذا اللقب ، إذ اعتقل أثناء عودته من صائفة إلى قلونية . من بلاد شبانجة بن غرسبي سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) ، وزاد به مرض الدبة الصدرية ، وتوفي بالقرب من قرهطبة في ١٦ صفر سنة ٣٩٩ هـ (٢٠ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) .

وفي عهد عبد الملك ظهرت عدة شخصيات كان لها أثراً كبيراً في الأحداث السياسية أهمها :

الفتى الكبير طرفة ، والوزير عيسى بن سعيد اليهصبي المعروفة أنظر كتاب تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس للأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم .

وحاول المظفر بعد عودته من غزوه المذكورة أن يجمع صفوفه ، ويفاجئ العدو بشتاية ، فأمر بالتأهب لذلك ولكنه كان مريضا ، وازداد مرضه في طريقه وذكر ابن عذارى أنه كان مصابا بذبحة أنهكه وتوفي وهو عائد إلى قرطبة بعد سبع غزوات .

لما توفي عبد الملك خلفه أخوه عبد الرحمن ، ولم يكن مثل أبيه وأخيه في قوة الإرادة وقضى حياته في لهو وعيث ، وساعت أحوال البلاد في أيامه ، وأصبحت البلاد على تهـ فى الانهيار ، وحدثته نفسه بالاستيلاء على السلطة الشرعية ، وهذا أمر لم يجرأ عليه أبسوه وأخوه ، وكان هشام ضعيفاً يوافقه عنى كل ما يطلب منه ، وطاب منه عبد الرحمن أن يعهد إليه بولاية العهد فوافقه هشام ، وكتب عهداً بذلك جاء فيه : أن الخليفة لم يجد من هو أصلح لولاية العهد من هذا القحطانى عبد الرحمن . وقد جعل هذا العمل بالقضاء على الدولة العاميرية ، فكبـر على الناس ضياع الخلافة من قريش ، ورفض المضريون توليه اليمينين الخلافة ، كما رفض البيت الأموي ضياع الخلافة منه ، وثارت البلاد ، وانتهز المعارضون فرصة غياب عبد الرحمن ببعض الغزوات في الشمال ، وخلعوا هشام من العرش ، وولوا رجلاً من أحفاد الناصر هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر ، ولقبوه المهدى بهـ ، فعاد عبد الرحمن مسرعاً من الشمال ، ولكن جنوده انفضوا من حوله ، وهاجمه الثوار وقتلوه سنة ٣٩٩ هـ .

وبمorte انتهت الدولة العاميرية . وهذا يدل على أن الناس مرتبون بالخلافة كل ارتباط .

بقى من عمر الخلافة الأموية ٣٣ سنة ، وهذه الفترة اصطلاح على تسميتها بعصر الفوضى ، فقد اضطربت البلاد ، ولم يستطع الخلفاء الاستمرار في الحكم إلا لفترات محدودة حتى أن من ولـى الخلافة في فترة الفوضى ، يزيد على من ولـىـها في القرون الثلاثة الماضية وظهرت العصبيات ، وأشتد النزاع بين الصقالبة وأهل قرطبة والبربر ، وأعطـت هذه الحروب

الأهلية الفرصة لنصارى الشمال لاسترداد كل ما أخذه الحاجب المنصور ابن أبي عامر ، بل توسعوا أكثر من ذلك على حساب ملك المسلمين ، وكان زعماء العصبيات يستعينون بالنصارى ضد خصومهم من المسلمين وانتقل بنو حمود من سبته إلى الأندلس ، واستقروا في قرطبة ، وحاولوا السيطرة على الأندلس ، ونazuوا الامويين السلطة والنفوذ في الأندلس .

وفشل بنو أميه فشلا ذريعا في استعادة وحدة البلاد وقوتها ، وانتهت بموت آخر خلفائها المعتمد بالله . وبموته أعلن الوزير أبو محمد بن جعور ، انتهاء الخلافة لعدم وجود من هو جدير بها ، وأنه سيحكم الدولة جماعة من الوزراء على نظام شبه جمهوري عرف في كتب التاريخ بحكم الجماعة وتابع سقوط الدولة الأموية ، انقسام الأندلس إلى دويلات متازعة ، فسيطر البربر على الجنوب ، وخضع الشرق للصقانبة أما البقية الباقية فقد آلت إلى المغلبين . وقد حكم في هذه الفترة التي تقع بين عامي (٤٢٢ - ٤٨٤ هـ) نحو عشرين أسرة مستقلة في عشرين مدينة . ومن أشهرهم بنو عياد في أشبيلية وبنو حمود والأدارسة في مالقة والجزيرة ، وبنو زيري في غرناطة ، وبنو هود في سرقسطة وبنو ذي النون حكام طليطلة وبلنسية ومرسية والمرية .

وعلى الرغم من هذا التمزق ، فقد ازدهرت الحياة الأدبية في الأندلس وتتفاضل الأمراء بتقريين بلاطهم بالعلماء ، وكان الفلاح أو الصانع يروي الشعر ، ويقرأ في فروع العلم ويجاس في المسجد للدراسة .

وتتجدر بنا الاشارة إلى شيخ جليل عاصر هذه الدولة وهو ابن حزم وينسب إلى أصل فارسي ، دخل جدة في خدمة يزيد بن أبي سفيان ، وفدت أسرته إلى الأندلس ، وأقامت في غربها حيث ولد صاحبنا سنة ٣٨٤ هـ ، بدأ حياته بالثقافة الابتدائية في عصره ، وهي حفظ القرآن . وبعض الأشعار ، والكتابة والمقراءة والحساب ، وكان أبوه وزيرا في أواخر عهد الدولة الأموية ، ولكنه عزل ، وحلت به النكبات ، وعانت

الأسرة في بؤس وشقاء ، وتوفي أبوه سنة ٤٠٢ هـ ، واضطربت الأسرة إلى مغادرة قرطبة سنة ٤٠٤ هـ بعد اشتداد عنف البربر ، واستقرت في المريه .

عكف ابن حزم في سببته عن دراسة العلوم الإسلامية خصوصاً الحديث والأخبار ، ولما ذهب إلى نافسيه ، عكف على دراسة الفقه وكان ابن حزم يدرس كل ما يصل إليه من كتب ، وعلى كل من يلقاء من شيوخه .

ولقد تعرضت أسرته للاضطهاد ، بعد أن حكم قرطبة آل حمود ، واتهموا أسرة ابن حزم بمحاوله إعادة الحكم إلى الأمويين واستوزر الخليفة الأموي المستظهر الذي استرد قرطبه من آل حمود — ابن حزم ، ولكن هذا الوزير لم يلبث أن قُتل في هذا العصر المضطرب ، وزج ابن حزم في السجن ، ثم أفرج عنه .

وعاد ابن حزم إلى الاستغلال بالعلم والدرس ، وانصرف على دراسة الفقه والحديث والجدل والدعوة إلى الإسلام ، والرد والتصدي لأعداء الإسلام ، ثم عاد إلى السياسة ، وشغل منصب وزير الخليفة المعبد — آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس — وهذا آخر عهد ابن حزم بالسياسة وظل ابن حزم على ولاء تام للأمويين ، وكان يقف إلى جانبهم ، ويعيدهم ، ويتولى المناصب الهاامة في دولتهم ، وي تعرض للأذى في سبيائهم .

ما اضطربت الدولة الأموية سنة ٣٩٩ هـ ، اضطربت معها أسرة ابن حزم ، فأخذت تنتقل من بلد لآخر ، ولم يستقر لها مقام ، فانتقلت من نرق قرطبة إلى غربها ، ثم انتقلت إلى المريه ، ثم كان النفي ، ورغم ذلك كان يعيش في رغد من العيش ، وكان لانتقال ابن حزم من بلد لآخر ، أثر كبير في تفكير الناس ، الكثير من الناس يستمعون إليه ، ولكن بعض الفقهاءعارضه وكان ينشر آراءه أينما حل ، وكان الفقهاء يأخذون عليه مخالفته

للمذهب المالكي ، ونقده النديد لهذا المذهب الذى لا يعتمد تماما على
النصوص .

تنقل ابن حزم بين بلدان الأندامىن التى انقسمت الى دوبيلات ينشر
علمه وآراءه على الناس ، حتى نزل باشبيليه ، ويحكمها المعضد بن عبد ،
وقد استقر آراءه ، وأمر بحرق كتبه ، وذلك بتحريض من الفقهاء الذين
استكروا مهاجمة ابن حزم للإمام مالك والأئمة الأربع ، وخروجه على
الناس بفقه لا صلة له بفقه الأئمة الأربع .

يضاف الى ذلك أن المعتقد كان ساخطا على ابن حزم لأنّه أموى
التزعة ، وفي تنقلاته بدون الأحداث ، وختى المعتقد أن يكون ابن حزم
قد استهدفه ، فرأى احراق كتبه ، ولذا يقول ابن حزم أن علمه الذى فى
صدره لم يحرق ، وأنه معه حيث تنقل ، وان أوراقه التى أحرقت ،
سيسجل غيرها ، أو يحدث به الناس ، أو يموت في صدره .

افتهرت رحلات ابن حزم الى الاقامة في قرية يملكونها أسلافه ، وآلت
اليه ، وهو يشغل كل وقته في البحث والتأليف والتدريس لطلاب العلم ،
ولم يعر اهتماما بالمجادلين والمعارضين نه ويبلغت شهرته الآفاق ، وكان
الطلبة يفدون عليه من كل مكان ، وهذه القلة القليلة من طلاب العلم الذين
كانوا يتعلمون منه في ضياعته في أيامه الأخيرة ، هي التي نشرت علمه من
بعده . ولم يعد التاريخ يذكر ابن حزم وزيرا أو سياسيا بارزا ، إنما
يذكر له شهرته كأمام مجدد وظل يدرس ويعلم حتى وفاته سنة ٤٥٦هـ .

تنقه ابن حزم في علوم متعددة ، كان كاتبا أدبيا ، عالما في الفلسفه
والمنطق ، له آراء فريدة في الفلسفة حتى أنه يعارض آراء أرسطو في
المنطق ويكتب التاريخ بكل دقة ، ويختصه من المبالغات والشوائب ويتحقق
في الانساب بدقة وعمق ، وكان حافظا للحديث ومحيطا به وفوق ذلك فقيها
أحيا وجدد علم الظاهر ، لأنه المنهاج الذى يتمكن به من بيان أحكام القرآن
والسنة . يضاف الى ذلك أنه عالم بالملل والنحل غير الاسلامية والفرق

الاسلامية ، ولا يقصد في عام العقائد الا ما كان واضحًا ظاهرًا ولا يقصد
إلى المناهج المعقّدة المتأثرة بمناهج اليونان .

ويناقش الفلاسفة ، ويستكثرون معتقداتهم بالدليل القاطع . وبذلك
لم يدع ابن حزم فراغاً من فروع العلم إلا تناوله بالدرس وهو من
أكثر العلماء تأليفاً وتصنيفاً ، بحث في العلوم الإسلامية كلها .

كان ابن حزم عالماً في العلوم النحوية كالتفسيير والفقه والحديث
وعلوم اللغة ، كما كان عالماً في العلوم العقلية خصوصاً المنطق والفلسفة
وال تاريخ ، وصنف كتاباً قيمة في هذه المجالات ومن العلماء الذين اعتبروا
لابن حزم بالتبصر والاجتهاد النطاق والثقافة الواسعة والعلم الغزير
تلميذه الحافظ الحميدي . قال كان أبو محمد حافظاً عالماً بعلوم الحديث
وفقه مستبطاً للأحكام من الكتاب والسنة ، متقدماً في العلوم جمة ، عالماً
بعلمه زاهداً في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له لأبيه قبله ، في الوزارة
وتدبير الملك ، متواضعاً ذا فضائل جمة ، وتواليف كثيرة ، في كل ماتحقق
به من العلوم ، وجمع من الكتب والمنسفات والمستدات كثيراً ، وسمع
سماعاً جماً ، وما رأينا مثله وكان له في الأدب والشعر نفس واسع ،
وباع طويلاً ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ، وشعره
كثير ، وقد جمعناه على حروف المعجم .

وقال ابن خلكان : كان ابن حزم حافظاً عالماً بعلوم الحديث
وفقه مستبطاً للأحكام من الكتاب والسنة ، بعد أن كان شافعى المذهب ،
فانتقل إلى مذهب الظاهر ، وكان أدبياً شاعراً ، طبيباً ، له في الطب
رسائل ، وكتب في الأدب .

أما عن أسلوب ابن حزم – في كل هذه المؤلفات والمنسفات فهو

أما أشهر مؤلفات ابن حزم في التاريخ :

جوا مع المسيرة •

• أسماء الصحابة الرواة •

القراءات المشهورة في الأمصار *

• أسماء الخلفاء والرواة •

جمهوره انساب العرب

نقط العروس في تواریخ الخلفاء .

رسالة في فضل علماء الأندلس *

رسالة في أمور الخلفاء

الامامة والمعياسة في سير الخلفاء .

ذكر أوقات الأماء وأيامهم في الأندلس .

غزوات المنصور ابن أبي عامر •

وأحصى الزميل الأستاذ الدكتور صلاح الدين بسيونى رسالن، مؤلفات ابن حزم في الفلسفة وعلم الكلام ، فبلغت ٢٢ كتابا ، وفي الفقه والشريعة ٤٤ كتابا ، وفي التاریخ ٤٣ كتابا ، وفي اللغة والأدب سبعة كتب ، وفي الطب سبعة كتب ، وبلغت بذلك مجموعة كتبه ١٠٤ كتابا ، وهي الكتب المعروفة التي لم تفقد ولم يتسرّب اليها العبث .

نشأ المذهب الظاهري للحفظ على النصوص ، والوقوف عندها وعدم تجاوزها • والمقصود بالظاهر ، هو ظاهر اللفظ من ناحية اللغة أي ضرورة الأخذ بالمعنى اللفظي الظاهر للكلام ، وتجاوز النص يعتبر تبديلاً ل الكلام الله ، ولقد سبق ابن حزم بذلك المنهاج داود بن على ابن خلف البغدادي ، واختار ابن حزم هذا المذهب ، لأنّه مذهب الكتاب

والسنة ، واجماع الصحابة ، وليس لأحد فيه أن يقلد أحدا ، وفي نفس الوقت يقول ابن حزم : إن التقليد حرام ، ولا يحل لأحد أن يأخذ يقول أحد من غير برهان .

ويقرر ابن حزم : أن أهل النظر والأدراك ، ومن توافرت عندهم أدوات الاجتهاد ، لا يسوغ لهم أن يقلدوا أماماً كل ما يقوله أو كل ما قال وقرر من غير ترجيح . ويقول ابن حزم : إن الناس فريقان : أحدهما تخصص للدراسات الإسلامية ، فتوافرت له الأساليب لتعرف الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله من غير توسط أحد ، وهم الأئمة المرشدون ، والثاني العامة لم يدرسوا الإسلام ، ولكنهم يريدون معرفة ما عليهم من واجبات ، لذلك هم في حاجة إلى التعرف على أحكام الدين من العلماء المقربين منهم ، والمنهج الظاهري الذي اختاره ابن حزم يفتح باب الاجتهاد ، لأن المذهب الذي يستند إلى الكتاب والسنة مباشرة ، ويأخذ المفاظ بظواهرها اللغوية ، ولا يحاول تعليل الأحكام واستخراج العلل وتعديمهما بل يأخذ المعنى التكليفي من اللفظ .

ويذكر ابن حزم أن المصادر الرئيسية لفقهه الإسلامي ، هي القرآن الكريم بالدرجة الأولى ، ونص كلام الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) والإجماع ، وهو ما أجمع عليه شيوخ علماء الجماعة الإسلامية ، والقرآن الكريم هو الأصل لهذه الشريعة . ويأخذ ابن حزم بظاهر القرآن الكريم ، لذلك كان كل لفظ من القرآن يؤخذ على مقتضى ظاهره أو يقول ابن حزم : ولما تبين بالبراهين والمعجزات أن القرآن هو عهد الله اليقنا الذي التزمنا بالعمل بما فيه وجبه الانقياد لما فيه ، فكان هو الأصل المرجع إليه « ما فرطنا في الكتاب من شيء » فما في القرآن من أمر ونهي فهو جب الوقوف عنده ، والسنة عند ابن حزم تفصل ما في القرآن من عموميات ، وأهل الظاهر يأخذون بظواهر النصوص ، ولا يقبلون التعليل والقياس . ويرى ابن حزم أن النصوص لا تتعارض ، ولا يوجد

تضارب بين نصوص القرآن والسنّة ، بل النصوص كل متكامل تبين وتوضح أحكام الشريعة الإسلامية ، وما دام المصدر الإسلامي للشريعة هو الله فلا يمكن أبداً وجود تعارض بين النصوص .

ويقرر ابن حزم أن معرفة الناسخ من المنسوخ هو الركن الأعظم من أركان الاجتهاد ، والناسخ في نظر ابن حزم بيان لأحكام ولا يتذكر للنصوص ، لأن معرفة الناسخ من المنسوخ هو الركن الأعظم من أركان الاجتهاد .

والأجماع في نظر ابن حزم ، هو ما نقلته الأمة كلها عصراً بعد عصر كالإيمان وأصول الصلوات المفروضة وأوقاتها وعدد ركعاتها والصيام وشهره ووقته والحج ووقته ورकته .

ويوضح ابن حزم أن الأجماع من غير نص غير ممكن لاستحالة الاجتماع ، ولا اختلاف أساليب تفكيرهم .

ويرى ابن حزم أنه لا رأى في الدين ، فليس لأحد أن يجتهد برأيه ويدعى أن ذلك حكم الله تعالى ، لأنه لا يحق لأحد أن يتحدث عن الله غير رسول الله ، وما يتوصل إليه الشيوخ من آراء واجتهادات هي أحكامهم ، وأيضاً حكم الله تعالى ، ولا يحل لأحد الحكم بالرأي ، وينفي ابن حزم القياس .

ولا يجوز في رأى ابن حزم تقليد أحد لا من الصحابة ولا من غيرهم ويعتبر أن الأخذ برأي الصحابي من غير دليل من السنّة ، غير صحيح لأنه لا يؤخذ إلا من الكتاب والسنة أو الأجماع القائم على نص منها أو الدليل المقتبس من هذه الأمور الثلاثة .

انتشر الذهب الظاهري في الدولة الإسلامية بعد وفاة ابن حزم نشره تلاميذه في أقاليم الدولة الإسلامية ، سرقها وغربها ، وظهر في

الأندلس فقهاء ظاهريون ، ومنهم الحافظ أبو الخطاب مجد الدين بن عمر بن الحسن ، وقد طاف بأقاليم الأندلس كاها ، وتوفي سنة ٩٣٣ هـ ، وكان محيي الدين بن عربي ظاهريا ، وكان ابن عربي في عصر الموحدين الذين نشروا المذهب الظاهري في المغرب والأندلس . ويوضح شيخنا الجليل الإمام محمد أبو زهرة : أن آخر القرن السادس الهجري وأول القرن السابع عصر ازدهار الذهب الظاهري ، فقد ساد بلاد المغرب والأندلس في عهد يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) واستمر من بعده . وفي أيامه « انقطع عم الفروع وخاصة الفقهاء ، وأمر باحرق كتب الذهب بعد أن جرد ما فيها من أحاديث رسول الله والقرآن ، فأحرق منها جمأة فيسائر البلاد .

تأثر ابن حزم في شعره باشتغاله بالفقه والحديث والجدل والأنساب والتاريخ ، وخضع في مذهبه الشعري إلى تفضيل مواضيع ذات طابع ديني . ولقد تأثر ابن حزم في شعره بالاضطرابات التي سادت الأندلس والفتنة التي مزقت هذه البلاد ، وشهد في شبابه دمار قرطبة ، وتغير مجرى حياته ، فبعد أن كان متربعاً في معيشته ، ذاق مرارات الحرمان والبعس ، ولكن ابن حزم صمد للشدائد والصعاب وأحيث المحن التي تعرض لها ابن حزم ملكات أفادت مجتمعه تشعيلاً وتنوعت ثقافة ابن حزم حتى اشتملت جميع أنواع المعرفة في عصره — ما عدا الحساب والهندسة — فلقد تم專ص في علوم الحديث والفقه والأديان واللغة وال نحو والأدب والتاريخ واطلع على المؤلفات الأندلسية ، ودرس المنطق والفلسفة والفلك . وتدل رسالته في فضل الأندلس على تقديره لثقافة أهل بياده في تاريخها ورجالها ومؤلفاتها وأدبها وشعرها (١) .

ويقول صاعد : كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة مع توسيعه في علوم اللسان والبلاغة

(١) أحسان عباس : تاريخ الأدب الاندلسي ص ٣١٥ .

والشعر والسير والأخبار ، وكان جماعاً للكتب ، جمع منها في علوم الحديث والمنففات والمستدفات شيئاً كثيراً ، كما كان كثير التقيد لا يدع شيئاً يفوته من سماع أو قراءة أو مشاهدة لذلك كثرت مؤلفاته وبلغت أربعين مائة مجلد .

كان ابن حزم يقول الشعر بسرعة على البدية ، ولذلك كثر شعره ، وأكثر ما ذكره دون العشرين كان في الغزل ثم رثاء لجارته ، وكان يراسل بعض أقاربه وأصدقائه بالشعر ، وتمتليء بعض قصائده بالحكمة ، وبعضها يتوجه إلى تمجيد الزهد ، وبعضها في تشبيح الله وتمجيده واثبات حدوث العالم ، وبعض قصائده يحت فيها على دراسة الحديث ، ومن قصائده الرائعة القصائد الذاتية التي يدافع فيها عن اتجاهاته ، ويندد بكراهية بعض الناس له وانكاره لغضله . وتظهر في بعض أشعاره الروحانية الغيبية كلما وجد قلقاً من التشدد بالأخذ بالظاهر ^(١) .

يعتبر كتاب طوق التمامـامـه لابن حزم كتاب في الحرب لفقـيه من فقهاء الأندلس ، قضى حياته في المحادلات الدينية ، حيث عرض في هذا الكتاب أشعاره الغزالية المتنوعة ، ويقصد من ذلك تصوير بعض مواقف حياته مخفياً أسماء بعض الأشخاص حيناً مصراً بها حيناً آخر ، لذاك فإن الكتاب ترجمة ذاتية ، تصور حياة صاحبه ومجتمعه والعلاقات الاجتماعية ، وفي هذا الكتاب يوضح نوعاً من الحب ، وهو الحب العذري ، لم يكن معروفاً في الأندلس من قبل .

ويبدو أن ابن حزم ألف كتابه بعد خروجه من قرطبة ، اذ تتضح في هذا الكتاب حسرته الشديدة على خروجه من قرطبة ومقارنته أهله ودياره التي خربها البربر ، ويتحدث عن مشاهداته في مدن الأندلس المختلفة ، ويبدو أنه صنف كتابه بعد انتزاعه لحياة السياسية أى بعد

(١) المقرى : نسخ الطب ج ١ ص ٣٦٤ تاريخ للأدب الاندلسي من - ٣٢٢ : ٤١٦ .

حوالى سنة ٤١٩ هـ ، وقد ذكر في سبب تأليفه لهذا الكتاب بأن صديقاً
كلفه بتصنيف رسالة في الحب ومعانيه وأسبابه وأغراضه ، فنصف
هذا الكتاب (١) .

وتقسم ابن حزم رسالته هذه إلى ثلاثين باباً ، عشرة منها في
أصول الحب ، ثم كيف يتدرج من التعرض إلى الاشارة إلى المراسلة
إلى المفارقة — اثنا عشر في أغراض الحب وصفاته محمودها ومدحومها
وهو يقرن كل صفة بما ينقضها — وستة أبواب في الآفات الداخنة
على الحب — وخاتمة في بابين تحدث فيها عن قبح المعصية ، وعن
فضل التعفف ، لكي يقرن الحب بروح الاتدين ، ويكون كلامه فيه دخلاً
في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ويتوسّع ابن حزم في هذه الرسالة من مدلول الحب ، ويفصل
قصصاً عن الصداقة ، وحكايات عن آداب المكسوف .

والنفس بطبعتها جميلة تولع بالجمال .

١٠

وأفضل ضروب المحبة عند ابن حزم محبة المقربين في الله عز وجل
أما الاجتهاد في العمل ، وأما الاتفاق في أصل النحلة والمذهب .
واما الفضل علم يمنحه الإنسان ، ومحبة القرابة ، ومحبة الأئمة
والأستراك في المطالب ومحبة التصاحب والمعرفة . . . وتکتم ابن حزم
عن أنواع المحبة ودرجاتها ، والحب العاطفى ، والحب الجسدى عوالحب
النائم على الزهو والغرور :

فکما العقل واحد ليس يدرى
خلقًا غير واحد رحمان
لهذا القاب واحد ليس يهوى
غير فرد مباعد أو مدان

وكذا الدين واحد مسنتقىم ركن سور من عنده دينان

ويتكلّم عن أنواع الحب ويقول : أعلم أن للحب حكما على النفوس ماضيا وسلطانا قاضيا وأمرا لا يخالف ، وحدا لا يعصي ، وملاكا لا يتعدي ، وطاعة لا تصرف ، ونفاذها لا يرد ، كما تحدث عن آفات الحب .

بدأ ابن حزم رسالته بالدفاع عن الحب وجلاله ، ويقول : أوله عز وآخره جد ، دنت معانيه لجلالها من أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة ، وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة ، أذ القلوب بيده الله عز وجل ، ويعرف ابن حزم الحب تعريفا فاسفيا بقوله : وقد اختلف الناس في ماهته ، وقالوا وأطلقوا ، والذى أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المتسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع ^(١) .

والمحبة عند ابن حزم لا تقوم بين متنافرين أو متضادين ، لأن المخلوقات إنما تتصل أو تتفصل بسبب تمازجها أو تباينها . . . والمجانسة عمل محسوس وتتأثير مشاهد . . . وكلما كثرت عناصر المشاكلة بين المتحابين زادت المجانسة ، وتأكدت المودة .

أن الحب ثمرة المشاكلة بين الحب والمحبوب ، ولا يكون إلا بازدواج النفسين وامتزاج الشكليين ، وهو دليل على تمازج الروحين . . . وينبع من تجانس الأرواح نور ساطع ، تتوتر لاشراقة طبائع الحياة .

ومن أبرز كتب ابن حزم كتاب « الفصل في المال والأهواء والنحل » تكلم فيه عن الفرق المخالفة لدين الإسلام ، وناقش آراء الفلسفه

(١) ابن حزم : طوق الحمامه ص ٥ - ٦
صلاح دستان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم .

فيما وراء الطبيعة ، وتكلم عن فرق النصارى شارحا آرائهم ، وتحدث عن الأنبياء والرسل ، ورد على المعارضين على الشرائع ، وكتب عن اليهود وعلى من أنكر التثلية من النصارى ومذهب الصابئين ، ومن أقر بنبوة زرادشت من المحبوس وأنكر ما سواه ، كما تكلم عن المتناقضات الظاهرة في التوراة والإنجيل ، وأبرز أن السامرة بآيديهم توراه غير التوراة الذي مع اليهود ، وناقش بعض ادعاءات اليهود الباطلة ، ووصف قيام بنى إسرائيل على موسى ، وتكلم عن فضول التوراة وما فيها من تحريفات ، وذكر بعض ما ورد في كتبهم ، فأوضح ما نقره من كتب التوراة والأنبياء ، وناقش خطأ من أنكر أن التوراة والإنجيل غير محرفين ، وذكر شيئاً من كلام أحبائهم .

ثم تكلم عن الانجيل وكتب النصارى وما فيها من التناقض ، وذكر ما تتبته النصارى بخلاف نص التوراة ، وذكر متناقضات الانجيل الأربع ، وذكر بعض الأكاذيب في كتبهم ، وتكلم عن بعض اعترافات للنصارى على المسامين وبيان فسادها ، وتكلم عن بطلان ما تمسكت به النصارى من بعض أقوال المرافضة وبيان بطلانها . وذكر فضولاً يعرض بها الملحدون على ضعاف المسلمين ، وتكلم عن كروية الأرض ، وكذب من ادعى أن مدة الدنيا عدداً معلوماً وذكر هرقل الإسلام ، وأوضح النحل ، وتكلم عن آراء المرجئة في الإيمان والكفر ، وأوضح خروج بعض الفرق على الدين الإسلامي ، وتكلم عن التوحيد ونفي التشبيه ، وتكلم في صفات الله وفي الحياة وناقش مسائل في السخط والرضا والعدل والصدق والملك والخلق والجود والإرادة والحساء والكرم .

الممالك النصرانية خلال القرن العاشر «الميلادي»

لما ضعف أمر المسلمين في الأندلس ، وانسنت الصراع بين القوى الإسلامية في هذه البلاد ، قويت الممالك النصرانية في مطلع القرن العاشر الميلادي ، حتى كانت مملكة ليون ، التي خافت مملكة جييقية ، وسيطرت على ولاية قشتالة في اواسط أسبانيا الشمالية ، اشتد بأسها وقوى أمرها ، وأصبح في امكانها التصدى للمسلمين بل وتوجيهه الضربات العنيفة لهم ٠

وعلى الرغم من أن عبد الرحمن الناصر كان مسيطرًا على الأندلس مهاباً في هذه الديار ، إلا أن النصارى بقيادة أوردنبيو الثاني انتصروا على المسلمين انتصاراً حاسماً في موقعه شانت شنتين سنة ٩١٧ م ولكن النصارى شغلوا عن مواصلة الانتصارات على المسلمين وذلك بسبب الانقسامات الداخلية بينهم ، فقد اشتد النزاع على العرش بين سانشو والfonso — ولد أوردنبيو — وانتهى هذا الصراع بتوليية fonso العرش بمساعدة حليفه سانشو — ملك نافار — ولكن سانشو لم يستسلم للهزيمة بل جمع أنصاره ، وأعلن نفسه ملكاً في شانت يلقب في أقاليم جليقية ، ثم سار بجيشه إلى ليون ، واستردها وأعلن نفسه ملكاً ، وخاف آخاه ، ولم ينته ذلك الصراع بين الأخوين ، بل استمر أعوااماً حتى توفي سانشو ابن أوردنبيو سنة ٩٢٩ م ، وولى fonso الرابع العرش ، وظل في الحكم حتى توفيت زوجته ، وبلغ به الحزن مبلغاً لم يمكنه من الاستمرار في الملك ، ولكنه عاد فقطاع إلى استرداد ملكه ، فانتهز فرصة غياب رامبوي عن ليون لمساندة توار ظبيطلة ، واستولى على ليون ٠ ولكن رامبوي عاد بسرعة إلى عاصمة ملكه ، وسل عيني fonso حتى لا يعود إلى طلب الملك ، وعاقب بكل شدة كل من شارك في هذه المؤامرة ، وبذلك استقر رامبوي في الملك وكان من الد

أعداء المسلمين ، إذ قضى سُنی حکمه في الهجوم على الأراضي
الإسلامية أو تحريض النوار ومساندتهم ضد حکومة قرطبة ٠

قلنا أن القسم الغربي من مملكة ليون يسمى جليقية ، أما القسم
الشرقي فيسمى قشتالة أي القلاع وأحصون ، وهذه المنطقة تحولت
فيما بعد إلى مملكة قشتالة ، تمتد شرقا حتى هضاب نافار ، وسكنها
من البيشكنس وجبال الأئب ، وكان رعماً قشتالة يرفضون منذ القدم
سيطرة أهل جليقية عليهم ، وماروا على حکامهم عدة مرات ، ولكن
ثوراتهم فشلت بسبب تكيله منوك ليون للثوار على أن الزعماء
القشتاليين تحينوا الفرصة للاستقالة عن نفوذ جليقية ٠ وقد الدورة
الكونت فرنان ، ولكنه فشل أيضاً ، واستمر أهل قشتالة في الثورة ،
وعارضوا حکم راميرو بكل شده ، واستطاع المسلمون خلال تلك الفترة
الاغارة على أراضي ليون والعبث بها ، وقام عبد الرحمن الناصر بتجديد
مدينة سالم التي تقع على الحدود بين أراضي قشتالة والأراضي
الإسلامية ، وتحصينها سنة ٩٤٦ م ، وتحول موقف راميرو — ملك ليون —
من الهجوم إلى الدفاع بالنسبة للمسلمين ٠

ترك موت راميرو الثاني — ملك ليون — سنة ٩٥٠ م فراغاً سياسياً
كبيراً في مملكة ليون ، وتتاذع ولداه أردونيو وسانشو على العرش ،
بعد أن هزم خصمه ، وهذه الحرب الأهلية مكنت المسلمين من تشديد
حملاتهم على ليون ، واضطر أردونيو إلى طلب العون من قرطبة على
خصومه في ليون ، وعقد معاهدة صلح مع عبد الرحمن الناصر ، تعهد
فيها أردونيو بأن يصادر بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن ي عدم
البعض الآخر ، وخلف سانشو أخاه في الملك ، ولما حاول نقض الصلح
حاربه الناصر وانتصر عليه فعاد إلى طلب الصلح ، ونفذ كل الشروط
التي تضمنها كتاب الصلح ، وبذلك عاد المسلمون إلى البلدين ٠

على أن أشراف ليون أصرروا على خلع الملك لعزيزته أمام المسلمين
واحتجوا عليه بأن بدانته تمنعه من ركوب الخيل ، ومن خفة الحركة

في المعركة ، وولوا أردونيو الرابع ابن الفونسو الرابع الملك هاجا سانشو إلى عبد الرحمن الناصر ، طالبا منه العون والتأييد ، فوعده الناصر باعادته إلى العرش مقابل تعهده بأن يسلم للمسلمين بعض الحصون الواقعة على الحدود ، وان يهدم البعض الآخر وأمده الناصر بجند مكتبه من العودة إلى العرش ، وفر أردونيو من ليون .

ولكن سانشو مكت بعده للمسلمين ، ولم يسلم للمسلمين الحصون التي وعد بتسليمها ، وشجعه على ذلك وفاة الناصر وانتهز الرعيم القشتالي فرمان فرصة الاضطرابات في مملكة ليون ، وأعلن استقلال قشتالة تحت قيادته ، وتقرب إلى النصارى بغارة على الأراضي الإسلامية ، وتوسيع ملكه ، وضم ما يقع تحت يده من أملاك المسلمين إلى ملكه .

ولما رأى انحکم المستنصر خيانة سانشو للمعاهدة ، ساند أردونيو الرابع على العودة إلى العرش ، فتراجع سانشو ، وأرسل إلى الحكم يعده بتنفيذ المعاهدة ، ولكن نكث العهد ثانية بعد وفاة خصمه أردونيو ، فشن عليه الحكم حملات حربية واسعة النطاق ، ومزق المسلمين جيش فرنان - ازعيم القشتالي - ذل معزق في موقعة سنت اشتين ، وأرغمه هو وحليقه سانشو - ملك ليون - على طلب الصلح ، وتوغلت الجيوش الإسلامية في قشتالة ونافار ، وتواترت غزوات المسلمين لأراضي قشتالة (٩٦٣ - ٩٦٧ م) . وبذاك أخذت قشتالة تظهر على مسرح التاريخ كامارة مستقلة تدريجيا وقوى أمرها بمرور الزمن ، حتى تبوات مكانتها بعد ذلك كأقوى دولة نصرانية إسبانية تقاوم المسلمين في الأندلس ، وتوفي سانشو على أثر مؤامرة دبرها ضدّه أحد زعماء قشتالة .

خلف راميرو الثالث أبا سانشو في ملك ليون سنة ٩٦٦ م وكان طفلاً في الخامسة من عمره ، فاستقر الإشراف هذا الحكم وكثُرت الحركات الاستقلالية ، وانقسمت مملكة ليون ، إلى مملكتين ، قشتالة ونافار .

واضطر الملوك والأمراء النصارى بعد الخسق الذى حاقد بهم ، إلى تحسين علاقتهم مع قرطبة ، فتوالت زيارتهم وسفاراتهم على الحكم ، يخطبون وده ، ويرجون مسداقهه ولا تؤى الحكم ، وتشغل المسلمين بأمرهم الداخلية ، شن القشتاليون غزواتهم على المسلمين ، وتوغلوا في الأراضي الإسلامية ولكن الحاجب المنصور تمدى لعدوائهم ، وغزوا أراضي قشتالة غزوات متعددة متكررة ، وانتصر على الملك التصراتي وأضعفها وأخضوها وأحبط المنصور حربياً شنها عليه ملوك نافار وقشتالة وليون سنة ٩٨١ .

ويانع من ضعف مملكة ليون في عهد المنصور أن استتجد ملوكها برمده بالحاجب المنصور ضد خصومه ، فأعاده المنصور إلى عرشه في ليون ، وأمدده بجند لحمايته . وبذلك جلس على العرش في حماية المنصور .

ونخلص من كل ذلك إلى أن النصارى في شبه الجزيرة الأيبيرية بعد أن كانت قواهم تتعزل في جايقيا ، قوى أمرهم ، وانتسم ملوكهم على حساب المسلمين ، و شيئاً فشيئاً أصبح لهم ثلاثة ممالك : قشتالة وليون ونافار ، وكل هذه الممالك تتربص بال المسلمين ، وتنسع كل ما سمح لها الظروف بالتوسيع في الأراضي الإسلامية ، وضم ما يمكن ضمه إلى بلادهم .

اللغة العربية وأدابها في الأندلس

أدى اندماج عناصر السكان في الأندلس من عرب وiberber وأسبان إلى ظهور لغة مشتركة يتحدثون بها جمِيعاً على مختلف فئاتهم ، وهذه اللغة مزيج من اللغة العربية والأندلسية وكأن اقضاة في الأندلس يناقشوُن الناس بهذه اللغة التي كانت معروفة لديهم ، وسميت هذه اللغة بالرومانيَّة .

وظهرت المoshحات نتيجة انتشار اللغتين العربية والأسبانية بين الأندلسيين ، وقد أخذ المشرق هذا الفن من الأندلس وتلتزم الموشحة بنظام القوافي الموحدة في القصيدة العربية وتشتمل على قوافٍ متعددة ، ولم تكن وحدتها البيت الشعري وإنما المقطوعة الشعرية التي تتكون من عشرين وفقل ، ويسمى القفل الأخير منها بالخرجـه — كما سُمِيَ — والخرجـة لابد أن تكون باللغة الأسبانية ، أو باللغة العامية الأندلسية الدارجة ، ولا بد أن تكون حادة محرقة ، حارة منضجة ، والخرجـة عادة على لسان امرأة متغزلة أحياها في الرجل على عكس الشعر العربي ، فائزجلـه هنـو الذي يتوجهـل إلى المرأة أن تبـشـدـله الحب ، بينما المرأة متـكـبرـة مـعـرـضـة .

وانشرت المoshحات في المغرب والمشرق ، وصارت المoshحة كالقصيدة الشعرية ، واستخدمها الصوفية في مدائحهم وأذكارهم وقد تأثر الشعر الأوروبي الشعبي بالمoshحات والأزجال الأندلسية ويعرف بالشعر البروفنسى ، الذي كان ينسده المغنون المتجولون في غرب أوروبا .

وقد انتشرت اللغة العربية بين المستعربين ، وتأثروا بالثقافة الإسلامية ، والحضارة الأندلسية ، ولعبوا دوراً هاماً في نقل التراث

الإسلامى الى اسبانيا الشمالية ، بحكم هجراتهم المستمرة الى مملكتى
مشتالة وأراجون . ولا تزال اللعنة الأسبانية تحتوى على الكثير من
الألفاظ والكلمات العربية ، وقد يرهن المتعويون على صحة هذا القول
بالدراسات المستفيضة .

ولم تكن الأزجال التى سنتحدث عنها فنا شعيبا صحيحا ، وإنما
كانت مزيجا من فنين ، فمن خاص قديم متداول بين الوساحين ، وفن
شعيب لا سند له من التراث المكتوب . ولم يكن جمhour ازجل أهل
الأزقة والحرارات ، كما لم تكن الفئات المميزة التى نظم التسوعاء من
أجلهم القصائد .

وللأزجال الصوفية بيئتها الخاصة ، بيئه القراء الذين زهدوا في
الدنيا وهاموا في حب الله سائرين مغتربين ، ينشدون ويرقصون على
الحان التصوف ، والبيئة النابية بيئه الشباب الماجن العايش أصحاب
الثروات .

يقول ابن خلدون عن نشأة ازجل ، أنه ظهر تقليد الموشحة
لقد استحسن العامة التوسيع ، فنسجوا على منواله ، جاعلين لغتهم
الحضرية موضع اللغة العربية . وما لا شك فيه أن الشبه كبير بين
التوسيع وازجل في أكثر من ناحية ، وخاصة في الشكل الخارجي وفي
الأوزان ونظام القوافي ، وكذلك في بعض موضوعات القول والمعانى ،
وقد أدى تطور الأغنية الشعبية الى ظهور الموشحات ، وتبع ذلك ظهور
الأزجال ، وكل ذلك بلغة بسيطة يفهمها العوام من أهل الأندلس ، وتعبر
عن عواطفهم وأحزانهم وأفراحهم ، وأحساسهم ، وختاماً الموشحة
قفل يسمى الخرجة .

المعروف أن الموشحة تتتألف من مقطوعات وكذلك الأزجال وكل
مقطوعة تشتمل على وحدتين ، والوحدة الأولى تسمى غصن والثانية
تسمى قفل .

ظهر الرجل في أواخر القرن الرابع الهجري ، ولم يصلنا من أزجال القرن الخامس الهجري الا الفزر اليسير ، وكان الزجالون في القرن الخامس يقتربون في فنهم من الوشاحين ، ويتأثرون بهم ، لذلك كانت أزجالهم في لغة عربية سليمة ، تخاطب الخاصة المثقفين ، ذلك أن ملوك الطوائف في هذا القرن حرصوا على النهوض بالأدب العربي وشعره ونشره ، ورفضوا كل نظم ملحون . ولكننا نلاحظ العكس من ذلك في القرن السادس الهجري ، فقد سيطر المرباطون على الأندلس ، وكانتوا لا يتقنون العربية ، ولا يتذوقون الشعر ، لذلك ازدهرت الأزجال في أيامهم . ولا نعرف الا القليل من الزجالين في القرن الخامس ، بينما نعرف الكثير في القرن السادس وعلى رأسهم ابن قزمان .

وابن قزمان من أهل قرطبة ، وتوفي سنة ٥٥٤ هـ وقد اشتغل ابن قزمان بالنظم العربي ، فرأى نفسه لا ينسجم مع الاتجاه المسائد لعصره ، فعمد إلى الرجل المنظوم بكلام عامه الأندلس ، ويعتبر بحق امام الزجالين بالأندلس وديوان ابن قزمان يقدم لنا صورة عن حياة صاحبه ، وجاءنا من شخصيته ^(١) .

وكان ابن قزمان يعيش في بيت جميل وفي حي مزدحم بالسكان

وكان مولعاً بالثياب الأنيقة ، ويرتدى دائمًا قاخير الثياب وهو صاحب ذوق في اختيار الألوان ، ويراعى في تنسيق الألوان في الثياب التي يرتديها . لذلك يكثر من الحديث عن الثياب في أزجاله وكان ابن قرمان مولعاً بالشرب واللهو والعيث ، ولا يحب حياة الأسرة ، لذلك خاق ذرعاً بالمرأة التي تزوجها ويمسئولية البيت فديوان أبي بكر ابن قزمان يصور أناقته ولتهوه وشرابه وسمراته الخارجية ، وإذا تحدثت عن البيت ، يتحدث عن الخادمة السوداء ، ولم يذكر زوجة ولا أولاداً ^(٢) .

وقد استنتاج الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى من الأزجال

(١) عبد العزيز الأهوانى : الرجل في الأندلس ص ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٨ .

ابن قزمان ، أنه بدأ حياته يعمل بالتوثيق ، وهو عمل يستلزم معرفة بالفقه والشروط الصحيحة وال fasda ، والدقة في ضبط المصطلح واستخدام الكلمات ، ثم هو أديب ينظم الشعر والموشحات والأزجال ، ويحفظ أخباراً ونحوادراً ، كما أنه جليس ومسامر ، يستطيع أن يدخل السرور والبهجة على جالسيه ، ويضحكهم ويجذبهم إليه . وكان يحصل على المال من مواهبه هذه . وتدل أزجال ابن قزمان على أن مرتبة الشاعر كانت أكثر وأجل من مرتبة الزوجال ، وكان تقدير كبار رجال الدولة للشاعر تزيد عن الزوجال .

وازجال ابن قزمان توضح فيه إلى اللهو والشراب والعنق
كتوله :

دنيا هي كما تراها فاجتمد واربع زمانك
كل يوم وكل ليلة لا تخلى مهرجانك
وأشتقتى عليه من قبل أن يجيء الموت في شانتك

وظل في كبره يقول الزوجل في هذا اللون من العبث كتوله :
وليلى بيت فيها القمر ، في ذراعي من العشا للسحر فانجبر لى
صباى بعد الكبر ، وارتدى غنائى بعد العدم .

والأحداث السياسية الجسيمة التي مرت بالأندلس لا تشغله بال ابن قزمان ، ففي عصره كانت الحروب بين المرابطين والنصارى ، ولا يتحدث عن ذلك إلا بأزجال قليلة لا تتم عن انشغاله بهذه الأحداث الجسمام .

والخلاصة فإن ديوان ابن قزمان يصوره تماماً في مجالس شرابه وفي جولاته في المدينة ، وخروجه إلى القرية في أوقات معينة ويتحدث في ديوانه عن خادمه وكبش العيد وهو يرقص حوله ، ويصور مغامراته ، وأغانيه ورقصه وانشاده لمدحه بغية الحصول على المال

للبحث عن امرأة أو صبي أو شراء ثوب أنيق . لذلك يجمع القدماء على أن ابن قزمان امام الرجالين ، وكان شاعراً حتى الأسلوب فطننا بخفايا النقوس ^(١) .

وفي عصر الموحدين عاد الاهتمام بالثقافة العربية الرفيعة ومن ثم عاد الشعر إلى مكانته الأولى ، ووجد رواجاً في بلاط الموحدين ، لأنهم يعرفون العربية ، وظهر في عصرهم علماء وفلاسفة كبار كابن رشد .. لذلك كان الزجل في القرن السابع وبعد عصر ابن قزمان بعد عن القوافي، ومزاحمة الفقرات وتعدداتها ، وظلت موضوعاته كما هي ، بحيث يستأنر الحب بالمكان الأول والحديث عن جمال الطبيعة والبساتين والأزهار وظهور لون جديد في الزجل ، وهو الهجاء ولم يظهر زجال كبير في هذا القرن ، وإنما ظهر وشاح كبير وهو أبو بكر بن زهر ، وقد شهد القرن السابع سقوط قرطبة وأشبيلية ، وهزيمة الموحدين في العقب ، وسقوط المدن الأندلسية في أيدي النصارى ، ولم يبق لهم سوى غرناطة التي صمدت . لذلك انتشر في ذلك العصر الزجل والموشحات الصوفية .

وتحول الزجل في عصر ملوك بني الأحمر في غرناطة إلى فن شعبي، لا يشارك فيه المثقفون . ولقد عاشت غرناطة أيامها في تأهب ودفاع ضد العدو المتربص بها ، وكان كل سكانها يتكلمون العربية و المسلمين ، لذلك كان للشعر مجاله ورواده وإنجل جمهوره من غير المثقفين .

و قبل أن نختتم كلامنا على الزجل يجب أن نشير إلى أغنية حزينة قالها مولاي أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة ، يبكي ضياع قصره الملكي ، حينما استولى فرديناند وايزابيلا على مملكته :

الحمرا حنينه والقصور تبكي
على ما جرى لولاي بو عبد الله

(١) المسدر السابق ، ص ١٠٥ .

هات لى فرسى ودرقتى البيضا
وشى نمشى نقاتل ونأخذ الحمرا
هات لى فرسى ودرقتى الديدى
وشى نمسى نقاتل ونأخذ أولادى
أولادى فى وادى ياش ومراتى فى (جبل طارق)
ياستى يام الفتى
أولادى فى وادى ياش وأنا فى (جبل طارق)
ياستى يام الفتى

الفصل السادس

الرابطون والموحدون

١ - الرابطون .

٢ - الموحدون .

١ - المرابطون (٤٤٨ - ٥٥٤١ / ١٠٥٦ - ١١٤٧ م) :

يكتف الفموض نشأة المرابطين ، ويبدأ تاريخهم في جناح المغرب الأيمن في الصحراء الغربية أو ما يسمى موريتانيا في هذه الصحراء الشاسعة كانت تعيش قبائل صنهاجية وهذه القبائل الصنهاجية كانت امتداداً لقبائل صنهاجية التي كانت في الشمال ، والتي تكونت منها الدولة الزييرية الصنهاجية في المغرب الأدنى والأوسط ، وهذه القبائل الصحراوية الجنوبية كانت تختلف عن أقربائها في الشمال في أنها كانت تتلثم ولهذا سميت بصنهاجة اللثام ، وعرف عنهم الشجاعة في القتال وانشر الإسلام بين هذه القبائل عن طريق رحلات التجار أو من المساريا العسكرية ، وظلوا حتى القرن الخامس الهجري متفرقى الأئمة بعيدين عن روح الإسلام ، حتى حدث فيها ثورة دينية اصلاحية ، ألفت بين قلوبهم ، ووحدت صفوفهم ، ويرجع الفضل في نشر هذا الاصلاح السياسي والاصلاح الديني إلى يحيى بن ابراهيم الجداوى زعيم المثنين ، والفقير عبد الله بن ياسين - وهو من أصل صنهاجي .

وضع عبد الله بن ياسين أسسه الاصلاحية على أساس التمسك بالدين على مذهب مالك ، ونشر دعوته بين قومه ، وبنى رباطه ابتغاء العزلة والعبادة ، ولم تمر عليه أيام حتى اجتمع له حوالي ألف رجل ، سماهم المرابطين للزومهم رياطه .

بهذه الرسالة الدينية كان خروج المرابطين من الصحراء بقيادة زعيمهم الروحي عبد الله بن ياسين ، وكانت بلاد المغرب في ضعف شديد مزقتها الانقسامات ، لذلك خرج المرابطون من الصحراء للقضاء على أهل الضلال ، واصلاح البلاد من الفساد .

خرج المرابطون من الصحراء يقودهم زعيمهم الدينى عبد الله

ابن ياسين ، واتجهوا الى بلاد السوس ، وقضوا على الشيعة والوثنيين ، وقاتلوا الميود المنتسين في تلك النواحي وأعادوا تلك المناطق الى أهل السنة والجماعة .

نجح المرابطون في اخضاع الزناتيين في المغرب الأقصى ، وسيطروا على المغرب الأقصى ، ثم زحفرا الى المغرب الأوسط وفتحوا مدينة تلمسان ووهران ، واقتربت قواتهم من الجزائر وبعد كفاح دام عشرين عاماً أصبح المرابطون سادة المغرب دون منازع (٥٤٦٧ - ٤٤٧) وتم خوض ذلك عن نتائج هامة في تاريخ البرانس وتاريخ صنهاجة ، فتسيطر صنهاجة الشمال على إفريقيا ، بينما تسيطر صنهاجة الجنوب على المغرب الأوسط والأقصى ، فارتفع شأن البرانس ، وضعف نفوذ البتر ، واتبع المرابطون سياسة ناجحة في جذب المغاربة اليهم ، فخفقوا الضرائب على الناس ، ولم يبقوا من الضرائب الا ما أقره الشرع كالإنزكاة والعشر ، وكان دستورهم في الحكم كتاب الله وسنة رسوله ، ولم ينعد المغاربة على حكم يتمشى مع تعاليم الإسلام من قبل ، لذلك التفوا حول المرابطين ، وكانوا يوزعون خمس الغنائم على الفقهاء والعلماء ، وكانوا في ذلك العصر زعماء الشعب الروحيين ، يمثلون الشعب في تأييد نظام الحكم أو رفضه ، فلما أيد رجال الدين ، المرابطين ، أيدهم الشعب كذلك ، وببدأ واضحاً لكافحة الناس أن المرابطين جاءوا لا للفتح ، ولكن لاحياء الدين ، لذلك فكانت المدن والقرى تستقبلهم بالحفاوة والترحاب . الواقع أن المغاربة كانوا في حاجة الى حكم يخلصهم من نير وظلم زناته ، وبالفعل وجدوا في المرابطين خيراً عن لهم على أعدائهم زناته الظالمين المستبددين .

عظم شأن المرابطين بعد أن قادهم يوسف بنى تاشفين وقادهم في معارك ناجحة لاستئصال المعارضة في المغرب ، واستولى على طنجة وسبته وغيرها ، ولعب دوراً كبيراً في بناء صرح الدولة الجديد . وقد مكن لنفسه في المغرب كما استطاع بفضل جهوده أن يفتح معاليق حصوله ، وأن يؤدب قبائله ، ويردها الى الطاعة ، وجمع أبیت المال

ثروة هائلة لذلك يمكن القول بأن يوسف بن تاشفين يغدير المؤسس
ال حقيقي لدولة المرابطين ، فقد أتم فتح المغرب ، والأندلس
— كما سترى — .

جمع يوسف ثروة طائلة من الغنائم والأسلاب ، ومن حصصه
الزكاة والعشور ، واستغل هذه الأموال في جذب قلوب زعماء المثلثين ،
وأغدق عليهم ، ووزع الأراضي الخصبة على قبائل المتنمرين القادمة من
الجنوب ، وولى رجالها الأعمال ، واستطاع بهذه السياسة أن يستميل
الزعماء وأن يكسب ودهم ، فانتفوا حوله ، وخضعوا له خضوعاً ناماً ،
وعهد إلى أقاربه بالمناصب الرئيسية في الدولة حتى يضمن ولاء البلاد
له ، وهادن يوسف القبائل المغلوبة على أمرها ، فكان يستدعي زعماءها
ويغدق عليهم ، وينظر في مطالبيهم . وبذلك عم اسلام في المغرب ،
وهدأت القبائل واستكانت ، وعم السلام في المغرب بشكل لم شهد له
البلاد من قبل ، وأدى ذلك إلى طمأنينة الناس ، فانصرفوا إلى الانتاج ،
وتحسن الأحوال الاقتصادية ، ووجدوا في يوسف خير منفذ لهم ، فكان
يتقد أحوال الرعية بنفسه ، وينظر في المظالم ، ويحكم بين الناس بالعدل
لذلك تجحت هذه السياسة في التفاف الناس حول الحاكم ، ولما دعاهم
للجهاد في بلاد الأندلس ، أقبلوا يلبون نداء الجهاد .
ونشير الآن إلى دور المرابطين في الأندلس .

قوى أمر النصارى في عهد الفونسو الثاني سنة ٧٨٨ م ، وتكون
خلق من الدول النصرانية ضد القوى الإسلامية في الأندلس ينكون من
أرغون وبرشلونة ونافار وقشتالة ، في وقت ضعف الخلافة الأموية ،
واستمدت هذه الامارات العون والتأييد من مملكة الفرنجة ، ولكن أضعف
من شأن هذا الحلف يقطنة الدولة الأموية في عهد الحاجب المتصور ،
ولما سقطت الدولة الأموية ، وتمزق شمل الأندلس ، ازدادت فوة
النصارى ، ولنهاية مقلومة المسلمين ، وأعاد الملك شانجو وحدة
الامارات النصرانية في القرن العاشر الميلادي وأعاد جمع شمل نافار
وقشتالة وليون وأرغونه وبرشلونة وبعتبر شانجو باعث حركة

الاسترداد في أسبانيا التي استمرت حتى انتهى أمر المسلمين في الأندلس .

وقوى شأن وبأس فرديناند الأول ، فسعى إلى توحيد القوى
النصرانية ، وكون جبهة وتحدة من المسيحيين بـأسبانيا ضد القوى
الإسلامية في هذه البلاد ، ووطد صلاته بالدول الأوروبية حتى يسمد
منها العون وتأييده ، ونجح في سياساته حتى أن البابا إسكندر الثاني
عام ١٠٦٣ نظم حمله ضمن قوات فرنسية وإيطالية ، وسير الغزاة و
غزو الأراضي الإسلامية .

كشف فرديناند النقانع عن سياساته المعادية للمسلمين ، فأوضح
أنه يريد طرد المسلمين من الأندلس ، واسترداد الأراضي الأسبانية
التي اغتصبواها ، فبدأ بمحاجمه أراضي المسلمين متهمًا بهم انتهاك
عاصف فيها المسلمين ، والانقسام فيما بينهم وتجنب المسلمين هجماته
بدفع الجزية ، وقد دفع الجزيه حكام طليطلة وأسيجيون وسرقسطة
وبطليوس ، وجبي من ذلك أموالاً طائلة ، ولما زادت قوته كثيراً عن قوته
المسلمين اتجه إلى سياسة ضم الأراضي الإسلامية إلى دولته ، وبذلك
اتسعت حدود قشتالة شرقاً وغرباً .

وضعف شأن المسلمين ، وقوى فرديناند والنصارى ، وباءات
واضحايان أيام المسلمين في الأندلس ، أصبحت معدودة ولكن موت
فرديناند سنة ١٠٦٥ م وانقسام الأمراء النصارى على أنفسهم ، آخر
هذا المصير المؤلم .

ومضت فترة كان النصارى ممزقين على أنفسهم ، وفي استطاعة
المسلمين اغتنام الفرصة لاسترداد أراضيهم وقواهم ، ولكن الانقسامات
ظللت قائمة بينهم ، بل كانوا يستعينون بأمراء النصارى في خلافاتهم ،
وظل الأمر كذلك حتى استرد النصارى قوتهم ووحدتهم باعتلاء الفونسو
السادس العرش ، فوحد أمارات النصارى ، ووطد علاقته بالبابا

وبفرنسا وعموماً بالقوى المسيحية في أوروبا ، واتخذت حركة الاسترداد بعد ذلك شكل الحركة الصليبية بوجهها- البابا ويساندها .

اشقدت هجمات الفونسو السادس على المدن الأندلسية ، وكان يفرض عليها المغامر الباهظة ، فإذا عجزت مدينة عن الدفع . هاجمها ، وحاصرها حتى يشتد الجوع ويعم البلاء ، ويزداد في طلب المال حتى أرهق المدن الأندلسية وأذلها ، ولما أيقن من ضعف المسلمين الشديد ، اتجه إلى سياسة الاستيلاء على المدن رافضاً الجزية ، فاستولى على طليطلة ، وكان لهذا الاستيلاء أثر مروع في نفوس المسلمين : وفي نفس الوقت رفع من شأنه عند أمم النصرانية ، فطليطلة عاصمة القوط - كما تعلمون - ثم هاجم قرطبة وسرقسطة ، وبدأت الحصون في شبه الجزيرة تتلاطم في يده تساقط أوراق الخريف فاستولى على بلنسية ، وسيطر على بعض حصون مرسية وعلى المرية ، وأصبح مصير الأندلس في خطر ، واتخذ الفونسو في قلب الأندلس حصنًا يشن منها الغارات على البلاد الإسلامية وشعر المسلمون في الأندلس بالضعف والذلة ، وانهارت معنوياتهم ، وساعت أحوالهم المعيشية لأن أمراءهم طابوهم بالضرائب الباهظة ، لدفع ما عليهم من اتاوات « للأمبراطور » الفونسو السادس وقد صور مؤرخ أندلسى وضع المسلمين بقوله : « وبالجملة كان الناس قد فسدت أديانهم وإنما الدنيا الفانية والتزمان على آخره ، وخلاف هذه الأشياء ، هو ابتداء الهرج وداعية الفساد وانقضاء العالم » .

لقد يئس ملوك الطوائف من توحيد كلمتهم ، كما يئسوا من قوتهم ، وكان لا بد لهم من عنون خارجي إذا أرادوا أن يكبحوا جماح الفونسو ، الذي أذلهم ، وأنقل كاهليهم ، ورأوا في المرابطين ضالتهم المتشدة لما عرف عنهم من محبتهم للجهاد والغزو في سبيل الله ، كما أن المرابطين غير بعيدين عنهم ، وترעם محاولات أهل الأندلس هذه ابن عباد - ملك أشبيلية وقرطبة - كان المعتمد بن عباد آخر ملوك أشبيلية من بنى عباد من قبيلة لخم اليمنية ، وقد اتسعت مملكته حتى شملت قرطبة ، لكنه كان يقتسم عن ويلات الفونسو الذي فرض عليه الاتاوات والمغامر حتى

يكت عن الهجوم على ممتلكاته ، ولما ازدادت قوة الفونسو ، ركب العرور وطبق من ابن عباد بعض الحصون ، وأمعن في التحرش بهمك اشبيلية وأرسل رسولا إلى ابن عباد يطاببه ببعض الحصون في أسلوب وقع وفيه استفزاز ومهانة لذلك ثارت ثائرة ابن عباد ، وأمر بقتل رسوله الفونسو ، وصلب في قرطبة ، وأمر ابن عباد بقتل فرسانه هنا تحرك الفونسو إلى اشبيلية للاستيلاء عليهما ، واستطاع ابن عباد الذي قتل رسوله .

لذلك استجد ابن عباد بالمرابطين على عدوه ، وسافر بنفسه إلى ابن تاشفين في المغرب ، واستجد به ، فوافق ابن تاشفين ب الدفاع الحمس الدينى والأطماع السياسية أيضا ، وحشد الجيوش للجهاد ، وأجازها إلى الجزيرة الخضراء ، ثم عبورها بنفسه ليقود الجيش ، واتخذ من الجزيرة الخضراء قاعدة لجيشه ، وابتعد الأندلسيون لقدمه ، ورلوا فيه خير منفذ مما وصلوا إليه من ذل ومهانة . وكان ابن تاشفين متخصصاً للجهاد بدليل قوله « إنما كان غرضنا من ملك هذه الجزيرة أن تستقذهم من أيدي الروم ، لما رأينا استبدالهم على أكثرها وغذائهم ملوكهم وأهاليهم المغزو وتوكلهم وتخاذلهم وايثرهم الراحة ... ولئن عشت لأعيدهن جميع البلاد التي ملكها الروم طول هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملاكها عليهم خيلا ورجلا لا عهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برحاء العيش » .

احتلت طلائع المرابطين الجزيرة الخضراء — كما قلت — وعلت صيحة الجهاد في المغرب والأندلس ، فأقبل عليه الناس من البلدين مجاهدين ، وانضمته إليه قوات المعتمد بن عباد وقواته أمراء الأندلس الآخرين ، وبذلك اجتمع شمل الأندلس بعد تفرق ، وتوحدت جهودهم بعد طول نزاع ، وبدأ ، وكان يوسف قد وصل ما انقطع من تاريخ البلاد منذ أيام المنصور ابن أبي عامر الذي كانت البلاد في أيامه موحدة الكلمة ، وعاهد يوسف ملوك الطوائف أن يكونوا يدا واحدة وأن تتصل جهودهم لغزو الروم بمعونته ، وتكونت جبهة إسلامية متحدة

تتصدى للنصارى . وأدرك الفونسو الخطر الداهم على دولته وقوته ، فاستجد بأمراء النصارى ، ملوك أوربا والبابوية ، ورفع الحصار من سرقتسيه ، وأعد العدة لمقاومة الخطر الإسلامي الزاحف .

زحفت جيوش المسلمين نحو أشبيلية ثم إلى بطليوس في غرب الأندلس ، بغية لقاء العدو ، وحينما علم الملك الفونسو السادس بأخبار هذا الغزو ، رفع الحصار عن سرقتسيه — كما قلنا — وأسرع بجيوشه نحو تجمعات المسلمين من المغاربة والأندلسيين ، فالتقى بهم في الشمال من بطليوس عند الزلاقة ، وهناك دارت معركة فاصلة بين الفريقين بين الإسلام والنصرانية سنة ٤٧٩ هـ ١٠٨٦ م . وفي بداية المعركة هاجم النصارى معسكرات المسلمين ، فأحدث فيها هرجا ومرجا ، ففر كثيرون من الأندلسيين ، وتقهقرت أمام العدو ، ولكن يوسف لم يأبه بهؤلاء الفارين بل هاجم جيش الفونسو ، وحمل عليه حملة شديدة ، ودرق جيش العدو كل ممزق ، وولوا مدبرين لا يلوون على شيء ، ولا شك أن جمال المرابطين وأصوات طبولهم الهائلة قد ألمت الرعب في نفوس العدو .

ومما لا شك فيه أن انتصار المرابطين في الزلاقة قد أنقذ الحكم الإسلامي بالأندلس من سقوط محقق ، وثبت أحترام المرابطين في الأندلس ، واستطاع المرابطون تكوين دولة في المغرب والأندلس عاصمتها مراكش ، واستفرد المسلمون بذلك ، وفكوا حصار سرقتسيه ، وأوغل جنود ابن تاشفين في بلاد العدو ، وذاعت شهرته ، وفسرخ الأندلسيون بمقدمه . وحكم البلاد بالعدل ، ولم يفرض على الناس من ضرائب إلا في حدود ما أقره الشرع . وأسقط كل ملوك الطوائف لأنهم يلغوا درجة من الضعف والتخاذل لا تغتفر حتى ابن عباد نفسه ، وأمن الأندلسيون في ذلك حكم المرابطين على أموالهم وأنفسهم ، واستتب الأمن وساد الهدوء وخضع الناس لحكومة واحدة ، وضعف النصارى ، وانكحشوا في حصونهم وأوقفوا هجماتهم على بلاد المسلمين ، وخسروا بأس المرابطين ، وتجنبوا الاستيصال معهم .

المرابطون وبنو عباد :

بعد أن سيطر المرابطون على كل بلدان الوادي الكبير وقواعد مملكته أشبيلية ، واتجهاوا إلى أشبيلية ، وكانوا يعتقدون أن المعتمد بن عباد ، سيخرج من المدينة لاستقبالهم والترحيب بهم ، ولكنها امتنع بمدينته ، وأعد العدة لمقاومة المرابطين ، ومنعهم من دخول أشبيلية .

شدد المرابطون حصارهم لأشبيلية ، فاستعان المعتمد بن عباد بخطيفه - الفونسو السادس - ملك قشتالة - وكانت تجمع بين الفريجين مصلحة واحدة ، وهي الدفاع عن الوطن الواحد - إسبانيا - . ومهما يكن من أمر فقد أشتبك الفونسو مع المرابطين في موقعة ، دارت فيها الدائرة على المقتاليين وزعيمهم الفونسو السادس . وأنفرد ابن عباد بمقاومة المرابطين ، وانهارت قواته واقتصر المرابطون أشبيلية في رجب ١٠٩٤ / ٥٤٨٤هـ وعادوا فساداً وتخريراً في المدينة ، وهاجم المرابطون القصر الملكي ، وخرج ابن عباد لمقاومتهم ، وظل يقاتل أمام قصره ويدافع عن بلاده ، حتى تمكن منه المرابطون وأسروه هو وأله ، وقتلوا ابنه مالكا الملقب « فخر الدولة - أمام عينيه » ، ونبووا قصور الأمير ، كما نبووا البلدة نهباً قبيحاً . وعلى أثر ذلك سقطت كل بلدان المملكة في أيدي المرابطين ^(١) .

وق ذلك يقول أحد أبناء الأمير :

يحل زمان المرء ما هو عاقد ويسيئ في اهلاكه وهو راقد
ويغرس بأهل الفضل حتى كأنهم جناة ذنوب وهو الكل حاقد
ويفرق الآلاف من بعد صحبة وكم تسهدت مما ذكرت الفراغ

وقتل المرابطون أربعة من أبناء المعتمد ، وقبضوا على المعتمد وبعض أفراد أسرته ، وسيقوا إلى أغمات في موكب حزين وودعه شعيبه بالبكاء

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ج ٢ ص ٨٠ - ٨٥ .

والنحيب ، وتحدث الأدباء والشعراء بفاضة عن نكبة ابن عباد وعن الجد المفقود والعز الزائل ، وتقلبات الدهر ، وتغيرات العصر . على كل حال عاش ابن عباد في معتقه في أغمات بالقرب من مراكش وقد عاش المعتمد وزوجته وأولاده في ذل وبؤس حيث ضيق عليهم أمير المرابطين في الملك والملابس ، وكانت هذه الأسرة الغنية سابقا لا تجد ما يكفيها من المال لأبسط متطلبات الحياة كالملبس ، وكانت بنات الأمير يغزلن الشباب للأفراد الأسرة ، وبيعوها في الأسواق والتكسب من ذلك .

وفي أول عيد في الأسر يقول الأمير :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساعئ العيد في أغمات مسرورا
ترى بناتك في الأطهار جائعة يغزلن للناس ما يمكن قطميرا
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطا مسكا وكافورا

ولقد اهتز الشعراء لنكبة آل عباد حتى أن الشاعر يقول :
غريب بأرض المغاربة أسيير سيفكي عليه منبر وأسيير .
وتفرق أولاد ابن عباد في مختلف البلاد يأتمنون الرزق والعيش بكل
سبيل ، وتوف الأمير في أسره ، وظلت ذكراته عالقة في نفوس أهل المغرب
والأندلس ، وكانوا يزورونه في قبره ، وأنشد أحد الشعراء أمام الجماهير
المتشدة حول قبره :

ملك الملوك أسامع فناندي أم قد عدت عن السماع عاد
لما خلت منه القصور ولم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا وتحذت قبرك موضع الانشاد
قد كنت أحسب أن تبرد أدمعي نيران حزن أحترقت بفؤادي
فإذا يدمعي كلما أجريته زادت على حرارة الأكباد
وظل قبره مزارا يزوره أهل المغرب والأندلس ، وظلت ذكري نكبة
حديث الناس ونسج الأدباء والشعراء القطع الأدبية الكثيرة حول هذه
المعنسبة .

ولكن المرابطين لجأوا إلى استشارة الفقهاء في كل أمور السياسة والحكم ، الأمر الذي أضعف أدلة الحكم ، لأن رجال الدين ليسوا أهل سياسة ، وأدى ذلك بمرور الزمن إلى سخط الأهلين على حكومة المرابطين ، ثم انغمس المرابطون في الترف والنعيم ، وفقدوا خصائصهم البدوية وما اتصفوا به من خشونة وغاظة ، وخضعوا للنساء وانغمسو في الشهوات والملذات ، فضعف أمرهم واختلت أحوالهم ، وجدد النصارى هجماتهم في الأندلس وامتدت من ليون إلى جبل طارق . ولما رأى الأندلسيون حكامهم المرابطين لا يتحركون لانتقادهم من هجمات النصارى ، طردوهم من بلادهم .

وعاد الأندلس سيرتها الأولى في عهد ملوك الطوائف ونشأت في الأندلس مدن مستقلة عن بعضها ، تخضع النصارى ، ويحرب بعضها ببعض .

من أهم أسباب تدهور حكم المرابطين في الأندلس ، اضطراب الأمور في هذه البلاد ، بعد استدعاء الأمير تاشفين إلى المغرب وسحب عدد كبير من المرابطين معه للتصدى لمحاولة الموحدين السيطرة وانتزاع المغرب من المرابطين ، فانتهز النصارى في الأندلس الفرصة كعادتهم ، وأغاروا على الأرضي الإسلامية في إسبانيا وتعدد هزائم المرابطين في الأندلس ، بعد أن توفرت الإمدادات التي كانت ترد إليهم من المغرب ، بسبب انشغال المرابطين في المغرب بقمع حركة المهدى ، وأدى ذلك إلى ضعف المرابطين في الأندلس ، واستهانة أهلها بهم .

ومن أسباب ضعف المرابطين في الأندلس اضطراب الإدارة بعد وفاة الأمير على بن يوسف ، وتولية تاشفين ، فكانت الأوامر تصدر إلى الجندي والرعية متقاضة ومتضاربة ، فساءت العلاقة بين الحاكم والرعية ، ونظر الجندي والرعية إلى أميرهم تاشفين نظرةاحتقار وازدراه .

ومن أسباب ضعف حكم المرابطين في الأندلس : أن القهاء — كثروا

· أصحاب ثفوذ كثير في دواة المرابطين — لم يوجها الرعية التوجه السليم، ولم يظهروا أمام الناس بالظاهر اثنالثـنـقـ المقادـةـ الروحـيـنـ ، بل انصرفوا إلى كتب الغزالى والحديث عنها ، وتركوا الأمور الجوهرية تتنشر في البلاد كالشـعـوذـةـ والمـهـديـةـ .

وتضيف إلى ذلك أن الحكومة المرابطية في الأندلس عرفت عنـها التسامـحـ الشـدـيدـ بـمـعـ مـثـرـيـ الشـغـيمـ فـبـلـدـ لاـ يـسـقـيمـ أـمـرـهـ الاـ بـالـعـنـفـ .

ومن الأسباب المباشرة لتدور حكم المرابطين في الأندلس ، إحرق
لـفقـهـاءـ لـكتـبـ الغـزالـىـ .ـ أحـيـاءـ عـلـومـ الـدـيـنـ .ـ وـاـسـتـغـلـ هـذـهـ الـوـاقـعـةـ مـجـمـدـ
ابـنـ توـمرـتـ .ـ زـعـيمـ الـمـوـحـدـينـ .ـ لـنـيـلـ مـنـ الـمـرـابـطـينـ وـالـدـعـاـيـةـ لـحـكـمـهـ .ـ
وـانـطـلـقـ الـمـهـدىـ بـنـ توـمرـتـ لـلـقـضـاءـ عـلـىـ حـكـمـ الـمـرـابـطـينـ رـأـفـعـاـ شـعـارـ الـأـمـرـ
بـالـمـعـرـوفـ وـالـنـهـىـ عـنـ الـنـكـرـ .ـ

كان ابن تومرت سياسيا بارعا قبل أن يكون رجل دين وكان يمتلك
موهبة رجلة السياسة الذي يستطيع فهم الرجال وتقدير الأعمال ،
والخلاص من من يستطيع التخلص منه ، ومن لا حاجة له به ، والاستعانة
بـماـ يـفـيـدـهـ فـنـشـرـ دـعـوـتـهـ ، وـأـخـذـ مـنـ الـمـذـاـهـبـ مـاـ يـفـيـدـهـ فـأـغـرـاضـهـ .ـ

ونلاحظ أن الموحدين قد تمكنا من المرابطين بسبب فساد إدارتهم ،
ويتمثل ذلك في عمائم الذين أقبلوا على الرشوة والفساد كما أن الرشوة
امتدت إلى القضاء ففسد ، وأقبل الفقهاء على جمع المال واستغلال الدين
ومناصبهم لصالحهم الشخصية .

ومن أسباب تدهور حكم المرابطين ازدياد قوة للنضارى في عهد
الفونسو الأول — ملك أراغون وقشتالة وليون — المقرب بالمحارب ، وقد
شدد هجماته على المرابطين حتى أضعفهم وفي مدى سنة وبضعة أشهر
اجتاح بلاد الأندلس شرقه وغربه وشماله وجنوبه . وقد أضفت هذه

الغارة من هبة ومكانة المرابطين في الأندلس ، واستهان الأندلسيون بحكامهم ، وانضموا إلى الموحدين في التخلص من المرابطين .

انتشر التصوف والزهد في الأندلس ، بعد أن كثر الفساد في المجتمع ، وتعرضت البلاد لهجمات النصارى ، وتسقط الفقهاء على الناس وفرصوا عليهم مذهبهم وأرائهم ، وضعف الحكم المرابطين وانتشر الفساد بين عمال الدولة وقضايتها ، لذلك لجأت جماعات كثيرة إلى العزلة عن هذه الحياة ، والزهد فيها ، وظهرت في شرق الأندلس عدة فرق ، كان من أشهرها وأهمها مدرسة المريه والتي ترعمها الصوفية الكبير أبو العباس ابن العريف ، وامتدت مراكز الصوفية فشملت ، مرمنية وبانسية وجذيرية شقر وملقہ وجیان وغرناطة ، وانتشرت الصوفية كذلك في قرطبة وراسل ابن العريف المریدین بوسائل حفظها التاريخ . وانتشر المریدون كذلك في غرب الأندلس ، وارتبتوا مع بعضهم بروابط وثيقة ، وكان ابن العريف يوصل الرسائل — كما قلنا — إلى مریديه تباعاً ويتظام .

كان للمریدین أفكاراً وأراءً مختلفة ومتعددة ، وأغلب الصوفية كانوا يرون الالتزام بالكتاب والسنة ، وكان على رأس هؤلاء ، ابن العريف ، وهناك فريق آخر من المریدین كان يميل إلى الذهب الظاهري ، وهناك جناح متطرف يميل إلى الذهب الباطني .

وارتبطت الحكومة المرابطية في المریدین ، وخشيتم على سلطانها ، لذلك أمعنت في مراقبتهم ولما حقتهم ، حتى لجأ بعضهم إلى أماكن منعزلة عن عيون السلطة القائمة .

وتورط المریدون في بعض حوادث الاغتيالات مثل مقتل بعض القضاة الأمر الذي شدد من ملاحقة السلطة الحاكمة لهم ، واشتد الصراع بين أجنحة المریدین بسبب تورط المتطرفين منهم في الاغتيالات ، وقد حاول ابن العريف أن يدعو المریدین إلى دهادنة الحكومة ونبذ القطرف ، وكان

يغادرن تغيير الحكومة القائمة ، لأن الوقت غير مناسب وحضر بعض كتاب رجال الدولة ، الحكومة من التساهل والتفاوض عن حركة المریدین ، فاشتدت الحكومة في مطاردتهم ، وتصدت لهم وانقطعت الرسائل بينهم ، وتصدى الفقهاء لابن العريف ، وسفهوا آرائه وأنكروا مذهبته ، وسعوا به إلى الأمير المرابطى وحذروه منه ومن رجاله ، وأمر الأمير على بن يرسق بنفی ابن العريف إلى دراکش حتى يكون بعيداً عن مریدیه ، ولكنه عاد فعفا عنه ، وتوفى ابن العريف سنة ٥٣٦ هـ / ١٤٤١ مـ ، وقد شجع تسامح الأمير على بن يوسف الأجنحة المتصوفة من المریدین على الثورة ضد الحکم القسماء .

ترعم أبو القاسم أحمد بن قبی ، المریدین بعد وفاة ابن العريف ووجه المریدین توجيهها يختلف تماماً عن سلفه ، حتى أصبح المریدون في الظاهر طائفة دینية أو فرقہ صوفیة وفي الحقيقة أداة سياسیة ، استخدموها ابن قبی أداة في الوصول إلى الحكم ، وشجعه على ذلك ضعف المرابطین في المغرب أمام محاولات الموحدین انتزاع الحكم منهم .

كان ابن قبی يعقد المجالس العلمیة لشرح كتب العزالی وآرائه ويجتمع بالمریدین سراً لنشر دعوه السياسية ، بالثورة ضد المرابطین ، واقصائهم عن الحكم ، وادعى أنه المهدی ، فكثر أنصاره وأتباعه ، واقترب عليه الناس من كل مكان .

وفي سنة (٥٣٨ / ١٤٤٣ - ٥٣٩ / ١٤٤٤ مـ) كان المرابطون في نهاية أمرهم بالمغرب ، إذ كان الموحدون على وشك انتزاع بلاد المغرب منهم ، فانتهز ابن قبی الفرصة ، وحرض المریدین على الثورة ، وكان المرابطون في الأندلس في مركز حرج إذ توقفت الإمدادات التي كانت تصلهم من المرابطین في المغرب وانتهز النصاری في الأندلس الفرصة ، فشددوها هجماتهم على المسلمين في الأندلس ، لذلك تعتبر سنة ٥٣٩ هـ / ١٤٤٤ مـ بداية حركة المریدین الدينية والسياسية .

وأقبل الناس على ابن قسى مؤيدين له ولا مامته كل التأييد وما كثر أتباعه أعلن الثورة ، ودعا إلى تحرير البلاد من المغتصبين ، وأرسل رجاله إلى بعض الحصون لهاجمتها واستولى المريدون على بعض الحصون ، وطردوا منها حماتها المرابطين ، ولكن جند المرابطين بقيادة أبي زكريا ابن غانية ، — أمير قرطبة — تصدت للمريدين ، وألحقت بهم الهزائم . وحيثما ابتعد ابن غانية عن قرطبة لحاربه المريدين ، ثار العامة في قرطبة بقيادة القاضى أبي جعفر بن حمدين ، وخلعوا ابن غانية ، وولوا ابن حمدين وطاردوا المرابطين خارج قرطبة . ولم يلبث أن ثار الناس بأبن حمدين ، وولوا سيف الدولة بن هود ، وكان عميلاً للفونسو — ملك قشتالة ، يحرضه ضد المسلمين ، ويستخدمه أداء خدهم ، وفي اشاعة الفرقة بينهم ، وانتراع ما يستطيع من أراضيهم ، وكان ذلك قشتالة يعاونه بماله والجند لأن الأضطراب في الأندلس يحقق لملك النصارى أهدافه وقتله ابن هود ، وتولى ابن مرديش أمور شرق الأندلس وواجه الموحدون مقاومة عنيفة من ابن مرديش واستمر مسيطرًا على شرق الأندلس حتى ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م أما زعماء غرب ووسط الأندلس ، فقد استسلموا للموحدين ، ودخلوا في طاعتهم .

دولة الموحدين (٥٣٦ هـ - ١١٤٠ م - ٦٦٨ - ١٢٦٩ م)

يُنسِّبُ محمد بن عبد الله مؤسس هذه الدولة إلى على بن أبي طالب وكان يقال أو والده تومرت ، وباييعه الناس ولقبوه بالمهدي ، وهو من أهل المغرب الأقصى ، رحل إلى الأندلس فطلب العلم سنة ٥٠٠ هـ ورحل في طلب العلم إلى مصر والشام والعراق ، حيث التقى في بغداد بالأمام الغزالى ، وكان فقهاء الأندلس يكفرون من يقرأ كتابه أحياء علوم الدين وأفتوا بحرقه في الأندلس والمغرب ، وعاد أبو عبد الله بن تومرت إلى المغرب يعلم الناس ، ومن أشهر تلاميذه عبد المؤمن بن علي — من أهل تلمسان — وظل يقرأ عليه برباط ملاله إلى أن انتقل إلى مدينة فاس ، ومنها إلى مراكش ثم هرجه في السوس الأقصى ، وتبع المهدي الكثير من البربر سنة ٥١٥ هـ وباييعه على أنه المهدي ، وتعارضوا على أن يكونوا يدا

واحدة على القتال والدفاع ، وعلى أن يقاتلوا عنه ، ويبدوا أنفسهم دونه
بها كانت التضحيات ، وترعم هذه البيعة أصحابه العشرة ومن أبرزهم
عبد المؤمن بن علي، وسموه بالمهدي ، وكان يعقد الأمور العظام مع أصحابه
لشرة ، وتتابع البربر على بيته ، والترموا بنصرته ، وكانت صنهاجه من
أعم انصاره ، وأعان الحرب على لتوته ، وترعم أصحابه العشرة الحرب
والطلاب والحفظ وأهل الدار وأنصاره من القبائل والجند والرماء ،
ولكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها غيره لا في سفر ولا في
حضر ، ولا ينزل كل صنف إلا في موضعه فانتظم جنده ، ومحفظ
لأنصاره كتابا ، سماه التوحيد باللغة البربرية ، وهو سبعة أجزاء عدد
 أيام الجمعة ، وأمرهم بقراءة جزء واحد كل يوم بعد صلاة المبح
بعد الفراغ من قراءة جزء من القرآن ، وهو يحتوى على معرفة الله
تعالى ومسائر العقائد كالعلم بحقيقة القضاء والقدر والإيمان وما يجب
على المسلم من الأمر بالمعروف والتنهى عن المنكر ، وأخى بين أنصاره ،
وألف لهم كتابا سماه « القواعد » وآخر سماه « الأمانة » وكتبا أخرى
بالعربية والبربرية تداولها الناس وتتضمن هذه الكتب الموعظ والحكم
والأمثال ، فأقبل الناس بشغف شديد على هذه الكتب ، ويسر لهم
طلب المعلم .

خشى على بن يوسف – أمير المرابطين – على ملكه من المهدي
وحركته ، وعول على قمع هذه الحركة في مهدها ، وأعد جيشا
بقيادة – والى السوس أبي بكر المتنوى – ومنيت جيوش المرابطين
بالهزيمة أمام جيوش المهدي ، ولم يزل ، أمير المرابطين يوالي الحروب
على أصحاب المهدي من كل جانب ، ويعيث لحابتهم الجيوش
والكتائب ، حتى سئمت جنوده الحرب ، ودخلهم الذعر والرعب ،
وواصل الموحدون – انتشاراتهم حتى اقتربوا من
أغمات ، وقتلوا الكثير من أهلها ، وتوجه المهدي الى تينمال ، واتخذها
مقرًا له لحسانتها وحسن موضعها ، وقسم أرضها وديارها على
 أصحابه وأدار على المدينة سورا خسما ، وشيد على رأس الجبل

حصنا يكشف على ما وراء الجبل ، والمدينة حصينة الدخول اليهـ
صعبا عسيرا .

ولما شعر المهدى بقوته وازداد انصاره ، حشد الجيوش للاستيلاء
على مراكش - عاصمة المرابطين - واسقاط هذه التوله المتداعيه
وحاصر جنده مراكش أربعين يوما ، ولكن جيوش المرابطين تانت أكثر
عدها وقوه من جيوش الموحدين ، لذلك هزم المرابطون الموحدين
ولم يسلم من الموحدين الا القليل وفر من استقطاع الفرار من
المعركه ، وأتباعهم المرابطون من مراكش الى أغمات ، فامعنوا القتل
فيهم ، ولم ينج منهم الا القليل ، وكان المهدى مريضا بتنيمال ، وأوصى
أن يخلفه عبد المؤمن ، وتوفى المهدى سنة ٥٤٤ ، وخلفه
عبد المؤمن بن على .

توفى أيضا أمير المرابطين على بن يوسف سنة ٥٣٧هـ ، وازدادت
قوة الموحدين ، وعظم شأنهم ، وتابعت ثوراتهم ضد المرابطين فساحت
أحوال بلاد المغرب ، وتدهر الوضع الاقتصادي ، وكسرت التجارة ،
وانحطت الزراعة ، فانتشرت المجاعات وارتفعت الأسعار ، وتدهر الوضع
السياسي والحاله الاقتصادية في الأندلس ، وتوسعت التنصاري في
الأندلس على حساب ملك المسلمين وغادر الكثير من الاندلسيين بلادهم
إلى المغرب .

ولى أمر المرابطين تاشفين بن على بن يوسف ، وكان قد اشتغل
مع الموحدين في عدة وقائع وحروب ، ولم يستطع الذهاب إلى الأندلس
بسبب اشغاله بحروب الموحدين واشتدت غارات الموحدين من فاس
إلى تلمسان وكان الموحدون يسيرون في الجبال المنيعة حيث الأرزاق
الواسعة وتاشفين ينزل البسائط بعساكره ، فلا يجد من ينصره من البربر
وانتقل بعد المؤمن إلى جبل غماره ، فتبعده تاشفين ، ثم انتقل من جبل
غماره إلى جهة تلمسان ، وباييعه أكثر زناته المستوطنيين بنواحي
تلمسان ، ونزل برأس الجبل الذي عيدها ، واستعلن تاشفين بصنهاجه

ويرجالة في كل بلاد في المغرب ، وتمت المعركة الفاصلة بين المرابطين والموحدين فيما يعرفه بيوم منDas فقد فيه من جيش المرابطين جموع غفيرة ، وظهرت حتى هذا اليوم قوة عبد المؤمن وتجلت بوضوح ، وكان أمر المرابطين قد ضعف في الأندلس لانشغالهم بأمر الموحدين في المغرب ولم يزد الموحدون في علو وظهور كل يوم ، وحال الممتنعين في أدبار ، حتى اضطر تاشفين إلى الاحتماء في حصن في وهران ، خوفا من بطش الموحدين ، ولكن الموحدين حاصروه في الحصن ، ومات تاشفين ، واستولى الموحدون على الحصن سنة ٥٣٩ هـ .

خلف أبراهيم بن تاشفين أباه في وقت تمزقت فيه دولة المرابطين ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الزوايا ، وكان عليه أن يحافظ على ماتبقى للمرابطين في المغرب ، ولكن كانت قوة الموحدين في ازدياد ، وشأن المرابطين في ضعف وانقسام .

استولى عبد المؤمن على وهران وتلمسان ، ونهبوا كل ما وقع تحت أيديهم من الأموال ، وخرموا الديار ، وقتلوا الأنفس ، واستولى على فاس بعد حصار دام ستة أشهر قاوم أهلها الموحدين بكل بسالة وشجاعة ، واستولى الموحدون على فاس ، ورحل عبد المؤمن إلى سلا ، وأرسل عبد المؤمن فرقة من جيشه حاصرت مكتاسبه حتى استسلمت .

بعد أن ضم الموحدون الكثير من بلدان المغرب إلى حوزتهم وملسوها ضعف المرابطين ، رأوا أن الوقت قد حان للاستيلاء على مراكش عاصمة المرابطين ، حتى يزيلوا نهائيا هذه الدولة من الوجود . وفي سنة ٥٤١ هـ توجه عبد المؤمن إلى مراكش ، وحاصر جند الموحدين العاصمة المرابطية حتى طال الحصار ، وأشتد الكرب وعظم البلاء ، وقتل في الحصار الكثير من أهل مراكش ، ومات الناس جوعا وعطشا ، حتى فتحت مراكش أبوابها للمغزا سنة ٥٤١ هـ فدخل الموحدون البلدة عنوة ، وامتنع الأمير أبو اسحاق أبراهيم بن تاشفين مع المرابطين بداخل أحد الحصون ، ولكن الموحدين اقتحموا الحصن وقتلواهم ، كما قتلوا

الكثير من أهل مراكش ، واستمر القتل ثلاثة أيام . وبموت الأمير أبو اسحاق ابراهيم بن تاشفين زالت دولة المرابطين ، وقامت على أنقاضها دولة الموحدين .

وكان انتصار الموحدين في وهران ، ومصرع حاكمها تاشفين ابن على مشجعا الثوار في الأندلس بالاتصال بالموحدين يطالبونهم بالذهب إلى بلدهم .

وأتصل النوار في الأندلس فعلاً بال الخليفة عبد المؤمن وبأبيه ، ودعوه للحضور إلى الأندلس ، وتولى أمرها بعد أن تدهور المرابطون ، وطماع العدو في البلاد ، وانهيار الوضع الاقتصادي وكانت أول خطبة أقيمت للموحدين بالأندلس في مسجد قادش ، وانضم ابن ميمون قائد أسطول المرابطين إلى الموحدين .

وكان لقدم الزعماء الشائرين في الأندلس على ، عبد المؤمن ، ومباعيthem له أثر فعال في توجيه أنظار الموحدين إلى الأندلس وسن عليهم إلى مه سلطانهم على هذه البلاد .

زحف الجيش المودي إلى الأندلس سنة ٥٤١ هـ - ١١٤٦ م ، واستولى على الجزيرة الخضراء ، وطرد المرابطين منها ، واستولى الموحدون على شريش ، وواصل الموحدون زحفهم في أراضي الأندلس حتى ضمموا إلى حوزتهم معظم بلدان غرب الأندلس ، وتوجهوا انتصاراتهم بتصفية قواعد المرابطين بالاستيلاء على أشبيلية ، ودخل أهلها في طاعة الموحدين ، ولكن سرعان ما لبس الأهالي تعت حكام الموحدين وظلمهم ، فثاروا عليهم ، وطردوا عمالهم وخرج على طاعة الموحدين ابن فنسى وثار في ثلب وابن ميمون بقادش و محمد بن الحجام بيطلبيوس ، وطرد أهل أشبيلية الموحدين من بلدهم ، وثار أهل المرية على واليهم وقتلوه وفي نفس الوقت ثار المغاربة على الموحدين ، ولم يبق في طاعتهم سوى مراكش وفاس . وانتهز ابن غانية الفرصة ، وقاد جيشاً من المرابطين استرد الجزيرة الخضراء من الموحدين .

وزاد من ثورة أهل المغرب على الموحدين ما أشيع بين الناس من أن الموحدين يعترون قتل زعيم سبته الروحى أبو الفضل عياض

لما تم لعبد المؤمن فتح مراكش قسم فيها وأموالها على الموحدين، وقسم عليهم ديارها، وبيع أولاد أهل مراكش واستولى عبد المؤمن على خزائنها على بن يوسف وذخائر لتوته وبقيت مراكش ثلاثة أيام لا يدخلها داخل، ولا يخرج منها خارج، وأسس بمراكن مسجداً جامعاً عبر مسجد المرابطين وغرس البساتين حول مراكش، وجلب لها الماء من آفunas وحفر الآبار والعيون، وعظم انتاج هذه البساتين من الفواكه.

على أن دولة الموحدين الناشئة تعرضت لكثير من الفتن فوجد بعض الزعماء أن ادعاء المهدى يكسبهم سلطاناً ونفوذاً وجاهة، فأعلن محمد بن عبد الله بن هود الماسى الثورة في بلاد السوس، وادعى الهدایة، ولقب نفسه بالمهادى، وأقبل عليه الناس من كل مكان، وطبقت شهرته الآفاق، ودان بدعوته جموع غفيرة، وباعيه الناس في كل بلدان المغرب، واستنكروا دعوة الموحدين، ورأوا في دعوته خلاصاً من الموحدين الذين لم تتحسن أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية باتصال الحكم إليهم، على أن عبد المؤمن سير عدة جيوش إلى بلاد السوس هزمت محمد بن هود الماسى وأنصاره، ولم تكن هذه الحركة المعارضة الوحيدة لعبد المؤمن، بل اشتغلت ضد حكمه ثورات متعددة قضى عليها وأحبطها في مدها.

قيام دولة الموحدين بالأندلس

لم يتعجل الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن عنى بارسال جيش الى الأندلس لانتزاعها من المرابطين مستغلًا ثورة الأندلسيين عليهم ، بل تريث بعض الوقت حتى يتمكن من السيطرة على كل بلاد المغرب ، وانتزاع البلاد التي كانت لاتزال في أيدي المرابطين ، وضمها الى حوزته . وسقطت بلاد المغرب في يده الواحدة تلو الأخرى ، وفي سنة ٥٤١ هـ — ١١٤٧ م سقطت مراكش — عاصمة المرابطين في يده .

وكان الأندلسيون يتربكون ما يجري في المغرب ، ويتعجلون نهاية اليخصوصي . وولى أهل سبته عليهم واليا من المرابطين بعد أن خلعوا طاعة الموحدين .

لما شعر عبد المؤمن بقرب زوال حكمه ، اضطر الى استخدام العنف لاخضاع انوار عليه في المغرب ، ومزق معارضيه كل ممزق ، واسترد الموحدون في الأندلس الجزيرة الخضراء وأشبيلية ، وتلى ذلك سقوط مدن المغرب الأندلس في أيدي الموحدين الم مدينة تلو الأخرى ، وقوى أمر الموحدين في الأندلس حتى أصبح في امكаниهم خسما الى حوزتهم ، وقد أزعج ذلك ، الفونسو السابع — ملك قشتالة — فارسل الى ابن غانيه في قرطبة يطالبه بماله الكبير نظير حمايته من الموحدين ، ودرء خطرهم عن بلاده ، فرأى ابن غانيه أن الموحدين اخوانه في الدين أفضل ألف مرة ومرة من الفونسو السابع ، لذلك أرسل في الصلح الى الخليفة عبد المؤمن ، وتنازل للخليفة عن قرطبة وفرمونة مقابل حكم جيان عوضا عنها ، ولم يأبه ابن غانيه بتهديدات الفونسو السابع ، وقد هاجم الفونسو السابع قرطبة ، واستولى عليها بعد وفاة ابن غانيه ، وعدم استطاعة الموحدين ملا الفراغ الذي تركه هذا القائد ولكن الموحدين مالبثوا أن استردو قرطبة ، وعززوا فيها حاميه كبيرة ، وعاد ملك قشتالة فاستولى على المريه في سنة ٥٤٢ هـ — ١١٤٧ م ، وكان

لسقوط المريه أمر سهٍ في نفس الأنداسين ، الذين تتابعت المحن عليهم ، وقد شجع ذلك النصارى على الاستيلاء على ما بقى بأيدي المسلمين في الشغر الأعلى ودعا البابا أوجين الثالث إلى حماه صليبية لفتح هذه البلاد وهاجموا طرطوشة التي سقطت بعد حصار دام ستة أشهر ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م . وتتابعت حملات النصارى على البلاد الإسلامية فهاجموا لارده وأفراغه ومكتاسبه ، واستولوا على هذه البلاد . وبذلك زال سلطان المسلمين من الشغر الأعلى ، ودانت بلاد الشغر الأعلى للنصارى ، وسقطت أشبوونه في أيدي ملك البرتغال في الوقت الذي سقطت فيه المريه .

ساعت أحوال الأندلس ، وتدور الوضع السياسي بهما وتتفتح الأندلسيون إلى الخليفة عبد المؤمن لإنقاذ بلادهم من النصارى ، وذهب شيخوخ الأندلس إلى الخليفة وبايعوه ولم يتخلف إلا ابن قسي الذي ظهر عدم اخلاصه لـ الموحدين بل وطد علاقته بملك البرنفال ، لذلك خشي أهل شلب سوء العاقبة ، وتاروا على ابن قسي وقتلوه وأرسوا إلى الخليفة عبد المؤمن ييسأعونه ، وبذلك انتهت نورة المريدين التي كانت تستهدف الفحلاص من حكم المرابطين ، وأصبح غرب ووسط الأندلس في أيدي الموحدين ، وترجح موقفه المرابطين في غرناطة ، فأرسل إليها المرابطي ميمون بن بدر إلى الخليفة عبد المؤمن يعرض عليه تسليم غرناطة فوافق على طلبه وأمنه على حياته ومآلته سنة ٥٥١ هـ - ١١٥٦ م وعلى أثر استعادة الموحدين غرناطة ، استولوا على المريه وكان لابد للموحدين من تأمين سواحل المغرب والأندلس من أخطمار النصارى ، واسترد الموحدون كل بلادن الشغر الأعلى .

وبعد أن فتح الموحدون معظم الأندلس ، اتجهوا إلى تحرير بقية شبه الجزيرة من النصارى ، وحصنوا قاعدة جبل طارق وأنشأوا مدينة كبرى بها تكون معسكراً تتطلق منها الجيوش الموحدية لتحرير البلاد من الأعداء والجهاد في سبيل الله . وكانت سياسة عبد المؤمن تستهدف

تخلیص بلاد الأندلس من العمالء المسلمين المتواطئين مع الأعداء
وتخلیص البلاد بعد ذلك من العدو النصرانى المترقب .

كان عبد المؤمن بارا بمن انضوى إليه ، عارفا بأقدار النساء
مكرما لأعیانهم وأهل البيوتات منهم ، عالما بقدر العلماء ، ينزل النساء
على قدر منازلهم ورتبهم ، وربى الحفاظ بحفظ كتاب الموطأ ، وكذا
ورسائل المهدى ، وكان يدخلهم كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر
فيجتمع الحفاظ فيه ، وهم نحو ثلاثة آلاف قصد بهم سرعة الحركة
والتربيبة على ما يريد ، فأخذهم يوما بتعلم ركوب الخيول ، وييو
بالرمي بالقوس ، ويوما بالسباحة فتأدبوا بهذه الآداب ، تارة باعطائهم
وتارة بالأدب ، وكان ينفق عليهم عن سعة . وبذلك استطاع تكوين فرق
ذات كفاءة قتالية كبيرة ، وثقافة دينية رفيعة ، كما عهد بحكم الولايات
إلى رجال يثق في مقدرتهم الادارية .

اعترم عبد المؤمن توسيع دائرة ماكه في المغرب ، فتوجه إلى تونس
وسأله أهلها الأمان فأمنهم في أنفسهم وأولادهم ولكن ليس في أموالهم
لذلك دخل جيش الموحدين تونس ، وصادر الجند أموال الأهلين
وبعد أن ثبت الموحدون أقدامهم في تونس ، توجه عبد المؤمن إلى المهدية
وكان صاحب جزيرة صقلية قد استولى عليها ، وعما بعض بلدانه
الساحل التونسي فاسترد الخليفة عبد المؤمن هذه البلاد ، وعادت إلى
أيدي المسلمين سنة ٥٤٥ هـ ، واعطى جند صقلية أمانا فغادرو
المهدية ، وبذلك عادت هذه البلاد إلى حظيرة الإسلام ، وأمن أهلها على
أنفسهم وأموالهم ، وانضمت الأراضي التونسية إلى دولة الموحدين .
وضمت دولة الموحدين معظم بلاد المغرب من طرابلس إلى أقصى
المسوس .

خلفاء عبد المؤمن :

لما توفي عبد المؤمن خلفه ابنه يوسف ، وقد احتاز إلى الأندلس
سنة ٥٨٠ هـ ، وقد سيطر على بلاد غرب الأندلس ، وسد عنها غارات

النصارى سنة ٥٨٠ هـ ، وولى أبناءه القواعد الرئيسية في الأندلس ، واتسع مأكنه في المغرب والأندلس ، وخلفه يعقوب المصور ، ومن أهم إنجازاته فتح مدينة شلب وفي سنة ٥٩١ هـ ، هزم النصارى ، وانتصر عليهم انتصاراً رائعاً في موقعة تسمى الأرك سنة ٥٩١ هـ بلغت دولة الموحدين ذروتها في عهد هذا الخليفة ، فقد اتسع مأكمتهم ، فكان للدولة جيش قوى قادر على توجيه الضربات القوية للعدو ، وكانت جيوبهم تضم جنداً من المصامدة أولاً ثم من الصهاجيين ثانياً وبعض الزنابيين ، وبعض العرب الهمالية ، وأحاط الخليفة نفسه بحرس حاص من العبيد السودانيين .

ومن أشد الفتن الداخلية التي واجهها أبو يوسف يعقوب المصور فتنة بني غانية في أفريقيا ، وقد انضم إليهم بعض العرب والترك وكانوا يتذدون من الصحراء ملذاً لهم ، كلما ضيق عليهم الموحدون الخناق ، وما زال أبو يوسف يعقوب يشدد عليهم هجماته حتى نكل بهم وهزمهم ، واستكانوا ، وكفوا عن الثورة سنة ٥٨٣ هـ .

ما هدأت بلاد المغرب بعد انتهاء ثورة بني غانية تطلع أبو يوسف يعقوب لإنقاذ بلاد الأندلس من الهاوية التي تردد فيها ، فقد استدضف النصارى على مسلمي الأندلس وتدورت أحوال المسلمين في هذه البلاد ، وأصبح الأندلس على وشك السقوط في أيدي النصارى ، وجدير بالذكر أن أبو يوسف يعقوب كان معاصرًا لصلاح الدين الأيوبي ، وكما حرر صلاح الدين القدس وبعض أراضي الشام من الصليبيين فعل أبو يوسف يعقوب نفس الشيء . وفي هذه السنة — أقصد سنة ٥٨١ — تولى سانشو الثاني ملك البرتغال ، وقرر الاستيلاء على بعض بلاد غرب الأندلس متسلزاً فرصة انشغال الموحدين ببني غانية .

وفي سنة ٥٨٥ هـ حشد جيئساً كبيراً ضم فرقاً صليبية كانت مسافرة إلى بلاد الشام ، واستولى على ثاب ، أهم ما تبقى للموحدين في عرب الأندلس من الموارن .

وكان لسقوط سلب في أيدي ملك البرتغال ابر كبير في تصميم أبي يوسف يعقوب لتحرير عرب الأندلس من أيدي النصارى ، ودعا إلى الجهاد ، واستتر الناس للقتال ، وأقبل عليه أهل المغرب من كل مكان ، وكانت مساعر المسلمين قوية بعد انتصار صلاح الدين في خطين سنة ٥٧٩ هـ

خرج المنصور من رباط الفتح ، وأمر جنده بموافاته في إسبانيا سنة ٥٨٦ هـ ، واستعاد المنصور سلب سنة ٥٨٧ هـ وكذلك بعض الخصون . وتوقف عن الحرب أربع سنوات ، عاد بعدها إلى منازلة العدو سنة ٥٩١ هـ ، وعندما علم الفونسو الثامن - ملك قشتالة - دعا كل ملوك النصارى في إسبانيا إلى تشكيل جبهة متحدة للتصدي للMuslimين واستتجه بالبابوية ، فكترت جموع النصارى وفرسانهم ، واحتشدوا في سهل فسيح حول حصن يسمى الأرك على ضفة الوادي أنه والى الغرب من مدينة « ثيوداد ريال » الحالية ودارت المعركة الفاصلة في شعبان ٥٩١ هـ ، وهزم المسلمين النصارى ، ومزقوا جموعهم كل ممزق ، وفر الفونسو ومن استطاع الفرار إلى طليطلة ، ولم ينج من هذه المعركة الا الترید .

كان لهذه الموقعة آثار بعيدة المدى في تاريخ الأندلس لا تقل عن الأثر الذي تركته واقعة الزلاقة ، فقد عادت إلى المسلمين هيبيتهم في هذه البلاد وضعف أمر النصارى . وبعد هذه الواقعة أرسل المنصور فرقاً من جيشه ، استعادت الكثير من بلاد غرب الأندلس ، لكن المنصور لم يجن ثمرة نصره ، فقد كان في استطاعته تحرير طليطلة وغيرها من البلاد . وكف عن محاربة النصارى ، لذلك أعطى الفرصة للفونسو الثامن لاعادة تنظيم قواته واكتفى المنصور بتنظيم ادارة الأندلس ، وجنجح إلى السلم .

خلف محمد بن عبد الله الملقب بالناصر أباه (٥٩٥ هـ - ٦١٠ هـ ١١٩٦ - ١٢١٣ م) كان شاباً سريعاً الاندفاع مستبداً بالأمور ، وفي عهده انتهت ثورة ابن غانيه ، واستولى محمد بن عبد الله على الجزائر الشرقية

سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ، وبعد ذلك بعامين ، انتصر الموحدون انتصاراً رائعاً على بنى عانية ، وقضوا عليهم نهائياً قرب قابس . وعلى أثر ذلك دخل الموحدون تونس والمهدية . وتم بذلك القضاء على فتنة بنى عانية التي أجهدت الموحدين كثيراً ، وعهد خليفة الموحدين لعبد الواحد بن أبي حفص بحكم تونس لكتفاته . وقد قضى على آثار بنى عانية ، ونبت أقدامه في تونس ، ووطد نفوذه بها . وتوارث بنو حفص حكم إفريقية حتى احتفظوا بها نهائياً .

ضعف أمر المسلمين في الأندلس بسبب انشغال الخليفة الموحدى الرابع أبو محمد عبد الله الناصر بقمع الفتنة في تونس ، وكف الموحدون عن إرسال الجيوش إلى الأندلس لتعزيز مركز المسلمين هناك ، وقد شجع ذلك الفونسو الثامن – ملك قشتالة – على شن الغارات على بلاد المسلمين في الأندلس ، لذلك رأى الخليفة أبو محمد عبد الله الناصر اخضاع الفونسو ، ومحاربته وأعد لهذا الغرض حملة قوية أحسن إعدادها ، وأمدتها بالأسلحة والعتاد ، وعبرت الحملة إلى الأندلس سنة ٦٠٧ هـ – ١٢١٠ م ، وعسكر الجيش الموحدى في إسبانيا ، وتواجد على جيشه المجاهدون الأندلسيون من كل صوب وحدب .

وأعد الفونسو الثامن حملة صليبية للانتقام من هزيمة الأرك وطرد المسلمين من الأندلس ، فأنهى خلافاته مع ماكي نافار وأرجون واستجدد بالبابوية ، وكون قوة مسيحية ضاربه تستطيع محاربة المسلمين وتوجيه أشد الضربات لهم .

تحرك الناصر بجيشه الكبير سنة ٦٠٨ هـ – ١٢١١ ، ودخل جيلان وحصنها ، ثم سار إلى خانق ، وعسكر بجيشه على مقربة منها في سهل مليء بالقلال الصخرية القليلة الارتفاع ، وتقسم العقب ، والتقوى الناصر بجيوش النصرانية ، وتألف من قوات من ليون ونافار وقشتالة وأرجون وخراسان إسبانية وقوات من المانيا والبرتغال واستولت هذه الجحافل على قلعة رياح ، فذعر الناصر ، وأمر بقتل قائدها يوسف بن قادس ، هنا

ارقاع الأندلسيون ، وتفرقوا ، فضعف شأن الناصر ، ووقيعت الواقعة
٦٠٩ - ١٢١٢ م ، وقد هاجم النصارى المسلمين بعنف وضراوة ،
واخترقوا صفوف المسلمين ، وقتلوا من فرسانهم الوف ، ومن جندهم
عشرات الآلوف . وتعتبر هذه الموقعة بداية لضعف شامل أصاب المسلمين
في الأندلس ، كما تعتبر نهاية قوة الموحدين ، ولم تقم لهم قائمة بعد
ذلك ، وتوفي الناصر بعدها بأشهر ٦١٠ - ١٢١٣ م ، وقد نسجت
هزيمة المسلمين ، النصارى على الاستيلاء على حصن المسامين ، الواحد
بعد الآخر وضعف الموحدون ، وتنافسوا حول الوصول إلى الحكم ،
وتنافسوا أحوال الأندلس ، فسقطت البلاد الأندلسية في أيدي النصارى
وهي قرطبة وانسيبليه وجيان ومرسيه والجزائر الشرقية وقد هال المسلمين
سقوط عاصمتهم قرطبة ٦٣٣ - ١٢٣٦ م في يد فرناندو الثاني
ملك قشتالة ، الملقب بالقديس دون مقاومة تذكر .

خلف الناصر ابنه المنصور ، أبو يعقوب يوسف بن محمد الناصر
وتنافس أمراء البيت الموحدى حول الحكم ، وثاروا ضده وظهرت العناصر
القوية تطالب بالحكم والقضاء على الدولة المدعية ، وانتهى النزاع بالقضاء
على الموحدين ، وقيام دولة بنى مرين ٦٦٨ - ١٢٧٠ م .

ويجب أن نقول هنا قبل أن نختتم كلامنا على دولة الموحدين ، بأن
هذه الدولة لعبت دوراً كبيراً في تقوية بلاد المغرب ، وأجلت كارثة سقوط
الأندلس ، وعززت مركز المسلمين في هذه البلاد ، ويعتبر عصرهم ، العصر
الذهبي للفلسفة الإسلامية ، فقد ظهر علماء الفلسفة الكبار ، ابن رشد
وابن طفيل وابن عربي ، وحفل العصر الموحدى بالأدباء والشعراء والمفكريين
والمهندسين الذين أقاموا منشآت معمارية بدئعة في جميع أنحاء المغرب .
واعتمد الموحدون في بناء صرح دولتهم على المصامدة ، وهو فرع بربرى
تميز بالمصلبة والمقدرة القتالية ، ويشكلون معظم سكان المغرب الأقصى .

ويجب أن نشير هنا إلى كبار فلاسفة هذا العصر من الفلاسفة
الأندلسيين أبو بكر محمد بن عبد الله بن طفيل القيسي من دراكسن

ت ٥٨١ هـ، ويرى البعض أنه تلميذ لابن باجه، وكان طبيباً في عرشه، وعمل كاتباً لبعض الأمراء، وارتفع شأنه حتى أصبح طبيباً ل الخليفة الموحدين يعقوب يوسف المنصور واله مصنف في الطب، ولله آراء فيمه في الفلك، ولم يبق من مؤلفاته إلا رسالته إلى بن يقطان، أو رسالات الفلسفة الاشرافية، وببدأ ابن طفيل رسالته بموجز مفيد هام عن تاريخ الفلسفة في الإسلام، يمدح ابن ط菲尔 فيه ومن تقدمه من الفلاسفة، ابن سينا وابن باجه والغزالى، والأساس الفلسفى لرسالة ابن يقطان، هو الطريق الذى كان عليه فلاسفة المسلمين، الدين نهجوا على مذهب الأفلاطونية الحديثة، وقد صور ابن ط菲尔 الإنسان الذى هو رمث العقل في صورة حى بن يقطان (واليقطان هو الله) ورمى ابن ط菲尔 من ورائها إلى بيان الاتفاق بين الدين والفلسفة، وهو موضوع سُجل أدهان المسلمين جمِيعاً.

ولد ابن ط菲尔 في أحد القرى الأندلسية، وتقاد عدة مناصب من بينها وظيفة كاتب لحاكم ولاية غرناطة، وحاكم ولاية طنجة، وكان طبيباً لأحد خلفاء الموحدين، وهو أبو يعقوب يوسف، وعظمت مكانته عند الخليفة الموحدى، وجمع بين الرجلين الميل إلى دراسة علوم الدين والفلسفة، وأرسل في شراء الكتب من المغرب والأندلس، وجذب العلماء إلى بلاطه، وأعدق عليهم، ووصلهم، حتى خم بلاده نحبة من العلماء الأجلاء.

وتطورت الدراسات الفلسفية في عهد الموحدين، فبينما كان يرفض المرابطون علوم الفلسفة، نجد أن الموحدين جددوا علم الكلام عن طريق

ادخال مذهب الأشعرى ومذهب اعرالى الصوق الأشعرى ، بعد أن كانا
موصوفين بالزندقة من قبل .

ومن أهم مؤلفات ابن طفيل « حى بن يقطان » ووفق في هذا الكتاب
بين الدين والفلسفة حتى يزيل اشك والريبه من مفوس المغاربه في علم
الفلسفة ، واستفاد ابن طفيل من كتب الفلاسفه الذين سبقوه في المشرق
والمغرب ، وتوفي في مراكش سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٦ م .

كان الانتاج العلمي لابن طفيل قليلا ، اذا قيس بابن رسد أو
ابن سينا ، وقد يكون السبب في ذلك انتغاله بالمناصب الرئيسية في فترات
من حياته ، ربما نسغله عن التأليف والتصنيف ونسمع عن كتب ألفه في
الفلسفه والطب والأدب ، فقدت مؤلفاته ، ولم يبق منها سوى كتابه
المعروف « حى بن يقطان » .

وترجم شهرة ابن طفيل إلى رسالته « حى بن يقطان » التي تعد من
الرسائل الخالدة في مجال الفكر الفلسفى العالمى عامه ، والفكر الفلسفى
العربى على وجه الحصوص ، وتأثر بها الفلاسفه العرب والأوربيون
وأقبلوا على دراستها ، وترجمت إلى لغات متعددة^(١) .

وقد أوضح ابن طفيل اعتماده على العزالى وابن سينا ، وأضافه الآراء
الفلسفية الجديدة التي ظهرت في أيامه ، إلى آرائهم ، وانتقد بشدة ورفض
كل الرفض آراء منتظر الفلسفه ، وأضاف إلى كل هذه الآراء أفكاره
الخاصة وآرائه . وبذلك يتضح لنا أنه درس آراء فلسفة الشرق والغرب
الذين سبقوه وعاصروه ، ونقدوها وأوضح وجه الكمال أو النقص فيها .

وفي رسالته عن حى بن يقطان يقول ابن طفيل « نظر حى إلى سائر
الأجسام من الجمادات والأحياء فرأى أن حقيقه وجود كل واحد منها
مركبة من معنى "جسمية ومن نسء آخر زائد على التجسمية أما واحد وأما

(١) العراقي : المتمايزيقيا في فلسفة ابن طفيل ص ٣٩ .

أكثر من واحد ، «لاحت له صور الأجسام على اختلافها وهو أول ما لاح له من العالم الروحاني اذ هي صور لا تدرك بالحس وإنما تدرك بضرب ما من النظر « العقلى »^(١) .

درس ابن طفيل عالم ما تحت فلك القمر ، وعالم ما فوق فلك القمر ، ومسئلة حدود العالم وقدمه ، وأدله وجود الله ، ومسئله الصفات الاليمية ، ومسئلة خلود النفس ، والتوفيق بين الفلسفه والدين .
ومما يجدر ذكره أن ابن طفيل كان حريصا على تقديم أكثر من دليل على وجود الله ، كل دليل منها يعتمد على فكرة غير الفكره التي يعتمد عليها الحاليل الآخر بصورة أو بأخرى ، دليل أول يعتمد على فكرة انحركه ، ودليل ثان يبين لنا كيف أن حدود الصورة للمادة يحتاج الى محدب ، ودليل ثالث يكشف لنا عنایة الله بالكون ، ولو لا هذه العنایة لهلك العالم في لحظة من النسخات والاعترافه بين الأسباب ومسبياتها يهدينا الى التصرف بعنایة الله بالكون^(٢) .

وقد أوضح ابن طفيل بعض الصفات الاليمية عن ااريق نفيه عن الله تعالى ما تتصرف به الموجودات ، تمسكا منه بقواعد التنزيه وموحدا بين الذات والصفات ، « فالله هو الوجود وهو الكمال وهو التمام وهو الحسن ، وهو القدرة وهو العلم وهو هو »^(٣) .

وفي مجال التوفيق وبين الفلسفه والدين ، اهتدى بهذه الآراء ضرورة التمسك بحدود الشرع والأعمال الظاهرة ، وقلة الخوض في المسائل الجدلية ، والإيمان بالتشابهات والتسليم بها والاعراض عن البدع والأهواء ، والاقتداء بالسلفه الصالح وترك الأمور المحدثه ، وتجنب ما عليه جمهور العوام من اهمال الشريعة ، والاقبال على الدنيا^(٤) .

(١) ابن طفيل : حر بن يقظان ، ص ٨٧ .

(٢) عاطف العراقي : ابن طفيل ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٣) ابن طفيل : حر بن يقظان ، ص ٦٦ .

(٤) إد-مدر السالق ، ١٧٦ .

ودرس ابن طفيل نظرية الاتصال بالله ، وبدراسته جوانب معبرة عن
الفناء والتحلول ، وغيرهما عن اسياء يتحدث عنها ا صوفيه وهو بيان لسمو
العالم الالهي عن العالم الحسى ، ولم يعبر ابن طفيل عن اتجاه صوفى ،
انما استند الى اراء فلسفية وصلته اى المبادئ العامة للوجود .

ويقول الأستاذ الدكتور عاطف العراقي . ان آراء ابن طفيل حلقة
من حلقات المدرسة الفلسفية الأندلسية ، وهذه المدرسة بأقطابها الثلاثة :
ابن باجعه ، وابن طفيل ، وابن رشد ، لا يعبر واحد منهم من حلال آرائه
عن اتجاه صوفى .

اما ابن رشد فقد ارتفع شأنه في خلافة أبي يوسف
يعقوب المنصور ، ولكن الخليفة قلب عليه ظهر المجن ،
وتقرب للفلسفة والفلسفه ، وجمع الفقهاء وشاورهم في ذلك .
ماتهموا ابن رشد بالكفر ، ونفي الخليفة ابن رشد على مقربه من
قرطبة ، ويبدو أن الحقيقة بعد موقعه الأرك ، ازدادت حماسته الدينية ،
ولا يغيب عن الأذهان سعي الحاسدين لابن رشد لدى الخليفة . ودمه
الفقهاء والنسيوح في المساجد ، وهجاه اشاعر ، ولكن أهل الخير أصلحوا
بينه وبين أبي يعقوب ، فاستدعاه إلى مراكش ، واكرم وفادته ، وطل بها
حتى وفاته ٥٩٥ هـ ، ومن أبرز مؤلفاته في الفلسفه ، شروح مؤلفات أرسطو ،
وطبع شروح مطوله لكتاب « التحليلات الثانية » — « السمع الطبيعي »
« ما وراء الطبيعة » و (السماء والعالم) و (النفس)
ومؤلفات أخرى لارسطو رسائل (السمع الطبيعي) و (السماء والعالم)
و « الكون والفساد » و « الآثار العلوية » و « النفس » و « وما وراء
الطبيعة » .

ومن كتبه التي وضعتها بنفسه كتاب « تهافت التهافت » وله كتاب
(المقدمات) عبارة عن اثنتي عشرة مسألة في المنطق ، وكتب « اتصال
العقل الفعال بالانسان » وله في علوم العقائد « فصل المقال وتقرير ما
بين الشريعة والحكمة من الاتصال » والثانى هو (الكشف) .

اشتغل ابن رشد بالطب ، وصنف كتابا في هذا المجال ، ومن أهمها كتاب الكليات ، وهو الذي يتضمن الأحكام الكلية في ميدان الطب ، وقد درس طلاب الجامعات في العصر الوسيط هذه الكتب ، لأنها يتضمن معلومات عامة في الطب ، وكان حذرا في وصف العلاج ، وشغل منصب الطبيب الخاص لأبي يوسف المنصور ، ولما عاد المنصور من أحدى حروبه سنة ٥٩٣ هـ ، كتب إليه البعض مقالات يشكرون المنصور في صحة عقيدة ابن رشد ، فتفاه فترة محدودة ثم عفا عنه واستدعاه إلى مراكش ، وتوفي ابن رشد سنة ٥٩٥ هـ .

وتحصيير مبادئ ابن رشد على أنها كفر وزندقة جاء من بعض علة الفقهاء وأشياعهم ، اذ أرادوا السيطرة على حرية الفكر ورفضوا المحوض في الفلسفة على اعتبار أنها من العلوم التي لم يعد هناك مجال لدراستها ، واستجاب المنصور لهم لا مواجهة على آرائهم وباعتراضهم بل ارضأء لهم ، وفي ارضائهم ارضاء للشعب ، لأنهم زعماؤه الروحانيون .

والطب في نظر ابن رشد جزء من الفلسفة ، التي كانت في ذلك العصر دراسة شاملة للوجود ككل ، بما يشمله من مجالات عديدة . ولما كان ابن رشد — كما قلنا — قد درس الطب ككل فقد نصح صديقه الطبيب المشهور ابن زهر بأن يعنى بدراسة الأمور الجزئية في الطب في كتاب ، وأصبح الكتابان يكمل أحدهما الآخر .

وصنعه الطب في نظر ابن رشد لابد وأن تتصل بالعلم الطبيعي ، وقسمها إلى سبعة أجزاء ، يعرض في الجزء الأول أعضاء الإنسان التي شوهدت بالحس ، والجزء الثاني ، الصحة وأنواعها ولوائحها ، والثالث المرض بأنواعه وأغراضه ، والرابع العلامات الصحيحة والمرضية ، والخامس الآلات ، وهي الأغذية والأدوية ، والسادس الوجه في حفظ الصحة ، والسابع الحيلة في إزالة الأمراض .

عارض ابن رشد الطريق الصوف في كثير من المجالات ، ويأخذ عليهم

أن طرقم في النظر ، نیست طرقا نظرياً أي مقدمات تؤدى الى نتائج ، اذ أنهم يرون أن معرفه الله وعيره من الموجودات عبارة عن بسيء يلقي في النفس بعد تجردها من الماديات ، وهم يعروفون الله بالله لأن العقل عاجز لا يدل الا على عاجز مثله . وبذلك لا يلتقي الطريق الصوف بانطريق العقلى ، لأن التجربة الصوفية ليست راجعة الى الحسن أو العقل ، وإنما هي سور يقذف به الله في قلب من احبه ، لذلك يعارض ابن رشد المطريق الصوف الذي لا يتفق مع العقل ، وتبطل النظر ، والقرآن الكريم دعا الى المنظر والاعتبار (قل هل يستوى الأعمى والبصير أفالاً تتفكرون) سورة الأنعام ٥٠ رقم ٦ — (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) ١٠١ يوسف ١٠ — (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبه المجرميين) ٢٧/٦٩ التمل — (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الحق) ٢٩/٢٠ العنكبوت .

وبذلك لا يمكن اقامة البرهان على أي قول من اقوال الصوفية ، لأنها تعبر عن نزعات شخصية وجداًنية لا تستقيم مع قضايا العقل^(١) .

وهكذا يوضح لنا ابن رشد ان الطريق الصوف يتناقض مع الطريق العقلى ، والطريق الصوف فردى ذاتى ، ولذلك فان آراءهم تفتقد الدليل المقنع والبرهان الأكيد ، لأن أفكارهم — كما أوضحنا — تتناقض مع العقل ، فلا بد من قواعد وأسس للمعرفة العقلية ، ويرفض ابن رشد ما ردده الصوفيه بأن المعرفه تتصل الى الصوف بطريق الالهام لا بطريق العقل ، ولا يمكن تفسير المعرفة بالعجزات والخوارق .

من أهم الانجازات التي حققها ابن رشد تعمقه في دراسة أرسطو فحصل على كل ما استطاع الحصول عليه من مؤلفات هذا الفيلسوف وانكب على شرحها وتلخيصها ، وفضل ابن رشد ، أرسطو على جميع الفلاسفة الذين سبقوه والذين أتوا بعده ، ولتكنه على الرغم من ذلك

(١) عاطف العراقي : المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد ، ص ٣٦١ .

يناقش آراء أرسطو ويؤيد بعضها ، ويرفض بعضها الآخر . وكان يريد أن يقدم للعالم الإسلامي فلسفه أرسطو حالياً مما تسببها من أخطاء السراح والمفسرين وتأويلاً لهم ، وهذا عكس ما فعله لابن سينا اذ كان يعرض آراءه ليقدّها أو ينال منها .

وقد اختلف ابن رشد مع الغزالى ، لأن الغزالى اتهم الفلسفه بالكفر ، وذلك بسبب تصوفه ونزعته الدينية المتطرفه ، وأرجح الغزالى كفر الفلسفه الى تأثيرهم بالفلسفه اليونانيه ، وقال الفلسفه خطأ بقدم العالم ، وبأن الله لا يحيط علمًا بالجزئيات .

ونقد ابن رشد علماء الكلام لأنهم أهل جدل لا برهان لهم فهم قد آمنوا بأراء معينة بناء على اعتقادات سابقه ، وهو يرفض كذلك التصوف ، لأنه خاص بجماعة دون أخرى وعلى حين أنه يريد الأسس الشاملة والمبادئ العامة الواضحة التي يسير على هديها العقل في اصداره الأحكام على الأشياء ، والنظر في الموجودات .

وابن رشد اذا كان قد اطلع على كثير من آراء الفلسفه كالفارابي وابن طفيل وغيرهما ، فإنه كان أكثر منهم القراما بالاتجاه العقلي وبخصائص الفكر الفلسفى ، واستفاد من الفلسفه السابقين عليه وكشف عما وضعوا فيه من أخطاء ، اذ هو يأخذ بمذهب أرسطو ، وهذا هو سبب خلافه مع الفلسفه السابقين عليه^(١) .

ودرس الفلسفه بافاضة آراء ابن رشد ، وتوصلوا الى أن نظريته في المعرفة ، ترتفع من المحسوسات الى المقولات ، ومذهبة في العقل والوجود ، يقوم على الارتباط الضروري بين السبب المسبب ، ورد كل شيء الى أسباب تدرك بالعقل وآراؤه عن العقل والانسان تقوم على أساس التسليم بنواميس الكون ، والاعتراف بالخصوصيات الضرورية لكل شيء^(٢) .

(١) عاطف العراقي : النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد ، ص ٨٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦١ .

وهو يفضل في الدين الأدلة البرهانية على غيرها من الأدلة الخطبية والجدلية ، والخلاصة أن مذهبه يتخذ من العقل هادياً ويرتكز على مبادئ المنطق .

ولابن رشد مؤلفات كثيرة ، وشرح متعدد في موضوعات الفلسفه وعلم الكلام وال نحو والطب والفقه ، وقد الكثير من مؤلفاته ومن أهم مؤلفاته « فصل المفل فيما بين الحكمه والشريعة من الاتصال » وكتب (الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الله) وكتاب « صحيفه لمسائل العلم القديم » وكتاب « تهافت التهافت » الذي رد فيه على العزالى ، وكتاب « الكليات في الطب » .

من شروحه وتلخيصاته « تلخيص كتاب النفس » و « تلخيص كتاب الحس والمحسوس » — « تلخيص كتاب الخطابه » — « وتفسير ما بعد الطبيعة » — « تلخيص ما بعد الطبيعة » — « تلخيص كتاب الشعر — « شرح أرجوزه ابن سينا في الطب » — « تلخيص كتاب البرهان » — « تلخيص كتاب القياس » .

ورسالة عن مناهج الأدلة في عقائد الله ، وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل من الشبه المزيفه والبدع المضلة وألف في الفقه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » وهو على مذهب مالك الى غير ذلك من الكتب الفلكية والطبية .

وابن رشد كفليسوف شارح مؤلفات أرسطو وتعليق عليها . ويرجع الفضل الى هذا الفلبيسوف القرطبي المسلم في أنه أتم أول محاولة للتوفيق بين الحكمه والشريعة .

ترك ابن رشد تلاميذه في الأندلس حملوا آراءه وأفكاره الى الناس ، وصنفو الكتب في فلسفة أستاذهم ، وكان تأثير مذهب ابن رشد قوياً في الفكر الأوروبي ، فقد ترجم اليهود شروحه الى العبرية ولخصوها ، وكانت هذه الترجمات والختصرات هي العماد الاكبر الذي بني عليه العلم العبرى

ابتداءاً من القرن الثالث عشر الميلادي ، وظلت كتابات ابن رشد مصدر
الهامس .

محب الدين بن عربي :

تتمثل أعلى صورة وصل إليها تطور مذهب الأفلاطونية الحديثة عند مسلمي الأندلس المتفرع من مدرسه ابن مسرة في شخص أبي مكر محمد بن علي بن عربي ت ٦٣٨ هـ ، وقد عرف بمحب الدين وبالشيخ الأكبر ، وأبن أفلاطون قضى سنوات طفولته وصباه ، ودرس علوم الحديث والفقه والتفسير والأدب واللغة ، نم زهد الحياة بعد تفكير فلسفى عميق ، وانصرف إلى دراسة كتب التصوف وما راس حياة التصوف مع شيوخ كثريين ، وعندما استكمل عدته ، خرج يجول في الأرض ، وقضى بقية حياته متوجلاً في بلاد المسلمين والنصارى ، بتعلم ويعلم ويجادل ، ولقى بعض الصوفية في المغرب ، وهو الذي بدأ نوره المربيين في غرب الأندلس على المرابطين ، وبعد أن قام بسياحات متعددة في بلاد العرب والأندلس ، استقر في فاس سنة ٥٩١ هـ ، حيث انصرف إلى الرياضة الروحية ، وغادر المغرب إلى المشرق لسوء علاقته بالموحدين ، ووضع قبل رحيله كتاب « موقع النجوم » أوضح فيه الطريق الذي يجب أن يتبعه المربيون ، وتوجه إلى مصر ومنها إلى مكة المكرمة سنة ٥٩٨ هـ ، وحدث الناس حول ما سيحل بهم ، وتعلق بفتاه من أهل مكة ، وضع فيها مجموعة من شعر العشق ، وكتب كتابه « الدرة الفاخرة » ويتضمن سير الصوفية من شيوخه وزملائه من أهل المغرب .

ورحل إلى الموصل سنة ٦٠١ هـ ، ثم القاهرة ٦٠٣ هـ ، وظهرت له كرامات ، ولكن الفقهاء هاجموه لما علموا قوله بوحدة الوجود ، ثم رحل إلى قونيه بدوالة سلاجقة الروم وتلتمذ عليه كثيرون ، ووضع كتابين « مشاهد الأسرار » و « رسالة الأنوار » ثم ساح بتوابع الأناضول ، وعاد إلى بغداد سنة ٦٠٨ هـ ، واجتمع به المربيون ، وتلتمذوا عليه ، وعاد إلى مكة حيث كتب « ذخائر الأعلاف » ترحا على ديوانه « ترجمان الأشواق » وقد أبرز في هذه الكتب العشق الروحي الذي يقصده من

كتابه وهو بعيد كل البعد عن العنق الجسدي . وعاد الى دولة ملاجقة الروم ، ثم توجه الى حلب ، حيث لقيه السلطان الظاهر غازى صاحب حلب ، وأشتد به المرض ، فكتب كتاب « الحكمة الالهامية » وهو رد على الفلاسفة على طريقة الغزالى واستقر في دمشق حتى وفاته ٦٢٠ هـ .

كتب ابن عربى أربع مائة كتاب ورسالة ، وأعظم كتب ابن عربى « الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المكية والملكية » وجمع فيه كل ما أورده في كتبه الأخرى .

والمفكرة الرئيسية التي يقوم عليها تفكير ابن عربى هي الزهد والقول بوحدة الوجود والشك الصوفى ومذهب الصوفية في النفس ، وجمع بين هذه الآراء المتباعدة ، ونسقها ، ويرى ابن عربى أن لا دواء ينسفى من الحيرة التي وقع فيها الإنسان من أفكار الفلسفه ، لا الزهد والتتصوف ، وذاعت آراء ابن عربى في البلاد الإسلامية وغير الإسلامية .

يُنسب ابن عربى إلى قبيلة حاتم الطائى ، وهو أبو بكر محمد بن على ويُلقب محيى الدين والشيخ الأكبر وابن أفلاطون ، ونشأ في مرسيه بالأندلس في عصر الموحدين ، ونشأ من أسرة متدينة يغلب عليها الزهد والتتصوف ، وانقلب في طفولته إلى أشبيلية مع أهله وهناك درس التاريخ والأدب والقراءات والشعر ، وتولى وظيفة في بعض دواوين أشبيلية وهو في شبابه الغض ، ولما توفي والده تأثر لذلك كثيرا حتى تحول إلى الله بكليته نهائيا ، ويشير ابن عربى في بعض كتبه إلى الكرامات التي صحبت وفاة والده ، ودخل الحياة الصوفية ، وصار صوفيا ، بعد أن تجاوز العشرين في حوالي سنة ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م . وفي سنة ٥٨٦ هـ - ١٩٩٠ م ارتحل صوفى شهير إلى أشبيلية ، واتصل بابن عربى للإستفادة منه ، وعكف ابن عربى بعد أن تحول إلى طريق التتصوف على قراءة كتب الصوفية وعلى الاجتماع بشيخ الطريقة ، وتلقى الكثير من الآراء والأفكار عن المصوفين الذين اتصل بهم وتعلم منهم الاتصال بأرواح الموتى ، وكان ابن عربى يتصل بالشيخوخ والعامة ، وقد أشادوا بعلمه

وورعه وزهذه ، وتلفى ابن عربي عن شيخين متخصصين في عملية محاسبة الضمير يوميا ولكن طريقتهم كانت مقصورة على المحاسبة على الأفعال والأقوال ، فأضاف إليها ابن عربي المحاسبة على الخواطر أيضا ، وعمل على تكوين روحه منذ سنوات بشبابه بالزهد في السهوات .

وبعد فترة من الزمن أمر ابن عربي العزلة ، وترك المساجد وخلا إلى المقابر ، يقضى عندها النهار بطوله على اتصال مباشر بأرواح الموتى ، كان يجلس على الأرض باكيا ، متأملا في فدرة الله وفاته ، متوهما في قضية الحياة والموت ، وبذلك أشتد إيمانه بالظواهر الخارقة في الحياة الصوفية ، وشاهد بنفسه كرامة قدمها صوف ، وهي عدم الاحتراق بالنار . وكان ابن عربي يرى في المنام ما يتحقق في اليوم التالي ، الأمر الذي أثار دهشة أهل الشبيبة ، واعتقادهم في ولائه .

وأتم ابن عربي تكوينه الصوفي تحت اشراف جميع الشيوخ الدين اتصل بهم ، وكان يقضى أياما كثيرة في مسجد الزبيدي يصحبه أبي يحيى الصنهاجي الفزير - صاحب الكرامات الذي علمه أن يصبر على اضطهاد العامة ، مخفيا الولاية ، وتعلم الفائدة في حياة التجوال بالنسبة إلى الصوف ، واتصل بالصوفية رجالا ونساء وقد صحب الصوفية فاطمة سنتين متتاليتين ، مریدا وخادما ، وعاش معها عيشة ظاهرة في كوخ من القصب ، بناء هو نفسه في الشبيبية ، ليتعود حياة العزلة ، ويشاهد عن قرب الظواهر العجيبة ، التي كانت تصدر عن فاطمة ، وحضور الجن حينما تدعوهم .

ويعد أن تعمق ابن عربي في دراسة التصوف ، جال في الأرض ، وكانت حياته سياحة مستمرة ، طاف بلاد المشرق والمغرب ، متعلما و沐ينا ومناقشة ، وبدأ جولاته في قرى الأندلس وهده ومن البلاد التي زارها ، مدينة الزهراء - قرب قرطبة - وهي التي شيدها عبد الرحمن الناصر ، أوحت إليه أطلالها بتأملات حزينة تبكي من شيدها وبناتها وأقام صرحها ، ذكر في ذلك أبياتا :

ينوح عليها الطير من كل جانب
فيصمت أحياناً وحينما يرجع
فخاطبت منها طائراً متفرداً
له شجن في القلب وهو مروع
فقلت : على ماذا تتوح وشستكى
فقال : على دهر مضى ليس يرجع

ورأى في منامه أسماء الصوفية في عالم الاسلام ، واشتهر أمره
بصفته صوفياً في بلاد الأندلس ، ولجاً اليه التسويخ ، يسألوه الرأي
في المسائل الضوفية .

ويبدو أن روح ابن عربي القلقه لم تقنعه بحدود بلاده الضيقه
فارتحل منها إلى افريقيه قبل سنة ٥٩٠ هـ - ١١٩٣ مـ ، وكان هدفه
الرئيسى أن بلتقى بالشيخ الشبيلي ابن مدین ، الذى أقام مدرسه
صوفية في مدينة بجاية منذ عدة سنوات ، ويتسير اليه ابن عربي بوصفه
شيخه ، وأورد في كتبه كراماته ورؤاه ومناقبه ومذاهبه ، ولم يقم ابن
عربى كثيراً في بجاية ، ورحل إلى تونس سنة ٥٩٠ هـ - ١١٩٣ مـ ، وهناك
اكرمه حاكمها ، وأنزله متزلاً جليلاً من الاكرام والتجليل والاعزار ،
ويقول ابن عربي بأنه في أثناء اقامته بتونس تجلى له الخضر من جديد
في ليلة قمرية كان ابن عربي يستريح فيها من دراساته ومجاهداته
الصوفية ، ومن بين أسباب زيارته لتونس حرصه على لقاء صوفي خبير
هو أبو محمد عبد العزيز ، ولم يلبيت ابن عربي أن غادر تونس عازماً على
السير بحذاء الشاطئ حتى يماني الشبيلية لأن الانحرافات السياسية
في شمال افريقيه جعلت من المصحوبية عليه البقاء فيها ، وعاد إلى الأندلس ،
ونزل في ميناء طريف ، ثم عاد إلى شبيلية ، حيث وقعت له كرامة جديدة
أعجبته من كان شاهده ، وثبت ذلك اعتقاد الناس فيه ، فقد قيل بأن ابن
عربى قد ألف قصيدة في ذهنه لم ينسخها ، ولم يقرأها لأحد من الناس ،
ورغم ذلك فقد أنشدها شخص لا يعرفه .

وفي سنة ٥٩١ هـ - ١١٩٤ م ، عاد ابن عربي إلى بلاد المغرب ونزل في فاس ، واتصل بالمشايخ والأخوة في طريق الله الذين سيتزدّد عليهم كثيراً في السنوات التالية ، منهم صوفى أفاد ابن عربي في علوم السحر ، وتتبأ بعض الشيوخ هناك بانتصار الموحدين في موقعة العقاب سنة ٥٩١ هـ - ١١٩٤ م الأمر الذى شجع ابن عربي على العودة إلى الأندلس ، ونزل في شبيلية عند أحد أصدقائه ، وأقبل عليه الناس من كل مكان ، حيث ازدادت شهرته ، وأقبل الناس على قراءة كتبه ، والاستفادة منها ، وعاد شيخنا إلى فاس سنة ٥٩٣ هـ - ١١٩٥ م ، وعكف على الدراسات والمجاهدات هناك ، وكان يحضر دروس المشايخ في فاس . وكان يجلس في أحد بساتين فاس ، ويلتقي حوله تلاميذه ، فيستمعون إلى محاضراته في الصوفية ، واتخذ لنفسه آراء مستقلة ، ودحض آراء بعض المشايخ .

وقد نال ابن عربي شهرة كبيرة بين تلاميذه — لكن حكام الموحدين كانوا يبغضونه ، ويخشون على حكمهم من الصوفية ومن ثوراتهم ، وقد جرى حديث بين ابن عربي والسلطان يعقوب المنصور ، يدل على ذلك . فقال السلطان لابن عربي : ذل من ليس له ظالم يغضده ، فقال له ابن عربي : وضل من ليس له عالم يرشده ، فقال : يا أخي : الرفق فقال ابن عربي : ما دام رأس المال محفوظاً ، يعني الدين ، فقال : هديتك ، وسكته عنه .

لذلك رأى ابن عربي مغادرة المغرب نهائياً حتى ينال في الشرق من الحظوة والتقدير ما لم ينلها في المغرب ، وفي أثناء مغادرته للمغرب تجلى له الخضر للمرة الثالثة ، وهو يسير في الهواء بحضور ناس آخرين .

وفي سنة ٥٩٧ هـ - ١٢٠٠ م ، توجه ابن عربي إلى مراكش — عاصمة دولة الموحدين — بصحبة الصوفي أبو العباس السبتي ، وبينما ابن عربي في مراكش ، إذا برؤيا يراها ، تطلب من ابن عربي الرحيل إلى قاصم للقاء محمد الحصار ، ويرحل معه إلى الشرق ، الذي أخبره هو أيضاً أنه رأى هذه الرؤيا ، وارتحل الرجل إلى تلمسان ، وأقبل ابن

عربى الى بجاية سنة ٥٩٧ هـ وواصل ابن عربى رحلته ، فتوقف فى تونس وفيها وصل الى درجة من أعلى درجات السلوك ، وأقام ابن عربى في تونس تسعة أشهر لا قليلاً ، ثم استأنف الرحلة الى الشرق ، وفقد صاحبه محمد الحصار أثناء الرحلة ، ومر بمصر ولم يقم طويلاً بها ، واستأنف السير الى غايتها ، الى مكة المكرمة وبلغها سنة ٥٩٨ هـ ، وذاع صيته في هذه المدينة المقدسة والتلف حوله الصالحون والعلماء والزهاد . وأستقرت حياته نسبياً سنة ٥٩٨ هـ ، ونشط نشاطاً كبيراً في مجال التأليف والتصنيف . وفي سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م ، صنف كتاب « مشكلة الأنوار فيما روى عن النبي من الأخبار » وفيه جمّع أربعين حديثاً بأسانيدها المتصلة حتى الله (أحاديث قدسية) وفي الطائف ألف كتاب « حيلة الأبدال » وكان الطواف في البيت العتيق بحياته ينشئ في روحه رؤى وتجليات كثيرة ظهر له بعض الصوفية الذين ماتوا منذ قرون أثناء طوافه وتجددت معهم ، وتتبأب بوقوع كارثة في اليمن ، وفعلاً حدثت وهبت عليها ريح عاتية ، قاسى منها اليمنيون الكثير وحدثت كوارث وأوبئة في بلاد الحجاز أيضاً ، الا أن هذه المصائب لم تترزع آيمانه ، وصنف في أثناء سفره ذلك كتاب « المدرة الفاخرة » ، ووجهها الى صديقه في تونس وفيها ترجم شيوخه في الصوفية في المغرب ، والذين أقرباد منهم في حياته الروحية .

وفي سنة ٦٠٠ هـ / يشرع في الترحال والتجوال ، وفي سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م يمر ببغداد ، ويقيم بها عدة أيام ، وغادرها الى الموصل ، لزيارة أحد شيوخ الصوفية ، وكان لهذا الضيق - كما ي يقول ابن عربى - بستان خارج الموصل ، وفى هذا البستان ظهر ابن عربى بشرف تلقى خرقة الخضر لثالث مرة من يدى ابن جامع الذى تلقاها مباشرة من الخضر ومن هذا التاريخ أصبح ابن عربى يعتقد في الأهمية الكبرى لهذا الرسم من مراسم الصوفية ، وأوصى بذلك الريدين ، كدواء ناجح للعلاج الأخلاقية .

(١) انظر كتاب « ابن عربى » للأستاذ الدكتور عبد الرحمن جدوى .

وفي سنة ٦٠٣ هـ - ١٢٠٦ م ، ارتحل ابن عربي إلى مصر ، وكانت جماعة من الصوفية من أصحاب ابن عربي ومرديه قد أقاموا في بيت بزقاق التناديل بالقاهرة ، فانضم إليهم ابن عربي وقضى معهم الليالي في العبادات والمجاهدات واتيان الكرامات العجيبة ، وكانوا يقضون أوقاتاً في الظلام ، فيعتقدون بانبعاث أنوار منهم تبعد نور الظلام ، وفجأة تجلى لابن عربي شخص رائع الجمال ، ألقى إليه بكلمات في غاية الحسن يوحى فيها من الله بأمور تتعلق بالاتحاد الصوفي ، معناها يدل على وحدة الوجود .

ولم يرض شيوخ السنة عن آراء ابن عربي ، فاتهموه بالكفر والالحاد ، وطالبوه بقتله ، واضطهد ابن عربي عقب ذلك وتجادل شيوخ الفقه حول آرائه وحقيقة إيمانه ، ولقد دخل ابن عربي من قبل مع فقهاء الشرق والغرب في مجادلات حول آرائه وأفكاره ، ومن حسن حظ ابن عربي أن الملك العادل الأيوبي لم يستمع إلى نداءات الفقهاء بسجنه والتخلص منه .

ولم يؤثر هذا الانبطاح على المذهب الصوفي لابن عربي ، بل زادت حماسته ، ولم يلبث أن غادر القاهرة إلى الإسكندرية ، ومنها ذهب إلى مكة ، وظل بها حتى سنة ٦٠٤ هـ - ١٢٠٧ م ، لكن السماء - كما يقول - نادته وأمرته بالسياحة إلى قونية ، وكانت عاصمة دولة سلاجقة الروم ، واتصل بالسلطان كيكاووس الأولى سنة ٦٠٧ هـ - ١٢١٠ م ، وأنزله السلطان السلاجقى في دار نليل به ، وأقام فيها بعض الوقت ، وأهداها ابن عربي صدقة إلى أحد المسائين ، وفي هذه الفترة الهادئة من حياة ابن عربي ، استأنف التأليف والتصنيف ، فكتب كتابين هما : « مشاهد الأسرار » و « ورسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار » ، وفي أوقات فراغه كان يجتمع بالصوفية الذين يريدون الانتفاع بتعاليمه والاقتداء به ، وكان له تلاميذ يشهدون له بالولاية ،

(١) انظر المصدر السابق .

ويقولون بأن ابن عربي كانت تظير له تجليات سماوية للأرواح النبوية ، على هيئة جسمية ، أو تتحد بروح ابن عربي في مشاهد وجданية خارقة ، وشاهد الناس كراماته فآمنوا به واعتقدوا فيه .

استأنف ابن عربي رحلته في آسيا الصغرى وأرميتية وفي خلال رحلاته اتصل بالصوفية ، وفي سنة ٦٠٨ هـ - ١٢١١ م عاد إلى بغداد للاتصال بالصوفي الشهير شهاب الدين عمر السهوروبي وكان صاحب مدرسة في الوعظ والمجاهدات الصوفية ، وشيخ مشائخ الصوفية ، وذاع صيت ابن عربي في بغداد حتى التفت حوله الصوفية ، وكان يمشي في شوارع بغداد محاطاً بتلاميذه ومريديه حتى علت مكانته على مكانة الخليفة الناصر .

وعاد ابن عربي إلى مكة في سنة ٦١١ هـ - ١٢١٤ م ، وعكف على العبادة المعتادة في الكعبة ، وكتب شرحه على « ترجمان الأسواق » وقد رد في هذا الكتاب على مزاعم الفقهاء الذين هاجموا بعض أشعاره نا فيها من لهجة حسية شهوانية تشيع في قصائده دون أن يدركون معانيها الصوفية . وعاد إلى آسيا الصغرى وتربأً بانتصار كيكاووس في أنطاكية في تصيدة كتبها للسلطان جاء فيها :

قصدت بلاد الكفر نبغى فتوحها
فأباشر ، فسان الروم فيك لفى خسر
رأيت لكم رؤيا تدل على النصر
وفتح بلاد الكفر والقتل والأسر
إذا جاء نصر الله والفتح فلتتجدد
بحالك من خير على العسر واليسر

وقد لقى ابن عربي الحفاوة والتكريم من سلاطين وملوك عصره مثل الملك الظاهر - صاحب حلب - ووضع كل ثقته في ابن عربي ، وأفرد لابن عربي بيته خاصاً ، وكان أهل حلب يوسطونه لدى الملك في قضاء حوائجه ، والملك لا يرد له طلباً وزاد نفوذه على نفوذ كبار رجال الدولة

والفقهاء ، ودارت بينه وبين الفقهاء مجادلات كثيرة حول التصوف ٠

وكان ابن عربى يحصل من أسد الدين شيركوه — سلطان حمص — سنة ٦٣٧ هـ — ١٢٣٩ م كل يوم على مائة درهم ، فكان يتصدق بها

كتب ابن عربى أكثر من أربعين كتاب ، ولم تكن هذه الكتب تتسمى مع العقل واللطق ، لأنّه لم يستطع التخلص من تأثير التوحى الالهى الذى كان يعلى عليه ما يجب أن يكتبه أو لا يكتبه ٠

واشتد به المرض نتيجة كثرة أسفاره ، واقامته في بعض الاوقات في بلاد شديدة البرودة ، ومجاهداته الروحية ، وفي مرضه صنف كتاب « الحكمة الالھية » وهذا الكتاب على نمط كتاب « تهافت الفلسفه » للغزالى ٠ وقد مرض في أثناء تأليفه لهذا الكتاب ، ولم يسمح له مرضه بالتفكير أثناء وضع الكتاب في المسائل الطبيعية ، فألهمه الله حلها دون تفكير ولا تأمل ولا نظر ، وفي سنة ٦٣٠ هـ — ١٢٣٣ م استقر ابن عربى في دمشق وكان في الستين من عمره ، ولم يغادرها حتى وفاته ٠ وبالغ الملك المعظم ابن الملك الكامل في اكرامه ، وكانت صلة بابن عربى صلة المرید بالشيخ ، وقد تعددت تجلياته في السنوات الأخيرة من حياته ، وانقطع فتره في صحراء خارج دمشق ٠ ويقوله ابن عربى : بأن الثبى ظهر له سنة ٦٢٧ هـ ، وسلمه كتاباً سماه « فصوص الحكم » وأمره باذاعته ونشره بين الناس لما فيه من كمال صوف ويعرض في هذا الكتاب أغرب نظرياته في وحدة الوجود على هيئة الهامات يعزوها عاٍ التوالى إلى تعليم السبعة وعشرين نبياً الرئيسين بين الأنبياء الذين يعتز بهم الإسلام ابتداءً من آدم وانتهاءً بمحمد ، وأقبل طلاب ابن عربى على دراسة هذا الكتاب والتعليق عليه ٠

ويعتقد أنه ألف كتاب « الديوان » بعد سنة ٦٣١ هـ — ١٢٣٢ م وتتجلى في قصائده في الديوان لهجته عن الوجد الصوف ٠ ويعتقد أن

(١١) انظر الرسالة القيمة التي كتبها الدكتور عبد الرحمن بدوى من ابن عربى .

ابن عربى أتم فى تلك الفترة كتابه الأكبر « الفتوحات المكية » وقد استغرق تأليفه بضع سنين ، وهذا الكتاب خلاصه شاملة لكل مؤلفاته بما فى ذلك قصائده الشعرية ، وقد وضع هذا الكتاب بعد أن زار القدس والمدينة ، وزار مكة لأول مرة ، وفتح الله عليه عند طوافه بيته الحرام ، ومن هنا جاءت تسمية الكتاب « الفتوحات المكية في معرفة الأسرار الملكية والمكية » ويذكر في مقدمة كتابه أن الرسول ظهر له في المنام ، ولقنه خطبة طويلة من وحي الروح القدس .

وقد شرح الصوفية هذا الكتاب ، ونال شهرة واسعة بينهم ، واعتقدوا بما فيها من آراء وأفكار صوفية ، ومهنكتب ابن عربى في التفسير كتاب « اتفسیر الكبير » ولم يتمكن من اتمامه ، ثم كتبه المعروف « تفسير الشيخ الأكبر » وهو تفسير رمزي صوفي للقرآن وأطلق فيه العنوان لتأويل الرمزي المستور ، وله رسائل لأهل الطريق ، توضح لهم الأسلوب الواجب اتباعه .

وعاش ابن عربى في هدوء شديد في دمشق في أيامه الأخيرة مع أسرته ، وكان موضع تقدير الناس حكامًا ومحكومين ، وكان الملك الأشرف ابن الملك العادل يحضر دروسه ، وتلقى الإجازة منه برواية كتبه ، وكان قاضي الشافعية يخدمه خدمة العبيد تقديرًا واجلاً له ، وقام القاضي ابن زكي بترتيب معاشيه في دمشق ، ثالثين درهما كل يوم ، وأنزله في منزله .

وعاش ابن عربى في شيخوخته يصنف مصنفاته حتى وفاته سنة ٦٣٨ هـ - ١٢٤٠ م وقد اقترب من المئتين ، ودفن قرب دمشق في قرية الصالحية على سفح جبل قاسيون ، يعتقد الناس ، أن الأنبياء زاروه خصوصاً الخضر .

وقد ظلت شهرته بعد وفاته قائمة ، ونسب اليه الصوفية وأتباعه الكرامات والأساطير ، وأمر السلطان سليم الثاني سنة ١٥٧٩ م ببناء مسجد باسمه ، ومدرسة كبيرة على ضريحه ورتب الأوقاف عليهما .

ولا تزال كتب ابن عربى حتى يومنا هذا في المكتبات العربية ، ويقبل على قرائتها ودراستها الصوفية والدارسون ، وانطرق الصوفية في الشرق الاسلامي تستلهم القواعد العملية والنظرية في تصوف ابن عربى .

ومن أهم آراء ابن عربى ، وحده الوجود : ويفسرها الدكتور بلاطيوس^(١) بقوله : اذا كان العالم يصدر عن الله ، والمخلوقات هي علامات وآثار وتجليات له ، واذا كان الجوهر أو الحقيقة العددية للكون واحدة ، هي الحقيقة الالهية ، واذا كان لا يوجد خارجها غير ظواهر هي بمثابة أعراض لها ، فمن الواضح أن ادراك هذه الوحدة في الوجود ينبغي أن يكون المطلب الأسمى للتتصوف : فالنفس ، بعودة مثالية ترجع إلى الاتحاد بالله الذي صدرت عنه . ويقول ابن عربى في نظريته بأن الحاول (وحدة الوجود) ليس شبيها بوصول الجسم بالجسم ، أو العرض بالعرض أو العلم بالمعلوم ، أو الفعل بالفعل ، بل الاتحاد أو الوصول متخيلا أكثر منه حقيقة ، ويشاهد الصوف محبوبه بالقرب منه على نحو كأنه يشاهده بعينيه ، ويسعى بذلك الوصول بتجربة ألطاف وأعذب من الوصال الجسماني ، لأن الله روح محض فلا يمكن للإنسان أن يتصل به إلا عن طريق التخيل .

(١) ابن عربى حياته ومذهبة من ٤٥٢

الفضل السابع

ملحمة غرناطة ونهاية الأندلس

مملكة غرناطة أو دولة بنى الأحمر

كانت مملكة غرناطة الباقية من ملك العرب في أسبانيا ، بعد أن فقد العرب أملاكهم في أسبانيا ، ودانت دولتهم ، واستولى الأسبان على بلادهم ، البليدة تأوي الأخرى ، وفيما بين ١٢٣٨ م (٦٣٦ هـ) و ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) فتح فرديناند ملك قشتالة وجایم الأول — ملك أرغون — مدن يلنسية وقرطبة وأشبيلية ومرسيه ، ولم يبق للعرب سوى غرناطة ، وقدر للعرب أن يستمروا في غرناطة قرنيين ونصف قرن ٠

وكان للعرب في غرناطة جيش قوي ، واجتمع بهذه البقعة الحصينة المسلمين الذين فروا من المدن الأخرى التي استولى عليها النصارى ، وتجمعوا في غرناطة ، وتحصنوا بهذه البلاد التي يحيط بها العدو من كل جانب ، وكانت غرناطة تؤدي انتهاة سنوية لملك قشتالة حتى توجل مصيرها المحظوم قدر استطاعتها ٠

أسس دولة بنى نصر في غرناطة ابن الأحمر — وهو عربي الأصل لشفرة فيه ، سمي بهذا الاسم ، وكان قوى الشكيمة شجاعا ، غير أنه لم يستطع مقاومة فرديناند ، فدان له بالولاء وأدى له جزية سنوية ، واتبع هذه السياسة مع أبنية الفونسو ومضت فترة من الوقت ، ترك فيها النصارى هذه المملكة الإسلامية وشأنها ، وانصرفوا إلى توطيد ملوكهم ، وابعاد الدخاء عن بلادهم ٠

ازدهرت العلوم والفنون في غرناطة في فترة الهدوء هذه وذاعت شهرة مهندسيها وبنائيها في أنحاء أوروبا ، وهم الذين شيدوا الحمراء (نسبة إلى لون القربة التي أنشئت عليها) وأنشأوا قصر الحمراء فوق أرض مرتفعة تحيط به قمم جبال عالية صعبة المنحدر ، وحصن القصر

بأسوار غطيت بالمرمر ، ونسمة عند كل مسافة حصون تشرف عليه . وزينوا حيطانها بالزخرف الذهبي البديع ، وزينوها بالأنساكال المصبوبة ذات الهندسة العربية الفائقة ، وتحيط بها البساتين والحدائق والمجدوال مما يبعث في أنفس البهجة والسعادة ، وفي حدائقها أشجار الكروم والبرتقال .

وكان من العجيب أن يعيش العرب في غرناطة قرنين من الزمان أو أكثر ، والعدو يحيط بهم من كل جانب ، ولكنهم شعروا بقرب زوال دولتهم في الربع الثالث من القرن الخامس عشر وازدادت قوة النصارى الأسبان الاتحاد بين ملكتي قشتالة وأرغون بتزويج فرديناند من إيزابيلا وكان هذا الاتحاد نذير الخطر على بقاء المسلمين في آخر معاقلتهم بالأندلس ، وكان يلي حكم غرناطة في هذا الحين مولاي على أبو الحسن بن ، وكان شديد البأس ، قوى الشكيمة ، وعقد العزم على محاربتهم مهما كانت التضحيات ، ولم يأبه بما بلغاه من قوة ، ورفض دفع الأتاوة ، لفرديناند ، وهي التي اعتاد أسلافه أداؤها ، ورد في كبرياً على رسالة فرديناند : إن دار الضرب لا تطبع نقودا ، ولكنها تطبع سيوفها ، وهذا الرد اشارة الى استعداده وتصميمه لحرب الأسبان . وشن غارة على المسيحيين في قلعة الصخرة في ليله شديدة البرودة وقد فزع أهلها من هول الغارة ، وساقهم جميعا إلى غرناطة كما يساق العبيد ، وأبقى بالمدينة والقلعة حراساً أشداء ، ودخل غرناطة مزهوياً بنصره ومحملاً بالأسلاب والغنائم ، ودخله الأسرى من الرجال والنساء والأطفال المدينة كما يدخلها قطيع البقر . ولكن هذا الأمير بعدها عجل بمصير بلاده المؤلم ، فكان لا بد للنصارى من الانتقام ، وفعلاً استولى هركيز قادس على حصن الحمة عنوة، وبسبب هذا الاستيلاء تمكن النصارى من وضع حامية قوية في قلب بلاد المسلمين ، وعلى مسافة قصيرة من غرناطة نفسها ، وحاول أبو الحسن عبثاً استرداد هذا الحصن . وكان هذا الحصن نذير الخطر وبداية النهاية لغرناطة . وقال بعض المعاصرین ان مفتاح غرناطة في أيدي الكفار . ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الحصن شوكة في جبين ملوك العرب .

وبتبادل الفريقان العرب والأسبان شن الغارات والأعمال التخريبية

فِي أَرْضِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ نَتْيَجَتِهَا سَوْى الدَّمَارِ وَتَوقُّفِ الْسَّاسَاطِ الْاِقْتَصَادِيِّ . وَفِي النَّهَايَةِ أَعْدَ النَّصَارَى جَيْشًا كَبِيرًا بِزَعْمَةِ مُرْكِبِيْزِ قَادِسِ لِمَاهِجَةِ غَرَنَاطَةِ ، وَلَكِنَ الزَّغْلُ قَائِدُ الْعَرَبِ مَزْقُ جَيْشِهِ كُلَّ مَزْقٍ ، وَفَرَّ النَّصَارَى لَا يَلْوُونَ عَلَى دَارِ وَفِي غَضْوَنِ ذَلِكَ اغْتَصَبَ عَبْدُ اللَّهِ مَلِكُ غَرَنَاطَةِ مِنْ أَبِيهِ ، وَثَسَنَ غَارَةً فَأَشَلَّهُ عَلَى النَّصَارَى ، وَعَادَتْ فَلُولُ جَيْشِهِ مَهْزُومَةً إِلَى غَرَنَاطَةِ فَفَزَعَ أَهْلُهَا ، وَدَبَّ فِي نَفْوَسِهِمُ الْيَأسُ ، وَقَبَضَ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْمَوْقِعَةِ ، وَسَيَقَ أَسِيرًا إِلَى قَرْطَبَةِ ، وَعَادَ مَوْلَايُ أَبْوَ الْحَسَنِ إِلَى مَلْكِهِ ، وَلَكِنَ دَبَّ فِيَهُ الْخُسْفُ بِسَبِيلِ شِيكْوَخْتَهِ .

مسقط غرناطة :

كَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُرْتَدِدًا شَوْئِمُ الطَّالِعِ ، وَقَدْ اسْتَفَلَ النَّصَارَى ضَعْفَهُ فَأَهْسَنَ فَرْدِينَانْدَ اسْتِقبَالَهُ ، وَدَارَتْ مَفَاوِضَاتٍ بَيْنَ الرِّجْلَيْنِ حَوْلَ خَلْعِ أَبِيهِ ، وَفَعْلًا أَطْلَقَ فَرْدِينَانْدَ سَرَاحَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ، وَعَادَ إِلَى غَرَنَاطَةِ لَا يَتَرَاعَ المَلِكُ مِنْ أَبِيهِ ، وَتَيسِيرَ اسْتِيَلاءِ النَّصَارَى عَلَى بَلَادِهِ ، وَتَحْصَنَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بِحَصْنِ الْقَصْبَةِ ، وَاتَّخَذَهُ قَاعِدَةً لِشِنِ الْمَهْجَمَاتِ عَلَى أَبِيهِ ، وَكَانَ لِهِذَا الْمَوْقِعِ السَّيِّءِ أُثْرٌ فِي سَقْطَةِ غَرَنَاطَةِ ، الْابْنُ يَحَارِبُ أَبَاهُ لِمَصَالِحِ الْعُدُوِّ ، وَأَصْبَحَ لِغَرَنَاطَةِ سُلْطَانَانِ ، أَحَدُهُمَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ، الْمُنكُودُ الْحَظُّ فِي مَيْدَانِي الْمُسِيَّاسَةِ وَالْحَرُوبِ ، وَالْبَغْيُضُ إِلَى الْعَرَبِ لِأَنَّهُ أَعْوَبَةُ فِي أَيْدِي أَعْدَائِهِمْ ، وَالثَّانِي أَبُو الْحَسَنِ ، أَوْ هُوَ عَلَى الْأَصْحَاحِ أَخْوَهُ الزَّغْلُ ، لِأَنَّ السُّلْطَانَ قَضَى بِقِيَةَ أَيَّامِهِ فِي حَزْنٍ بِسَبِيلِ مَوْقِفِ أَبْنِهِ الْأَنْهَزَامِيِّ . وَفَقَدَ بِصَرِهِ ثُمَّ مَاتَ .

وَكَانَ الزَّغْلُ — آخِرُ مُلُوكِ غَرَنَاطَةِ الْأَقْوِيَاءِ — وَقَضَى فَتْرَةً مِنْ حَدِيمِهِ يَحَارِبُ ابْنَ أَخِيهِ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، وَهَكُذا انْقَسَمَ الْبَيْتُ الْحَاكِمُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ الْأَمْرَاءُ يَحَارِبُونَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا ، وَيَسْتَعِينُونَ فِي خَصْوَمَاتِهِمُ بِالْعُدُوِّ ، وَقَصَرَتْ فَتْرَةُ حُكْمِ السُّلَطَانِينِ ، وَكَانَ أَهْلُ غَرَنَاطَةَ يَبْقَوْنَ عَلَى السُّلْطَانِ الَّذِي يَحَارِبُ ، وَيَعُودُ مَهْمَلاً بِالْأَسْلَابِ وَالْمَغَانِيمِ ، أَمَّا السُّلْطَانُ الَّذِي يَنْهَزِمُ يَعْزِلُوهُ . وَانْتَهَى النَّصَارَى فَرَصَةً ضَعْفَ غَرَنَاطَةِ ، وَضَعْفَ سُلَطَانِيَّهَا ، وَمَا زَالُوا يَشْنَوْنَ عَلَيْهَا الْغَارَاتِ وَتَمَّ اسْتِيَلاءُ فَرْدِينَانْدَ وَرَجَالَهُ عَلَى الْقَسْمِ

الغربي من المملكة ، ونقتت أطراف غرناطة قليلاً ، وسخط الغرناطيون على الزغل لأنهم لم يتحملوا كل هذه الهزائم ، ودعوا أبا عبدالله مرة ثانية إلى مدينتهم فلم يستطع النبات وحده أمام عمه الزغل ، فاستعان عليه بالمسيحيين ودخل غرناطة ، وحكمها ، وحاول الزغل صد المسيحيين عن مالقه ، وكان البارود قد استخدم في الحروب في ذلك العصر ، وواصل النصارى شن الهجمات على قلاع مالقه الحصينة ، اجتمع الفرسان الأسبان حول مالقه وحضرت الملكة إيزابيلا بنفسها ، فأثار حضورها حماس الفرسان والجنود .

وبعد حصار طويل ، قاس فيه أهل مالقه الجوع والبؤس والحرمان ، حتى استسلمت مالقه ، وقد أذلهم الأسبان ، وطالبوهم بأن يفتدى كل واحد نفسه بفدية كبيرة ، والا وقع في الأسر ، وأمهلوهم ثمانية أشهر ، وأرسل الأسبان أهل مالقه إلى أشبيلية لخدمة الأسبان فيها ، حتى انقضت الثمانية أشهر ، ومن لم يستطع وقع في الأسر . وبذلك أصبح القسم الغربي من غرناطة في قبضة النصارى .

بقي الزغل يسيطر على بعض الأراضي والمحصون ويواصل في الوقت نفسه الجهاد ضد الأسبان ، ويشن الغارات على بلادهم ، ولكن فرديناند استولى بعد حصار طويل وخسائر فادحة على حصونه ، وسقطت بلاد الزغل في يد الأعداء ، وقبض عليه فرديناند ، فأقطعه أرضاً ، ولكنه لم يبق طويلاً في هذه البلاد التي ذهب فيها مجده ، وولى سلطانه فباع أرضه ، واجتاز البحر إلى إفريقية ، وهناك قبض عليه سلطان فاس ، فعذبه أشد عذاب ، وسمل عينيه ، وقضى بقية أيامه في بؤس وشقاء . ولم يبق من ملك المسلمين سوى غرناطة نفسها ، واستراح أبو عبد الله من نهاية الزغل ولكن فاته أن فرديناند يتذمّر أداؤه ، وأنه سيُلقى نفس المصير ، فلا بقاء لخسائر .

واستاء أهالي غرناطة من موقف أبي عبد الله ، ومن خيانته لوطنه وكان يسمع سبه بأذنه ، وكان سعيداً بزوال ملك عمه الزغل ، وبصدقته

لفرديناند . ولم يثبت أن تبين له أن فرديناند كان يستغله فقط للامتياز على ما تبقى من مملكة غرناطة ، فأرسل إليه يدعوه إلى التسليم بالشروط التي حددتها ، وعيثا حاول أبو عبد الله ارجاء هذا الأمر ، لذلك أعلن أبو عبد الله الجهاد ، وشن غارات على أراضي النصارى ، وأحرز بعض الانتصارات ، ولكن كل هذه المحاولات كانت يائسة ، فلم يعد هناك مفر من الاستسلام ، وفعلا خرج فرديناند وايزابيلا سنة ١٤٩١ م (٨٩٦ هـ) للحرب الصليبية لأتى اعتداتها كل عام ، وعزمًا لا يعود إلا وغرناطة في قبضتيهما ، وكان جيش الملك يتكون من أربعين ألفاً من المشاة وعشرين ألفاً من الفرسان . ورأى أهل غرناطة أن الموت في ساحة القتال أفضل من الاستسلام للعدو الذي يريد أن يستولي على أراضيهم ويزيدهم ، وقام فرسان العرب بأروع ضروب الشجاعة والاقدام ، وأحرق الملك بساتين ومزارع العرب ، ولما لم يجد العرب قائدة من مقاومة العدو ، أغلقوا أبواب مدinetهم ، وقاوموا أهل المدينة المهاجمين الجوع ثمانين يوماً حتى أهلكهم ، وتسلوا إلى السلطان أبي عبد الله بطلب الصلح وفي ٢٥ نوفمبر ١٤٩١ ، وقعت شروط التسليم ، وبمقتضاه تسلم المدينة الملك بعد وقت معين ، ودخل الملك المدينة بجيشه والعرب في حزن على ما أصابهم ، ونصب علم قشتالة وأرغون فوق قمة برج المدينة ، وسلم أبو عبد الله المدينة إلى فرديناند وولى منطلقاً إلى الجبال وعاد إلى إفريقيا هو وقومه وقضى بها ما تبقى له من العمر ، واتبع سقوط غرناطة حملة اضطهاد العرب ، لذلك ثار العرب ، وحملوا السلاح ، واستتصدر فرديناند مرسوماً يخير العرب بين التنصر أو مغادرة البلاد ، وأعقب هذا غلق المساجد وحرق المخطوطات والكتب النفيسة التي هي عصارة الفكر العربي عدة سنين ، وعذب المسلمون أشد العذاب . ويقول لين بول : إننا نلمس قضل العرب وعظم آثار مجدهم ، حينما نرى بأسنانها الأرضي القاحلة التي كانت في أيام المسلمين جنات تجري من تحتها الأنهر ، تتدحر بما فيها من الكروم والزيتون وستابل القمح الذهبية ، وحينما تذكر تلك البلاد التي كانت في عصور العرب تموح بالعلم والعلماء ، وحينما نشعر بالركود العام بعد الرفعة والازدهار .

و تلك الأيام نداولها بين الناس ٠

* * * * *

بلغت الحركة الفكرية والأدبية ذروة ازدهارها في مملكة غرناطة في القرن الثامن الهجري ، وفيه ظهرت طائفة من كبار المفكرين والكتاب والشعراء ، الذين أنتجوا إنتاجا علميا بارزا في مجال العلم والأدب وكان ابن الخطيب أعظم شخصية ظهرت في ميدان الأدب والفكر والسياسة والشعر والأدب ، وبنج في مجالات مختلفة في الطب والفلسفة والشعر ، والدبلوماسية ٠

ينسب ابن الخطيب إلى قبيلة يمنية ، وقدت إلى الأندلس مع الفتح ولدًا في مدينة لوشة بالأندلس سنة ٧١٣ هـ - ١٣١٣ م ، ونشأ في بيت علم وفضل وجاه ، ونشأ ابن الخطيب في غرناطة وتعلم بها ، وتنقى بها دروسه ، وكانت غرناطة أعظم مركز للدراسات الإسلامية في الغرب الإسلامي ، ويجتمع بها حشد هائل من العلماء والأدباء ودرس لسان الدين الخطيب اللغة والشريعة والأدب في غرناطة ، وكان أبوه يشغل بعض المناصب الهمامة في ديوان السلطان ، وبعد وفاته ، استدعى للخدمة مكان أبيه في ديوان الإنشاء واستفاد من وظيفته ، وتعلم فن الكتابة ، ولم يلبث أن شغل منصب رئيس ديوان الإنشاء بعد وفاة صاحبه سنة ٧٤٩ هـ - ١٣٤٩ م ومنحه السلطان أبو الحجاج يوسف رتبة الوزارة وألقابها ، وقد نال ثقة السلطان حتى جعله كاتم سره ولسانه ، في المكاتب السلطانية وصدرت منه خلال تلك الفترة كتابات رائعة ، ولما توفي السلطان أبو الحجاج يوسف ، خلفه السلطان أبو عبد الله محمد المغنى بالله واستمر الحاجب رضوان في رئاسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب في منصبه معاونا له ، ونال ابن الخطيب ثقة السلطان المغنى بالله ، وأنعم عليه بلقب ذي الوزارتين ، لجمعه بين الكتابة والوزارة ، ولكن ابن الخطيب لم يلبث أن تبدلت أحواله ، وتعرض لمحنة ، ذلك أنه في سنة ٧٦٠ هـ - ١٣٥٩ م ، فقد المغنى بالله ملكه في انقلاب دبره ضد أخيه الأمير اسماعيل ، وارتاد السلطان الجديد في ولاه ابن الخطيب ، وقبض عليه بتحريض من خصومه ، وأمر بمصادرة أمواله وممتلكاته ، وبذلك فقد ابن الخطيب منصبه ونفوذه

وأمواله . على أن محته ابن الخطيب لم تستمر طويلاً . ولجا ابن الخطيب في محتته إلى بلاد المغرب ، وعاش ابن الخطيب في كنفه وفي رعاية سلطان المغرب أبي سالم ، والتقى بابن خادون ، وكانت تجمع بين الرجلين على الرغم من فارق السن مشابهات عديدة ، أدبية ومادية ، وكان ابن الخطيب في طور الشيغوخة ، وأبن خلدون في طور انتساب ، وكان كل منهما أستاذ عصره ورائدًا في الفكر والثقافة ، وكان لكل منها تأثير واضح في حوادث وسياسة العصر ، وكان كالآخرين وزيراً مستبداً ومستشاراً لأمراء عصره ، ومحرضًا لهم أو عليهم ، وكان ابن خلدون يشغل في دول المغرب ما يشغله ابن الخطيب في الأندلس وجمعت بين الرجلين أوامر الصدقة في البداية ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ، وكان كل منهما رغم ذلك يحترم صاحبه ويجله ، وترجم كل منهما للأخر ، وتبادلًا طائفة من الرسائل الشخصية والسياسية ، تعتبر من أبدع الكتابات السياسية والأدبية في ذلك العصر . وأذن ملك المغرب لابن الخطيب في التجول في أقاليم دولته ، وأمر عماله بحسن استقباله ، وآكرامه وفادته ، وقد وصف لنا ابن الخطيب هذه الرحلة في كتابه « تقاضة الجراب في علة الأغتراب » وفقدت بعض نصوص هذا الكتاب .

وتعتبر دولة بنى مرين من أعظم الدول المغاربية إجلاً للعلم وأهلـه . ومن أبرز مآثرهم حماية العلوم والأدـاب ، واجلال العلماء والأدبـاء وحسن رعايتـهم ، ومن أبرز علماء وشيوخ هذه الدولة ، ابن خلدون وأبن الخطـيب ، وهـما أكبر مفكـري القرن الثـامن المـجرى .

وكان ابن الخطـيب في منـاهـاـ فيـ المـغربـ يـتـمـتـعـ بـبـحـيـاـ نـاعـمـةـ مـتـرـفـهـ وـكـانـ وقتـ اقـامـتـهـ فـيـ سـلاـ يـعـيشـ عـيـشـةـ الـأـمـرـاءـ فـيـ قـصـورـهـ وـدـيـارـهـ الـقـىـ شـيـدـهـاـ ، وـكـانـ السـلـطـانـ يـعـدـقـ عـلـيـهـ بـصـفـةـ مـنـظـمـةـ وـقـدـ سـعـدـ أـبـنـ الـخـطـيبـ باـسـتـرـدـادـ السـلـطـانـ أـبـيـ عـبـدـ اللهـ مـحـمـدـ مـلـكـهـ وـبـعـثـ إـلـيـهـ يـهـنـئـهـ بـقـصـيـدـةـ جـاءـ فـيـهاـ :

الْحَسْقَ يُطْهِرُ وَالْأَبَاطِيلَ تَسْقَلُ
وَاللهُ عَمَّنْ أَهْمَى كَاهَ لَا يَسْتَهِلُ

و اذ اصْتَحَّالت حِسَالَة و تَبَدَّل
 فَإِنَّهُ عَزٌّ و جَمِيلٌ لَا يَتَبَدَّل
 وَالْيَسِرُ بِعِنْدِهِ الْعُسْرُ مَوْعِدُهُ بِهِ
 وَالصَّابِرُ بِالْفَسْرَاجِ الْقِرِيبُ مَوْكِلٌ

و شعر ابن الخطيب بعد عودة مليكه إلى عرشه في غرناطة ، ضرورة عودته إلى بساد الأندلس ، خصوصاً وبلاط المغرب قد نسادتها الفتن والاضطرابات . و شجعه على ذلك أن السلطان محمد الغني بالله كتب إلى وزير المنفي ابن الخطيب رسالة يطلب منه العودة إلى غرناطة . و نفذ ابن الخطيب أمر سيده ، و عاد إلى غرناطة سنة ٧٦٣ هـ ، وأكرم الملك وفادته ، ونظم له استقبالاً رائعاً ، ولقبه ذي الوزارتين ، ويعنى بذلك اضطلاعه بمناصب القيادة والوزارة أي الرئاسة العليا عموماً ، ويندو في مرتبة الحاجب . وبمقتضى ذلك أصبح ابن الخطيب ينوب عن السلطان أثناء الغزو في حكم البلاد ، وأن يتولى قيادة الحمايات العسكرية أحياناً . واستطاع ابن الخطيب التخلص من منافسه عثمان بن أبي يحيى ، الذي كان يلقب بشيخ الغزاه ، لأنّه عاون السلطان في استرداد ملكه . وما زال ابن الخطيب يوغر صدر السلطان على منافسه حتى نكل به وأسرته .

وفي غضون ذلك وفدي على الأندلس ، ابن خلدون ، بعد تضاعل نفوذه في بلاط فاس ، فغادر المغرب إلى الأندلس سنة ٧٦٤ هـ ، ولجا إلى غرناطة ، وكان ابن خلدون يقوم بخدمة السلطان الغني بالله أثناء إقامته منفياً في فاس ، لذلك كان ابن خلدون يتطلع إلى نيل مكانة كبيرة في غرناطة من السلطان الغني بالله ، وقد أكرم السلطان ووزيره ابن الخطيب وفادته ابن خلدون واختاره الغني بالله ليكون سفيره لدى ملك قشتالة ، ليقيم معه المجلح بين غرناطة وقشتالة ، ونجح ابن خلدون في مهمته وبالغ السلطان في إكرامه ، وعاش المؤرخ في غرناطة في أمن ورعاية مع أسرته . ولكن شعر بتغير السلطان وأبن الخطيب عليه . وبيدو أن ابن الخطيب قد تخلى على نفوذه في الدولة من ابن خلدون ، لأنّه يعرف قدره وبراعته

السياسية والعلمية ومكانته التي نالها في الدولة ، وتقدير السلطان الكبير له فأوغر ابن الخطيب صدر السلطان على منافسه في السلطة ، ابن خلدون باعراض السلطان عنه ، وفي نفس الوقت تلقى دعوات من حكام المغرب بالقدوم ، فقرر العودة إلى المغرب ، وأذن له السلطان ، وغمره بصلاته ، وودعه وشيعه معززاً مكرماً ، وعاد ابن خلدون إلى بجاية ٠

أما ابن الخطيب فقد خاق ذرعاً بالحياة السياسية والعمل السياسي لذلك تطلع إلى العودة إلى حياة العزلة في سلا ببلاد المغرب ٠

وكان ابن الخطيب - على حسب قوله - هدا لحملات خصمه ، ولم يكن يتمتع بحب الكثيرون من الناس ، لذلك سئم الحياة العسليانية والمسؤوليات السياسية ، ومظاهر القرف والنعيم ، ورغبة في ازهد والعزلة ، وطلب من السلطان أن يأذن له في الحج وكان يفكر في مغادرة الأندلس نهائياً . وكان استبداد ابن الخطيب بالنفوذ والسلطان في المملكة الأندلسية ، سبباً في نفور الناس منه ، وسعى بعض رجال الدولة لدى السلطان بالنيل منه والتخلص منه وفعلاً نجحت مساعيه ، وتغير السلطان منه ، وساء وضع ابن الخطيب سنة ٦٧٢هـ ، وقد مهد ابن الخطيب سر المغادرة الأندلس ، والذهب إلى المغرب ، فاتصل بإسطنبول المريني عبد العزيز ، فأبدى هذا الأخبر ترحيباً بمقدمه وكانت العلاقات بين مملكتي غرناطة وبني مرين في فاس قد ساءت ٠

تحين ابن الخطيب الفرصة ، واستأنف السلطان الغنى بالله بالرحيل إلى المغرب لتفقد الشعور الغربية ، فأذن له وخرج من غرناطة مع واده على ، وكان من خاصة السلطان والقربين إليه ، وفي قلة من الفرسان ، وسار في صحبة نحو الجنوب ، فلما وصل إلى جبل طارق - وكانت يومئذ من أملاك بنى مرين ، دخاماً وأبرز إلى عالمها المريني محمد السلطان عبد العزيز ، فلأكرم وفادته ، ونقله إلى سبته وهناك استقبل بحفاوة بالغة سنة ٦٧٢هـ ، وأرسل من هناك يعتذر إلى ملكه الغنى بالله ، ويطلب منه أفاءه من مهام منصبه حتى يخد المراحة ٠

لم يابث ابن الخطيب أن غادر سبته إلى تلمسان ، فأكرم السلطان عبد العزيز وفادته ، واستقر ابن الخطيب في تلمسان ثم انتقل إلى فاس ، واستكثر من شراء الضياع ، وتألق في بناء المساكن ، وأغترأس الجنات ، وكان الملك الطفل محمد السعيد قد خلف أباه عبد العزيز في المأك ، وقد استاء رجال الدولة من هذا العهد الجديد . ووضع ابن الخطيب في ذلك كتابا سماه « أعمال الأعلام » فيمن بُويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام » وفيه أثبت أن العالم الإسلامي قد شهد ملوكا صغارا مثل هذا الملك ، وأن ذلك لا يخالف الدين في شيء . وبعيداً كتابه بسرد تاريخ الدولة المرينية منذ السلطان عبد العزيز ، وهو آخر كتاب وضعه ابن الخطيب قبل مصرعه ، وفيه يروى كيفية مغادرته الأندلس ، والتجائه إلى السلطان عبد العزيز ، ويحاوله أن يبرر لنفسه تصرفه ، ويثبت حسن نواياه .

وكان ابن الخطيب يسعى إلى تحسين العلاقات بينه وبين أمراء المغرب ، واستقر أخيراً في فاس ، بعيداً عن الأهل والوطن وكان يحتل في بلاط بنى مررين مكانة لا تقل عن مكانته في الأندلس .

قضى ابن الخطيب شيخوخته في سلام وهدوء ، ولكن فرار ابن الخطيب من الأندلس ، لم يهدى من ثورة خصوصه ، بل استغلوا هذا الحدث للنيل منه ، ولوثوا سمعته في الأندلس والمغرب ، واتهموه بالزندقة والكفر بالإسلام حتى يتخلصوا منه بسهولة ويسر ، وأولوا بعض كتاباته بحيث تتمشى مع مزاعهم واتهاماتهم ، وخصوصاً ما جاء في كتابه « روضة التعريف بالحب الشريفي » وقالوا أن بعض عبارات هذا الكتاب تتضمن نعنة في النبي ، والقول بالحلوان ، وسلوك مذاهب الفلاسفة الملحدين . ولم يقف خصوم ابن الخطيب عند هذا الحد من الاتهام بل تجاوزه إلى مؤلفات ابن الخطيب الأخرى ، فقد زعموا أن مؤلفات ابن الخطيب التاريخية ، ولا سيما كتاب « الاحاطة في أخبار غرناطة » وما اشتتمت عليه من قرارات الأحياء المعاصرين ، والأموات الأقربين ، وما يتخللها من الطعن والقذف ، في حق الكثير

منهم إنما هي من قبيل الغيبة المحرمة ، وكان تلميذ ابن الخطيب وخلفه في الوزارة ، أبو عبد الله بن زمرك ، أكبر مروج لهذه المزاعم ، وتولى صياغة الاتهام عدو ابن الخطيب اللدود ، القاضي أبين الحسن التباهي ، وأفتى بوجوب حرق كتبه ، التي تتناول العقائد والأخلاق ، وأحرقت هذه الكتب في غرناطة في منتصف سنة ٧٧٣ هـ في جمع من الفقهاء والعلماء ، ووجه القاضي أبين الحسن في نفس الوقت إلى ابن الخطيب في المغرب ، رسالة شديدة يوجه اليه تهماً شخصية وشرعية ، وفى رسالته يعدد عيوب ابن الخطيب ، وما يسند اليه من تهم الانحصار والزنادقة . ويوجه اليه القاضي أبين الحسن في غرناطة بعد أحراق كتبه تهمة الانحصار والزنادقة وصادق السلطان الغنى بالله على حكمه ، وفُر بلط غرناطة أن يبذل مساعيه لدى سلطان فاس لتفتيذ حكم الشرع في ابن الخطيب . فرفض السلطان المغربي هذه التهم عن ابن الخطيب وما زاد وضع ابن الخطيب سوءاً ، أن ابن الخطيب حرض سلطان فاس المريني على غزو الأندلس ، لذلك زاد حنق السلطان الغنى بالله عليه .

وأصبح واضحاً الآن مصير ابن الخطيب ، ولما اشتدت الحال ، وانتظر كارثة قد تقع به ، وكان الغنى بالله قد ساعد السلطان على الوصول إلى ملك فاس مقابل تسليمه ابن الخطيب ولم تمض أيام قلائل على دخول السلطان الجديد فاس ، حتى حرضه وزيره سليمان ابن داود على اعتقاله ابن الخطيب ، فقبض عليه ، وزوجه في السجن ، وأرسل إلى الغنى بالله الخبر ، فبعث الغنى بالله وزيره أبي عبد الله زمرك - تلميذ ابن الخطيب - ليقوم في الظاهر بتهيئة السلطان الجديد ، وليعمل في الواقع على استلام ابن الخطيب وعادته إلى الأندلس مقبوضاً عليه لمحاكمته بها .

وعينا حاول ابن الخطيب الاستغاثة بأصدقائه ، ولكن السلطان أحمد قرر محاكمته في فاس بالتهم التي وجهت اليه في غرناطة ، وأهمها الانحصار والزنادقة ، وعقدت المحاكمة فعلاً ، وزج في السجن ولكن

أوزير ابن زهر حرض بعض خدمه بقتل ابن الخطيب بالسجن وأحرقت
جثته وذلك في سنة ٧٧٦ هـ

كان ابن الخطيب من أعظم كتاب عصره ، كان ساعراً فذا وأديباً
كبيراً ، ويكتب الشعر في موضوعات متعددة تناسب حياته المليئة
بالأحداث والمحن . ومن أبرز ثواباته في النثر المراسيم السلطانية ،
التي أصدرها أيام توليه الوزارة ومنها رسائل إلى ملوك إسبانيا
النصارى وسلطان المغرب وسلطان مصر ، وجمع ابن الخطيب عدداً
كبيراً من هذه الرسائل في كتابه « ريحانة الكتاب ونجمة المنتاب » منها
رسائل يصف فيها بعض الوفاقون العرب ورسائل يحت سلطان
المغرب ومصر على انتقام من مواجهه أعداء الإسلام ، وتعتبر رسائل
ابن الخطيب السلطانية من أروع نماذج النثر الدبلوماسي في الأندلس
والغرب الإسلامي بصفه عامه . في كتابه « الاحتاطة » نثر بعض الرسائل
الخاصة التي أرسىها إلى أصدقائه وزملائه ، وتتجلى فيها دقة العبارة
وروعة الأسلوب .

وابن الخطيب مؤرخ بالدرجة الأولى ، ومؤرخ عصره بنوع خاص ،
وله مؤلفات عديدة تتصل بتاريخ عصره ، ولا سيما فيما يتعلق بدولة
بني الأحمر ، اندى خان ابن الخطيب من كبار رجالها . وتعتبر هذه
المؤلفات أهم مصادر هذه الفترة ويفخذ عليه هجاؤه لأعدائه بأسلوب
متطرف ، ويبين في المدح والهجاء ، ولكنه بارع في تحليله للشخصيات
التاريخية والحكم عليها .

وتميز شعر ابن الخطيب بالتنوع في المائحة النبوية ومدح السلطان ،
والزجل والتواشيح ، وكتب ابن الخطيب الكثير من الكتب في الطب ، وحان
طبيعاً وفيلسوفياً يكتب في النفس والمساعر الإنسانية ، والواقع أن ابن
الخطيب كان قطب الشعر والنشر في عصره ، ومحرر النشاط الأدبي
في عصره . ويعتبر أعظم كاتب كتب عن تاريخ وجغرافية غرناطة وأوصاف
حياتها الاجتماعية وترك تراثاً فكرياً كبيراً في النثر والشعر والتاريخ

والجغرافيا والرحلات والبلاغة والشريعة والعنوم والأخلاق والمدين والنبات والطب والبيطرة والموسيقى والفن الحربي والسياسة ، ويظهر في هذه المؤلفات العمق وأصالحة التفكير والإبتكار .

ويتميز منهج ابن الخطيب في الكتابة التاريخية بأنه لا يقتصر على التاريخ السياسي ، إنما يكتب عن حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنظم وجغرافية الأقاليم ، وبموت ابن الخطيب انحدرت الحركة الفكرية في الأندلس . وقد نبغ في مختلف الدراسات حتى أصبح أعظم مؤرخ وأكبر كاتب وأفضل شاعر في عصره . ويمثل التاريخ أعظم وأجل وأكثر مؤلفاته ومن أهم مؤلفات ابن الخطيب التاريخية « الأحاطة في أخبار غرناطة » وكتاب « الشمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية » و « طرق العصر في تاريخ دولة بنى نصر » و « رفم الحال في تنظيم الدول » و « أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال » و « الكتبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة » و « ونفاصه الجواب في علة الاغتراب » وكتاب « ريحانة الكتاب » ويتضمن رسائل تاريخية ودبلوماسية .

ويعظم هذه الكتب متضمن تاريخ العصر الذي عاشه وترجمه للأعلام من الشعراء والكتاب وقادة الفكر المعاصرين أو القريبين من عصره ، ولكن قلة من هذه الكتب مثل « الأحاطة » وأعمال الأعلام » تتضمن تاريخاً لعصور سابقة .

وتتضمن بعض كتب ابن الخطيب معلومات جغرافية هامة ، مثل حديثه في « الأحاطة » عن جغرافية غرناطة ، وله رسالتان في الأدب الجغرافي الأولى « معيار الاختيار في ذكر المعاهد والآثار » فيصف فيها على لسان شيخ رحالة بعض مشاهداته في الأندلس . والثانية رسالة عنوانها « مفاخرة بين مالقه وسلا » وهي عبارة عن مقامة مسجدة يقارن فيها ابن الخطيب بين الثغرين الأندلسي والمغربي .

وترك ابن الخطيب تراثاً فكرياً كبيراً في مختلف فروع العلم ، وأن كان الكثيرون من كتبه قد أحرق في غرناطة ، حينها وجهت إليه تهمة الإلحاد والزندقة ، والواقع أنه وضع الكثير من كتبه أثداء منفاه في المغرب حيث كان لديه متسعاً من الوقت .

ومن أهم كتبه التاريخية « الاحاطة في أخبار غرناطة » وكتاب « الناج المحاى في مساجلة انقدح المطى » وهو يحتوى على مختصر ل تاريخ مملكة غرناطة منذ انشائها على أيدي بنى نصر وترجم اعيانها في القرن الثامن الهجرى ، ويترجم ابن الخطيب لنفسه ولوالده ، وله كتاب « الكتبة الكامنة فيم لقيته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » وكتاب « اللمحه البدرية في الدولة النصرية » وهو مختصر تاريخ بنى نصر ملوك غرناطة حتى سنة ٧٦٥ هـ ، وكتاب « رقم الحال في نظم الدول » وهو تاريخ منظوم للدول الاسلامية وكتاب « نفاضة الجواب في علاقه الاغتراب » وقد أشرنا اليه فيما سبق . وكتاب أعمال الأعلام وهذا الكتاب هو آخر ما ألفه ابن الخطيب قبل موته ، وكتاب « طرفة العصر في تاريخ بنى نصر » وهو تاريخ آخر للدولة الفصريه . هذه أهم مؤلفات ابن الخطيب التاريخية .

ومن أهم الكتب الأدبية لابن الخطيب « ريحانة الكتاب ونجعة المتناب » وكتاب « كتابة الدكان بعد انتقال السكان » وكتاب « معيار الاختيار في ذكر المشاهد والديار » وكتاب « مقاضلة بين مالقه وسلا » وكتاب « خطرة الصيف في رحلة الشتاء والصيف » يصف فيه رحلة قام بها السلطان يوسف أبو الحجاج في الأندلس وزار فيها عددا من مدن الأندلس . وله الكثير من الرسائل الأدبية تتجلى فيها أفكاره الفلسفية وأراؤه في التصوف وفي السياسة ومناقشات بين ابن الخطيب وأهل الطريقه وفي الحديث على الجهاد ، وله رسائل في الموسيقى والقضاء وال الحرب وأهل المحن والحرف وطوائف الشعب . ورسائل في الرد على بعض خصومه .

ولابن الخطيب دواوين في الشعر مثل ديوان « الصيف والجهنم والماضي والكمام » و « الحل المرقومة في اللمع المنظومة » وهي أرجوزة من ألف بيت في أصول الفقه ، و « السحر والشعر » وهو مجموعة مختارة من شعره . و « جيش التواشيح » وجمع فيه أعظم وأجمل تواشيح عصره . وله مؤلفات تخمنت أشعار كبار الشعراء ، وكذلك صحف في العبروض .

لابن الخطيب مؤلفات في الطب ، منها كتاب « عمل من طب من حب » ويتناول هذا الكتاب مختلف الأمراض ، وأسباب كل مرض وأعراضه وعلاجه ، ونظم الغذاء الذي يناسبه ويصف مختلف أعضاء الجسم ، وطرق العناية بها .

ولابن الخطيب أرجوزة في الطب ، تقع في ١٦٠٠ بيت ، وذكر للأمراض المختلفة وطرق علاجها وأسبابها ، وله كتاب « وجذ في الأغذية » ويقع في نحو ١٢٠٠ بيت ، ويدرك في الكتاب الأغذية مرتبة حسب حروف المعجم وطبعها ومنافعها ومضارها واصلاح خللها ، وله كتاب « الوصول لحفظ الصحة في الفصول » كتاب في علاج السموم ، بالإضافة إلى رسائل عديدة في الطب .

من هنا نرى أن ابن الخطيب كان دائرة معارف ، وعالماً ومتكلماً موسوعياً ، صنف في مختلف أنواع المعرفة ، كتب في الأدب والشعر والفقه والتاريخ والترجم والفلسفة والطب ، وترجم لحياته في خاتمة كتاب الإحاطة ، وهذه المؤلفات العديدة وهذا الانتاج العلمي الغزير يتجلّى فيه عمق التفكير ، وقوّة البيان وسعة الاطلاع ، وكتب التاريخ لأنّه عاصر الأحداث أو كان قريباً منها . ويعتبر ابن الخطيب خلاصة ما وصله إليه الفكر الأندلسى من قوة وازدهار ، وفي نفس الوقت تضاعل الفكر الإنساني في الأندلس بعد ابن الخطيب حتى انكمش نهائياً .



يقول صاحب كتاب أخبار العصر في انقضاء دولة بنى نصر : فلما تمت هذه العقود والمواثيق قرئت على أهل غرناطة سمعوا ما فيها واطمأنوا إليها وانقادوا لطاعته كتبوا بيعتهم وأرسلوها إلى فرديناند صاحب قشتالة وسمحوا له في الدخول إلى مدينة الحمراء وإلى غرناطة فعند ذلك أمر أمير غرناطة محمد بن على باخلاء مدينة الحمراء فأخلت دورها وقصورها ومنازلها وأقاموا ينتظرون دخول النصارى لقبضها فلما كان اليوم الثاني لربيع الأول عام سبعة وتسعين وثمانمائة أقبل الملك فرديناند بجيشه حتى

قرب من البلد وبعث جناحا من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء وأقام ببقية الجيوش خارج البلد لانه كان يخاف من الغدر وكان طليع من أهل البلد حين وقع بينهم الاتفاق على ما ذكر رهونا من أهل البلد ليطمئن بذلك فاعطوا خمسة مائة رجل منهم واقعدتهم بمحلته فحينئذ قدم كما ذكرنا فلما أطمأن من أهل البلد ولم ير منهم غدر سرح جنوده لدخول البلد والحراء فدخل منهم خلق كثير وبقى هو خارج البلد وأحسن الحراء بكثير من الدقيق والطعام والعدة وترك فيها قائدا من قواده وأنصرف راجعا إلى محلته وبقى حينئذ يختلف بالدقيق والفارغات وأنواع الطعام والعدة وما يحتاج إليه وقدم في البلد فوادا وحكاما وبوابين وما يحتاج إليه إليه من الأمر وصار المسلمون يختفون إلى المحلة للبيع والشراء والنصارى كذلك ولا سمع أهل البصرة أن أهل عرباطة دخلت تحت ذمة النصارى أرسلوا بيعتهم إلى ملك النصارى ودخلوا في دمته ولم يبق للمسلمين موضع بالأندلس « فانا له وأنا إليه راجعون » .

نم أن الملك فردینايد سرح الناس الذين كانوا عنده مرتجين ومؤمنين في أموالهم وأنفسهم مكرمين واقبل في جيشه حين أطمأن فدخل مدينة الحمراء في بعض حواضنه وبقي الجندي خارج البلد وبقى يقتله في الحمراء في القصور والمنازل المسيدة إلى آخر النهار نم حرج بجنوده وصار إلى محلته وأخذ في بناء الحمراء وسيدها وأطمأن في البلد وصرح لهم الجواز وأتاهم بالراكب إلى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ودوره وهو مع ذلك يتتردد إلى الحمراء بالنهر ويرجع بالليل فلم يزل كذلك إلى أن أطمأن نفسه من غدر المسلمين فحينئذ دخل البلد ودار عليه نفر من قومه وحسنمه فلما أطمأن في البلد سرح لهم بالجواز وأتاهم بالراكب إلى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة أو واسعة المعتبرة بالنمن القليل وكذلك يبيع جنانه وأرض حريته وكرمه وفداه بأقل من ثمن الغلة التي كانت فيه فمنهم من استراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ومنهم

من اشتراه منه النصارى وكذا جميع الحوائج والأمتعة . وأمرهم بالمسير إلى الساحل بما معهم فيرفعهم النصارى في البحر بمحترفين مكرمين مؤمنين .

وكان الملك فرديناند قد أطير !! عسليمن في هذه المدة العناية والاحترام حتى كان النصارى يغيرون منهم ويقولون لهم أنتم الآن عند ماكما اعز وأكرم منا ، ووضع عنهم المغامر وأظهروا لهم العدل حينه منه وتيدا نيمورهم بذلك وليمنعوا عن الجواز ، فوقع الطمع الكثيـر من الناس وطنـوا ان دلت يدوم لهم فاشتروا أموالـا رخيصة وأمتعـة وعزمـوا على الجلوـنـ مع النصارـى .

ثم ان الملك فرديناند أمر الأمير محمد بن عـيـا بالامـرات من سرتـنهـ إلى قـرـيةـ اندرـشنـ قـرـيـةـ البـشـرةـ فـارـقـطـلـ الـأـمـيرـ مـحـمـدـ بـعـيـاـهـ وـحـمـهـ وأـمـوـالـهـ وـأـتـبـاعـهـ فـنـزـلـ قـرـيـةـ اندرـشنـ وـأـقـامـ بـهاـ يـنـظـرـ مـاـيـؤـمـنـ بـهـ ، تمـ أنـ الطـاغـيـةـ ظـهـرـ لـهـ أـنـ يـنـصـرـفـ الـأـمـيرـ مـحـمـدـ إـلـىـ الـعـدـوـةـ فـأـمـرـهـ بـالـجـوـارـ وـبـمـ لـمـرـاكـبـ تـأـتـيـ لـمـرـسـيـ عـذـرـةـ وـاجـتـمـعـ مـعـهـ حـاقـ كـبـيرـ مـنـ أـرـادـ الـجـوـارـ فـرـكـبـ الـأـمـيرـ مـحـمـدـ وـمـنـ مـعـهـ فـيـتـلـكـ الـمـرـاكـبـ فـعـزـةـ وـاحـتـرـامـ وـكـرـامـةـ مـنـ النـصـارـىـ وـسـارـوـاـ فـيـ الـبـحـرـ حـتـىـ نـزـلـوـاـ مـدـيـنـةـ مـلـيـلـةـ مـنـ عـدـوـةـ الـمـغـرـبـ بـهـ اـرـدـنـ سـىـ مـدـيـنـةـ فـاسـ حـرـسـهـ اللهـ وـكـانـ مـنـ فـدـرـ اللهـ تـسـالـىـ لـمـاـ جـازـ الـأـمـيرـ مـحـمـدـ بـنـ عـلـىـ وـصـارـ بـمـدـيـنـةـ فـاسـ أـصـابـ النـاسـ تـدـةـ عـظـيـمـةـ وـغـلـاءـ وـجـسـوعـ وـطـاعـونـ وـاشـتـدـ الـأـمـرـ بـفـاسـ حـتـىـ فـرـ كـنـيـرـ مـنـ النـاسـ دـنـ شـدـةـ الـأـمـرـ وـرـجـعـ بـعـضـ نـاسـ مـنـ الـذـيـنـ جـازـوـ إـلـىـ الـأـنـدـلـسـ فـاـخـبـرـوـ بـتـالـكـ الشـدـةـ فـفـدـرـ النـاسـ عـنـ الـجـواـزـ عـنـ ذـلـكـ وـعـزـمـواـ عـلـىـ الـاقـامـةـ وـالـدـجـنـ وـنـمـ يـجـوزـ النـصـارـىـ أـحـدـاـ بـعـدـ ذـلـكـ إـلـاـ بـالـكـرـاءـ وـالـمـغـرـمـ وـعـشـرـ الـمـالـ .

فـلـمـاـ رـأـىـ الـمـلـكـ فـرـديـنـانـدـ أـنـ النـاسـ قـدـ تـرـكـواـ الـجـواـزـ وـعـزـمـواـ عـلـىـ الـاسـتـيـطـانـ وـالـمـقـامـ فـإـلـيـنـ أـخـذـ فـيـ نـقـضـ الشـرـوطـ الـتـىـ شـرـطـواـ عـلـيـهـ أـولـ مـرـةـ وـلـمـ يـزـلـ يـنـقـضـهـ فـصـلـاـ فـصـلـاـ إـلـىـ أـنـ نـقـضـ جـمـيعـهـ وـزـالتـ حـرـمةـ

ال المسلمين وأدركهم الهوان والذلة واستطاع عليهم التنصاري وفرضت عليهم الفروضات وثقلت عليهم المغامر وقطع لهم الأذان من الصوامع وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة إلى الأرياض والقرى فخرجوا أذلة صاغرين ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربعين وتسعمائة فدخلوا في دينهم كرها وصارت الاندلس كلها نصرانية ولم يبق فيها من يقول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » الا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس ، وجعلت النواصيين في صوامعها بعد الأذان في مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمذهرين ، لم يقدروا على الهجرة واللحوق بأخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل نارا ، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا ، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصليبان ، ويسبدون للأوثان ، يأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات ، فلا يقدرون على منعهم ، ولا على نهيم ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عقابه أشد العقاب ، وعذابه أشد العذاب ، فيحالها من فجعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها ، وظاهرة ما أكبرها ، عسى الله أن يجعل لهم من أمرهم فرجا و出路ا على كل شيء قدير .

وقد كان بعض أهل الاندلس امتنعوا من التنصر وأرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم كأهل قرية وتجن والبشرة وأندرش ويلفيق فهم عليهم الملك فرديناند بجامعة وأحاط بهم من كل مكان حتى أخذهم عنوة بعد قتال شديد فقتل رجالهم وسبى نسائهم وصبيانهم وأموالهم ، ونصرهم واستعبدتهم ، إلا أن ناسا في غربية الاندلس امتنعوا من التنصر وانحازوا إلى جبل منيع فاحتلوا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعه وطعم في الوصول إليهم كما فعل بغیرهم فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب الله سعيه ورده على عقبه ونصرهم عليه فقتلوا من جنده خلقا كثيرا من رجاله وفرسانه وأجناد .

فلما رأى أنه لا يقدر عليهم طلب منهم أن يعطينهم الأمان ويجوز لهم

لعدوة المغrib مؤمنين فأنعوا له ذلك الا أنه لا يسرح لهم شيئاً من أموالهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوههم لعدوة المغرب كما شرطوا عليه، ولم يطبع أحد بعد ذلك أن يقوم بدعوة الاسلام ، وعم الكفر جميع القرى والبلدان ، وانطفىء من الاندلس الاسلام والایمان ، فعلى هذا فليك بالكون وينتخب المتنبئون ، فانا لله وانا اليه راجعون ، كان ذلك في الكتاب مسطورا ، وكان أمر الله قدرًا مقدورا ، لاراد لأمره ، ولا حول ولا قوة الا بالله العالى العظيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما الى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

نهائية الاندماج

بعد أن سلم أبو عبد الله مدحه عزناده !فرديناند ، ودعها وترك هذه المدينة بأبراجها الحمراء وبساتينها الخضراء وزرعها النضير ، وكل ما بها من جمال وعظمة ، بدأ عصر جديد من الحزن والاستبداد والبؤس للمسلمين في الأندلس واتّمـحـ منـذـ اللـحظـةـ الـأـوـاـيـ أـنـ الـأـسـبـانـ اـنـ يـلـقـمـ إـنـماـ بـمـاـ عـاهـدـواـ الـمـسـلـمـيـنـ عـنـيهـ .ـ مـنـ اـطـلاقـ حـرـبةـ اـنـبـادـةـ لـهـمـ ،ـ وـمـعـالـمـتـهـمـ بـالـتـسـامـحـ وـالـعـدـلـ ،ـ وـفـدـمـ إـلـىـ غـرـبـاطـهـ فـيـ سـنـةـ ١٤٩٩ـ رـسـوـلاـ مـنـ قـبـلـ الـمـاـلـكـ ،ـ وـأـرـغـمـ فـيـ يـوـمـ وـاحـدـ ثـلـاثـةـ ئـلـافـ مـنـ الـعـربـ عـلـىـ التـتـصـرـ ،ـ وـفـيـ زـعـمـهـ اـنـقـذـ هـؤـلـاءـ الـمـاحـدـيـنـ وـكـانـتـ الـمـلـكـةـ إـيـزـابـيلـاـ مـعـجـبـةـ ،ـ وـاعـتـقـدـتـ أـنـ التـسـامـحـ مـعـ الـمـسـلـمـيـنـ ،ـ يـبعـدـهـاـ عـنـ اللهـ ،ـ لـذـاكـ أـمـرـ باـضـطـهـادـ الـعـربـ .ـ نـارـ الـمـسـلـمـوـنـ ضـدـ هـذـاـ التـعـصـبـ ،ـ وـهـاجـرـاـ الـمـسـلـمـيـنـ اـدـبـنـ اـرـتـدـواـ خـوـفـاـ وـخـضـعـفـاـ وـتـقـرـبـاـ إـلـىـ السـلـطـاتـ الـحـائـرـةـ .ـ اـدـكـ أـصـدـرـتـ الـمـلـكـةـ دـرـسـوـمـاـ ،ـ بـأـنـ يـخـيـرـ الـمـسـاـمـوـنـ بـيـنـ التـتـصـرـ أوـ مـنـازـلـ الـعـسـالـدـ ،ـ لـأـنـهـ فـيـ زـعـمـهـاـ لـاـمـكـانـ شـمـاـحـدـيـنـ فـيـ دـيـارـهـاـ ،ـ وـجـاءـ فـيـ هـذـاـ مـاـ .ـ رـمـ .ـ أـنـ أـسـلـافـهـمـ كـانـوـاـ مـسـيـحـيـنـ ،ـ وـأـنـ الـكـنـيـسـةـ تـعـدـهـمـ وـهـمـ مـنـ سـلـانـهـمـ مـسـيـحـيـنـ مـنـذـ الـولـادـةـ ،ـ فـيـجـبـ عـلـيـهـمـ أـنـ يـظـهـرـوـاـ دـيـنـهـمـ الـمـورـوتـ ،ـ وـعـلـىـ أـنـرـ ذـاكـ أـمـرـ الـمـلـكـةـ بـاـغـلـاقـ الـمـسـاجـدـ ،ـ وـاـحـرـاقـ الـمـخـطـوـطـاتـ وـالـكـتـبـ الـنـفـيـسـةـ ،ـ التـيـ يـتـجـاـيـ فـيـهـاـ مـدـىـ ماـ بـلـغـهـ الـفـكـرـ الـعـرـبـيـ مـنـ رـقـىـ وـتـقـدـمـ ،ـ وـاـضـحـهـ حـادـثـ عـرـنـاطـةـ الـمـسـلـمـيـنـ .ـ وـسـاـمـوـمـ سـوـءـ الـذـابـ ،ـ لـأـرـغـامـهـمـ عـلـىـ التـقـخـيـيـنـ دـيـنـهـمـ ،ـ وـاستـدـابـ إـلـىـ الـأـخـ طـهـادـ الـمـسـتـضـعـفـوـنـ ،ـ وـارـتـدـواـ عـنـ دـيـوـنـهـمـ ،ـ وـجـوـواـ إـلـىـ الـدـهـرـانـبـةـ ،ـ حتـىـ وـاصـلـوـاـ حـيـاتـهـمـ الـمـعـيـسـيـةـ فـيـ دـيـارـهـمـ ،ـ وـخـذـلـهـمـ .ـ الـسـهـدـ فـيـ بـدـاعـ الـأـرـثـانـ فـيـ مـجـاهـلـ لـاـ يـدـرـكـونـ مـصـيرـهـمـ فـيـهـاـ .ـ وـبـقـيـ عـيـنـهـمـ جـمـاعـةـ مـنـ النـجـعـانـ ،ـ وـأـعـنـواـ الـدـةـ لـمـقاـوـمـةـ بـطـنـ الـمـلـكـيـنـ الـكـافـرـ .ـ بـنـ ،ـ وـوـاجـهـوـاـ الـأـخـ طـهـادـ فـيـ نـسـجـاعـهـ وـأـقـدـامـ ،ـ وـرـفـضـوـاـ الـظـلـمـ وـالـإـيـمـ ،ـ وـأـعـدـوـاـ الـدـةـ لـلـتـخـيـبـةـ بـالـعـالـىـ وـالـنـفـيـسـ فـيـ سـبـيلـ اـنـدـيـنـ الـحـنـيفـ ،ـ وـلـأـنـ السـلـطـاتـ الـحـاكـمـةـ أـمـحـتـ فـيـ اـضـطـهـادـ الـمـسـلـمـيـنـ ،ـ حتـىـ هـدـمـ مـسـجـداـ

على من فيه من الرجال والنساء والأطفال ، ومن لا مأوى لهم ، وأضطر من أراد الفرار بدينه إلى هجرة الوطن والدار ، واستقر بهم المقام في بلاد المغرب ، واشتغلوا بالزراعة والصناعة وأضطر بعض المسلمين إلى التظاهر بالنصرانية ، فكانوا يؤدون شعائرهم الدينية سرا ، وإذا عقد زواج أحدهم طبقاً للطقوس المسيحية ، عاد سرا إلى بيته ، وجمع أقاربه من المسلمين ، وعقد الزواج طبقاً للشريعة الإسلامية ، وكرد فعل لما عاناه المسلمون من البطش والاضطهاد ، ساعدوه قرائصه البحر على الهجوم على شواطئ إسبانيا ، واختطاف أطفال النصارى .

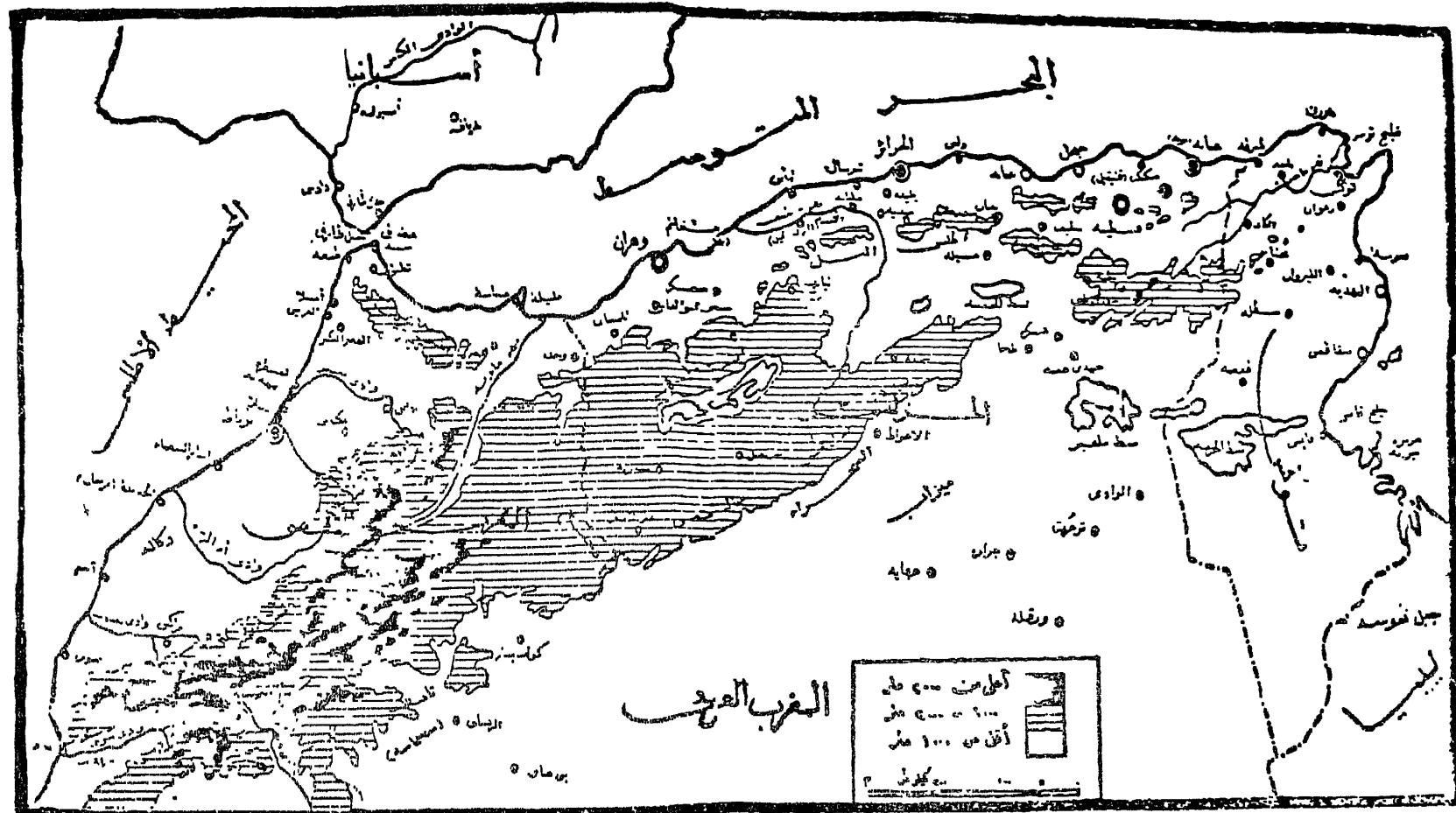
لكن السلطات الحاكمة حرصت على إزالة كل أثر للإسلام ، فأرعموا المسلمين على ارتداء ملابس النصارى وقبعاتهم وسرّاويلهم ، واتخذوا عن لغتهم وأسمائهم وتقاليدهم .

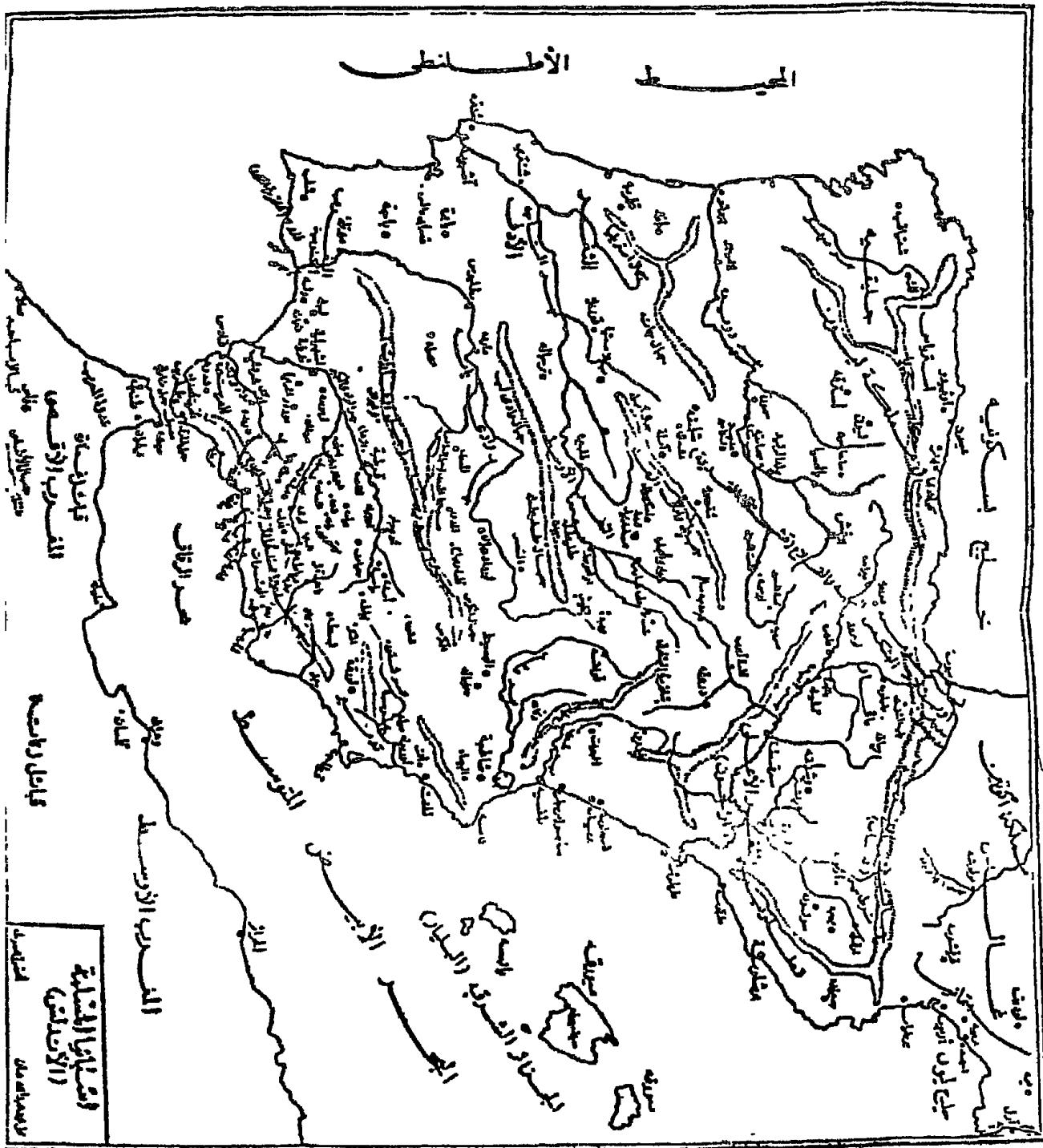
ولم يقبل المسلمون في غرناطة التخلّي عن قوميتهم ونقاوئدهم ولغتهم ودينهم ، لذا تشارت الحمية في نفوسهم ، والتفوا حول أحد زعمائهم ، ويسمى محمد بن أبيه من نسل خلفاء قرطبة ، وزاروا في منطقة البسras الحسينية سنة ١٥٦٨ م وكانت هذه الثورة عنيفة تجّلت فيها الكراهية المتبادلة بين الفريقين ، وكان المسلمون يهاجمون النصارى في بأس واستماتة وكانت هذه الثورة آخر محاولة لهم للتغbir عن الظلم الذي لحق بهم ، لذلك قتلوا النصارى والقساوسة ، ولطخوا الكثائس بالأقذار . ولكن السلطات الحاكمة في غرناطة قمعت هذه الثورة بعنف وضراوة ، وذبحوا من المسلمين الكثير ، وحولوا مراكز الثوار إلى بحار من الدماء ، وانتهت الثورة حوالي سنة ١٥٧٠ م بعد أن أحرقوا ألفى الغربيه ومنعوا من التجأ إلى الكهوف من مغادرتها ، خدفوا فيها أحياء ومن نجا من هذه الورقة استرق أو نهى . وقد قتل في الثورة أكثر من عربين ألف مسام . وقد نفوا من إسبانيا ما يقدر بـ ملايين مسلم ، لجأ بعضهم إلى المغرب ، وعاشوا في شظف من العيش . وبعضهم مات في الطريق ضعفاً وكهداً ، ولجأ بعضهم إلى فرنسا .

وضياع الأندلس من المسلمين واعرب يوقع المؤرخ في حيرة شديدة — هل حقيقة العرب مسؤولون مسؤولية كاملة عن فقدانهم للأندلس ، كم هو الحال في فلسطين ؟ المصراع بين الإسلام والنصرانية صراع طويل مهين ، وأقصد بين المسلمين في الشرق والنصارى في الغرب . لقد أحرز المسلمون الانتصارات الرائعة على النصارى ، وانتزعوا منهم الامبراطورية البيزنطية التي كانت تسيطر على مصر والشام والمغرب وأسيا الصغرى . كما أن المسلمين والعرب لم يتمكروا الصليبيين من الاستمرار في أرض العروبة والاسلام ، بل عادوا إلى بلادهم بعد قرنين من الزمان ولكن العرب ظلوا في الأندلس أكثر من سبعة قرون وأدت الحضارة الإسلامية دورها الكبير في هذه الأرض الأوربية التي لا تزال آثارها باقية إلى يومنا هذا وفي نفس الوقت فشل الاستعمار الأوروبي في الاستمرار في أرضنا العربية الإسلامية . معنى ذلك أن الشرق شرق والغرب غرب . أى أن الشرقيين لا يمكنهم البقاء في أرض غربية باستمرار . وفي نفس الوقت لا يستطيع الغربيون البقاء في العالم العربي والاسلامي .

ولكن المخزن أن تضييع أرضا من ديار الاسلام مثل الأندلس . ولعب العرب دورا كبيرا ورئيسيا في ضياع هذا الملك العظيم . وكان المسلمون في الغرب في ضعف أمام النصارى في الوقت الذي كان فيه الأتراك العثمانيون يجتاحون أوروبا حتى وصلوا إلى أبوابينا ، وكانوا في أوج عظمتهم ، وفي أبهى انتصاراتهم . ولكن على الأرجح بعد المساعدة ، وانقطاع الأخبار ، وعدم وضوحها جعل من الصعب بل ومن المستحيل على العثمانيين إنقاذ أخوانهم في الدين في الأندلس .

وهكذا فقد العرب أسيادنا — هذه مأساة المسلمين والعرب رقم ١ — يليها فلسطين — المأساة رقم ٢ ، يليها لبنان التي تتمزق أمام أعيننا الآن — يليها أفغانستان جلبو العدو إلى بلادهم ليمزق شملهم ، ويفرق وحدتهم وال الحرب بين العراق وأيران — حضارة تتمزق أمامنا ، والعدو يعمل على توسيع نطاقها حتى يرى بنفسه المسلمين في ضعف وهوان ، وحتى يروج لأسلحته ، ويفرض سيطرته على دول الخليج بحجية حماية البترول ، والكويت تتمزق وتنهار بأيدي عربية إسلامية .





وهل حقيقة أن العرب والمسلمين لا يميزون بين العدو والصديق؟؟
قدرون الأخطار المحيطة بهم من كل مكان . إننا في شدة الحاجة إلى
ذلك والقضاء على العمل بكتاب الله حتى نستطيع أن نواجه كل هذه
النار وحتى لا نخرب وندمر بيوعتنا بأيدينا .

يقول بدر الدين الجارم :

أمامك قصه عن مجد قوم تتشع عن سمائهم السحاب
مناصل ان دعوا للحرب لبو وان نودوا لكرمه أجابوا
نجوم ما بدت الا لتخفي كما يعلو على الماء الحباب
سلوا التاريخ عنها ان أردتم ففى صفحاته خط الجواب

والله أعلم .

ثبت المراجع

١ - المراجع العربية

١ - ابن الأباد (أبو عبد الله محمد، القضاوى اللبناني) • ت ٦٥٨
- ١٢٦٠ م

(أ) كتاب التكميم لكتاب الصلة ٢ ج ، الخامس والسادس من
مجموعه المكتبة الأندرسية • نشر كودبرا مدريد ١٨٨٧ م •

(ب) المعجم • المكتبه الأندرسية مدريد ١٨٨٦ م

٢ - ابن أبي زرع (أبو عبد الله محمد بن عبد الحليم) •
ت ٢٢٦ هـ - ١٣٢٥ م

الأنس المطرب بروض القرطاس في أحصار ملوك المغرب وتاريخ
مدينة فاس ، ٢ ج • ايطاليا ١٨٤٣ م

٣ - ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبي الكرم) ت ٥٣١٠ هـ
الكامل في التاريخ ، ١٠ ح • بولاق •

٤ - ابن الأحمر (الأمير أبو انوليد اسماعيل بن يوسف النصري)
ت ٨١٠ هـ ١٤٠٧ م

(أ) نثر الجمان في نصر من بضمى ولياه الزمان • محظوظ دار
الكتب المصرية رقم ١٨٥٣ أدب •

(ب) روضة النسرين في ما وک بی مرین نسره الأستاذان مارسيه
وبولی باریس ١٩١٧ م

٥ - ابن بسام (أبو الحسن على السنتریني) ت ٥٤٢ هـ
الذخرة في محاسن أهل الجزيرة • القاهرة ١٩٤٥ م

٦ - ابن بسكوال (أبو القاسم حلف بن عبد الملك) ت ٥٥٧٨ هـ ، ١٨٣ م
كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس • مدريد ١٨٨٣ م

- ٧ - ابن بطوطة (أبو عبدالله محمد عبدالله الطنجي) ت ١٣٧٧ ، ٥٧٧٩ م
نحلة الأنظار في عرائب الأماكن وعحائط الأسفار ، ٢ ج ، القاهرة
١٩٣٨ م
- ٨ - ابن حجر العسقلاني (نسهاب الدين أحمد بن عائى) ت ٨٥٢ ، ٥
الدرر الكامنة في أعيان المائة الداماية ، ٤ ج ، الهند ١٣٥٠ هـ
- ٩ - ابن حوقل (أبو القاسم محمد) . عاس في القرن الرابع الهجري
كتاب صورة الأرض ، ٢ ج ، ليدن ١٩٣٩ م
- ١٠ - ابن الخطيب (الوريير محمد لسان الدين) . ت ١٤٨٥ ، ٥ ٧٧٦ م
(أ) الاخطافه في أخبار غرباطه ، ٢ ج ، القاهرة ١٣١٩ هـ
(ب) أعمال الاعلام من بوضع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام .
رباط الفتح ١٩٣٤ م ، حققه لييفي بروفسال ، بيروت ١٩٥٦ م
(ج) اللمحه البدرية في الدوله المصريه : القاهرة ١٣٤٧ هـ
- ١١ - ابن خلدون (أبو رکببا بن محمد) ت ١٣٧٩ ، ٥٧٨٠ م بغية الرواد
في ذكر الملوك من بنى عبد الواد . نشر وترجمه للفرنسيه الفرديل ،
الجزائر ١٩٠٣ م
- ١٢ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨ ، ٥
العبر وديوان المبتدأ والخبر . بولاق ١٢٨٤ هـ
- ١٣ - ابن خلكان (سمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم)
ت ٦٨١ هـ
وفيات الأعيان وأباء الزمان .
- ١٤ - ابن الزبير (أبو جعفر أحمد) ت ١٣٠٨ ، ٥٧١٨ م
صلة الصلة ، نشره لييفي بروفسال . رباط ١٩٣٨ م
- ١٥ - ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم بن على التعمري) ت ٥٧٩٩ هـ
الديجاج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، القاهرة ١٣٣٩ هـ

- ١٦ - ابن عذارى المراكنى .
البيان العربى . فارس ١٩٣٠ م .
- ١٧ - ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن بوسف الأزدى)
ت ٤٠٣ هـ ١٠١٣ م .
تاريخ علماء الأندلس ، مدريد ، ١٨٩١ م .
- ١٨ - أخبار مجموعة فى فتح الأندلس مؤلف مجهول . مدريد ١٨٦٧ م .
- ١٩ - الاذرى (محمد بن عبد العزير الشريف الفاوسي) ت ٦٤٩ هـ
صفه المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس - ابدن ١٨٩٤ م .
- ٢٠ - التبكى (أبو العباس أحمد بابا)
نيل الابتهاج بتطریز الدبیاج . كتب على هامس كتاب الدبیاج
المذهب لابن فرحون . القاهرة ١٣٢٩ هـ .
- ٢١ - المجرى (سهام الدين محمد بن القاسمى) نفح الطيب من عصن
الأندلس الرطيب . القاهرة ١٩٤٠ م .
- ٢٢ - الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المعم) ت ٥٨٦٦ م .
صفه جزيرة الأندلس . منتخبه من كتاب الروض المعطار . القاهرة .
- ٢٣ - حسن أحمد محمود (الدكتور) قيام دولة المرابطين ، صفحه مسرقة
من تاريخ العرب في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٧ م .
- ٢٤ - زکى محمد حسن (الدكتور) ت ١٩٥٧ م .
الرحلة المسلمين في العصور الوسطى . القاهرة ١٩٤٥ م .
- ٢٥ - زيادة (الدكتور محمد مصطفى) .
رحلة ابن جبير وابن بطوطه . لجنة التأليف والترجمة والنشر .
القاهرة ١٩٣٩ م .
- ٢٦ - السلاوى : (سهام الدين محمد بن خالد الناصري) ت ١٣١٩ هـ
١٩٠١ م .
الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٤ ج ، القاهرة ١٨٩٤ م .

— السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر محمد)
ت ١٥٠٥ ، ١٩١١ م ٥٩١١

(أ) تاريخ الحلفاء أمراء المؤمنين . القاهرة ١٣٥١ هـ

(ب) حس المحاصره في أخبار مصر والقاهرة . القاهرة ١٣٣٧ هـ

— الطري : (الامام أبي جعفر محمد بن جرير)
تاريخ الأمم والملوک . القاهرة ١٩٣٩ م ١٣٦٧

— العبادى (عبد الحميد)

(أ) صور من التاريخ الاسلامي ، ٢ ج (١٩٤٨ - ١٩٥٣)

(ب) حديث الفتى المغورين من أهل لسيوبه . مجلة الثقافة
١٩٣٧ م

— العبادى (أحمد مختار . دكتور)

(أ) الصقالبه في أساليباً — لحه عن أصلهم ونسائهم وعلاقتهم

(ب) لسان الدين بن الخطيب وبرعاته الاتصاديه .

(مجلة لسان الدين الجزء الناسع والعاسر — سبتمبر —

مقامة للسيد لأبي عبد الله الأدري (صحيفه المعهد المصري
١٩٥٤ م)

مساهمات لسان الدين بن الخطيب (مجموعة من رسائله)

الاسكندرية ١٩٥٨ م

١ — لين بسول .

العرب في أساليباً ، ترجمه على الجرام .

٢ — علي محمد حمودة .

الاسلام في الأندلس . القاهرة ١٩٥٣ م

- ٣٣ — محمد عبد الله عنان • نترجمه على المؤرخ الألماني بوسف أسباخ •
(أ) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين • القاهرة • ١٩٤٠ م
(ب) نهاية الأندلس، وناريخ العرب المغاربة • القاهرة ١٩٤٩ م
(ج) تاريخ العرب في أسبانيا • القاهرة •
- ٣٤ — مؤنس (حسن — دكتور) •
(أ) التغز الأعلى الأندلس في عصر المرابطين • مجلة كلية الآداب
— جامعة القاهرة ج ٢، ١٩٤٩ م
(ب) السيد القبيطور وعلاقاته بالمسلمين • مجلة كلية الآداب
القاهرة العدد الأول المجلد العاشر ١٩٥٠ م
- ٣٥ — النباوي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن الملاقي) ت ٥٧٧٦
المرتبة العليا فیمن بسندو المصاء والفتيا • القاهرة ١٩٤٨ م
- ٣٦ — النويري (سهام الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن
عبد الدائم) •
نهاية الأربع • غرناطة ١٩١٩ م

بـ المراجع الأجنبيـة

- 1 Altamira :
 - a) Spain (1031 - 1248), London 1949.
 - b) Cambridge Medieval History, vol VI, Ch XII.
- 2 Bel, A. :
Ency. of Islam, Arts., Almoravides & Ali Ben Youssof.
- 3 Dozy, R., :
 - a) Histoire des Muslmans d'Espagne, 3 vols, (ed. Levi-Provençal) Leyde, 1932
 - b) Historia Abbadidarum, 2 vols, Leyde 1946
 - c) Recherches sur l'Histoire et Litterature de l'Espagne Pendant le Monyen âge, Leyde, 1881 (2 vols)
- 4 Gayangos (P.) :
The History of the Mohammadan Dynasties in Spain, (Extracted from the Nafhu-t-tib), 2 vols, London 1840.
5. Levi Provencal :
 - a) Un Manuel Hispanique de Hisba sur la Surveillance des corporation et la repression des froudes en Espagne Musulmane, Paris 1931.
 - b) Inscriptions Arabes d'Espagne, Leyde, 1931.
 - c) Seville Musulmane au debut du XIle Siecle la Traité d'Ibn Abdun, Paris 1970.
 - d) La Mora, Zaida femme d'Alphonse VI (en) Hesperis 1934, t. XVII.
 - e) Ency of Islam, Arts. Le Cid & Sons.

للمؤلف

- ١ — كتاب « تاريخ الاسلام في العصر البركي » .
- ٢ — « الحواضر الاسلامية الكبرى » .
- ٣ — « ملاد الجزيرة في أواخر العصر العثماني » .
- ٤ — « اليمن في ظل الاسلام » .
- ٥ — « الهيد في العصر الاسلامي » .
- ٦ — « الاسلام وعالم الفكر » .
- ٧ — « الدول الاسلامية المسيطرة في الشرق » .
- ٨ — « الدوله العباسية » .
- ٩ — « تاريخ المغرب والأندلس » .
- ١٠ — « الدولة الاسلامية وحضارتها » .
- ١١ — « معالم الفكر الاسلامي » .
- ١٢ — « الحركة الفكرية في بلاد اليمن في عصر النبي رسول » .

شارك في اعداد اطليس العالم الاسلامي يضاف الى ذلك العديد من
البحوث والدراسات في تاريخ الاسلام وحضارته .

د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي في سطور

- أستاذ التاريخ الاسلامي والحضاره الاسلاميه في كلية الآداب —
جامعة القاهرة .
- الفي العديد من المحاضرات في التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
في جامعات مصر وال سعوديه واليمن والجزائر والكويت .
- عضو في العديد من الهيئات العلميه .
- شارك في العديد من المؤتمرات العلميه .
- له بحوث عديدة في المجال العلمي المخصصه والثقافية .
- أشرف وبشرف على رسائل الماجister والدكتوراه ، محاول في دراساته
أبرار دور المسلمين في الحضارة الإنسانية ، وحب المسلمين ونبههم
إلى الاستفادة من ماضיהם ، والسعى إلى حياة أفضل ، واسعداته أمجادهم
وبنائهم المكانة اللائقة بهم .

محتويات الكتاب

الصفحة

الموضوع

الفصل الأول : المعرف ببلاد المغرب والأندلس

١١	.	أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس
١١	.	نظرة عامة حول بلاد المغرب
١٦	.	الفتح العربي للمغرب
١٧	.	حمله عقبه من نافع الأولى على المغرب
١٩	.	الحملات المتباعدة على بلاد المغرب
٢٧	.	سائح الفتح العربي لبلاد المغرب
٣٠	.	اسبانيا قبل الفتح العربي
٣٣	.	الأندلس .. .
٣٦	.	الفتح العربي للأندلس
٤٤	.	سائح الفتح العربي للأندلس

الفصل الثاني : عصر الولاد في الأندلس

٤٦	.	بدء المحاولات الحذيبة لفتح مرسى
٤٦	.	الفن والحروب الداخلية في المغرب والأندلس
٥٥	.	ضعف الدولة الأموية ونهايتها
٥٩	.	

الفصل الثالث : الامارة الأموية في الأندلس

٦٠	..	عبد الرحمن الداخل .. .
٦١	.	السياسة الداخلية لعبد الرحمن الأموي
٦٤	.	نورة المسلطى
٦٦	..	ثورة عبد الغفار السعدي .. .
٦٧	.	سياسة عبد الرحمن الداخل الخارجية ..
٦٩	.	موقف الفرنجة من عبد الرحمن الداخل ..
٧٢	..	حضاره الأندلس في عصر عبد الرحمن الداخل
٧٦	..	هشام بن عبد الرحمن .. .
٧٧	..	الموقف من نصارى الشمال .. .
٧٨	.	مدحوب مالك في الأندلس .. .
٨١	..	الأمير الحكم الريفي .. .
٨١	..	الفن والثورات الداخلية .. .

الموضع	الصفحة
ثورات المولدين	٨٢
العلاقات الخارجية	٨٦
الأمير عبد الرحمن الأوسط	٨٩
الثورات الداخلية	٩٦
عارات الفورمان	٩٧
نقطة المساعرين المطربين في مرميده	١٠٠
العلاقات الدوليّة في عصر عبد الرحمن الأوسط	١٠٢
أعماله الإدارية والعمريّة	١٠٣
عصر دوبلات الطوائف الأولى	١٠٥
الملكة النصراوية في الشمال	١١٠
الفصل الرابع : المغرب الإسلامي في العرس الثاني والثالث للمهر	
المغرب من سمoot الدولة الأموية حتى قيام دولة الأغالبة	١١٨
دولة الأغالبة في المغرب الأدنى	١٢١
دولة الإدارية في ماس	١٣٦
تأسيس مدينة فاس	١٤٠
حركات المهاجر في المغرب	١٤٣
قيام الدولة المرسومية	١٤٨
دولة بنى مدرار	١٦٠
الدولة اسماعيلية الأولى في اليمن	١٦٤
الدولة الزيتيرية	١٨٥
سيرة بنى هلال	١٩٠
الفصل الخامس : الخلافة الأموية ما يلي الاندلس	
عبد الرحمن الناصرى	١٩٣
سياسة عبد الرحمن الناصرى الداخلية	١٩٤
تحويل الامارة إلى حلمه	١٩٦
العلاقات الدبلوماسية بين الناصر وملوك أوروبا	٢٠٢
المصالحة في عهد الناصر	٢٠٤
المنشآت المعمارية في عهد الناصر	٢٠٥
الحكم المنسنقر	٢٠٨
السياسة الخارجية	٢١٠
الخطير التورماندي	٢١١
موقف المستنصر نصارى الشمال	٢١٢

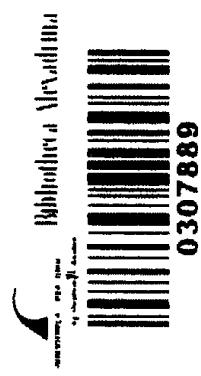
الموضوع

الصيغة

- | | |
|-----|--|
| ٢١٣ | هشام الثاني |
| ٢١٤ | محمد بن عبد الله بن أبي عاصم |
| ٢٢٣ | خلفاء المتصور .. |
| ٢٢٦ | نهاية الدولة الأموية .. |
| ٢٢٧ | ابن حسون .. |
| ٢٢٨ | المالك الصرايبي خلال القرن العاشر الميلادي |
| ٢٤٢ | اللغة العربية وآدابها في الأندلس |
| ٢٤٩ | الفصل السادس : المرابطون والموحدون |
| ٢٥١ | المرابطون .. |
| ٢٦٤ | الموحدين .. |
| . | ازدهار الفكر العلمي في عصر المقربين |
| ٢٧٦ | ابن طفيل .. |
| ٢٨٠ | ابن رشد .. |
| ٢٨٥ | ابن عربي .. |
| ٢٩٧ | الفصل السابع : مملكة غرناطة وبهادنة الأندلس |
| ٢٩٩ | مملكة غرناطة — نظورها وسمو عظمها |
| ٣٠٤ | لسان الدين ابن الخطيب .. |
| ٣٢٢ | المصادر والمراجع .. |
| ٣٣١ | مهرس الكتاب .. |

رقم الاداع ٨٦١٠ / ١٩٩٠

المطبعه التجاريه الحديثه
٢٢ شارع ادريس راغب - الطاهر
مليغون ٩٠٣٣٦٤ القاهرة



0307889

To: www.al-mostafa.com